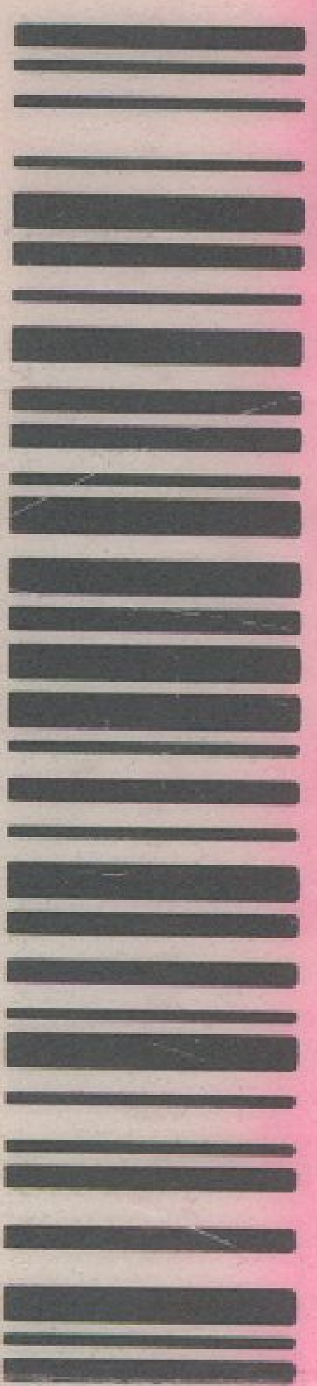



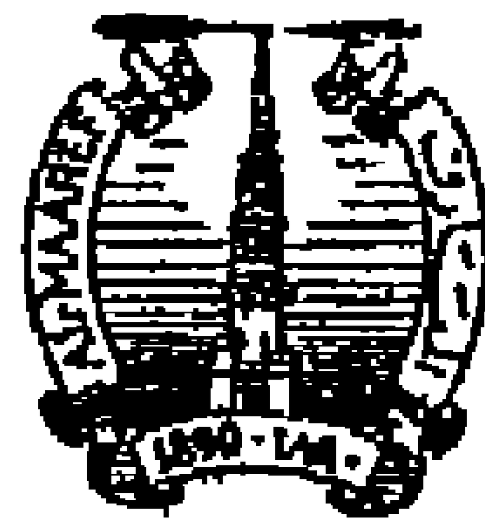
مملكة العذارى

الدكتور أحمد زكى أبو شادى

مملكة العذارى

اقرأ ٦٦
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٦٦ — مايو سنة ١٩٤٨



الفصل الأول

— « لا فائدة يا أمين من نقاشي ، فهكذا خلقت ... هكذا تكويني وميولي ... هكذا أنظر إلى الحياة ، ولست شاكية ... وما أنا يا ابن عمي بالتي تجهل مواهبك وشمائلك .. ولو كنت مَنْ تستسيغ الحياة الزوجية لما وددت سواك زوجاً لي ، ولكني أنفر منها ولا أهرب من مسئولياتها كما تدعي » .

— « بل أنت تهربين من هذه المسئوليات يا بثينة ، ومن أجل ذلك تكبتين عواطفك كبتاً وتتذرعين بالمنطق المعكوس لإيهام نفسك وإيهامي ! »

دار هذا الحوار ختاماً لنقاش طويل في منزل بثينة ... كانت الفتاة في العقد الثاني من العمر ، ولكنها في تفكيرها وحوارها تبدو كأنها في العقد الرابع . كانت رشيقة هيفاء صبيحة الوجه ذات نضارة وجاذبية هما التعريف الناطق بالصبا والحياة . وعلى جدها كانت كثيرة الدعابة إذا ما تهيأت الفرصة لها أو طاب لها أن تخلقها . لا يستطيع الناظر إليها أن يصرف نظره عنها في سهولة دون أن يدري سراً لذلك يستطيع تحديده وإن عمم الواصفون في نعته « بالسكس أبيل » . لم تكن رائعة الجمال ولكنها في مجموعها

شخصيتها وتكوينها كانت نموذجاً خلاباً لأنوثة مهذبة ، وهى هى التى تتبرأ من أنوثتها . كانت بعينيها النجلاوين وتقاطيع وجهها السمح وبألفاظها الموسيقية الناعمة وبحركاتها الرشيقة وبدماثتها الحلوة وبأحاديثها الفاتنة وبثقافتها العصرية التى اكتسبتها من كلية الأمريكان وبمسحتها السكندرية الخاصة وبرقتها على الرغم من تصنعها الرجولة أحياناً . . . كانت بكل هذه الصفات وبتحاشيها التزين النسوى المألوف ، صورة من صور الطبيعة الجميلة التى تعبث بها يد الإنسان . . . ولا يراها الفنان الشاعر إلا استساغها قصيدة وهاجة لشاعر عبقرى مفطور حبس الشعر فى نفسه أمداً ثم أطلقه مجلجلا رائعاً خلاباً دون تصنع ودون بهرج كأنما الطبيعة سكنت طويلا قبل أن تجيش بخلق هذا النموذج الفذ . . . ولا يراها الفيلسوف إلا عرف معنى جديداً للحياة ، وحقد على الموت كيف يمكن أن يمتد يوماً ما إلى مثل هذا الهيكل المقدس ، وعجب من الإنسانية التى لا تعرف معنى السعادة فى ذاتها ، وأمامه المثال الذى يرضى العقلين الواعى والباطن معاً ، وفى إرضائهما معاً استكمال السعادة . . . ولكن هذه الربة المثالية تتنازل راضية مختارة عن أنوثتها الفذة وتتسم بالرجولة وتتعلق بالمثاليات المجردة وبالأخيلة الشعرية الجامحة وتنهمك انهماكاً فى المطالعة وفى الموسيقى والتصوير وفى الفنون الجميلة عامة وقد

اقترنت حياتها بها ووهبتها ميولها وغرائزها وهواجسها واستمدت منها كل صفوها وأبت دونها بديلا .

وكان أمين يكبرها بسنوات قليلة ، وقد عاد حديثاً من الولايات المتحدة الأمريكية بعد تخرجه فى جامعة كاليفورنيا متخصصاً فى الصناعات الزراعية . كان دمث الأخلاق وافر الشهامة والمروءة مشغوفاً بالعمل المنتج ذا روح اجتماعية سامية . فكان لا يشغل بنفسه وحدها ، وكان يدأب على الكتابة إلى الصحف بمشوراته الفنية وبمقترحاته لما فيه الخير العام . وكان لا يتردد فى معاونة غيره من القصاد ولو نافسوه فى عمله آجلا . وكان من أسرة ميسرة، شأنه شأن بثينة التى أحبها حبًّا عميقاً ، فما رآهما أحد على ألفة إلا تخيلهما زوجين — فما كان يصلح لأحدهما إلا الآخر .

كانت لأمين فرص صالحة للزواج فى أمريكا حيث للفتاة الأمريكية من الثقافة والوسامة والجاذبية مالها . ولكنه عاش تلك السنوات يحلم بفتاة طفولته وفيا لها ، وإن لم يفاتحها برغبته فى الزواج منها إلا بعد عودته بعامين بعد أن انتظمت أعماله الزراعية ووفق إلى نجاح مناحله . . . وها هى ذى بثينة فى صراحة قاسية تخيب آماله وتحيل قصائد غزله إلى مَرَاثٍ باكية !

٨

* * *

وهكذا مرت الأعوام على أمين وبثينة وهما أقرب الأحباء وأبعد المتناجين ، وفتاتنا سادرة فى أحلامها الفنية وصاحبنا مكب على أعماله ، ولكن دون أن ينعم بالحياة الزوجية . وقد حاول أهلها أن يقنعوها بالتزوج من ابن عمها دون جدوى لأنها لم تستطع أن تقنع نفسها بقيمة الزواج ولا باستساغته ، وأشفق أهله عليه فحاولوا أن يحببوا إليه الزواج من قريبة أخرى مثقفة ولكنه لم يعرهم إلا أذناً صماء ، ووقف حبه العذرى ووفاءه على رفيقة صباه .

ناهز أمين الثلاثين ، وتعود أن يجد من اليأس راحة ومن التشاؤم تفاؤلا ، وجاء الربيع متمهلا إلى الإسكندرية وجيرتها وحل شهر مايو ، وكان أمين فى زيارة بثينة فى إحدى الأمسيات يستمع إلى عزفها الجميل على الكمنجة لإحدى المختارات الحبيبة إليه وهى « أمابولا » فقال لها معجباً :

ـــ عشرات المرات يا بثينة سمعت هذه القطعة الجميلة ينثرها معزفك وتجود بها أناملك وفى كل مرة أستوعب منك سحراً جديداً ، فالنغم هو أنت وليس لحناً لموسيقى ولا عزفاً لمؤلف !

ـــ تمادَ يا شاعرىَ تماد ، أو اسخر ، إن شئت !

ـــ وأى تماد يا عزيزتى فى الصراحة الساذجة ؟ ألم نتعاهد دائماً عليها ؟

— لقد سمعت هذه الأمداح كثيراً حتى أصبحت أخشى التقريظ !

— إذن فاسمعى تقريظاً آخر من نوع جديد ، وربما لم تعتبريه تقريظاً لك . . . إننى لن أستطيع التنزه معك غداً خلافاً لوعدى السابق ، إذ طرأ ما يدعونى إلى زيارة منحلى الرئيسى لأنى أخشى من انثيال النحل ، فإذا وافقت يا بثينة على صحبتى وتمضية اليوم فى المنحل ، فإنى أعدك بنزهة أجمل من نزهتنا فى المكس التى كنا على وعد بها ، كما أنك ستسمعين من أناشيد النحل ما ينافس ألحانك !

— ألم أقل لك يا أمين إنى أخاف لسعات النحل ، وهذه ليست أولى دعواتك ، فما الذى جد يا عزيزى حتى تريد منى تغيير رأيى ؟

— الذى جد يا حبيبتى هو موكب الربيع ، فقد جاء هذا العام متأخراً ولكن فى بهاء يفوق بهاءه فى سابق الأعوام ، وسترين يا بثينة نحلى فى فرحة كفرحة الأطفال بالحلوى واللعب ، وفى غناء متواصل ، وهن يجمعن الرحيق من الأزهار ، وكأنه صلوات للطبيعة تفيض بالحنان وبالشكر لها . . . وإنى أعدك بأن النحل لن يمسك بسوء ، وعلى كل حال فنحلى مؤدبات يعرفن حرمة الجمال . . . أنت تمضين أيامك وأعوامك فى

عوالمك الخيالية الجميلة ، فتنازلى بصحبتى إلى عالمى الصغير الجميل . . . إلى « مملكة العذارى » .

فتضاحكت بثينة وسمحت له بقبلة على جبينها ، وافترقا متواعدين على تمضية الغد فى « مملكة العذارى » .

الفصل الثانى

وقفت سيارة أمين أمام منزل بثينة مبكرة فى صباح ذلك اليوم الباسم البهج الذى تجمعت فيه مناقب الربيع . وبدت السيارة ذاتها كأنها متهللة تهلل صاحبها . أسرع أمين إلى بثينة يستعجل خروجها كأنما هما والطبيعة على موعد فى وليمة روحية — وليمة الحب الطليق . وغادرا المنزل فرحين قريرين وقد أخذا معهما ما طاب من زاد أعدته بثينة بيدها ، ولكنه أبى عليها أن تأخذ أى كتاب محتجاً بأنها لن تجد الوقت لاستيعاب حتى صفحة واحدة من سفر الحياة التى ستتهافت عليها . . . فاستسلمت لإرادته كأنما تتحدى قدرته على إسعادها الكامل فى ذلك وهى تقول : سنرى !

ومضت السيارة فى طريقها حتى تجاوزت مدينة الإسكندرية وسارت فى الطريق الريفى محاذية ترعة المحمودية إلى أن بلغت المنحل المقصود وهو يبعد زهاء العشرين من الكيلومترات عن قلب المدينة .

وكانت الساعة حول التاسعة صباحاً ، وقد كان اليوم فى صباحة الفتى الرياضى الرشيق الذى استحق بتفوقه أن تنثر

حوله الرياحين ، أو هكذا تخيلته بثينة . . . أما أمين فرآه مولود الطبيعة الجميل وقد عبق الجو بأنفاسها ، ولطفت الأشعة رعاية لهذا الوليد الحبيب ، وتبرجت الأزهار وتراقصت مع النسيم الرقيق ، وسقسقت العصافير ما بين طائرة ومتخطرة فى أثواب جديدة احتفاء بميلاد الحب الجديد بين أحضان الربيع .! ولم يفت الفراشات أن تساهم فى هذا العيد البهيج مجاملة لأخواتهن النحل التى ملأت الفضاء بغنائها ، كما انتعشت شتى الحشرات وشعرت بكيانها وبنصيبها فى نظام الطبيعة البديع . . . وقد ملأت الجو روح لاتكيف من التعاطف بين النبات والحيوان ، وكاد الجماد ذاته يستجيب إليها فوقف الإنسان بينها مشدوهاً حائراً مأخوذاً بسحر هذا الجمال !

فتح أمين الباب الخشبى للمنحل ووقف وبثينة فى خشوع وصمت كأنهما فى صلاة قدسية ، وما أكثر الصلوات فى محراب الطبيعة لمن يؤمن بها ! وبقيا على هذه الحالة دقائق حتى أفاقا . . ثم أخذ وبثينة يفتحان حجرات المنحل الثلاث ويتهيآن لإعداد ما فيه متعة يومهما . كان المنحل يتألف من سبعين خلية خشبية موزعة بنظام على صفوف عشرة ، وبين كل خلية وأخرى مسافة متر من الجهات الأربع تيسيراً للعمل فيها ولتنقل النحال فيما بينها . وقد غرس بعض أشجار الفاكهة كالمشمش والموالح

والرمان وبعض الأشجار المزهرة العسلية هنا وهناك توفيراً للظل ولتعلق النحل بفروعها إذا ما انثال فى أوان تكاثره . وكان يحيط بالمنحل سوق من القوائم الخشبية والأسلاك الشائكة ، وجرت حوله قناة ماء ، كما أحاطت به أشجار البقم والسسبان فأكسبته سياجاً ناضراً وظلا وارفاً ، واتصلت القناة بساقية فى جوار المنحل كانت تتعهده أحياناً بمائها كما كانت تتعهد أحلام صاحبه بدورانها وبأنينها الشجى وبصوت الصبيّ الحادى للسائمتين إذا ما غافلتاه وتوقفتا عن العمل مجاراة لسنة الناس أنفسهم . . . وكانت فى إحدى جوانب المنحل مضخة ماء مركبة على حوض من الأسمنت يصب فى القناة الحافة بسور المنحل ، وقد احتاط أمين فصانها فى صندوق خشبى متين مقفل لا يفتح إلا عند استعمالها وذلك منعاً للإغراء على سرقة أجزائها التى باتت نادرة فى زمن الحرب ندرة الأمانة فى المعاملة . وفى الجوانب الثلاثة الأخرى أقام أمين ثلاث حجرات خشبية ممتازة متينة الأقفال خصص إحداها لاستراحته ومكتبه ، وفيها كان يبدل ملابسه تأهباً للعمل فى المنحل وبعد الفراغ من العمل ، وأودع فيها من أدوية الطوارئ وحاجاتها ما أراح باله ، وخصص الثانية بقسمتها مخزناً لأدوات المنحل ولأدوات الطهى ومكاناً يعد فيه الطعام والشراب له ولنحله ولضيوفه ، وقد أودع فيها بعض الكراسى والمناضد والحصير وتوابعها وبعض

الزاد والماء مما قدر فيه الكفاية للراحة والمتعة إذا ما أمضى وصحبه يومهم فى المنحل ، وخصص الثالثة لفرز العسل من الأقراص وهو حادث لا يتكرر إلا مرات معدودة فى العام ، ولكنه حادث خطير يستحق أن يفرد له مكان خاص يتسم بالنظافة التامة التى من أجلها عنى أمين بتركيب مضخة الماء لتزوده دائماً بحاجته منه فى وفرة وسخاء . وقد وضع فى هذه الحجرة أحدث أدوات الفرز على الأساليب العلمية الحديثة التى تسمح باستخلاص العسل من الأقراص دون تلف لها ، حتى إذا ما أعيدت إلى النحل جدد مخزونه من العسل فيها ما دام للأزهار جودها بالرحيق ، وجدد النحال فرز هذا العسل متى نضج ومتى كانت الظروف سامحة بهذا التكرار .

قال أمين : هذه يا بثينة مملكتى الرئيسية وإن تحدتنى النحل فى هذا الادعاء . وسأحاول يا عزيزتى أن أجعلك شريكتى فى حكمها وفى التآلف معها ، ولن أثقل عليك الآن بشرح مسهب لتكوينها حتى ولا لتقسيم المنحل ، فحسبك أولا هذه النظرة الإجمالية المستوعبة لصورته العامة ولروحه الفنية ... ألا توافقينى يا حبيبتى على أن فيه شيئاً من السحر الذى تحتفظ بأغلبه هؤلاء العذارى المجنحات وإن تاقنت منها الكثير من أسراره وطقوسه ؟ !

فضحكت بثينة وقالت : يا لك من شاعر ، لقد مضى علىّ

الآن نصف ساعة أو يزيد وأنت مستغرق فى تأملاتك إلا أن تجرى هنا وهناك كالطفل الغرير فرحاً بحشراتك هذه بينما لا أزال وجلة ، ولم تفكر فى أن تعرض علىّ كرسيّاً لأقعد وأستريح !

– عفواً يا محبوبتى !

وهرع أمين فجلب كرسيين بوسادتين ووضعهما إلى جوار الحجرة المقاربة لباب المنحل وهى المخصصة للأدوات والمطعم ، ودعاها إلى الجلوس ملاحظاً أنه اختار هذا الموضع ليكونا بمنأى عن مسارب النحل فى طيرانها إلى الحقول وإلى غدير الماء المجاور حتى لا تصطدم بهما أثناء طيرانها فتضطر إلى لسعهما .

كانت الخضرة الزبرجدية من الأرض والصفرة الذهبية من الشمس متحالفتين على غمر الخلائق بكل ما يوحيه اللون من حاسة الغبطة والاطمئنان . وكانت لحظة شعر أمين وبثينة فيها بسعادة تصوفية غالية حينما لبثا صامتين ذاهلين يتأملان فى كل ما حولهما من نضرة وشباب ولون واعيين وغير واعيين ، وبدا كل شيء كأنه حالم مسحور ، حتى أشرعة القوارب المنخفضة الماضية فى ترعة المحمودية كانت تبدو فى مظهر عجيب لاحتجاب قواربها عن الناظرين ، وكأنما تسير بمفردها شارات لحوريات الماء المتدللات ، فلم تفق بثينة من هذا الاستهواء الذى دبرته الطبيعة لأبنائها البررة إلا على القبلات الحارة يطبعها أمين على وجهها

الحلو وهى تدفعه عنها فى دلال العطف والشكران !

قال أمين : والآن يا حبيبتى هلمى إلى العمل !

— أى عمل يا أمين وأنا لا أزال خائفة من النحل ... كل شىء هنا جميل فاتن ، وقد يستملح حتى منظر الأشواك ولا يستطاب تناولها ... فلماذا لا تحدثنى حديثك المشوق عن نحلك العزيزات فحسب ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ؟ !

— إنى أتعهد لك يا بثينة أضعاف ما تعهدت لك من قبل بأن النحل لن تمسك بسوء ما دمنا لا نضرها ولا نسىء إليها ، فهلمى إلى إبدال ملابسك بملابس العمل والبسى احتياطاً القناع الواقى للرأس وسأفعل ذلك بعدك ، ولا تنسى لبس السروال . وسأعد المدخن زيادة فى الاحتياط لتهدئة النحل .

وهكذا تحايل عليها فلبت رغبته .

* * *

ليست ملابس النحال وأدواته الرئيسية للعمل سوى أشياء بسيطة ميسرة ، فأولها القناع ، وأفضل أنواعه ما كان يحتفظ به أمين لنفسه ولزائريه ، وهو عبارة عن سياج من السلك الرقيق الخفيف المسودّ كاف لإحاطة الرأس ، وقد جزئ وربطت أجزاؤه بشرائط من الجلد بحيث يمكن ثنيه وتطبيقه كما يطبق الكتاب ، وخيط فى كل من أعلاه وأسفله نسيج متين شبكى

وهيئ لها من الخيط المتين ما يسمح بربط الجزء الأعلى حول قبعة النحال وما يسمح بربط الجزء الأسفل حول وسطه ، وهكذا يستطيع النحال أن يحمى رأسه وصدره حماية تامة من لسع النحل دون أن تضايقه حرارة الجو إذا ما اشتدت لأن القبعة تقيه من أشعة الشمس ولأن النسيج الشبكى يسمح للهواء بملاطفته فيستمر فى عمله مطمئناً مرتاحاً . وهذا الطراز من القناع أمريكى الأصل كسائر أدوات النحالة العصرية الممتازة التى جلبها أمين معه من أمريكا ، وإن عمل على محاكاتها فى مصر خلقاً لصناعة جديدة فى بلاده بدافع من وطنيته . كان أمين يحتفظ فى كل منحل من مناحله بأدواته الخاصة ، ولو أن هذه الأدوات الأمريكية العملية المتينة مصنوعة فى أشكال وأحجام تسمح للنحال المتنقل المقتصد أن يكتفى بمجموعة واحدة منها يضعها فى حقيبته الصغيرة ويحملها معه حيثما ذهب . ولكن أمين مع تنويهه بالروح العملية عند الأمريكيين وبمتانة مصنوعاتهم كان يؤثر استقلال كل من مناحله — وكان يغالى فى الاحتياط فيعدد أدواته حتى لا يتعطل عمله إذا ما تلف بعضها . أما ثانى هذه الأدوات الرئيسية فمدخن من النحاس مرتبط بمنفاخ من الجلد والخشب يصعد الدخان البارد الهادئ من فوهته إذا ما أوقدت داخل أسطوانته النحاسية لفيفة من الورق الأصفر المقوى الملائم لذلك .

والغرض من التدخين عند باب الخلية قبل فتحها ثم أثناء العمل إيهام النحل بأن خليتها فى خطر من الاحتراق فتهرع إلى أقراص العسل لتتزود منها استعداداً لهجرة الخلية إذا ما اضطرت إلى ذلك فيشغلها هذا عن لسع النحال ، كما أن امتلاء كيسها العسلى فى بطنها بالعسل لا يجعلها تواقة إلى اللسع وربما لا يجعلها متمكنة منه بإبرتها الجاثمة فى طرف بطنها . وأما ثالث هذه الأدوات الرئيسية فالعتلة ، وهى غالباً صغيرة الحجم يبلغ طولها نحو العشرين سنتيمتراً وعرضها نحو خمسة سنتيمترات ، وقد ثنى أحد طرفيها لينتفع به النحال فى تنظيف جدران الخلية وإطاراتها ونحو ذلك ، وترك الطرف الآخر حاداً نسبيًّا ليستعمله مفكًّا وليستعين به على فصل إطارات الخلية بعضها عن بعض وعلى تنظيفها أيضاً . وثمة أشكال منوعة للعتلة ولكنها أساسيًّا لا تخرج عن هذه الصورة وعن هذه الغاية وإن اختلفت الأحجام ، ولكنها جميعها تصنع من الصلب المنكل اتقاء لكسرها وحرصاً على نظافتها مع تجنب الثقل فى وزنها . ولا بد للمنحل من أدوات أخرى هى أساسيًّا أدوات النجارة لإصلاح ما يصيب الخلايا وأثاثات المنحل من تلف ، ولكن النحال فى عمله المباشر بين النحل لا يحتاج إلى أكثر من قبعته المصنوعة من القش الخفيف وقناعه ومدخنه وعتلته . أما الأدوات الأخرى الخاصة بمنتجات النحل من فراز للعسل

ومنضج له وفراز للشمع وما إلى ذلك فاستعمالها محدود معين ولا تصحبه فى تنقلاته بين الخلايا حينما يفحصها .

* * *

لبس أمين قبعته وقناعه وأعد المدخّن حتى إذا ما أقبلت بثينة عليه شعر كأنه صاحب مملكتين بل من رعايا كليهما . . . فبادرها قائلا :

ـ ما أجملك يا بثينة فى ملابس الرجال ، وما أشهى قبلة منك فى سمتك هذا ، ولكنى عاقبت نفسى بهـذا القناع وها أنذا أسير لك وله !

فتضاحكت بثينة ملء مرحها وقالت :

ـ أيشتهى نحال من زميله النحال مثل هذه القبلة ؟ !

ـ لقد علمتنى يا بثينة أن يكون حبى أفلاطونيـًّا .

ـ الحقيقة يا أمين أنكم معشر الرجال إذا ما تعلقتم بالأنوثة عادة فإنكم تعشقونها أكثر إذا امتزجت ببعض الرجولة ، فإذا لم تجدوها فى النفس تلمستموها فى الملبس !

لم يشأ أمين أن يثقل على بثينة فى درسه الأول بالكثير من المعرفة فاكتفى بفتح خلية فحسب بعد أن دخن على بابها قليلا وقد اختار طائفة هادئة وأراها كيفية ترتيب الأقراص داخلها وتجمع النحل فيما بينها عاملة دون جلبة ، فاستأنست لما رأت

وطالبته بالمزيد فتمنع فى مكر ، واستدرجها إلى التعاهد على مزاملته والدراسة عليه دراسة منتظمة ، واتفقا على أن تصحبه أسبوعيًّا إلى هذا المنحل وإن لم تعفها هذه المصاحبة من التردد معه على المناحل الأخرى إذا ما دعت الحاجة التعليمية إلى ذلك .

قالت بثينة :

— لقد جرى الوقت أضعاف سرعته ، وها هى ذى الشمس تؤذن بانتصاف النهار ، فلأذهب لأعد الطعام ، وكان يحسن بى أن لا أتعبك اليوم وأن نقضيه فى مرح شامل !

— وأى مرح ألطف من هذا يابثينة ، يا أنشودتى الحلوة ويا نعيمى !

فرقت بثينة إلى حجرة المكتب واستبدلت ملابسها وكلها بشر واطمئنان ، ثم عادت إليه بهديتها ملفوفة فى ورق فنى وهاج وناولته إياها وهى تقول :

— هذه صورة من تحبها أكثر منى !

— محال ذلك يا بثينة !

وفض أمين الورقة فوجد بطاقة تهنئها وقد رسمت عليها بريشتها صورة خيالية جميلة ملونة لمنحل عصرى وأمين يعمل فيه ، ومع البطاقة كتابان نفيسان باللغة الإنجليزية أحدهما كتاب الدكتور مالكولم فريز عن النحالة فى العاديات « Beekeeping in

« Antiquity by H. Malcolm Fraser, Ph. D. » ، وقد سرد فيه بأسلوبه الشائق سيرة النحل والنحالة فى أقدم عصور التاريخ ، وأما الكتاب الثانى فالطبعة الإنجليزية من كتاب ذهن النحل لجولين فرانســـون « The Mind of the Bees by Julien Françon » ، وقد ترجمـــه عن الأصل الفرنسى أحد علماء الإنجليز المعدودين وهو ه . إلترنجهام من أعضاء الجمعية الملكية البريطانية . ففرح أمين بهذه الهدية — بل الهدايا — فرحاً عظيماً .

قالت بثينة : لقد تعمدت أن أنظر فى مكتبتك منذ شهرين فى إحدى زياراتى لك فلم أجد هذين الكتابين وكنت قرأت إعلاناً عنهما فطلبتهما لك من إنجلترا وجاءا فى الوقت المناسب ، ويسرنى أنهما أرضياك .

— لا أدرى كيف أشكرك وكيف أحييك يا بثينة ، فهل أكتفى بقول الشاعر : « أحلى التحيات أحلاها من الكلم » ؟ !

— هيا نسأل أمنا الطبيعة — كما ننعتها — عن رأيها !

— ولكنك نسيت الغداء ، وإن تشربت منك أهنأه !

* * *

ولما أعاد أمين بثينة إلى منزلها قبيل الغروب كما يعيد الجوهرى نفائسه إلى حرزه ، كان وجهها الجميل الذى صانته عن الأصابع

٢٢

والذرور قد اكتسب من كئوس الشمس ومن دعابات النسيم في جولاتها مع أمين بين الحقول وفي وثباتها فوق القنوات والغدران ومن حنانه وقبلاته لوناً خمرياً لم ينم عن الصحة وحدها ، وكانت في عينيها أحلام جديدة لم تجرؤ على الإفصاح عنها له ولا لنفسها ، وكان كل ما تردده ساهمة :

— يا له من يوم !

الفصل الثالث

لم يحتج أمين إلى أى استهواء لاجتذاب بثينة إلى المنحل الرئيسى وقد تعاهدا على أن يخصصا يوم الجمعة لزيارته ، وحان موعد الزيارة الثانية فوجد بثينة على استعداد تام قبل حضوره لمبارحة المنزل ، فغادراه وهى مرحة متهللة .

قال أمين فى الطريق وهو حريص على ألا يسرع بسيارته إرضاء لها :

— لقد أمتعتنى يا بثينة بهداياك متعة عظيمة ، وقد طالعت الكتابين خلال الأسبوع فاستفدت فوائد جمة ، وزاد تقديرى للنحلة بل للإنسانية ذاتها التى مجدت النحلة من قديم العصور واعترفت بذهنيتها التى ارتفعت فوق مستوَى الغريزة وحيرت علماء الحشرات .

— إنى لسعيدة بإسعادك يا أمين . . . وقد نظرت قبلك فى هذين الكتابين فأعجبت بهما ، ولم يدهشنى — وأنت من أنت بروحك الشاعرة — أنك أحببت النحل كل هذا الحب ؛ فحياة النحل وصحبته من صميم الشعر . وقد ترنم بحياته شعراً منظوماً ومنثوراً كل من خبر النحل من فرجيل إلى ماترلنك . ولم

يفت شيكسبير إلى جانب التغنى بالنحل أن ينوه بنظام مملكتها الرائع !

— سأغار منك يا بثينة وأنا أراك تنافسيننى فى محبة النحل !

— حسبتك تقول إننا شخص واحد ، وأنت على أى حال المذنب لأنك تؤثر النحل على !

— أنت المنتصرة دائماً !

وبلغا المنحل وكأنما كل زهرة وعشب فيه وكل نبت حوله قد استعد لاستقبالها فى بســـمة مرحبة . وتهيآ للعمل مبكرين ، فقال أمين :

— حظنا عظيم مع الجو يا بثينة ، فى مثل هذا الجو المعتدل تكون النحل وديعة لطيفة ، فلا نسىء إلى النحل ولا نسىء إلى أنفسنا بالكشف عنها . وإن من الخطأ أن يحاول النحال — إلا لضرورة قصوى مما سأبينها لك فيما بعد — فتح الخلايا إبان الجو البارد أو الجو الحار . وسأبدأ أولا بفتح خلية نموذجية خالية من النحل لدراسة تركيبها وأجزائها ، ثم بعد ذلك نفتح إحدى الخلايا المأهولة .

وتوجها إلى الخلية النموذجية فشرح لها أمين كيف تطورت تربية النحل من حالتها الآبدة فى جذوع الأشجار المجوفة وفى تجاويف الصخور وما إليها مما أشار إليه (القرآن الكريم) فى

سورة النحل ، إلى استعمال الإنسان الأنابيب من خزفية وفخارية وطينية خلايا لها ، ثم إلى استعمال الصناديق المقفلة ما عدا أبوابها ، ثم إلى استعمال المراجين المصنوعة من القش المضفور ، ثم إلى استعماله الخلية الخشبية ذات الغرف والإطارات المتحركة ، ثم إلى اهتمامه بصناعة خلية قياسية دولية للاستعمال الموحد فى شتى الممالك .

قال أمين : هذه هى (خلية لانجستروث) الدولية يا بثينة ، وقد دعا إليها العلامة لانجستروث "Longstroth" وما أحسبنى مخالفاً أى قانون لحماية الألقاب فى زمن سيطرت عليه الفوضى إذا لقبته « بالعلامة » .

كان لانجستروث قسيساً فهوِى النحالة — شأن كثيرين من رجال الدين ، وابتدع فى منتصف القرن الماضى (سنة ١٨٥١ م) الخلية الموسومة باسمه ، وقد أصبحت الخلية القياسية المنتشرة فى المناحل العصرية بمصر كما انتشرت فى جميع الممالك الراقية التى تعرف استغلال النحالة الاستغلال الاقتصادى الواجب ∴ وأكبر ميزة لهذه الخلية كما ترين نظام الإطارات المتحركة — وإن سبق إليه فى صورة ما العالم السويسرى هيوبر "Huber" فى أوائل القرن الماضى — وتنسيقها مجاوراً بعضها بعضاً على مسافة معينة هى ما نسميه « مسافة النحلية » وهى ربع بوصة

ما بين كل إطار وآخر مما يسمح للنحل بالتحول بينها ، وقد كشف الأب لانجستروث هذه الحقيقة واستغلها فى تنظيم أثاث الخلية العصرية ، فهو أولاً زودنا بالإطارات المتحركة التى يمكن بناء أقراص النحل داخلها . وهكذا يمكن رفعها من الخلية وفحصها وإعادتها أو نقلها من خلية إلى أخرى أو إلى جهة نائية ، إلى غير ذلك من التصرفات العملية . وهو ثانياً عرف مقياس الفراغ الواجب بين الأقراص لتتحرك فيه النحل دون أن تلجأ إلى لصق هذه الأقراص بعضها ببعض أو إلى سد هذا الفراغ ، فاتخذه قاعدة للمسافات ما بين الإطارات والأقراص فى هذه الخلية العصرية . وخلية لانجستروث بسيطة التركيب ، يسيرة الأجزاء : فهى مصنوعة فى جملتها من الخشب الجيد الذى يحتمل تقلبات الجو ، ومدهونة بدهان زيتى ذى لون واق من حرارة الشمس كالأزرق السماوى أو الأبيض ، ومغطى سقفها بلوح من الزنك المتين أو من الألومنيوم ليحول دون تسرب المطر إلى داخلها ، وهى مؤلفة من حامل لرفعها عن مستوى الأرض تجنباً للضفادع والسحالى والنمل وما إليها من أعداء النحل ، وقد توضع أرجل هذا الحامل (فى المناطق التى يكثر فيها النمل وتشتد هجماته) فى أطباق ذات ماء لوقايتها من النمل المتسلق ، ولكن لا حاجة بنا إلى مثل هذه الحيطة في المناطق الزراعية ، ويوضع

فوق الحامل ما يسمى باللوح الأرضى ، ثم غرفة تسمى غرفة التربية وأخرى تسمى العاسلة ، ثم لوح حابس يسمى بالغطاء الداخلى ، وأخيراً الغطاء الخارجى المكسو باللوح المعدنى للوقاية من المطر . ولا تفوتنا قطعة الخشب المثقوبة التى توضع فوق اللوح الأرضى أمام غرفة التربية ليتألف منها باب الخلية ولتكمل لنا حائطها الأمامى . . . هذه هى خلية لانجستروث على بساطتها كما تستعمل فى مصر . وهى خفيفة الوزن نسبياً ، سهلة التركيب ، عملية إلى أقصى حد .

فقالت بثينة :

– ولماذا تصنع من الخشب ؟

– لأنه واق من التقلبات الجوية . بيد أنه من الجائز أن تصنع الخلية مستقبلا من المواد العجينية المقاربة للخشب بل المتفوقة عليه فى وقاية النحل من الحرارة والبرودة والرطوبة معاً ، ويمكن بيع أجزائها ألواحاً أو قطعاً ليسهل شحنها ثم تركيبها فى المنحل ، والمقدر أن مثل هذه الخلية قد تكون أصلح للنحال وللنحل وأطول عمراً من الخلية الخشبية .

– ولكن العجيب ألا ترتفع إلى أكثر من طابقين أو غرفتين كما تسميهما !

– ومن قال لك ذلك يا عزيزتى ؟ . . . إن خلية لانجستروث

قابلة للارتفاع أدواراً إبان موسم العسل حسب قوة الطائفة التى تشغلها ، وحسب قوة الفيض الذى تجلبه النحل من رحيق الأزهار . وفى المناطق الغنية بالرحيق قد يضطر النحال إلى إضافة الأدوار على خليته حتى لترتفع وترتفع وحتى لتستحق أن تنعت حينئذ بالقياس إلى غيرها من الخلايا « بناطحة السماء » « Skysraper » فلا يبلغ أعلاها إلا بسلم !

— وما هى قوة الطائفة التى يمكن أن تنتهى إلى هذه الغاية ؟

— سأشرح لك هذا يا عزيزتى فى أوانه ، فصبراً قليلا ولنبدأ الآن بفتح إحدى الخلايا العامرة .

— لا يا أمين ! هذا الدرس يكفينى ولو إلى حين !

— حسبتك متشوقة يا عزيزتى ومتسائلة .

— ولكنك تريد أن تطرق موضوعاً جديداً وستطيل حتماً ، فلنسترح قليلا !

— لن أطيل فى شرحى يا صغيرتى المدللة التى تتحدى جلد الرجال ، فلماذا إذن كان استعدادنا للعمل ولبسنا القناع وإشعالنا المدخن ؟

— الحق يا أمين أنى أغار من معشوقاتك ، وهذا ما يثبط همتى وربما أدى إلى هجرانى لك !

فاستثارت بثينة ضحكه وذهبا يداً بيد إلى مقعديهما للاستراحة

بعد أن خلعا قناعيهما ، وهناك تابعت بثينة حديثها :

— لك أن تضحك يا عزيزى ضحكة الواثق من نفسه . . . فأنت تعلم أنك ولدت معلماً كما ولدت شاعراً . . .

— والشعراء يتبعهم الغاوون !

— لا أرمى إلى هذا ، ولكنك ياشاعرى العزيز الذى تترنم بالحب لا تتورع عن المحاضرة الجامعية فتصدمنى بها صدماً ولا تنثر خلالها شيئاً من أزهاره وألحانه !

— حسبتك تتململين يا معبودتى !

— لو كان عندى مسجل لحوارنا لألزمتك الحجة !

— وأخشى أيضاً أن أعتاد ذلك أثناء الدرس فيزل لسانى أمام تلميذاتى وتلاميذى فى مواقف أخرى !

— لا يا أمين ، هذه مغالطة شاعر غاو . . . إن الحب غذاء روحى ، ولكنه الحب الذي عده جورج ساند « George Sand » تشوق الجانب الأثيرى من الروح إلى « المجهول » .

— وأى نصيب لى فى هذا « المجهول » ؟ . . . لا شيء ياناقدتى العزيزة ! . . . إن الحب الذى أومن به هو الذى قال فيه ليبنتز « Leibnitz » الفيلسوف الألمانى الكبير « إنه الشعور بالسرور لسعادة الغير ، وإلا فجعل سعادة الغير سعادتك الذاتية » . . .

وأنا لا آلو جهداً يا بثينة فى محاولة إسعادك ، فما هو ذنبي بعد ذلك ؟ !

ــ أراك يا أمين تحمل دعابتى على محمل الجد . . . ومهما يكن من شيء فسأسامحك هذه المرة وإياك أن تدع حديثك العلمى مجرداً عن روح الفن وإلا أنكرت صدوره عنك . . .

ــ سمعاً وطاعة يا مولاتى !

وجلسا يتأملان الخضرة الناضرة المنبثة فيها الأزاهير وينصتان إلى أناشيد النحل أحدهما بأذن صديقة عارفة والأخرى بأذن متوددة مستطلعة .

فقال أمين : إذا كان مايو قد هيأ فيه العمال عيداً لهم ، فإن عاملات النحل قد وجدت فيه عيدها !

ــ ونحن أيضاً يا أمين قد أحيينا فيه عيداً جديداً هو عيد حبنا المستنير فى رعاية أمنا الطبيعة !

ــ تسعدنى ملاحظاتك هذه يابثينة ، ولعل هذه الأم الكريمة توحى إليك بعواطف جديدة أكرم وأسخى إلى !

ــ أحسب أنى بلغت الغاية يا ناكر الحب !

ــ إن من يتذوق الحب كما تذوقته لا يقنع بما يشرب من خمره ولا يثمل منها ولا يتوقف عن طلب المزيد ، ومعلماتى النحل فى دأبهن شعارهن مثل شعارى وطموحهن عين طموحى ومثاليتهن

رائد مثاليتى . . . لولا تأخر الموسم يا بثينة لامتلأت الخلايا الآن بالرحيق ولكن استمرار المطر والبرد طويلا أخر الربيع فتأخر زهر البرسيم ، وأزهاره تمثل المصدر الرئيسى للرحيق فى منطقة الإسكندرية ، ولولا تأخره لكانت جميع الطوائف مهيأة خلاياها لاستقبال الرحيق الجديد ، وعلى الآن أن أقوم بالاستعداد لذلك فى حين أنى كنت فى أعوام سابقة أقوم به فى شهر ابريل . وأما فى هذا العام فقد اضطررت إلى تغذية النحل بالشراب السكرى فى الشهرين الماضيين تعويضاً عن إمحال المصادر الطبيعية حتى تستعين النحل بهذا الشراب وبما تجمعه مِن دقيق الأزهار على تغذية يرقاتها النامية وتغذية أنفسها معـاً . . .

— ولكن ألا يوجد الآن فى الحقول ما يكفى من الأزهار لإفراز الرحيق وتغذية النحل وإسعاد النحال مع أنى أرى اليوم أزهار البرسيم وافرة ! ؟

— ملاحظاتك سديدة يا بثينة ، وأعتقد أننا بعد أسبوع أو عشرة أيام سنشهد بداية فيض العسل ، وعلى الأخص بعد أن توقف رى البرسيم بأمر الحكومة فى سبيل المقاومة لدودة القطن ، إذ أن نتيجة ذلك أن أزهار البرسيم التى حرمت أشجارها الرى ستتهافت على الفرز الرحيقى لتجتذب الحشرات وفى طليعتها

النحل كى تقوم بوظيفة تلقيحها فتنجم عن ذلك البذور الى التى هى وسيلة التكاثر لهذه النباتات ، وهذا من آيات الطبيعة !

— ولكن ألا توجد أزهار أخرى مغنية للنحل فى هذا الأوان عن أزهار البرسيم ؟

— نعم توجد أزهار أخرى متعددة كانت أيضاً متحلية فى الشهر الماضى ، ولكنها غير كافية ولا تغنى ، فلا تمنحنا فيضاً رحيقيًّا . وها هى اللبا والعليق والحلة من الأزهار الريفية البرية الماثلة أمامنا ولكن فى قلة نسبية ، وبين ما تزهر من الفواكه فى هذا الشهر الفراولة وعنب الديب والجوافة والتين الشوكى والعجور والبطيخ والشمام ، وبين ما تزهر من الخضر الكوسة والقرع والخيار والرجلة والباميا والخس والبصل والمقدونس والاسبرجس إلى جانب أشجار الزينة ونباتاتها المزهرة كعباد الشمس والزينيا والبرتولاكا أو أرجلة الزهور ، وإلى جانب أشجار الظل كاللبخ والكافور والبونسيانا والاستركوليا والجكوراندا ، وما هذه إلا أمثلة من كثير ، وما دام الجو مشجعاً للنحل على السرح ودافئاً منبهاً للإفراز الرحيقى فلن تجوع النحل فى هذا الشهر ، بل ستستطيع التكاثر بتنبيه ملكتها إلى البيض الوافر وبحسن تغذية يرقاتها وصغارها ، وقد تجمع وتخزن الرحيق فى اعتدال ما لم تكن الخلايا وسط منطقة غنية غنى ظاهراً بمثل تلك الأزهار . أما

الفيض الحقيقى فيعتمد على سخاء البرسيم وعلى تجاوبه مع النحل وإلى جانب الاستعداد بالأقراص الخالية لهذا الفيض لا بد من منع انثيال النحل نتيجة تكاثره البالغ عادة، ولا بد لى إذن يا عزيزتى من الكشف عن جميع الطوائف مرة كل أسبوع . ومن حيث أنى لا أملك من الوقت والهمة — رغم مساعدتك المرتقبة يا تلميذتى الغيور — ما يكفى للكشف عن هذه الطوائف فى يوم واحد، فلا بد لى من التردد على هذا المنحل ثلاث مرات أسبوعياً إلى أن يزول خطر الانثيال . . . وقد عهدت إلى مساعدى بالكشف عن المناحل الأخرى وإن كان لا غنى لنا عن التردد عليها أيضاً للإشراف على ما يجرى فيها . فهل لنا الآن أن نستأنف العمل ؟

— ما رأيك إذا اعتصبت عن العمل ؟ لقد أشبعتنى يا أستاذى غذاء حلواً بهذا الحديث الشهى ، ومثل هذا الغذاء الفكرى كالغذاء البدنى يورث شيئاً من البلادة نتيجة التخمة !

— هذه تحية لطيفة منك يا عزيزتى وإيذان بصمتى !

— وهذه تحية أخرى منى مؤذنة لك بالكلام . . .

وطبعت بثينة قبلة لطيفة على فمه أشرقت لها أساريره وشجعته فعاد يطالبها باستئناف العمل .

ــ إذن هلمى بنا يا معبودتى لتحية النحل ومحادثتها وتلقى أسرارها . . .

ــ أعدك بهذا ولكن من الغد يا أمين ، ولتحضر يومياً إذا شئت حتى تنجز جميع أعمالنا كما نود ، أما اليوم فعلينا أن نشغل بمناجاتنا العاطفية ، وسأطالع فى المساء بعض كتاباتك عن أوليات النحالة حتى أتابع من الغد أحاديثك فى يقظة ترضيك .

ــ رضيت أمرك ومعاهدتك ، فهل هى مبرمة ؟ أم هى من قبيل المعاهدات التى قد تثير الحروب فيما بيننا ؟

ــ هى معاهدة سلام ، ولكن أتكره أن تثار الحرب بيننا ؟

ــ الحرب بيننا لم تنته بعد ، وإنما نحن فى هدنة !

وفى ظلال هذه الهدنة غنما يوماً لا تجود به الحياة إلا فى رعاية الحب !

الفصل الرابع

كانت بثينة تحاور أمينا ذلك الحوار بدافع من أنوثتها دون وعى لتزيده تعلقاً بصحبتها ، حينما هى فى الوقت ذاته تأبى بعقلها الواعى الحياة الزوجية لأن شخصيتها القوية أو أنانيتها تجانب المسئوليات الزوجية والخضوع لأى رجل . وهى لو أنصفت نشأته وخلقه وثقافته لقدرت أنه لا يمكن أن ينظر إلى شريكة حياته إلا نظرة سمحة مكرمة ، وأن معاملته إياها وهى زوجة لا يمكن أن تقل إعزازاً لها عن معاملته إياها وهى صديقة حبيبة . فليس الزواج فى نظر أمثاله إلا ارتباطاً معيناً . لكن الأساس العاطفى واحد — ألا وهو الحب الصادق ، ولكنها كانت طوع عواملها الوجدانية الدفينة قبل تأملها وتفكيرها ، بل دون تأملها وتفكيرها . . . وكان أمين — وهو لا يعاشرها — يعدها فى قرارة نفسه زوجته الوحيدة الدائمة ويهبها كل أحلامه وعواطفه ويعلق عليها آماله المستقبلة وإن لم يجرؤ على التعبير عنها أمامها من جديد .

* * *

دفع بثينة إعجابها بأمين وإخلاصها له وتقديرها لرسالته النافعة إلى تنظيم مطالعتها عن النحل فقرأت فى تلك الليلة طرفاً

صالحاً من أوليات النحالة استعداداً لزيارتها التالية ، وقد أحست فى نفسها بأن من الواجب عليها أن تجارى أميناً فى جهوده الطيبة — وإن لاحت شاقة عليها ما دام يريد لها الأنس والخير ، وما دام يريد لأبناء وطنه الإصلاح والسعادة . وساهم فى التأثير عليها تشيعها للحركة النسائية التى تأبى الاعتراف بعجز المرأة عن مجاراة الرجل فى جميع الميادين !

فلما صحبته إلى المنحل هذه المرة لم تكن تلبس كبنات جنسها بل صحبته مترجلة ، وقد عقدت العزم على العمل فى جلد يرضى كبرياءها ويرضى نشاطه الذى لا يكل . وما كادا يدخلان من باب المنحل حتى حام حولها عدد من النحل ولكن دون أن تمسهما بسوء . . . وكادت بثينة تبدى تخوفها ولكنها ضبطت نفسها فلم تخنها شجاعتها ، واكتفت بالسؤال :

— ما بال النحل يا أمين قلقة حولنا ؟

— لا قلق يساورها يا عزيزتى ، وإنما هى فرحة مرحبة بك !

— ولكن النحل معروفة بكدها وتعرف قيمة العمل والوقت فكيف ترتضى ترك الحقول وإضاعة وقتها سدى ؟

— وكيف تتهم بتضييع وقتها سدى وهى تتهافت على رؤيتك يا نور عينى ؟ !

ــ إذاً أنت تشاركها فى إضاعة وقتك ووقتى أيضاً بمثل هذا الكلام !

ــ هذا الكلام ؟ ألم تطالبى يا مهجتى بأزاهير الحب وألحانه على الدوام ؟

ــ لا يا أمين ، سأكتفى بتموينك إياى دون محاباة !

ــ كأنما أنا جاحد حق الجمال !

ــ لقد نجحت ونجحت نحلك فى إشعارى بقيمة الوقت !

وبقيت هذه النحلات الشاردة تطوف بهما فقال أمين :

ــ أرأيت كيف تلحف فى دعوتنا إلى فتح خلاياها ؟ . . . لا تضحكى فأنا أفهم لغتها !

ــ لم أقرأ أن للنحل لغة تخاطب بينها وبين الآدميين !

ــ لو كنت قرأت يا بثينتى مؤلفات النحالة فى القرن الماضى لكنت وجدت فيها بعض العجب من هذا القبيل ! . . . فلقد كان يدعى بعض النحالين الخياليين القدرة والسلطان على النحل إلى درجة تنظيمها فى عرض عسكرى على المنضدة أمام الناظرين المشدوهين ، أما العلم الحديث فليست له هذه السيطرة التهريجية على النحل ، ولكن له السلطان المنظم النافع الذى يزيد من رفاهية النحل وقوتها ويكسب النحال ثروة من جهده وجهدها .

ـــ ومع ذلك فهذه نحلاتك لا تريد أن تتركنا نستريح أو نتكاسل فهلم بنا إلى العمل !

ـــ يسرنى أن تكونى الآن الحافزة لى !

ـــ والمديرة للمنحل ؟

ـــ ولم لا ؟ لن يمر الموسم إلا وأنت صاحبة السلطان عليه فوق سلطانك على !

كانت بثينة فى البداية تحتاط ضد لسع النحل بلبس قفاز من الجلد ، فأخذ أمين يوضح لها أن لبس القفاز غير جدير بأى نحال فنان فضلا عن نحالة رشيقة مثلها ، لأنه يعطل المرء عن العمليات الدقيقة كما أنه غالباً يستثير النحل نظراً لكراهيتها رائحة الجلد ، وفوق هذا فلا موجب له ما دامت النحل الشائعة فى المنحل غير شرسة وما دام النحال رفيقاً فى معاملته لها . وأخيراً ليس لسع النحل فى اعتدال ضارًّا بالإنسان بل هو مفيد فى الوقاية من بعض الإصابات الروماتزمية وفى علاجها حتى أن تحاضير منوعة من سمه أصبحت فى متناول الأطباء للحقن تحت الجلد وللدهان فى هيئة مراهم فوق المفاصل المريضة . ومهما يكن من شىء فمتى اعتاد المرء لسع النحل اكتسب مناعة ولم يصبه ورم محسوس ، وإن كان الورم على أى حال وقتيـًّا وسليم العاقبة

قالت بثينة : ولكنى قرأت عن حالة وفاة نتيجة للسع النحل ،

— لا يا أستاذتى ! هذا نتيجة لفرط الحساسية قبل لسع النحل ، وهذه حالة شاذة نادرة جداً . ومن ثمة وجبت معرفة استعداد المرء للعمل فى النحالة وتأثره بلسع النحل قبل إقدامه على اقتناء الخلايا والنحل لنفسه . ويجب فى كل منحل يرتاده الزوار أن توجد حقن الأدرنالين والكلسيوم لمواجهة الطوارئ .

— إنى لا أعنى هذا يا أمين ، وأحسب أنى أخطأت فى التعبير . حالة الوفاة التى أشرت إليها نشأت على ما أذكر نتيجة لسع عدد كبير من النحل وقد أصابت فلاحاً فمات فى يومه اختناقاً كما نفقت بقرته !

— توجد ضروب من النحل شرسة بفطرتها كالنحل التونسى والنحل القبرصى وبعض سلالات النحل المصرى متى كانت طوائفها قوية ، وكلا الضربين الأولين لا وجود لها الآن فى مصر ، فأغلب ظنى أن ما وقع هو أن فلاحاً تعرض لثول من النحل متجمع أو عبث بإحدى الخلايا المعمورة فأصابه وأصاب بقرته القريبة منه شر الجزاء . . . وعلى كل حال أرجو يا عزيزتى ألا تتصورى أنى أتعمد أن أهون عليك لسع النحل دون تدبر لأعرضك للسوء فأنت أعز على من نفسى !

وقد استجابت بثينة لمشورته فتخلت عن قفازها ، وهكذا اكتسبت الثقة بالنفس ورشاقة الحركة فى عملها ، وما أشد

كراهية النحل لخشونة المعاملة وللجفوة فى حركات النحال حينما يفتح الخلية ويتناول الأقراص .

راحت تطوف بانتظام مع أمين بطوائف المنحل وقد قسما فحصها على ثلاثة أيام ، وساعدته بثينة بمطالعتها المنزلية وبروحها الجدية المتوثبة للعمل على الفحص المجدى السريع ، فكان يشرح لها ما يستحق الشرح أثناء العمل ولكن دون إسراف . وقد عودها على كيفية الفتح المنظم ، ولقنها كيف أنه لا يجوز للنحال أن يفتح أية خلية مأهولة بالنحل إلا إذا كان له سلفاً غرض معين من هذا الفتح . أما الكشف عن النحل لشهوة الكشف فإضاعة للوقت وإساءة للنحل .

وما كان أبهج من منظر بثينة وقد تشجعت على العمل إذ جاء الجو مسعفاً وهدوء النحل معيناً ودخول الرحيق فى الخلايا مطمئناً ، وصارت هى الأستاذة النحالة وأمين يساعدها ! عرفت كيف تدخن فى اعتدال عند باب الخلية . وبعد انتظار برهة (ثلاث دقائق أو نحو ذلك) ترفع الغطاء الخارجى وتضعه على الأرض مقلوباً ومجاوراً للخلية ثم الغطاء الداخلى وتقيمه إلى جانب الخلية ثم ترفع العاسلة إن كانت موجودة بأقراصها وتضعها فوق الغطاء الخارجى ثم تأخذ فى فحص الأقراص فى غرفة التربية .

كانت تبدأ — كما علمها أمين — بفحص الأقراص فى أحد

جانبي الخلية ، وهي الأقراص التي اعتادت النحل أن تختزن فيها العسل ودقيق الأزهار ، مخصصة الأقراص التي في الوسط لوضع البيض ، ومن هذه الأقراص يتألف العش كما ينعتها النحالون . وكانت تخرج هذه الأقراص واحداً واحداً ، وبعد تدبر وإمعان وتأكد من خلوها من الحضنة — أي خلفة النحل — كانت تضعها قائمة خارج الخلية مستندة إلى حائطها الجانبي أو الخلفي بعيدة عن طيران النحل وغير معترضة لعمل أمين أو لعملها . ولما كان فيض العسل قد بدأ والجو الدافئ مستمرا فقد علمها أن تنقل الأقراص العسلية التي في غرفة التربية إلى العاسلة ، أي غرفة العسل ، لتشجع النحل على الصعود إليها ، وتنقل محلها الأقراص الفارغة التي في العاسلة ، وبذلك تشجع الملكة على البيض وتوسع العش . وكان للملكة هذه ولرعاياها حديث طويل بينهما قبل أن تنهمك بثينة هذا الانهماك في الإجراءات العملية لإنتاج العسل .

كان حديثاً خلاباً ساحراً سحرها أي سحر ، فإن كل وصف قرأته لم يكن ليقارن بما شاهدته بعينيها ولمسته بيديها وأحسته بنفسها من مظاهر هذه الحشرة الجميلة وتكوينها وتصرفاتها حتى كانت بثينة تقف الوقفات الطويلة مع أمين دون كلال أو ملل ، وكادت تنسى أو تهمل طعامها وشرابها وقد أصيبت

بما يسميه الهواة «حمى النحل» ! وليس هذا فحسب ، فقد اكتشفت نفسها — كما يقال — وأحست بشخصية جديدة وبعالم جديد ، وشعرت بأنها أضاعت أعواماً من حياتها فى قشور حسبتها لب الجمال وروح الطبيعة ، فى حين أنها كانت فى الواقع غير ممتزجة بها وبعيدة عن صميمها . . . وها هى ذى الآن مندمجة فيها أى اندماج حتى لتكاد تحس فى تحمسها أنها من أسرة النحل ، وأنها عاملة من العاملات . . .

— لا ، بل أنت أغلى ملكاتى يا بثينة !

الفصل الخامس

فيم إذن كانت تلك الدروس الأولى ، وما هى عجائبها وطرائفها التى أثرت فى نفسها ذلك التأثير البالغ ؟

قال أمين ، معرِّفاً بسكان الخلية أو بالشعب المكدود كما نعت بنات هذه المملكة :

— انظرى يا بثينة إلى باب هذه الخلية وحدثينى عما تلاحظينه على النحل

— وددت لو حدثتنى أنت أولا !

— سمعاً وطاعة ولو إلى حين !

— إذن دعنى أسألك : لماذا يقف بعض النحل هكذا متجهاً إلى باب الخلية برءوسه ومثبتاً أرجله حيث يقف ومروحاً بأجنحته فى قوة هكذا ؟ وما هى هذه النحل الغادية الرائحة فيما بين صفى النحل المروحة ؟

— أحسنت يا عزيزتى ، لقد سألت وأجبت فى آن واحد ! إن هذه النحل المروحة يا بثينة تؤدى وظيفة هامة ألا وهى تهوية الخلية لضبط درجة الحرارة والرطوبة فيها ، وعلى الأخص درجة الحرارة ، وذلك بتشجيع التبخر وتلطيف الهواء داخل الخلية ،

وهكذا قلما تزيد درجة الحرارة فى الخلية ، وعلى الأخص وسط « العش » حيث تكون الخلية على درجة ٣٧ بمقياس سنتجراد ، أو ما يقارب درجة حرارة الإنسان ، بل إن استمرار هذه الحرارة العالية نسبيًّا قد يقتل الحضنة ، فإذا زادت درجة حرارة الجو على ذلك استعانت النحل بالتهوية على تخفيضها وإلا تعرضت الأقراص الشمعية للذوبان فيموت النحل غرقاً فى العسل السائل منها كما تموت الحضنة . وإن النحل بتهويتها هذه لتحدث تياراً شديداً من الهواء — إذا ما كثر عدد النحل المهوية — كفيلا بإطفاء شمعة موقدة أمام باب الخلية ، بل لقد عرف أن حريقاً أصاب حائطاً جانبياً من خلية دون أن يذيب أقراصها وذلك بفضل سيطرة النحل على درجة حرارة الخلية . وتلاحظين يا بثينة أن هذه النحل المروحة تقف خلف بعضها البعض فى نظام تاركة مجالا ما بين صفوفها الطولية لتمر منها النحل السارحة رائحة غادية .

— ولكنك لم تحدثنى يا أمين عن درجة حرارة النحلة ذاتها ، وعن العوامل التى تؤلف حرارة الخلية . هل النحلة مثلا باردة الدم كحضرتى أو دافئة الدم مثلك ؟ وإذا كانت مثلى فما الذى يدفئها ؟ هل تباح فى الخلية أمثال مغازلاتك لتدفئة النحل أم هى تحت رحمة الجو ؟

— الحقيقة يا بثينة أنك أصبحت مطلعة ماكرة وأنى أمامك أجتاز امتحاناً عسيراً ، ولعلك تعتمدين هنا على حماية بنات جنسك أو على رعاياك . . . اسمعى يا سكرتى :

النحلة فى الواقع لا تملك وسيلة أو جهازاً لتكوين حرارة منتظمة بجسمها ، كما أنها من ضروب الكائنات الباردة الدم ، ولكنها إذا هبطت حرارتها إلى درجة ٧ س . باتت حياتها فى خطر . ولكى تحقق النحل تلك الحرارة العالية نسبيًّا داخل الخلية ، تعتمد على حيلتين : فإذا ارتفعت حرارة الجو عمدت إلى التهوية كما رأيت ، أما إذا هبطت درجتها فإن النحل تعتمد على الحركات العضلية — وعلى الأخص بتحريك عضلات أجنحتها تحريكاً هادئاً — وعلى تفاعل أجسامها الحيوى من التغذية ، لتوكيد الحرارة الإضافية اللازمة . وإذا ما هبطت درجة حرارة النحل إلى ١٤ س كونت النحل لمة ليدفىء بعضها بعضاً بهذا التجمع الشديد على الأقراص الوسطى فى المعتاد دفعاً لبرودة الجو ، حتى إذا ما عادت حرارة الجو إلى الارتفاع انحلت اللمة وبدأت النحل تطير وتسرح لجلب حاجتها من الماء والرحيق والعكبر — أى دقيق الأزهار أو حبوب اللقاح كما تسمى — ولا بد لهذا النشاط من حرارة عامة فى الخلية لا تقل درجتها فى المعتاد عن ٢١ س . ولكن الملكة لا تبيض

فى حرارة تقل درجتها عن ٣٤ س فى عيون الأقراص . وسأريك النحل فى خلية الرصد الزجاجية وهى مشغولة بفرز الشمع من غدد خاصة فى بطنها لبناء الأقراص، وهى فى هذه الحالة تحتاج إلى درجة حرارة فى محيطها لا تقل عن ٣٧ س . ولكن استمرار هذه الحرارة، أو ما هى أعلى منها، قد يودى بالحضنة كما أخبرتك من قبل . وعند ما يتكاثر النحل وينثال من الخلية تكون درجة الحرارة فيها عامة زهاء ٣٥ س . وقد ترتفع الحرارة إلى درجة ٤٠ س إذا ما حدث اضطراب داخل الخلية يزيد من حيوية النحل وحركاتها، ولذلك أوصى تلاميذى بتحاشى كل الأسباب التى ينتج عنها اضطراب النحل ، ويجب أن يكون ديدنهم دائماً الهدوء واللطف فى معاملة النحل على اعتبار أنها شخصيات صديقة لها حياة تصان وكرامة تراعى ووفاء يؤدى . أما الطامة الكبرى التى تصيب الخلية ، أو على الأصح سكانها ومتاعهم نتيجة الحرارة العالية، فمن التعرض لأشعة الشمس المباشرة فى جو حار إذا ما ترك النحال باب الخلية ضيقاً وعاق النحل عن أداء واجب التهوية وكانت قوة النحل المروحة غير وافية، ولذلك يجب على النحال أن يحتاط ضد هذا الخطر بتظليل المنحل ورشه بالماء إذا تيسر ذلك وبتمكين النحل من حسن تهوية الخلية وإلا ارتفعت درجة الحرارة إلى نحو ٦٠ س . وحينئذ تسقط

الأقراص ويسيح العسل ويغرق النحل وتتلف الحضنة فيصيب الطائفة البوار !

— يظهر يا أمين أنك تعمل سرًّا فى مصلحة الطبيعيات وتحسبنى مرشحة للتوظف فيها حتى صرت تهاجمنى بدرجات الحرارة هذه ما بين هبوط وصعود وهكذا !

— لا صعوبة يا مولاتى فى بيانى المجمل ، وأنت التى شجعتنى على التسلسل فى هذا الموضوع . وعلى كل حال أعتذر إليك إذا كنت ضايقتك !

— وهل هكذا يكون الحزم مع تلميذتك ؟ ألم تقرأ كتاب « Good Bye Mr Chipps » أو لعلك شاهدت هذا الفيلم البديع ورأيت كيف ينبغى أن يكون المعلم الناجح مع تلاميذه ؟

— ألم أقل لك إنك أصبحت ماكرة يا بثينتى ، وقد أصبحت فى حيرة ما بين جدك ودعابتك وسخطك ورضاك ؟

— وكيف أسخط عليك يا أستاذى العزيز المحبوب ؟ وهل يمكن أن تصدق أنى أسأم من حوارك أو حديثك ؟ أو لعلك تريد أن تتهرب من السؤال الذى أود أن أطرحه عليك فى نفس هذا الموضوع ؟

— وما هو يا فاتنتى ؟

— قرأت أن النحل قد تطير حتى ولو كانت درجة حرارة

الجو ٧ س إذا استثارها الضوء فى الخارج إبان الشتاء ، فى حين أنك تقول إن حياة النحل فى خطر إذا هبطت درجة الحرارة الجوية إلى هذا الحد . فكيف تفسر هذا التناقض ؟

— المسألة بسيطة : عند ما تكون درجة حرارة الجو ٧ س ، أو حتى أقل من ذلك ، لن تكون درجة الحرارة وسط لمة النحل أقل من ١٤ س . فإذا طار بعض النحل من الخلية بتأثير استهواء الأشعة فى الخارج فإنه يتعرض للخطر ما لم يكن طيرانه فى أشعة الشمس ولبرهة قصيرة . ولذلك يوصى فى الممالك الباردة الجو بتظليل أبواب الخلايا فى الشتاء حتى لا تشجع النحل على الخروج بتأثير أشعة الشمس إذا كان الجو غير مأمون .

— وكيف تكون التشتية فى المناطق الشديدة البرودة والمغمورة بالثلج ؟

— إذا سمحت يا تلميذتى النجيبة بل يا أستاذتى المتبحرة فلنترك هذا البحث إلى حينه ، ولنأخذ بما هو معجل بحثه اليوم بيننا . . .

— نصحتك بالحزم فى معاملتى ، فما على إلا أن أقول : سمعاً وطاعة !

وراح أمين بمعاونتها يفتح الخلايا الواحدة تلو الأخرى ويقيد المذكرات عن كل منها فى بطاقة أثبتها من الداخل فى غطاء

الخلية الخارجى ، وقد ذكر على البطاقة رقم الخلية وصف النحل وقوة الطائفة وحالتها من جميع الوجوه فى عبارات مقتضبة أو فى حروف أو إشارات رمزية . ولم يكتف بهذا بل كان يكتب بالطباشير — (وقد انتهى موسم المطر) — بحروف رمزية على واجهة الخلايا ما يعتبره هامًّا من ملاحظات توجيهية ، حتى أنه كان يباهى بأنه فى نظرة جائلة يستطيع أن يقدر ما عليه أن يعمله فى المنحل وحالة المنحل إجمالا .

قال فى أحد دروسه الأولى مستكملا تعريفه بسكان الخلية :

— هذه الملكة صبية يا بثينة ، فهل تعرفين لماذا أحكم هذا الحكم ؟

— لأنك سرقت نظرة إلى بطاقة الخلية ؟

— كلا يا جاسوستى الحسناء ، هذا متروك لك !

— ربما لأن وجهها ليست عليه تجاعيد الشيخوخة التى على وجهى !

— مع اعترافى بذلك ، فليس هذا هو السبب الرئيسى ؛ وإذن فلأخبرك قبل أن تغلبينى ، انظرى أولا إلى نشاط الملكة فى وضع البيض ، فإنه والحضنة الناشئة عنه قد ملأت جميع أقراص غرفة التربية اللهم إلا مساحات قليلة فى شكل الأهلة

وفى أعلى الأقراص اختصها النحل بخزن العسل فيها ، وفى المعتاد لن تستطيع ملكة أن تبيض بهذه القدرة إلا فى عنفوان شبابها . وزيادة على ذلك انظرى إلى تكوين جسمها فى صحة وامتلاء وعلى الأخص بطنها الذى يحتوى المبايض ، وانظرى إلى نضرتها وإلى زغبها الذى لم تنل منه الأيام ، وتأملى ألوانها الطبيعية التى لم تغير ولم تقتم خلافاً لحال الملكات العجائز . . . إن الملكة يا بثينة هى مركز الحياة فى الخلية ، هى الأنثى الكاملة ، هى الأم ، وجميع النحل التى فى الخلية خلفتها المتطورة من البيض إلى الحشرة الكاملة ، ولا توجد للطائفة الواحدة فى المعتاد وفى حالتها الطبيعية سوى ملكة واحدة ، فيهمنا جداً أن تكون معرفتنا بها وافية . الملكة يا عزيزتى ليست حاكمة بالمعنى المفهوم وليست زوجة ملك ولا بنت ملك ، وأليق ما تنعت به هو أنها « الأم » وحسبها ذلك تعظيماً . . . انظرى كيف تتخطر على القرص والنحل تحف بها فى مثل الهالة حول القمر متجهة برعوسها نحوها تغذيها إذا ما طلبت الغذاء ، وتلمسها فى رفق وحنان بمشاعرها ، ولو كان هذا اللمس حثاً على العمل فهو حث رشيق جميل قد يحرمه كثيرون من الآدميين من الجنس اللطيف . . .

ــ أهذا تعريض بى ؟

ــ معاذ الله ، ونحن فى هدنة يا بثينتى . . . بل لماذا لا أعترف أنه بفضل صحبتك صار المنحل أبهج فى عينى فى هذا الموسم وطاب لى العمل فيه . . . ؟ ولكن لنعد إلى ملكتنا فليس من اللائق فى حضرتها أن ننصرف عن جلالتها إلى التحدث عن عواطفنا . . . لاحظى كيف أنى أحمل الإطار أفقياً تقريباً حتى لا يتأثر القرص من ثقل محتوياته إذا ما حملته عرضياً فيتشقق أو يسقط بعضه ، وهذا جائز فى الجو الحار وعلى الأخص إذا لم يكن القرص مثبتاً جيداً فى سلك الإطار لوقايته . ولاحظى كيف أنى حريص على حمل القرص فوق غرفة التربية بحيث لو سقطت الملكة عفوا نزلت إلى داخل الغرفة ولم تقع على العشب أو على الثرى خارج الخلية فتتعرض للضياع .

ــ وكيف تتعرض للضياع ولها أجنحتها ؟

ــ ربما استطاعت أن تطير وتعود إلى خليتها ، وربما تعلقت بإحدى أرجل الخلية أو بأحد الأعشاب ، وقد يتعرف إليها بعض النحل بفضل رائحتها المتميزة فيلتف حولها وينبه النحال إليها ، ولكن الغالب أنها تنزوى وتعجز عن الطيران بسبب ثقل جسمها نتيجة نشاط مبايضها وازدحامها بالبيض مما يدل عليه كبر بطنها ، وهكذا يخسرها النحال وتخسرها الطائفة التى تحار فى البحث عنها زمناً قبل أن تبدأ فى تربية غيرها وهى

كسيرة النفس مبلبلة الخاطر . ودفعاً لهذه النكبة أحتاط فى الفحص كما أعلم الملكة .

ــ وما هى الدروس التى تعلمها للملكة ؟ أهى من نوع دروسى ؟ وبأية لغة تتخاطبان ؟ وما هى مراسيم التخاطب مع جلالتها ؟

ــ لا يا حبيبتى ! إن ما أعنيه هو أن أجعل لها أمارة ألصقها خلف صدرها لتعرف بها ، وإنى أستعمل لذلك جهازاً خاصاً سأمرنك على استعماله، وها أنت ترينها مميزة بدائرة حمراء صغيرة من الورق الزاهى المتألق فلا يشق علىّ اكتشافها من بين آلاف العاملات . ومع هذا الجهاز ألوان شتى من الورق أخصص كل لون لسنة معينة ، وهكذا أعرف أيضاً عمر الملكة عند مشاهدتها . وسأعمم استعماله إذا فاتنى تعليم بعض الملكات ، فليس من الحكمة الإغضاء عن ذلك فإن التعب اليسير فى تعليم الملكة يوفر تعباً كبيراً فى البحث عنها ، ولو أن النحال الخبير اليقظ لا يشق عليه الاهتداء إليها وسط الأقراص التى تكون العش إذا ما كانت هذه الأقراص فى غرفة واحدة ، أما إذا اتسع العش وشمل غرفتين واضطربت الطائفة لأمر ما أثناء الفحص فمعنى ذلك البحث عن الملكة وسط آلاف من النحل الأخرى . وقد تكون على اللوح الأرضى للخلية أو على أحد

جوانبها ، وقد لا تسمح حالة الجو أو المراعى أو ظروف المنحل بإطالة الفتح فتتعرض الملكة للأذى من جراء ذلك وفى غير موجب ، فى حين أن تعليمها بذلك الورق الملون أو بصقال ملون سريع الجفاف حماية لها وعون للنحال على الاهتداء إليها وصيانتها .

— ولكن ألا يسيء إلى صحتها لصق ذلك الورق أو ذلك الدهان الملون ؟

— كلا ؛ لأن ذلك الموضع السطحى من ظهرها خال من أى جهاز حيوى ، وما دمت قد سألت هذا السؤال فيجب ألا يفوتنى تنبيهك إلى أن النحل تكره الروائح الحادة فى العطور والطلاء وما إلى ذلك لأنها تهيج شعبها النفسية . ولذلك ينبغى عند تعليم الملكة بالصقال أن يجرى ذلك باحتراس ، وأن تراقب حتى يجف الصقال وتمنع النحل من التعرض لها بالأذى إذ قد يختلط عليها الأمر تحت تأثير حاسة الشم فتحسب هذه الملكة المعلمة غريبة عنها لتغلب رائحة الصقال على الرائحة الطبيعية للملكة ، ولكن هذه مسألة لحظات فحسب . . . ولنعد الآن إلى موضوعنا الأصلى : إذا كانت الملكة غير متوجة وغير مملكة بالمعنى العرفى فهى مع ذلك معززة مدللة مكرمة حتى ولو أرهقتها النحل بالعمل . إنها بمثابة آلة للبيض ، ومع ذلك فالنحل بغريزتها

تقدر أنها روح الطائفة وسر مناعتها وعزها ، ولذلك تحرص عليها أشد الحرص ويهمها أن تكون دائماً على أتم صحة وأوفى مقدرة لخير المجموع . فإذا ما تخلت عنها فى يوم ما واستبدلتها طواعية بسواها فذلك تحت تأثير هذا الدافع ، وهو وضع مصلحة المجموع فوق مصلحة الفرد مهما كانت منزلته ، وتضحية الفرد عند الحاجة لرفاهية المجموع . فالنظام الأساسى لمملكة النحل لا يقوم على رعاية الفرد وإنما يقوم على رعاية المجموع ، وليست الملكة بمستثناه من أحكام هذا النظام الصارم ! . . . انظرى يا بثينة إلى قوامها المنسجم أبدع انسجام ، وإلى مشيتها التى كأنما تنم عن اعتزازها بذاتها ، وإلى شخصيتها التى تتعلق بها آمال أمة بأسرها كل فرد من أفرادها مدين لها بالوجود ، وإلى رونقها الذى تنفرد به فوق جلالتها . إنها فى شكلها وحجمها ولونها متميزة متفردة لأى عين . ليس يغطيها الزغب كما يغطى العاملة أو الذكر ولكن ذلك لا ينقصها ، ولها من اللون الخاص الضارب إلى الحمرة الذهبية أو السمرة الحبشية أو الصبغة البرونزية ما يكسبها جاذبية خاصة إلى جانب طولها وقصر أجنحتها نسبياً . وليس للملكة من رسالة فى حياتها إلا الإكثار من النوع وهى رسالة مقدسة فى قانون الطبيعة تهب حياتها لها هبة كاملة إلى أن يدركها الإعياء أو الفناء ، وهذا شأن النحل جميعاً حتى الذكور

..

التى يضرب بها المثل فى الكسل فإنها على العكس تدأب دائماً باحثة عن الملكات العذارى ، وليس ذنب الذكور أن الطبيعة أسرفت فى خلقها احتياطاً وضماناً حتى لا تبقى ملكات عذاري فى حاجة إلى تلقيح وحتى لا تتعطل رسالة التكاثر ... إن الحديث عن الملكة وعن سحرها للنحل والنحال حديث طويل محبب ، فلنقفل هذه الخلية وقد فرغنا من فحصها – حتى لا نطيل عطلة النحل ، ولنفحص غيرها وسأكمل لك حديثى عندها عن صاحبة الجلالة .

ويفتح أمين خلية أخرى وتساعده بثينة على رفع الأقراص العسلية – ولم تكن كثيرة – إلى الطابق الأعلى ، أى إلى العاسلة وإنزال أقراص خالية من العاسلة إلى غرفة التربية محلها موزعة بين أقراص الحضنة لتنتفع بها الملكة فى وضع بيضها الجديد . وفى هذه المرة اكتشفت بثينة الملكة ولم تكن معلمة ، ولكنها لاحظت أن لونها برتقالى ذهبى فاتح ، فقال لها أمين :

– إن لون الملكات يختلف حسب ضروب النحل ، فمثلا الملكات المصرية برونزية اللون مع شىء من الحمرة ، والملكات الإيطالية تختلف من اللون الذهبى البرتقالى الذى ترينه إلى لون الجلد الأصفر البنى ، والملكات الكرينولية والقوقاسية سمراء حبشية اللون ، والملكات التونسية زنجية أبنوسية ، وهكذا تتعدد

الظلال والألوان حسب ضروب النحل وربما اختلف اللون فى سلالات الضرب الواحد . وسندرس كل هذا معاً فى فرصة أخرى .

— هذه اعتبارات لذيذة ، إذ يخيل إلى أنها تساعد على معرفة صنوف النحل والتمييز بينها تمييزاً عامًّا .

— هذا صحيح ، ولن يفوتنى بحثه معك . وأما الآن فيهمنى أن أبث فى ذهنك الحقائق الإضافية الهامة التى تخص الملكة ... يهمنى أن تعلمى أن قدرة الملكة على وضع البيض تترتب بعد ميراثها الحيوى — وأعنى به صنفها وسلالتها — وبعد سنها وصحتها وقوة الطائفة وحالتها الاقتصادية ، تترتب على مقدار التغذية الذى تناله من وصيفاتها ، أى من النحل العاملات الملتفة حولها والملتفتة إلى رعايتها . وقد تضع الملكة بانتظام مدة غير قصيرة إبان الموسم (فى ثلاثة أو أربعة أسابيع) ثلاثة آلاف بيضة فى اليوم ، وقد يصعد هذا الرقم لدى الملكات الممتازة إلى خمسة آلاف بيضة يوميًّا . وقد شوهدت ملكات تبيض ست بيضات فى الدقيقة أى حوالى ٧٫٢٠٠ بيضة يوميًّا ، ولكن هذا الإسراف فى البيض لا يطول . ويكفينا أن تبيض الملكة يوميًّا ألفى بيضة فى عز الموسم ، إذ معنى ذلك فى النهاية تكوين طائفة لا تقل فى قوتها عن ٨٤٫٠٠٠ نحلة على اعتبار أن متوسط حياة النحلة فى موسم العمل ستة أسابيع ، وهذه القوة تكفى لملء طابقين من

الخلية بالنحل ، فإن عدد النحل الذى يغطى القرص يتراوح ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف نحلة . والواقع أن الملكة إذا كانت منتظمة الوضع لألفى بيضة فى اليوم تحتاج إلى جمع أقراص فى غرفة التربية مخصصة لها، وهكذا يجب على النحال ألا يترك أقراصاً من الغذاء فى غرفة التربية . والملكة بعد خروجها من بيتها الشمعى تبقى فى الخلية بضعة أيام فى المعتاد، ولا تغادرها طائرة للتلقيح إلا وسنها من خمسة إلى ثمانية أيام، بشرط أن يكون الجو صالحاً مشجعاً على طيرانها (درجة الحرارة فى الظل ١٦ س). لأنها وهى أثمن عامل فى طائفة النحل تأبى عليها الطبيعة أية مجازفة .

— ولماذا لا يكون التلقيح داخل الخلية ؟

— الظاهر أن هذا احتياط أرادت به الطبيعة ألا يظفر بالملكة سوى القوى الجرىء من الذكور ، وهذا ما يؤدى إلى تحسين النوع ، إذ يطاردها الذكور أثناء طيرانها إلى أن يظفر بها أحدهم ثم يموت بعد تلقيحها !

— ولكن ألا يجوز أن يقع هذا مصادفة ؟

— نعم ، هذا جائز ، ولكنه نادر ، والنادر لا يقاس عليه .

— وماذا يحدث لو أن الجو كان غير مسعف — كما يحدث فى الخريف أو فى الربيع المبكر — وبقيت الملكة حبيسة فى خليتها أسابيع ؟

— فى المعتاد لا تتلقح الملكة تلقيحاً كاملاً منتجاً إذا مرت

عليها ثلاثة أسابيع دون أن تخرج للتلقيح ، ولو أنى أعرف حالات شاذة ناجحة تخالف هذه القاعدة . هذا ومتى تلقحت الملكة استراحت يومين فى الخلية ثم تبدأ بعد ذلك فى البيض ، وربما بدأت تبيض بعد مرور ٣٦ ساعة من وقت تلقيحها ، كما أنه من الجائز أن تؤجل بيضها إذا كان الجو بارداً بضعة أيام بل وأسابيع كما يحدث للملكة التى تلقح فى أواخر الخريف ثم يقبل الجو البارد قبل أن تبدأ البيض فهى تبقى معطلة حتى اعتدال الجو . ويصح أن نقول إجمالا إنه فى الظروف الجوية المعتدلة تبيض الملكة بعد مرور ٧ — ١٠ أيام من حين ولادتها أى من وقت خروجها من بيتها الشمعى . والبيض الذى تضعه الملكة صنفان : ملقح وغير ملقح ، وهى تعتمد على سائل التلقيح الذى تختزنه فى بطنها للانتفاع به فى تلقيح البيض الذى تضعه إذا شاءت أن يكون ملقحاً . . . وقد يبدو لك هذا التعبير غريباً ، ولكنه يصور الحقيقة : فالملكة قبل أن تبيض تتطلع إلى العين السداسية الخالية أمامها فى القرص فإذا كانت كبيرة الحجم خاصة بتربية الذكور وضعت فيها بيضة غير ملقحة ، وأما إذا كانت العين صغيرة الحجم فإنها تضع فيها بيضة ملقحة تنشأ عنها فى النهاية نحلة عاملة ، وتتلقح البيضة أثناء خروجها من جهاز الملكة التناسلى طوع إرادة الملكة إذ تعرض البيضة

لتأثير أحد الحيوانات المنوية من سائل التلقيح المختزن فى جسمها . وهكذا ترين أن ذكر النحل لا أب له ، ويسمى علماء الحياة هذا النوع من التناسل « التناسل العذرى » ! وهناك ظاهرة عجيبة أخرى وهى أن النحلة العاملة (أو الخنثى) والملكة (أو الأنثى الكاملة) كلتاهما أصلها بيضة ملقحة دون تمييز ، وإنما التمييز يحدث فيما بعد بتغذية اليرقة أى الدودة التى تفقس من البيضة تغذية سخية بواسطة تراضع النحل إذا شاءت النحل أن تربى منها ملكة ، ولن يفوتنى أن أشرح لك كل هذا عمليًّا شرحاً وافياً فى حينه .

— لا أدرى ما هو الأعجب فيما ذكرته يا أمين : أهو خصوبة الملكة إلى هذه الدرجة المدهشة حتى أنى لأحار فى وزن البيض الذى تضعه يوميًّا بالنسبة إلى وزن جسمها ؟ أم هو قدرتها على التمييز بين عيون الأقراص وتكييف صنف البيض الذى تريد وضعه ؟ أم هو نشوء الذكور بطريقة التوالد العذرى ؟ أم هو هذه الطريقة الفذة فى التلقيح ؟ أم هو كيفية تحويل اليرقة الناشئة من البيضة الملقحة إلى ملكة أو إلى عاملة حسب رغبة العاملات اعتماداً على التغذية وحدها ؟ سبحان ربى المبدع الحكيم ، لقد طالعت شيئاً عن كل هذا اتباعاً لمشورتك ، ولكن شرحك زادنى متعة وجسم لى ما قرأت .

ــ هذا وسام جديد أضمه إلى أوسمتك اللامعة !

ــ ثق يا أمين بأنى أصدقك الشكر ، وكنت أتمنى اجتذاب بعض صديقاتى لحضور هذه الدروس العملية إذ أرجو ألا يستمر الاهتمام بالنحالة مقصوراً فى مصر على الرجال .

ــ إن العناية بالنحالة بل وبكثير من الصناعات الزراعية الأخرى مشاعة بين النساء والرجال فى الولايات المتحدة ، وفى مصر فسحة عظيمة لهذه الشركة بين الشطرين لو أنصف الرواد المصلحون ، وفى الحركة التعاونية وسيلة قويمة لتحقيق هذه الأمنية لو خلصت الحركة التعاونية . . . ولكن لنعد إلى تكملة حديثنا عن صاحبة الجلالة : لقد تساءلت حائرة عن وزن البيض الذى تضعه الملكة يومياً بالنسبة إلى جسمها ، فاعلمى يا مهجتى أن وزن ما تبيضه الملكة يومياً كثيراً ما يتجاوز وزن جسمها نفسه ، وهذه حالة تدعو حقاً إلى العجب لأنها تدل على سرعة غريبة فى الاستحالة الغذائية ، وهى تفسر لك حاجة الملكة إلى التغذية السخية المتتابعة بألسنة الوصيفات المحيطات بها !

ــ لى سؤال علمى يا أمين وقد يبدو شاذاً : لقد قرأت عن التلقيح الاصطناعى بين الفصائل المختارة من الحيوانات بل وبين الآدميين ، فما الذى يحول دون ذلك بين النحل ؟

ــ لا حائل يا عزيزتى ، وهذه عملية تجرى فى حالات معينة

لخلق ضرب معين أو سلالة خاصة من النحل وقد تجرى ميكرسكوبيًّا كما فعل الدكتور وطسن بالولايات المتحدة منذ سنة ١٩٢٧ ، ولكنها عملية غير ميسرة لجمهرة النحالين ونتائجها غير مضمونة فى المعتاد ضمان التلقيح الطبيعى .

— هذا تقدم مدهش فى تربية النحل !

— ستنسينى أسئلتك الذكية تكملة حديثى عن الملكة ، ولو أنه لن يكون ختام ما يقال عنها فإن دراستها متعددة الجوانب وستتاح لنا مناسبات شتى لهذه الدراسة المنوعة . فلنقفل هذه الخلية ولننتقل إلى « خلية الرصد » القائمة على المنضدة هناك لنراقب الملكة وعاملاتها وما فيها من ذكور فى هدوء واطمئنان .

* * *

وعلى تلك المنضدة فى جانب من المنحل قامت خلية مصنوعة من الخشب والزجاج تحتوى قرصين أحدهما فوق الآخر ومفصولا عنه مسافة حركة النحلة وعلى جانبى كل منهما حائط زجاجى يغطيه لوح من الخشب المبطن بالجوخ قابل للتثبيت والرفع ، ولها باب يمكن قفله وفتحه ولها فتحة عليا فى الغطاء الأعلى ذات ثقوب صغيرة صالحة لتغذية النحل كما أنها تساعد على تهوية هذه الخلية وإن كان قد أقام فوقها مظلة دفعاً لحرارة الشمس . وبالإجمال كانت هذه الخلية الصغيرة الجميلة المصنوعة من

خشب التيك المتين ومن الزجاج البلورى الصافى أصلح ما تكون للرصد ، أى للمشاهدة الطويلة لتصرفات الملكة ونحلها فى كل شيء دون أى حجاب ، وهى مما يستعان به على الدراسة عند استقرار الجو وتعميرها بالنحل كما أنها من أصلح الوسائل لتعليم النحلة فى المدارس ، فاتخذها أمين وسيلة محببة لبثينة للمشاهدة المبدئية وللدرس الأولى، وثمة وضعا كرسيين إلى جانب المنضدة وجلسا يرقبان ما يجرى داخل الخلية وقد سمح الجو المعتدل البديع برفع الأغطية الجانبية ، فقال أمين مشيراً إلى الملكة وقد تجلت بعلامتها وسط القرص الأسفل :

ــ ها هى ذى الملكة يا بثينة فلننظر إلى تكوينها الجسمانى نظرة أدق وها هى ذى معى نماذج من ملكات ميتة محفوظة يمكننا أن نتأملها أيضاً مستعينين بعدستى المكبرة .

قال ذلك وأخرج من جيبه علبة خشبية صغيرة ذات غطاء زجاجى حفظت فيها بضع ملكات مرشوقة على دبابيس . . . فتأملتها بثينة معجبة بألوانها المختلفة وبأشكالها التى لا تباين الوصف العام الذى ذكره أمين ، إلا واحدة بينها كانت صغيرة الجسم نسبيًّا فسألته عنها .

ــ هذه يا بثينة ملكة عذراء وهذا سبب ضآلتها النسبية ، فكبر حجم الملكة الملقحة يرجع إلى كبر بطنها بسبب نشاط

مبايضها وازدحامها بالبيض ، ولو أن بعض الملكات العذارى قد تكون أكبر حجماً . . . فلنتأمل الآن تكوين هذه الملكة البديعة التى تطالعنا فى «خلية الرصد» ولنقارن بين تكوينها وتكوين العاملة ثم بينهما وبين الذكر ، وهذه فرصة أيضاً لمشاهدة بناء القرص على الأساس الشمعى داخل الإطار كما ترين فى الدور الأعلى من هذه الخلية . تأملى فى هذه الملكة الحية وتأملى كذلك فى هذه النماذج المحفوظة للملكات وطبقى ملاحظاتى ووصفى عليها . وعندما ندرس العاملة وذكر النحل — أو اليعخور كما يسمى أحياناً — فأمامنا نماذج حية وميتة كثيرة فى المنحل فلن تشق علينا المقابلة بينها . . . إن الملكة من الوجهة التشريحية الظاهرة تتميز—كما ترين وكما لاحظنا من قبل—بكبر حجمها وطول بطنها الذى ينبغى فى الملكة الجيدة أن يكون إلى جانب طوله عميق المظهر ، لا عريضاً ومسطحاً ، أو قصيرا غير منساب إلى طرف . وصورة الملكة إجمالا أنها أطول جنسها وأرفع شكلا من كل من العاملة والذكر . ومعظم هيكلها خارجى لا داخلى — شأنها فى ذلك شأن بقية الحشرات — خلافاً لحال المخلوقات ذوات الأثداء فهيكلها داخلى ، وهو فى النحلة مؤلف من درعة أوخيتين وهى مادة قابلة للتشكل فى صور شتى ، فمنها مادة القرنية الشفافة التى تغطى عيون الحشرات ، كما أن منها

المادة الواقية التى تغطى أجسام الحشرات وتقيها ، وتختلف ما بين الصلابة والليونة وما بين الكثافة والرقة حسب موضعها ووظيفة العضو الذى تغطيه . ويغطى هذا الهيكل الخارجى شعر دقيق أو زغب مزود بأعصاب تنقل الإحساس لأن الهيكل ذاته غير حساس ، كما أنه بمثابة كساء واق من التقلبات الجوية إلى حد ما ، وبعض هذا الزغب يساعد على تنظيف جسم النحلة ، أى أنه بمثابة فرشاة . كما أن بعض هذا الزغب يكون مستقيماً وصلباً متيناً كما هو الحال فوق العيون لوقايتها ، وغيره شبكى الوضع — وسنرى ذلك فى النحلة العاملة — ليساعد على حمل الطلع أو دقيق الأزهار فى السلة المخصصة له فى الأرجل الخلفية ، وبعضه يعاون فى قبض الأشياء أو فى منع الحركة السريعة إلى غير ذلك من الفوائد . وبجسم الملكة كما بجسم أية نحلة أخرى ثلاثة أقسام مستقلة : الرأس والصدر والبطن . وها نحن نرى فى الرأس فى كل جانب عينا مركبة كما أننا نشاهد بالعدسة المكبرة بل حتى بالعين المجردة — إذا دققنا النظر — مثلثاً بينهما فيما يصح أن نسميه الجبهة وقاعدته إلى أعلى ، وفى زوايا هذا المثلث الصغير ثلاث عيون بسيطة ، وكذلك نرى المشعرين أو القرنين (وهما من الزوائد المفصلية الحساسة) ناشئين من الجبهة فيما بين العينين المركبتين ، كما نرى أعضاء الفم تحت هذين القرنين .

وفائدة العينين المركبتين المشاهدة البعيدة ، فبهما تستعين الملكة (كما تستعين العاملة والذكر) على الطيران وتقدير المعالم التي في المنحل وخارجه لتجول جولتها ولتعود إلى خليتها سالمة ، وأما فائدة العيون البسيطة فالمشاهدة عن كثب كما يقع داخل الخلية مثلا وفي تأملات النحل القريبة .

— ولكن إذا كانت الملكة لا تطير في حياتها إلا للتلقيح أو للهجرة مع جانب من طائفتها أي مرة أو مرتين في المعتاد ، فما حاجتها إلى كل هذه العيون ؟

— يسرني يا عزيزتي ألا تدعيني أسترسل في الحديث وأن تحلى الكلام من آن إلى آخر بمثل هذا السؤال المنبه ؟

— أتعني أنه سؤال تافه ؟ !

— كلا ! كلا يا أستاذتي إنه سؤال وجيه ، ولكن لا تنسى أن أهمية الملكة الفائقة تجعل طيرانها ذا أهمية سواء أكان مرة أم مرات ، إذ أن فقدها يكون وبالا على طائفتها أو على الثول المصاحب لها أعني جماعتها المهاجرة في وقت التكاثر . ومع ذلك فعدد العدسات في العين المركبة للملكة يبلغ ٤٫٩٢٠ عدسة ، في حين أنه يصل إلى نحو ٦٫٣٠٠ عدسة في عين النحل العاملة أو الشغالة ، ويرتفع عدد هذه العدسات إلى ١٣٫٠٩٠ في العين المركبة للذكر ، وسر ذلك أن النحل العاملة في سرحها اليومي

أحوج إلى عيون مركبة أقوى من نظيرتها للملكة ، حينما الذكر يحتاج إلى عيون مركبة أقوى من عيونهما لأن عليه مهمة شاقة وهي البحث عن الملكات العذارى الطائرة . وقد يستعين على الكشف عنها بحاسة الشم من ثقوب خاصة متعددة فى جسمه ، وهذه الحاسة حادة جداً فى النحل عامة (حتى ليلاحظ عليها نفورها من رائحة العرق لبعض النحالين) ولكن لا غنى للذكر عن العين المركبة القوية التى تكشف له المرئى فى جهات شتى .

— هذا مدهش حقاً !

— إن دراسة تشريح النحلة ووظائف أعضائها فضلا عن كيفية نشوئها كلها مثيرة للإعجاب أحياناً وللدهشة . فهذان المشعران أو القرنان اللذان ينبتان فى الرأس واللذان يتألف كل منهما من اثنتى عشرة عقلة فى كل من الملكة والعاملة ومن ثلاث عشرة عقلة فى الذكر هما أحد أدوات التخاطب بين النحل بحركاتها المنوعة ، فهما قادران على الحركة فى كل جهة ، كما أنهما من أعضاء الاستشعار باللمس بواسطة ما عليهما من الزغب الوفير . بحيث تستطيع الملكة حينما تدخل رأسها فى بيت من بيوت القرص ، أو الشغالة حينما تطل داخل كأس من الزهر أن تتبين دقائقه الداخلية تفصيلياً كأنما تراها فى الضوء الساطع .

– ولكن الذكر من النحل لا يفتش داخل عيون الأقراص أو بيوتها فما فائدة هذا الزغب له ؟

– أصبت بملاحظتك الدقيقة يا بثينتى النابغة ! فالواقع أنه لا يوجد زغب على قرنى ذكر النحل إلا سطوحهما الخارجية والأمامية وهى السطوح التى تستعملها النحل جميعاً فى لمس التخاطب مع قرون النحل الأخرى ، وأما باقى الزغب على السطوح الأخرى للقرنين فلا وجود له على قرنى الذكر لأنه لا يستعملها – كما لاحظت – فى الاستشعار الدقيق فى الظلام . وها هى العدسة المكبرة شاهد على صحة ذلك فتأملى بها فى قرون الملكة والعاملة والذكر وقارنى بينها جيداً .

– مدهش ! مدهش ! ... وماذا يحدث لو أصيب القرنان بضرر أو لو قطعناهما مثلا ؟

– ستزدادين دهشة عند ما تعلمين عن نتائج التجارب العلمية التى أجريت ، وكيف ساهم فيها ذلك العالم الطبيعى الضرير هيوبر « Huber » . عاش هيوبر فى القرن الماضى وهو أول من استعمل الإطارات المتحركة فى خليته المسماة « الخلية الورقية » Leaf Hive كأنما هى كتاب ذو أوراق تفتح وتقفل على نحوه ، وعلى أساس ذلك أبدع العلامة لانجستروث خليته الوافية التى ننعم بها الآن ونعم بها النحالون أجيالا من قبل .

فقد هيوبر بصره وهو شاب وكان قد تزوج قبلا فوجد من خادمه الأمين برننز « Burnens » (الذى وصل بعصباميته إلى وظيفة مأمور قضائى فى قريته) ومن زوجته الوفية خير معينين له فى بحوثه عن أسرار الطبيعة فى حشرتنا الجميلة . وهؤلاء الثلاثة جديرون بقصة سينمائية لن تقل فى قيمتها الإنسانية عن قصة مدام كيورى ، فهذا فرانسوا هيوبر الضرير يمثل لنا الذكاء المفرط والملاحظة النفاذة والجلد التأملى الفائق ، وهى صفات تجلت فى ثلاثة أدباء عالميين أحدهما معاصر وهو منافسى فى واوعلك الأدبى والآخران المعرى وملتون ، كأنما هذا الحجاب الذى قام بينهم وبين عالمنا المشهود قد أعفاهم من شائبه ومن تبعية حواسهم لعجزه وقبحه ، وفتح لهم عوالم أخرى وليدة أخيلتهم ومثالياتهم السمحة اللطيفة . ولا مشاحة فى أن عمى هيوبر جعله يفكر فى نقط دقيقة عدة ما كان يأبه لها أو يعنى بها لو أنه اعتمد على نظره فحسب ، فأدى ذلك إلى أبحاث عظيمة. فى موضوعها وفى نتائجها . وقد حاول خصومه انتقاصه لأنه ضرير ، ولأن خادمه المعين « جاهل » . ولم يكتفوا بذلك بل حاولوا إغراء زوجته الشابة الجميلة على تركه ! فأما خادمه فقد أثبت بأخلاقه الوفية الكريمة وبأمانته العلمية وطاقته فى الدرس والبحث وتحقيق ما كان يكلفه به سيده ما أنزله منزلة الاحترام فى مواطنيه الذين اختاروه

أخيراً مأموراً قضائياً وفاخروا بسيرته ، وأما هيوبر نفسه فغفر لهم تطاولهم عليه كما يغفر الرجل الحليم الرحيم ذنوب الصغار الذين لا يقدرون ولا يفقهون . فإذا كان العمى نقصاً فى ناحية فقط يكون مزايا فى نواح أخرى ، وقد يعوض عن الإبصار أى تعويض كما أثبت ذلك هيوبر بتجاريبه الدقيقة المستقصية التى لم يفكر فيها المبصرون ، وأما زوجته الشابة الجميلة فقد عرفت روحها النبيلة كيف تساهم وزوجها فى خلق السعادة لكليهما ، فكانت تندمج فى تفكيره وميوله وتروض نفسها على الغبطة بالاشتراك فى أعماله . وهكذا أبدعت لنفسها مثالية من الرضا والطمأنينة والمحبة المتبادلة ، وأحست بسعادة خاصة فى إسعاده وقتلت بيديها الأنانية التى حاول خصومه إثارتها فى نفسها ، وكأنما أحست بعد ذلك فى طهرها الروحى أنها أصبحت المرأة النبيلة الكاملة ، وقد عاشا معاً فى سعادة سنين طويلة . وشأنهما فى ذلك يذكرنى بالأديب البلجيكى الجهير ميترلنك وزوجته الصبية التى لم تتجاوز منزلة ابنته ، فقد عجبت الصحف الأمريكية — بعد نزوحهما إلى العالم الجديد — من أمرهما وهل يشعران حقًّا بسعادة على ما بينهما من تفاوت السن . فهداها البحث إلى أنهما حقًّا من أسعد الناس لأن سعادتهما قائمة على الانسجام التام فى ميولهما وتفكيرهما ونوازعهما ، وعلى التقدير المتبادل بينهما ، وعلى المحبة السليمة

التى يدعمها صفاء الروح وتساميها واعتزاز كل منهما بعواطف الآخر وفهمه له فهماً صحيحاً ، ولولم تكن خلقت له وخلق لها وكأنهما توءمان لكانت تأثرت بالعرف الغبي وباعدته لعلو سنه ، فكانت هى الخاسرة لطافة روحه وشاعريته الجياشة بحب الجمال وإعزازه لها الذى يبعد بل يستحيل أن تلقاه من سواه ، وتفانيه فى إرضائها وتدليلها وخلق ضروب السرور والمتعة لها ، وهى مغانم أعظم بكثير مما تناله من فرد دونه سناً وأكبر مما يستأهله شبابها أو نضرتها ، وما أكثر الشباب الضائع والنضرة الذابلة عند أقدام الفتيان اللاهين . . . وهكذا كانت مدام هيوبر فى مثل عقلية مدام ميترلنك ، كل منهما تعرف قيمة الجوهر الذى ساقه الحظ إليها فحرصت على ألا تفرط فيه من أجل بريق سواه الذى لا يساميه منزلة ولا يدانيه صفاء ولا يقاربه فائدة ولا نافسه أو جاوزه رونقاً ، وهكذا كانت زوجة هيوبر بحصانتها ووفائها عوناً عظيماً له كما كانت ابنة ملتون التى تفانت فى حب والدها العزيز وخدمته فخورة بذلك ، وكما كان شأن مدام ميترلنك إزاء زوجها العبقرى . . .

— مهلا يا أمين مهلا ! أراك تسترسل فى خطبة أدبية أولى بها معاهد الأدب ، وحديثك شائق شائق ، ولو تركت دون مقاطعة لأخذت عنك سيراً وفصولا ودروساً أجمل بلا ريب

مما دونه فيزتيلى «Vizetelly» فى كتابه « غراميات الشعراء «Loves of the Poets » وأراك تحدثنى هذا الحديث العاطفى بحماسة وفى توجيه خاص فأين مبلغ انطباقه عليك أو على ؟ وما هى علاقة كل هذا بقرنى النحلة !

— لا يا ظالمتى وحاكمتى ! لا انطباق لما قلت فى شىء علينا ، ولكن الحديث ذو شجون ولا يملك من يعجب بالطبيعة والنحل وبالروح العلمية الصادقة ألا أن ينوه بهيوبر ،ومعاونيه وبأمثال هيوبر ومعاونيهم ، كما حاولت أن أنوه . . . ولنعد إلى تجاريب هيوبر الذى نعت عن جدارة « أمير النحالين » ، بل إلى بعض تجاريبه : فقد عمد إلى قطع أحد قرنى الملكة قرب جبهتها فلم يحدث أى تبدل فى طباعها وسلوكها . ثم قطع كليهما فإذا بالملكة التى كان النحل يكرمها ويرعاها تفقد منزلتها لدى النحل ، وحتى غريزة الأم زالت عنها ، فبعد أن كانت تعنى بفحص عيون القرص فحصاً دقيقاً قبل أن تضع بيضها فى هذه العيون صارت لا تعبأ بها وصارت تبيض كيفما اتفق خارج هذه العيون، وكذلك شأن تجاريبه على قرون العاملات والذكور ، فإن العاملات التى تفقد قرونها تعود إلى الخلية فاقدة النشاط وسرعان ما تغادرها إلى غير عودة لا يجذبها شىء سوى الضوء الخارجى ، وكذلك الحال فى الذكور ، فكان من المستنتج أن للقرنين أثراً حاسماً فى

توجيه النحل داخل الخلية حيث يتضاءل النور أو يسود الظلام — إذ لا تكفى العيون البسيطة وحدها ، كما أن لها أثراً فى « معنوية » النحل . ويدلنا الفحص الميكروسكوبى على وجود آلاف الثقوب الحساسة الدقيقة على قرن النحلة وقد تضاربت الآراء فيها ، وهل هى مشاركة فى حاسة الشم أو حاسة السمع أو فى كليهما ، ولكنها إجمالا صورة مدهشة محيرة لعلماء الحياة ، فلا عجب إذا لم تستطع النحلة أن تحيا بدون قرنيها ، فليس فى الإمكان نموهما ثانية كما ينمو مخ الحمامة بعد استئصاله إذا أبقيت عليها حية بالتغذية الصناعية إلى أن يتم هذا النمو وتعود إليها بتمامه جميع حواسها وغرائزها كما أوضح لنا كلود برنارد Claude Bernard فى تجاريبه العلمية . كذلك أرجل سرطانات البحر وذيول السحالى قابلة للنمو ثانية إذا ما قطعت ، ولكن هيهات حدوث ذلك لقرون النحل . وفى الرأس أعضاء أخرى هامة داخلياً وخارجياً . فمن الخارج لا يفوتنا التأمل فى أجزاء الفم ، وهى كما ترين من فحص النماذج الميتة بالعدسة المكبرة تتألف من شفة عليا تحت سطحها الأسفل يوجد فص صغير أملس تستقر فيه أعضاء حاسة الذوق ومن فكين خارجيين ومن فم فتحته عند قاعدتى الفكين ، ومن خرطوم عبارة عن امتداد عضو مركب واقع خلف الفكين ، ومن فكين داخليين يكونان بالاشتراك مع

لامسى الشفة أنبوبة يعمل داخلها اللسان ، ومن فكين ثالثين تتألف باتصالها الشفة السفلى وموقعها تحت فتحة الفم . وأخيراً من اللسان أو المذرب وهو يتصل عند جذوره بالذقن ويمكن إخراجه وإرجاعه بواسطة عضلات خاصة . ويغطى اللسان غمد مكسو بشعيرات بعضها حساس . وفى نهاية اللسان توجد شبه ملعقة عليها شعيرات دقيقة . وعند ما تجمع النحلة الرحيق أو تمتص العسل أو عند ما تتناول النحلة أى شراب نجد اللسان يتحرك سريعاً إلى الخلف وإلى الأمام بواسطة قضيب مطاط ممتد فى وسطه ، فيجمع بهذه الحركة السائل على شعيراته ويمتصه . وعند ما لا تستعمل النحلة لسانها تسحبه طى فمها قليلا ثم تطوى الجزء الخارجى تحت الذقن . وبعض ضروب النحل أطول لساناً من غيرها مثل النحل القبرصى والنحل القوقازى ، ومع ذلك لا يكفى طول اللسان لأن يكون النحل جماعاً للعسل ، بل هذه غريزة فى بعض الضروب . مثال ذلك أن النحل الإيطالى أكثر نجاحاً فى جمع العسل من النحل القبرصى مع أن الأخير أطول لساناً منه ، والنحل الكرنيولى أكثر توفيقاً فى ذلك من النحل القوقازى مع أن النحل الكرنيولى أقصر لساناً من الأخير.

— صدقت فى ملاحظتك ، فقد وصفتنى إحدى زميلاتى المؤدبات بطول اللسان ، ولا أعرف أنى نجحت يوماً فى جمع العسل !

الفصل السادس

الناس صنفان رئيسيان فى نظرتهم بعضهم إلى بعض وبعضهم إلى المجتمع ، وبين هذين الصنفين صنوف عدة متدرجة فى الصفات ما بين رأس القائمة وقاعدتها : فأما الصنف الأسمى فطراز من الناس جبلتهم الطبيعة على الإيثار ، وكيانهم الحيوى قائم على التفكير فى المجموع يشغلون به أيما إشغال وقد يساء إليهم من جراء ذلك مراراً وقد يتألمون ويعانون وقد يردد حالهم :

سيعيش فى همّ ويشقى دائماً   من عاش مشغولا بهمّ الناس

ولكن تكييفهم البيولوجى يبقيهم أسرى هذه النزعة الإنسانية مع عرفانهم أن جزاءهم المحقق قد يكون الجحود والطعن والاضطهاد وقلما يكون الوفاء والإنصاف . ومن بين هؤلاء ينشأ القادة والرواد . وأما الصنف الأدنى فيمثل الوصوليين الطفيليين الذين يتقنون التمسكن للتمكن ، ولا هم لهم إلا الانتفاع بمواهب غيرهم دون جزاء ، لا معنى للأريحية ولا للشهامة عندهم ، وغايتهم أن يغنموا دائماً على حساب غيرهم دون مبالاة بأى قانون أدبى وأن يبطشوا إذا ما تمكنوا بمن تضعهم الأقدار تحت رحمتهم . ومن بين هؤلاء الآلاف من الأفراد الذين يقلون أو يكثرون حسب

دماء الشعوب ، ولا يجدى فيهم علم ولا منصب ، وهم أكثر المادة التى ابتعثت السخط العلائى وتشاؤم كثير من الفلاسفة الاجتماعيين وكفرهم بالنفس الإنسانية وسيبقون كثرة ما دام النسل البشرى لا ينهض على أساس علمى حكيم .

وأمامنا بلا ريب فى أمين وبثينة نموذجان من ذلك الصنف الأول الرفيع من الناس؛ ليس لأنه مقدر لهما أن يكونا بين الرواد، فقد يتحقق ذلك أو لا يتحقق حسب الظروف والعوامل، ولكن لأنهما من معدن نفيس لا يمكن أن يتدنى . كان أمين يشفق على بثينة من خواطرها الاجتماعية الثائرة ومن تهافتها على الإصلاح ومن تألمها المتواصل لما يعانيه أبناء وطنها ومن قلقها الذهنى لخير المجموع . ولكنه فيما بينه وبين نفسه لم يكن إلا صورة من إحساس بثينة ذاتها . فما تقدمت دراستهما المشتركة للنحل والنحالة إلا وكان ما يشغلهما قبل العلم وقبل الكسب الشخصى كيفية انتفاع المجموع بهذا العلم ، وكيف يستفيد الاقتصاد القومى منه ، وكيف يمكن نشر النحالة العصرية على أحدث المبادىء العلمية بين الشعب رفعاً لمستواه المعاشى وترفيهاً عنه . وكانت رحلاتهما إلى المنحل وجولاتهما فيه وجلساتهما المتنوعة ينتظمها دائماً هذا الخاطر النبيل .

قال أمين : سرنى يا عزيزتى إقبالك على الدراسة العلمية

للنحلة وقد قرأت وصفك التشريحي وتأملت رسومك الميكروسكوبية البديعة فرأيت بنان الفنانة فيها .

— شكراً يا أمين ، وحمداً على أن تلميذتك نصف خائبة فقط !

— ولماذا تبخسين نفسك حقها يا بثينة ؟

— لا بخس ولا انتقاص ، ولن أعد نفسي ناجحة حتى أفوز بغايتين : أولاهما أن أوفر عليك التعب وأحقق الإدارة الكاسبة لمناحلك كما اتفقنا ، وينطوى تحت هذه الأمنية تفوقى العلمي ، وأين أنا من كل هذا ؟ . . . وثانيهما أن أنشر مبادئك الإصلاحية نشراً عاماً فيتبدد أمامها الفساد والجهل كما يتبدد الظلام والضباب أمام أشعة الشمس الوهاجة .

فابتسم أمين ابتسامة المؤمن المبشر لرسالته التى أخذت تتمكن من التربة الصالحة وآذنت بالاستقرار فيها .

— حقيقة يا بثينة ما استحق أن يولد من عاش لنفسه ، ولكن لكى نعيش لأمتنا بل الإنسانية عامة لا بد من التمكن من معرفتنا ومن الوسائل اللازمة لتطبيقها ، فالحماسة وحدها لا تجدى . وستتاح لك فرص كثيرة لفحص ما أقول ونقده والنظر فى كيفية تطبيقه للصالح العام ، فلا كان الخير الذى

يختصنا وحدنا ولا كان المذهب الأنانى القائل : أخف ذهبك ومذهبك وذهابك !

ولو أنى حُبيت الخلد وحدى   لما آثرت بالخلد انفرادا !

سأحدثك اليوم عن أثاث الخلية وعن ضروب النحل وعن كيفية نشوء النحلة ، وأظن أن هذا الحديث كاف بشرط أن تتزودى بقرص من الأسبيرين وقاية من الصداع وبقرص من الثيامين ضماناً لانتباهك وانتعاشك ، كما أنى سأكافئك ببعض العسل الشمعى الجديد فسأقطفه خصيصاً لك مع تحياتى الشعرية عند أوان الشاى !

— أنت متأخر جداً يا أمين بهذه المظاهرة المفتعلة التى تتصنع بها بخس نفسك ! لوكنت تقدمت بها منذ أسابيع وأنا لم أزل بعد « مادة خامة » لكان لها بعض المعنى . أما الآن فهى فاترة وبائخة تماماً ! إن حماستى يا أستاذى النجيب لا تقل ولن تقل عن حماستك ، ولن أطالبك الآن بالرهان على تفوقى ولكن سيأتى يوم قريب يطيب لك فيه هذا الرهان مطمئناً ،

— لقد زللت ، فصفحاً ! وهلم يا روحى وإلهامى إلى خلية الرصد قبل أن نعود إلى عملنا الرتيب فى الخلايا الأخرى .

ولكنهما ما كادا يخطوان بضع خطوات فى اتجاه خلية الرصد حتى سمعا « تهليلا » عجيباً فى الجو مبعثه آلاف من النحل

الطائرة التى كانت تترامى فى شتى الجهات كأنها مقذوفات المدافع الرشاشة ، ثم أخذت تتكيف فى مجموعها فى هيئة دائرية وتتجمع رويداً رويداً إلى أن حطت على فرع من إحدى أشجار المشمش التى تظال المنحل ، وقد ترك أمين بثينة مشدوهة لهذا المنظر الساحر وهو يهتف « هذا ثول خرج من إحدى الخلايا » وهرع فأحضر دلواً من الماء ومضخة نثر بها الماء على النحل الطائرة كأنما يوهم النحل بسقوط المطر فدفعها بذلك إلى سرعة التجمع على الشجرة قالت . بثينة : حسبتك يا أمين تقول إننا بقطع بيوت الملكات فى الخلايا التى تنشأ فيها نصون طوائفها من الانثيال ، وأظن أننا فعلنا ذلك بكل دقة خلال الأسبوع الماضى ، فماذا جرى يا عزيزى حتى نفاجأ هذه المفاجأة التى تفسد علينا ترتيبنا وتفسد على إحدى الطوائف القوية إنتاجها ؟

— لا ضرر إن شاء الله . . . الواقع أنه قد فاتنا بيت ملكة ربما كان مختبئاً فى طرف قرص ، فلما خرجت منه الملكة العذراء أو أوشكت على الخروج انثال جانب من الطائفة مع الأم أى مع الملكة الأصلية المخصبة ، وكان ما رأينا . وعلينا الآن أن نبحث عن الطائفة التى خرج منها الثول وأن نضعه فى خلية جديدة ، ونحن لم نخسر شيئاً بتغيير مجرى حديثنا وبتناولنا موضوعات غير التى كنا ننوى الحديث فيها ، ومن يدرى

فقد يسمح لنا الوقت بتناولها أيضاً . ولذة الحديث والعمل فى المنحل ألا يكونا مقيدين . إن فى وسعك وفى وسع أى طالب أن يقرأ كتاباً موجزاً أو مسهباً عن النحالة فى المنزل وفيه الغنية عن كل حديثى ، ولكننا هنا نقرأ كتاب الحياة بالقراءة المتسلسلة فيه ، بل لنا أن ننظر فى أية من صفحاته كما نشاء ، فكل منها مستقلة وكل منها مرتبطة بغيرها ، وأهم ما يعنينا أن نلم بروحها جميعاً ، وهذا الإلمام بروح المنحل هو أعظم ما نغنمه ولا خير فى نحال لا يتشرب هذا الروح .

وبعد أن رش أمين النحل بالماء جيداً أحضر من حجرة الأدوات صندوقاً مصنوعاً من السلك والخشب ذا غطاء وقطعة من النسيج واتجه مع بثينة إلى حيث موضع الثول ، وكان لحسن حظهما فى موضع واطىء إذ لم تكن الشجرة مرتفعة ، فطلب إليها أن تحمل الصندوق — بعد أن رفع غطاءه — تحت الثول مباشرة ، ثم هز الفرع هزة قوية موفقة فسقطت النحل أو معظمها داخل الصندوق فوضع أمين غطاء الصندوق عليه ثم غطاه أيضاً بقطعة النسيج وأحله فى مكان ظليل بجوار حجرة الأدوات ، وكان غرضه من التغطية بالنسيج حجب الضوء بقدر الإمكان عن الثول ليبقى مستكنا فى حين أن السلك الذى فى الصندوق كفيل بالتهوية الوافية ، كما أن وضع الصندوق فى الهواء

الطلق وفى مكان ظليل بدل إحدى الغرف يحميه من ارتفاع الحرارة المؤذية للنحل . ثم أخذ بثينة وراح يتأمل أبواب الخلايا عله يهتدى إلى الخلية التى خرج منها الثول فوجد خلية ذات طابقين مأهولين بالنحل ، ومع هذا لا يتجلى النشاط عند بابها ، فقدر أن الراجح خروج الثول من هذه الخلية . لم يعبأ أمين ولا بثينة بلبس القناع عند جمع الثول من فوق الشجرة لعلمهما بأن النحل المنثالة وديعة وأبعد ما تكون ميلا إلى اللسع ، ولو أن الحكمة تقضى بلبس القناع على أى حال اتقاء لأى طارئ .

أما وقد اضطرا إلى فتح خلية مأهولة بطائفة قوية فلم يكن بد من التأهب الكامل لذلك . وفتحا الخلية فوجدا فى غرفة التربية عدداً من بيوت الملكات فى أدوار شتى من التكوين ، كما وجدا بيتاً مرفوع الغطاء دالا على خروج ملكة منه ، وسرعان ما وجدا ملكة عذراء تجرى كالصبية الطائشة على أحد الأقراص فأعادا هذا القرص إلى الخلية مطمئنين وعمدا إلى قطع بقية بيوت الملكات اتقاء لأية هجرة تابعة ، وهى ما يطلق عليها اسم « التطريد » كما يطلق على النحل المهاجر مع ملكة عذراء اسم « الطرد ». وبعد أن دون أمين ملاحظاته على بطاقة الخلية أغلقها وكتب على واجهة الخلية بالطباشير الحرفين (م ع) إشارة إلى أن فيها ملكة عذراء ، ونبه بثينة إلى أنه لن يفتح هذه الخلية اللهم إلا عاسلتها

حين يريد فرزها — قبل مرور أسبوعين أو ثلاثة ليعطى الملكة العذراء دون مقاطعة تخيفها فرصة للتلقيح ووضع البيض فى هدوء ، حتى إذا ما عاد إلى فتح الخلية كان أمام نتيجة يصح له الاطمئنان إليها .

قالت بثينة :

— ولكن ألا يجوز أن تضيع الملكة العذراء أثناء التلقيح فما الذى نغنمه من الانتظار كل هذا الزمن قبل إعادة الفحص ؟

— إن فى تصرفنا هذا ضماناً لمنع عصبية الملكة التى قد تلزمها الخلية ولا تشجعها على الخروج للتلقيح . وليس ثمة أسوأ من تهافت المبتدىء على التطلع إلى الملكة العذراء بين يوم وآخر للتأكد من أنها لقحت ، فإن نتيجة ذلك اضطراب الطائفة وتثبيط اهتمام الملكة بالخروج للتلقيح إذ قد يتغلب الخوف على الغريزة .

— أليس من الجائز أن هذه الطائفة قد انثالت بالأمس مثلا أثناء غيابنا ، وأن الخلية التى خرج منها الثول هى غير هذه ؟

— هذا جائز لولا أنى لاحظت فى أقراص هذه الطائفة بيضاً عمره يوم واحد ، وهو الذى يبدو واقفاً على قاعدته دون ميل ، وإن جاز لك أن تعترضى بأن الملكة قد تكون باضت بعد ظهر أمس قبل خروجها ، وها هو لم يمر — ونحن فى الصباح

التالى — يوم كامل عليه ، إذ يجوز أن ينثال النحل عند الأصيل كما ينثال فى الصباح وإن كان انثيال الصباح هو الأكثر حدوثاً . ومهما يكن من شيء فلدينا حيلة بسيطة وهى أن نجمع فى صندوق آخر بقية الثول الجاثمة على فرع الشجرة وننثر فوقها بعض الدقيق وندعها تطير ، فإذا دخل بعض هذا النحل الذى سيتميز بما عليه من بياض الدقيق فى هذه الخلية كان ذلك توليداً تاما لاستنتاجنا الأول .

ونفذ أمين قوله فتحقق استنتاجه وسرت بثينة بما رأت ، ثم سألته :

— وماذا تنوى عمله لهذا الثول المحبوس ؟

— سأهيء له خلية صالحة له أزودها بقرص من الحضنة المختومة وبآخر من البيض واليرقات الصغيرة وذلك من إحدى الطوائف القوية ، كما أزوده بقرص من العسل والعكبر من قبيل التشجيع على الاستقرار ولو أن الحقول وفية الآن للنحل بأزهارها العسلية . فأما الحضنة المختومة ففائدتها أنها تستبقى الثول فى خليته الجديدة فلا يفكر فى هجرتها ، وأما قرص البيض واليرقات الصغيرة فإليه يلجأ النحل لتربية ملكة جديدة لو أن الحظ عاندنا وفقدت الملكة لأي سبب أثناء إدخال الثول وإقراره في الخلية الجديدة ، وأما قرص العسل والعكبر فيزود الثول

بحاجته من الغذاء إلى أن تبدأ نحلة السارحة فى الجمع الوافى فى الحقول ، وأما الأقراص الخالية المكملة بها غرفة التربية فلتكون تحت تصرف المملكة فى وضع بيضها .

وفتحا خلية ذات طائفة قوية وأخذا منها تلك الأقراص الثلاثة وأحلا محلها ثلاثة إطارات بأساساتها الشمعية المثبتة فى السلك الواقى لها ، واختارا خلية خالية فوضعا فيها قرص العسل والعكبر فى أحد جانبيها ووضعا القرصين الآخرين فى الوسط وأعدا بقية الأقراص الخالية للوضع داخل الخلية بمجرد نفض الثول فيها . فأحضر أمين الصندوق ، وبعد رش النحل رشاً جديداً بالماء من خلال السلك حتى لا يتهافت على الطيران عند نفضه داخل الخلية رفع غطاء الصندوق وهز ما عليه من نحل داخلها ثم هز ما فى الصندوق نفسه وأسرع فوضع الأقراص الخالية فى أماكنها من غرفة التربية ثم وضع فوقها الغطاء الداخلى وقد أقفل فتحته المتوسطة بقطعة من الخشب حتى تبقى النحل ملازمة لغرفة التربية فى بداية تعميرها لها ، ثم وضع العاسلة الخالية فوق الغطاء الداخلى كأنها غرفة مساعدة على التهوية إذا ما صار الجو حاراً ، ثم أقفل الخلية بالغطاء الخارجى بعد أن ثبت داخله بطاقة عليها البيان الكافى عن الثول على غرار ما يكتبه من بيان عن كل طائفة .

قالت بثينة : ولماذا تكتفى يا أمين بغرفة واحدة لهذا الثول مع أنه كبير الحجم ؟

— صحيح إنه كبير الحجم بالنسبة لأثوال النحل المصرى ولكنى لا أعده إلا وسطاً ، وقد يزن نحو ستة أرطال أى يشمل زهاء ثلاثين ألف نحلة ، ولكن حسبى أن أقلد النحل فى حبها للتركيز وللنظام . لقد أعطيت الثول أقراصاً خالية وفى وسع ملكته أن تبيض فيها فوراً ، وبعد بضعة أيام يمكننا أن نعطى هذه الطائفة الجديدة طابقاً ثانياً من الأقراص . وعدد النحل على أى حال لا يزيد عن حاجة غرفة واحدة ، وإن من الأخطاء التى ترتكب فى معاملة النحل إعطاءها فراغاً أكثر من اللازم فى الوقت الذى يراد فيه توجيه عنايتها إلى عمل معين وتركيز التفاتها إليه .

— وهل تظن أن نحل الطائفة التى خرج عنها هذا الثول تستطيع الاستمرار فى جمع الرحيق ؟

— من حسن الحظ أن هذا الثول تركها بعد جمع معظم الرحيق ، ولا يزال للطائفة الأصلية على كل حال عدد وافر من النحل السارحة ، لأن النحل التى تؤلف الثول معظمها من النحل المتوسطة العمر ؛ أى أنها ليست من النحل المراضع وهى النحل الصبية وليست من النحل البالغة التى انقطعت للسرح وتفرغت

له . والآن لنعد إلى خلية الرصد لنسائل صاحباتها العزيزات عما يشغلهن .

وتوجها إلى خلية الرصد فكشفا أغطيتها الجانبية فإذا بثينة تلاحظ أن بعض النحل ترقص رقصات غريبة ، فقال أمين :

— لاحظى كذلك يا عزيزتى أنها تحمل طلعاً أزرق زاهياً فى السلال التى بأرجلها الخلفية وأن الغرض من هذا الرقص تنبيه زميلاتها إلى هذه الثروة الجديدة ، حتى تتجه إلى مصادرها ، فالرقص إذن من لغة التخاطب بين النحل العاملات !

— سأقلدهن يا أمين وسأمرنك على هذه اللغة العصرية !

— إنها لغة أزلية بالنسبة إليهن . . . ولكن أنظرى يابثينة ها هى الفرصة متاحة لك لمشاهدة النحل متعلقة بعضها ببعض فى هيئة سلاسل مشغولة ببناء قرص جديد على الأساس الشمعى الذى فى الطابق الأعلى ، والآن يمكنك الانتفاع عند مراقبة عملها بالمعلومات التى وعيتها منى ومن مشاهداتك الميكروسكوبية عن تشريح النحلة فلن تتململى بل ستشكرين معرفتك إياها . . . ولا تنسى أن هذا الأساس الشمعى نعمة من نعم النحالة الحديثة ولو أنه من نعمها الأولى ، فإن مبتكراتها تتوالى وأحدثها القرص الصناعى من الألومنيوم والباغة ومن العجائن المتينة العازلة للحرارة وللبرودة . . . هذا الأساس الذى تشاهدينه من صنف ممتاز

ويسمى « أساس داوانت السلكى » فإنه إلى جانب جودة شمعه الطبيعى وجودة صناعته مغروز فيه أسلاك متموجة تكسبه قوة ومتانة لا غنى عنهما فى المناطق الحارة حيث يؤثر الجو على درجة احتمال الأساسات الشمعية . وهو مطبوع طبعاً جيداً بقواعد بيوت العاملات بنسبة ٢٧ — ٢٩ بيتاً للبوصة المربعة ، فتبنى النحل بيوت العاملات على هذه القواعد فتكون النتيجة قرصاً حسن الانتظام يكاد يكون خالياً من بيوت الذكور نظراً لمراعاة النحل للمشق الذى أمامها ، وهكذا لا تبيض النحل فى هذه البيوت إلا بيضاً ملقحاً فتكثر نسبة العاملات كثرة محسوسة فى الطائفة ، وهذا ما يتمناه النحال تحقيقاً لحسن إنتاجه. وتلاحظين أننا لا نكتفى بهذه الأسلاك المتموجة المغروزة طولياً فى لوح الأساس بل نثبت فى الأساس أسلاكاً مستعرضة كذلك ، وهكذا نزيد تماسك القرص الذى يبنى على هذا الأساس فى الإطار الذى يحتويه ، وسأعطيك فرصاً كافية يا عزيزتى للتمرن على تسليك الأساسات سواء بواسطة الجهاز الكهربائى المخصص لذلك أو بواسطة عجلة التثبيت التى تجرى ساخنة — بعد إخراجها من الماء المغلى — فوق السلك فتساعد على غرزه فى اللوح الشمعى ، وليس رآء كمن سمع ! ولا يفوتنى تكرار تنبيهك إلى أهمية نقاء الشمع فى صناعة ألواح الأساس

وعلى الأخص فى المناطق الحارة حتى لا يتمدد الشمع بدرجات متفاوتة فينبعج القرص ويتثنى فى مواضع وقد يسقط بتأثير الحر فلا يصيب النحل والنحال غير الخسارة . ولذلك يهمنى دائماً الحصول على أجود أنواع الأساس .

— ولماذا لا نصنع هذا الأساس فى وطننا فنخلق صناعة جديدة ونوفر مالنا ؟

— هذا أحد الأهداف الإصلاحية فى النحالة المصرية التى أرمى إليها بالرغم مما ألاقيه من عقبات .

— وأى عقبات يمكن أن تخلق فى وجه مثل هذا العمل ؟

— لا تسأليني يا عزيزتى ، وإنما سلى روح الجمود والهوى وسلى روح الحسد الأثيل الخالد فى المجتمع البشرى . . . وسأسبقك إلى سؤال لا شك أنه فى خاطرك : أيها أولى بالتفضيل: الأساسات الشمعية أم الأقراص الصناعية ؟

— عمرك أطول من عمرى يا أمين !

— لا سمح الله يا حياتى ! إن لكل من الأساسات الشمعية والأقراص الصناعية فوائدها ؛ ولو خيرت لاقتصرت على استعمال الأقراص المعدنية فى العاسلات لادخار العسل نظراً لمتانتها أثناء الفرز بالآلات الخاصة به خلافاً لحال الأقراص الشمعية المتعرضة للتكسر والتلف ، وستتأكدين من هذه المزايا بنفسك

عند ما نتولى فرز العسل قريباً . وأما الأقراص الباغة والأقراص العجينية المصنوعة من السليكون « Silicone » مثلا فهى جد صالحة لغرفة التربية لأنها جامعة ما بين المتانة ومقاومة التقلبات الجوية ، فإذا أهمل النحال المبتدىء فى كيفية استعمالها لم يكن ضرر ذلك خطيراً . وأما الأساسات الشمعية فإنى أوثر قصرها على إنتاج العسل الشمعى أى الذى يؤكل بشمعه ، وفى هذه الحالة نستعمل أساساً أقل سمكاً من الأساس الذى نستعمله لأقراص التربية إذ لا حاجة بنا حينئذ للمتانة والكثافة وإنما نريد رقة الشمع الذى يؤكل مع العسل كأنه البسكويت الرقيق . أما الأقراص الباغة والعجينية التى لا تستأثرها الحرارة والبرودة فهى أصلح ما تكون لغرفة التربية ، كما أنه من الممكن استعمالها فى الخلية عامة أى للتربية ولإنتاج العسل على السواء .

— ولكنى لم أر أقراصاً عجينية فى المنحل فأين هى ؟

— هى فى ذهنى يا عزيزتى !

— ماذا تعنى ؟

— إنها أحد مقترحاتى لتحسين أدوات النحالة ، وقد تحققت من إمكان تنفيذ ذلك متى سمحت الظروف بعد الحرب إذا ما قامت بصنعها شركة قديرة متوثبة ، فيصنع القرص وإطاره قطعة واحدة من هذه المادة العجينية العازلة ، كذلك سيتيسر

صنع أجزاء الخلايا من نفس المادة ، وستظفر النحالة الحديثة حينئذ بأدوات جيدة اقتصادية، بل بأدوات مثالية لا ينال منها الزمن ولا تعبث بها تقلبات الجو فتبقى لها جدتها ورونقها ، ومتى انخفضت تكاليف الإنشاء والصيانة فى المنحل انخفضت نسبيًّا أثمان العسل والشمع والنحل وعوض النحال ذلك بالتوفر على زيادة الإنتاج وكثرة البيع فيستفيد النحال ويستفيد الشعب الذى يجب أن نوفر له ضروب الغذاء الصالح بأقل ثمن مستطاع ، فلا سعادة لطائفة من الأمة بدون سعادة المجموع . ويجب دائماً أن يكون أفقنا واسعاً عند التفكير فى أى مشروع فى ثمراته وعواقبه .

— ولكن لماذا لا نكتفى الآن باستعمال الأقراص المعدنية مثلا ، وقد رأيت النحل تدخر العسل فيها دون تردد بكميات عظيمة كما رأيت الملكة تبيض فيها دون تحفظ ؟

— لا مانع فى المناطق المعتدلة لو أن جميع النحالين لهم مثل ثقافتك ويعرفون كيف يحتاطون الاحتياط المعقول لحماية حضنة النحل من التقلبات الجوية ، ولكن أكثرهم يتساهل بل يستهتر فيقضون على الحضنة بإهمالهم ويخربون الطائفة . إن الأقراص المعدنية يمكن إعطاؤها للطوائف القوية لا للنويات الضعيفة بالاشتراك مع أقراص الشمع ، وإنى شخصياً أستعملها أولا فى

إنتاج العسل حيث تكون النحل قد بنت على الحوافى المعدنية لبيوتها امتدادات شمعية عازلة ، وبعد الفرز أعطي ما أشاء للملكة فى غرفة التربية وسرعان ما تملؤها الملكة بالبيض ، ومتى فقس البيض وتطورت الدودة وشرنقت العذراء فى البيت وختمت النحل عليها نقلت مثل هذا القرص المختوم إلى العاسلة ليستكمل حضانته حتى إذا خرجت النحل الوليدة من بيوت القرص نظفت النحل هذه البيوت ولمعتها وادخرت الجديد من العسل فيها . أما النحال المبتدىء فما أسهل خطأه ، إذ لا يتورع عن إعطاء أقراص معدنية جديدة — وفوق الحاجة عدداً — إلى طرد صغير من النحل لا يكفى لتغطيتها ووقايتها من التقلبات الجوية ، وهكذا تسوء العاقبة أو يعطى نواة ضعيفة مثل هذه الأقراص الجديدة فيصيبها الفشل . أما الأقراص المصنوعة من الباغة (وقد تستعمل لصناعتها الأفلام السينمائية القديمة المستغنى عنها) فلا تحتاج إلى مثل هذا التحفظ وكأنها أقراص شمعية ، ولكن للأسف لا توجد وفرة منها فى السوق، فلا هى صنعت محلياً ولا هى جلبت من موطنها فى الولايات المتحدة حيث كان للمهندس النحال المبتدع جورج ماكدونالد فضل السبق إلى ابتكارها وإلى ابتكار الأقراص الألومنيوم، فكان موفقاً توفيقاً عظيماً وأدهش عالم النحالة بترويضه النحل على هذه الأقراص

الصناعية فى سهولة ويسر ، والواقع أنه لم يكن مناهضاً لطبيعة النحلة باختراعه هذا بل كان مستغلا لها . والنحلة بمرونتها العملية طاوعته راضية قريرة إذلم يفتها فى النهاية أن تحول القرص الصناعى إلى ما يشبه الطبيعى بفضل الامتدادات الشمعية التى ألصقتها بحوائط البيوت واكتسبت المتانة التى زوده النحال بها .

ــ وهل تبطن النحل هذه البيوت بالشمع ؟

ــ كلا ! إنها لا تفعل شيئاً من ذلك وإنما تطيل حوائط البيوت بالإضافات الشمعية لأن الشركة التى تصنع هذه الأقراص تتعمد ألا تجعل عمق البيوت كاملا حتى تتيح للنحل فرصة هذا البناء الإضافى المناسب جداً لها ، والموائم للنحال حينما يريد كشط الغطاء الشمعى عن الأقراص العسلية ، بعكس الحال فيما لو كانت الحوائط المعدنية كاملة . وأظنك رأيت كثيراً من البيض على القواعد المعدنية اللامعة لبيوت القرص ، وعانيت صعوبة فى رؤيتها أحياناً ، وهذا يثبت لك أن النحل ذاتها لا اعتراض لديها على الأقراص الصناعية فى ذاتها .

ــ لاحظت يا أمين أن الأساس الشمعى الذي قام النحل عليه شبه مكحوت فهل هذا صحيح؟ وهل يستغل النحل ما يكحته من الشمع فى بناء القرص ؟

ــ هذا هو الواقع دون أن يعفى النحل من فرز شمع إضافى

من غددها الشمعية الخاصة لتكملة البناء . ومن أجل هذا الاعتبار تصنع ألواح الأساسات الشمعية لغرفة التربية بمعدل سبعة ألواح للرطل وزناً ، حتى تكون كثيفة بدرجة كافية لينتفع النحل من كحتها فى بناء القرص دون الإخلال بمتانتها .

— لست أدرى أيهما أعجب : أهو اختراع الأساس الشمعى الذى يوفر على النحل جهداً عظيماً وينظم لها أقراصها حتى تساعد على نشوء أفراد الطائفة أفضل نشأة ، أم هو ابتداع القرص الصناعى الذى ينقل النحل من أساليب فطرتها إلى أحدث ما تزودها به المدنية لنجاحها ورفاهتها ؟ !

— كلاهما عجيب ، ولكن الأعجب هو العقل الإنسانى الذى درس طباع هذه الحشرة ثم طوعها لمصلحتهما المشتركة . لقد جاء ابتداع مهرنج « Mehring » الألمانى للأساس الشمعى مكملا لابتداع لانجستروث « Langstroth » الأمريكى لخليته ذات الإطارات المتحركة ، كان ذلك فى العقد السادس من القرن الماضى ، فقد ظهرت خلية لانجستروث فى سنة ١٨٥١ م . وبعدها بست سنوات (١٨٥٧ م) قدم مهرنج هديته النفيسة إلى عالم النحالة ، وبعد ذلك بتسع سنوات (١٨٦٦ م) . صنعت شركة روت الشهيرة أول مطبعة اسطوانية لطبع الأساس الشمعى طبعاً واضحاً غائراً بحيث لا يتردد النحل فى البناء المتقن عليه ، وما

زالت صناعة الأساس الشمعى منذ ذلك الوقت فى تقدم مطرد حتى أدخلت شركة داوانت المعروفة أساسها السلكى المعرج وقلدتها فى ذلك شركات أخرى وتفنن الجميع فى حسن صناعة الأساس إرضاء للنحالين .

— ولكن يخيل إلى مما سمعت منك أن أهم ما يعنينا من الأساس الشمعى قبل جودة طبعه بقواعد البيوت أن يكون مصنوعاً من شمع النحل النقى ، وإلا تعرض النحل والنحال إلى خسائر ، وربما أصيبت الطائفة بكارثة نتيجة تثنى الأقراص وسقوطها بالنحل وعليها إذا ما اشتدت حرارة الجو ، فكيف تضمن نقاء ما تشتريه من الأساس الشمعى المصنوع محليًّا ؟ هل تلجأ إلى مصلحة الكيمياء لفحصه ؟

— أصبت فى ملاحظتك ، ولكنى لا ألجأ إلى مصلحة الكيمياء بل أطبق امتحاناً بسيطاً تعلمته أثناء الدراسة من أستاذى فى الجامعة ، فقد نبهنا إلى طرق يسيرة ولكنها صائبة اعتماداً على حاستى الشم والذوق ثم اعتماداً على تجربة هينة . كان يقول لنا إن غش الأساس ينطوى إما على إدخال شمع البرافين أو الشحم الاعتيادي أوالدهن أو ما ماثل هذه المواد فى صناعته ، والغالب أن النحل ترفض استعماله إذا كان الغش كبيراً . فإذا كان الأساس مغشوشاً بالشحم فإن رائحته تنم عليه إذا

ما كسرت قطعة منه وشممناها ، وأما إذا كان مغشوشاً بشمع معدنى فإن مضغ قطعة منه يجعلها تتحول تحول اللواك حينما يدار فى الفم فتصير متماسكة كالعجينة بعكس ما لو كان الأساس نقيًّا فإن القطعة الممضوغة منه تتفتت فى الفم . . .

— وهل هذه تجربة يمكن التعويل عليها ؟

— كلا ! وإنما هى امتحان مبدئى ، وأما التجربة العملية التى أوصينا بها باعتبارها تجربة فى متناول كل منا وأنها قد تغنينا عن الالتجاء إلى المعمل الكيميائى إلا فى حالة الاشتباه القوى فيمكن إجراؤها كالآتى : تملأ كوبة إلى نصفها بالماء وتوضع فيها قطعة صغيرة من الشمع النقى (أى من إنتاج النحل نفسه من إحدى الخلايا) حيث تبقى عائمة لأن الثقل النوعى لشمع النحل (٩٦٠ — ٩٧٠) أقل من الثقل النوعى للماء (١٠٠٠ر١) . فإذا ما أضفنا تدريجيًّا بعد ذلك قليلا من الكحول إلى أن تهبط قطعة الشمع إلى قاع الكوبة بعد أن كانت عائمة ودون أى إضافة زيادة على ما نحتاج إليه لتحقيق ذلك ، فإننا نكون بذلك قد ساوينا بين الثقل النوعى للماء ولشمع النحل النقى . ومن حيث أن الأساس الشمعى الملوث بالبرافين وما إليه له ثقل نوعى أخف من الثقل النوعى لشمع النحل النقى فإننا إذا وضعنا قطعة من هذا الأساس المغشوش فى هذه الكوبة

فإنها بطبيعة الحال تعوم على سطح السائل حينما تبقى قطعة الأساس النقى فى قاع الكوبة .

— بديع ! هذه ولا ريب طريقة ميسورة لكل نحال .

— نعم ، وفى إمكان كل نحال أن يعد هذا السائل الكحولى ويحتفظ به فى زجاجة محكمة الغلق لاستعماله فى الفحص هكذا عند ما يريد ، ثم يعيده إلى الزجاجة بعد الفراغ من الفحص .

— أليس للون الشمع علاقة بنقائه ؟

— ربما تكدر لون الأساس الشمعى إذا لم يكن حديث الصنع ، كما يكون أقل مرونة أى أقرب إلى التكسر ، ولكن تدفئته قليلا تحسن طبيعته ورونقه .

— ولماذا تبنى النحل عيون القرص سداسية ؟

— لعل من أسباب ذلك أن هذه الصورة من البناء تعطينا أكبر عدد من البيوت فى أقل مساحة ممكنة مع التوفير فى الجهد وفى مادة البناء ، وقد نبه إلى ذلك من قديم العلامة الطبيعى تشارلس داروين وغيره وأشادوا بمتانة القرص المبنى على هذا النسق.

— كأنما النحلة بفطرتها مهندسة عظيمة !

— بلا ريب !

— لى بضعة أسئلة أخرى متعلقة بما ذكرته : (١) ما هى مزايا الأقراص الصناعية إجمالا على الأقراص الشمعية عدا

متانة الأولى ؟ (٢) ألا يضر النحل قصر إنتاجها الشمعى نتيجة تربيتها على الأقراص الصناعية ؟ (٣) ألا تحد الأساسات الشمعية المطبوعة بقواعد بيوت العاملات وكذلك الأقراص الصناعية المؤلفة من بيوت عاملات فحسب من تربية الذكور حداً أكثر من اللازم ، وإذا صح هذا أفلا يوجد علاج له ؟

ـــ مهلا ! مهلا ، يا عزيزتى ! هذه أسئلة جامعة بل جامعية ، والإجابة عنها تستحق الإسهاب ، ولكنى سأوجز قدر الطاقة . فاعلمى يا حبيبتى أن النحل لا تقوم بعمل هين عند بناء الأقراص الشمعية . إنه يكلفها جهداً ووقتاً كما يكلفها عسلا . فلابد للنحل إذا ما فرزت غددها رطلا من الشمع من هضم جملة أرطال من العسل لتستحيل بطريقة التمثل الغذائى إلى شمع تفرزه الغدد ، وفى هذا خسارة غير هينة للنحال أيضاً إذا ما قدرنا الفرق ما بين سعر العسل المستعمل وسعر الشمع الناتج . وهذا من أسباب ارتفاع سعر العسل الشمعى ولكنه ارتفاع لا يعوض بالقياس إلى سعر العسل المفروز وإنتاجه . ويجب ألا ننسى أن الأقراص الشمعية معرضة للتلف التام إذا ما تمكنت منها العثة الشمعية ، وهى حشرة تبيض فى الأقراص الشمعية وتقوم يرقاتها بحفر سراديب فى هذه الأقراص تبطنها بما تلفه حولها من غزل الحرير وهى تنساب فى هذه السراديب ، ومتى استوفت

تغذيتها غزلت فيلجاً أبيض حولها وشرنقت سواء داخل الأقراص أو على إطاراتها أو على حائط من حيطان الخلية أو على أى جزء منها حافرة فى الخشب قبل نومها مكاناً لها حينما يستقر الفيلج أو الشرنقة . وستتاح لك فرص لمشاهدة هذه الحشرة بنوعيها الكبير والصغير ، والأخير هو الأكثر شيوعاً . ولا تكتفى يرقاتها بأكل الشمع بل تقضى أيضاً على ما فى الأقراص من حضنة وطلع وعسل الخ . ولذلك لا بد للنحال الذى يستعمل الكثير من الأقراص الشمعية فى منحله إذا ما خزن الزائد منها أن يضعه فى صناديق خاصة أو فى غرفها الزائدة عن حاجة الخلايا بعد إحكام قفلها وبتبخيرها بغاز الكبريت المحترق « ثانى أكسيد الكبريت » أو بإحدى المواد الفعالة ضد العثة مثل التحضير الكيميائى المسمى ميتكس Mitex وفى كل هذا عناء وتكاليف وخسارة ، إلى جانب ما لا بد أن يفقده النحال سنوياً بنسبة تتراوح ما بين ١٠٪ و ١٥٪ من الأقراص التى تشوه أو تتكسر أثناء العمل مما سترين أمثلته بنفسك فى ظروف شتى . وصحيح أنه يمكن إذابة الشمع المشوه والمكسور وصبه بعد تصفيته فى قوالب للبيع ، ولكن هذا لا يعوض خسارة النحال إلا تعويضاً جزئياً . أما الأقراص الصناعية المشغولة أى التى بنت عليها النحل امتدادات شمعية فإن الحشرة الشمعية إذا ما أصابتها

لا تتلف منها سوى تلك الامتدادات ويبقى أصلها سليماً .
ولا تنسى أيضاً أن الفيران لها حظها أحياناً فى العبث بالأقراص الشمعية فى حين تبقى الأقراص الصناعية سليمة . كذلك تبخير الأقراص الصناعية وتطهيرها إذا ما تلوثت بميكروبات ممرضة للنحل وعلى الأخص لليرقات إذ من ألد أعدائها جراثيم ذات بذور مقاومة جداً للمطهرات فى حين أنه لا بد من إذابة الأقراص الشمعية ، وفى هذه الحالة وقد نضطر أحياناً إلى حرقها وحرق إطاراتها أيضاً ، وفى كل هذا خسارة فادحة للنحال . وصحيح أننا لحسن الحظ ، لا نعرف هذه الأمراض فى مصر ، ولكن من الجائز أن تتسرب إلينا بعد أن قضت المواصلات الجوية على الحدود الجغرافية وكادت تقضى على الحوائل الجمركية ، كما أنى أنظر إلى هذه المسألة نظرة غير محدودة بمنفعتنا الخاصة ، إذ لماذا لا نعاون الأقطار الشقيقة كذلك على النهوض بنحالتها وفيها مع الأسف بذور تلك الأمراض التى سببت خسائر عالية فادحة ؟ . . وقد سألتنى عما إذا كان يسىء إلى النحل تثبيط إنتاجها الشمعى نتيجة استعمال الأقراص الصناعية . والواقع أن النحل الموكلة ببناء القرص (وهى فى المعتاد النحل المتوسط العمر) لديها الفرص الكافية لذلك أثناء الموسم فى بناء الامتدادات الشمعية على هذه الأقراص الصناعية إلى تغطيتها ونحو ذلك . ومع كل فأغشية

فرز الشمع الغددية تخلق طبيعياً ولا وجود لها فى الملكة ولا علاقة لخلقها بمقدار استعمال النسل لها ، وعلى الأخص لأن حياة النحلة العاملة محدودة جدًّا ، وليس الخوف على النحل العاملة من قلة استعمال هذه الغدد بل من إرهاقها فى بناء الأقراص . . .

وأما عن سؤالك الخاص بحد الأقراص الصناعية والأساسات الشمعية المطبوعة بقواعد بيوت العاملات من تربية الذكور حدًّا يتجاوز ما ينبغى فحسبى فى الرد عليه أن أذكر لك أن النحل لا تتقيد بطبع الأساسات الشمعية . هذا إذا ما شعرت بالحاجة إلى تربية الذكور . وغاية الأمر أن تلك الأساسات الشمعية تحد من إسرافها فى بناء بيوت الذكور إذ تستهويها إلى الإكثار من بناء بيوت العاملات التى هى أمنية النحال . وحتى الأقراص الصناعية المخصصة لتربية العاملات قد تبيض فيها الملكة عدداً من البيض غير الملقح ، أى الذى تنشأ عنه الذكور ، فهل يحدث هذا مصادفة أم بتأثير عوامل خارجية كحلول موسم الانثيال والتكاثر الذى يسبقه طبيعياً ازدياد عدد الذكور؟ هذا ما لا أستطيع الحكم عليه . والنتيجة أن الذكور التى تربى فى بيوت العاملات تنشأ صغيرة الحجم وإن لم تكن ضئيلة الحيوية .

— ولكن ألا يمكن تخصيص أساسات شمعية أو أقراص صناعية لتربية الذكور ؟

— هذه توجد فعلا ولكن أكثر استعمالها مقصور على المناحل المتخصصة فى تربية الملكات والتى يهتم أصحابها تربية وفرة من الذكور الممتازة المختارة إلى جانب تربية الملكات الممتازة المختارة وبذلك يضمنون إلى حد بعيد التلقيح النافع المطلوب . وأما فى مثل مناحلنا التى تتجه عنايتها إلى إنتاج العسل فحسبنا أن نمنع نشوء الذكور غير الممتازة ، فتترعرع الذكور الجيدة .

— وكيف يتحقق ذلك ؟

— المعتاد أن يصطحب النحال معه — إلى جانب العتلة والمدخن — شوكة كالمستعملة على مائدة الطعام يتلف بها أغطية بيوت الذكور الزائدة عن الحاجة أو التى لا ترضيه سلالتها ، وتقليل الذكور فى الطائفة من عوامل تثبيط الانثيال . . . وعلى ذكر مائدة الطعام ، لك أن تقاضينى يا بثينة على تأخير الغداء ، ولكنى سأسترضيك بتحفة من العسل الشمعى للتحلية بعد الغداء وبغيرها للشاى ، أى سأضاعف وعدى لك !

— لك أن تسرف يا أمين ما دمنا فى شهر العسل !

— أتمنى يا ملكتى المحبوبة أن تعنى ما تقولين !

الفصل السابع

قال أمين بعد استمتاعهما بغذاء هنيء :

ـــ أظنك لاحظت بنفسك عند دراسة تشريح النحلة أنها ، خلافاً للشفافير والزنابير ، ليس فكاها من القوة التى تمكنها من إتلاف الفاكهة ، مع أن الطبيعة على أى حال لم تخلقها لذلك ، بل لها وظيفة صريحة وهى تلقيح صديقاتها الأزهار الإناث بطلع الأزهار الذكور بعد جمعها لهذا الطلع أثناء تنقلها من زهرة إلى زهرة أخرى ، ولذلك حرصت الطبيعة على أن تجعل من عادة النحل الاقتصار على زيارة نوع واحد من الأزهار فى وقت واحد . وقد عملت تجارب شتى فأثبتت أن النحل لا يمكن أن تمس أية فاكهة سليمة وإن جاز أن تمص عصير الفاكهة المعطوبة ، وإذن فهى المؤتمنة على الفاكهة التى هى ثمرة تلقيحها شأنها شأن البذور ، ولولا إدخال النحل فى زيلاندا الجديدة التى كانت خالية من النحل لما تيسر لها إنتاج بذور البرسيم ، ولولا النحل لما نشأت محاصيل الفاكهة الهائلة فى كاليفورنيا . وأما عن أمراض النحل الوبائية فلا وجود لها فى مصر فيما أعلم ، وبغض النظر عن هذه الحقيقة فأمراض النحل لا تصيب

الإنسان . . . فهذه دعاية عجيبة أساسها الجهل المطبق ، وربما كان مصدرها أولئك الجهلة من النحالين القدامى الذين يربون النحل المصرى فى الكوارات الطينية ولا يريدون أن ينافسهم أحد فتدفعهم الأنانية إلى اختراع أسباب التنفير من النحالة ، ولو كان ولاة الأمور عنوا باستئصال أسباب تأخرهم وسنّوا التشريع الواجب لإصلاح حالهم ، كما فعلت ممالك أخرى ، لما بقيت هذه النحالة القذرة العتيقة قذى فى العيون ومصدراً من مصادر الدعايات الفاسدة .

— ومع ذلك فهم يكسبون !

— إن مكسبهم نسبياً صغير ، وكواراتهم أى خلاياهم الطينية عبارة عن مصانع لتربية الحشرة الشمعية ، وهى مجردة عن النظافة ، قليلة الإنتاج ، لا يمكن الكشف التام عنها ، بل هى كالصندوق المغلق غالباً ، ولذلك لا يمكن ضبط الانثيال منها ، إذ محال ضبط تهويتها أو تربية الذكور والملكات فيها ، ولا يمكن تغذية طوائفها تغذية فردية فى يسر ، وهى بالإجمال تمثل التعب والقذارة ، ولذلك حرصت جميع الممالك التى تعنى بالنحالة المنتجة باستبدال أمثال هذه الكوارات والصناديق المقفلة بخلايا ذات إطارات متحركة ، كما عنيت بترقية النحل الشائع فى مناحلها . وأظن أنه آن لنا يا بثينة أن نلقى اليوم نظرة فاحصة

على ضروب النحل التى لدينا وأن نتحدث عن نظام العمل فى الخلية قبل أن نشغل فى المرة الآتية بفرز العسل .

وتوجها يتأملان تباعاً أبواب الخلايا وعلى كل منها كان يبدى أمين ملاحظته ، وكان يجتهد فى أن يعود بثينة التشخيص المبدئى لحالة كل طائفة من النظر إلى باب الخلية . ووقفا عند خلية نحلها سنجابى اللون كبير الحجم نسبياً وقال : هذا مثال للنحل الكرنيولى المربى فى مصر فى محطة معزولة ، وهى خلية عامرة جداً كما ترين ، فهى تشغل ثلاثة أدوار وربما بلغ عدد سكانها خمسين ألفاً ومائة ألف نحلة . وهذا الضرب من النحل مشهور جداً بوداعته فهو النحل الذى يصلح لنشر النحالة فى ضواحى المدن . وإذن فى وسعنا أن ندرس على هذه الطائفة القوية الوديعة — ولو أن هذه دراسة مكررة بعد مشاهداتك السابقة — كل ما تهمنا معرفته عن نظام العمل فى الخلية وتقسيمه بين طبقات النحل المختلفة وكيفية نشوء النحلة متطورة من البيضة ، وسأدعك أنت تتولين الفتح وإن شئت فلك أن تتولى الحديث ، وسأكتفى بأن أكون خادمك المساعد الأمين وهو شرف يكفينى . . .

وفتحت بثينة الخلية بمساعدة أمين وهى فخورة بالترويح عن معلوماتها فى هذه المحاضرة الأولى ، قالت وقد بلغت أحد الأقراص الوسط من أقراص التربية : ها هى ذى الملكة يا أمين

معلمة وجميلة! وها هو ذا البيض الجديد فى عيون القرص ! لقد وضعت اليوم لأنه قائم غير مائل ... ولكنى سأعيد هذا القرص، وسأنظر فى غيره ... ها هو ذا بيض عمره يومان لأنه مائل قليلا إلى جانبه، وها هو ذا بيض عمره ثلاثة أيام لأنه راقد على قواعد البيوت. وها هى ذى يرقات ذات أعمار شتى : انظر هنا بدقة تجد يرقة لعلها فقست الساعة من البيضة لأنها راقدة فى هيئة خط مستقيم وطولها لا يتجاوز خمس قطر البيت الراقدة فيه ، وانظر ثمة تجد يرقة عمرها يومان ، راقدة فى هيئة نصف دائرة وقد لمس رأسها ذنبها وهى تشغل تقريباً نصف قطر البيت الراقدة فيه ، وعلى مقربة منها فى بيت آخر توجد يرقة أخرى عمرها ثلاثة أيام تشغل خمسة أسباع قطره ، أما اليرقة التى أوجه لها المؤشر فهى تشغل قطر بيتها جميعه وعمرها أربعة أيام !

— برافو يا بثينة ، هكذا العلم والتدريس وإلا فلا !

— هل أخطأت فى ملاحظاتى ؟

— كلا يا عزيزتى، لقد أجدت وأحسنت . ولكن لى ملاحظة عارضة فى هذا المقام : إن نظرتك الفاحصة التى هدتك إلى اكتشاف أعمار اليرقات وأناملك الدقيقة كفيلة ببراعتك فى تربية الملكات صناعياً حينما أمرنك على هذه التربية التى تقوم

على محاكاة الطبيعة واستغلال العوامل التى تحت تأثيرها تربى النحل ملكات جديدة وأهمها النزوع إلى الانثيال وفقدان الملكة ، وفى هذه الحالة متى كانت النحل متريثة تختار أصغر اليرقات الفاقسة من بيضة ملقحة لتغذيتها بالغذاء الغددى الفاخر الذى نسميه « الفالوذج الملكى » ، والمتخصص فى تربية الملكات يدقق فلا يختار يرقة يتجاوز عمرها ٣٦ ساعة بل يؤثر أصغر اليرقات التى عمرها يوم فحسب . ولن أثقل عليك الآن بشرح هذه العملية البديعة التى لها أوانها فيما بعد وقد نؤجلها إلى الربيع الآتى ، ويكفى من آياتها أن أذكر أن المربى يقلد الطبيعة أولا بحرمان طائفة قوية من ملكتها وبعد أن تحس اليتم وتشرع فى تربية ملكات يقطع هذه البيوت حينما يكون قد أعد لها إطاراً مثبتة عليه أسس شمعية صناعية لبيوت ملكات على قواعد صغيرة خشبية بحجمها مغروزة فى الإطار الذى يمكن تقسيمه فى وسطه بقطعة مستعرضة من الخشب وتثبيت عدد من هذه القواعد تحتها زيادة على المثبت تحت القضيب الأعلى للإطار ، وهكذا يمكن أن يحمل مثل هذا الإطار عدداً وافراً من هذه القواعد التى يطعمها الفالوذج الملكى المخفف بالماء ، ثم يقوم عليه فى كل بيت يرقة واحدة صغيرة ثم يعطيه النحل ، وبعد ٢٤ ساعة يراجع ما صنع ، وقد يعيد هذه العملية أو بعضها إذا

وجد النحل لم تستجب إليه واكتفت بمص الفالوذج الملكى وأهملت اليرقات ، ومتى عنيت النحل بتكملة هذه البيوت وبتربية اليرقات حتى تنمو وتشرنق وتختم ، فإن النحال ينقل حينئذ هذه البيوت إلى إطار آخر ويحميها داخل أقفاص سلكية واقية كلا منها فى قفص خاص ويعهد بها إلى طائفة أخرى يتيمة لتتولى حضانتها ، حتى إذا ما فقست تولت النحل تغذيتها من عيون السلك دون أن تسىء إليها ودون أن تسىء هذه الملكات العذارى بعضها إلى بعض ، ولو أن من المناسب أيضاً أن يحتوى القفص وتحت غطاء فتحته قليلا من السكر الناعم المعقود بالعسل لتلجأ إليه الملكة العذراء عند الحاجة . وهكذا يستطيع النحال المربى أن يستعين بهذه الملكات فى تكوين نويات جديدة من طوائفه ، أو يستطيع بعد إدخالها على نويات صغيرة من النحل مخصصة لها لكى تستضيفها حتى تتلقح ، أن يبيع الملكات الملقحة بعد اختبارها — أى بعد التأكد من فحص حضنتها أنها ملقحة — بثمن يجزل عليه الربح .

— إن وصفك يا أمين لهذه العملية مشوق ، ويبدو لى أنها سهلة ، فلماذا نؤجلها إلى الربيع ؟

— لقد تعمدت تبسيطها لك ، وهى فى الواقع عملية غير شاقة للمتدرب ، ولكن فيها نقطاً عملية دقيقة تحتاج إلى

التمرين ، وليس أهونها كيفية نقل اليرقة الدقيقة بالإبرة المخصصة لذلك من القرص إلى البيت الصناعى ، ولا أدرى إذا كان يحق لى أن أسميه بيتاً صناعياً إذ كل ما هو صناعى فيه أساسه المشبه الكستبان الصغير أو قمع الخياطة ، وفيما عداه فالنحل هى التى تبنى البيت من أوله إلى آخره . وبهذه المناسبة أؤكد لك أن بيوت الملكات الطبيعية متى فقست منها الملكات هدمتها النحل ولا تعيد استعمالها خلافاً لبيوت العاملات والذكور المعتادة فى القرص فإن النحل بعد تنظيفها وتلميعها بالمادة الصمغية (العلك) التى تجمعها من براعيم الأشجار وتحملها على أرجلها الخلفية كما تحمل الطلع تهيئها للملكة للبيض فيها مرة أخرى أو تستعملها لخزن العسل أو لخزن الطلع .

— ما رأيك فى أنى لم أكمل بعد محاضرتى ، وطبعاً لن تجيز امتحانى دون تكملتها ؟

— عفواً يا معلمتى . . . صحيح ، عليك أن تشرحى كيفية تطور النحلة من بيضة إلى حشرة كاملة ، ثم وظيفة هذه الحشرة فى أدوار حياتها وما يتبع ذلك من تقسيم العمل بين أفراد الطائفة .

— سؤال ضخم أستحق بلا ريب درجة الدكتوراه العلمية على إجابتى عنه ، وعلى أى حال فلن أدعك تضحك منى . . . اسمع يا تلميذى النجيب : إن تطور النحلة من بيضة إلى حشرة

كاملة هو من غرائب أعمال الطبيعة نظراً للتفاوت فى التشكيل بين طور وطور ، فإن التأمل فى استحالة دودة إلى حشرة مجنحة لها أعضاء ووظائف مختلفة كل الاختلاف عن أعضاء الأولى ووظائفها لمن الأمور المحيرة للعقل ، وقد شرحت كيف أن البيضة تعمر ثلاثة أيام قبل أن تفقس مع اختلاف وضعها خلال تلك الأيام الثلاثة ، ثم كيف تتجلى اليرقة فى نموها وفى وضعها بعد ذلك ، ولكنى لم أستكمل هذا الشرح ، كما أنه ينبغى أن أبين أنه يوجد تباين بين نمو الحضنة فى الملكة والعاملة والذكر . ولعل خير وسيلة للمقارنة أن أعرض الجدول الآتى للتأمل فيه وللمقارنة :

طور النمو	الملكة	العاملة	الذكر
البيضة	٣ أيام	٣ أيام	٣ أيام
تغذية وغرفة اليرقة	٥	٥	٦
نسج اليرقة للشرنقة	١ = ٨ أيام	٢ = ١٠ أيام	٣ = ١٣ يوماً
فترة الاستقرار	٢	٣	٤
تحول اليرقة إلى عذراء	١	١	١
تحول العذراء إلى حشرة كاملة	٣ = ٤ أيام	٧ = ٨ أيام	٧ = ٨ أيام
مجموع المدة من يوم وضع البيضة إلى خروج النحلة من بيتها	١٥ يوماً	٢١ يوماً	٢٤ يوماً

وقد تختلف هذه المدة بالنسبة للملكة على الأخص ، فقد

تهبط في الجو الحار إلى ١٤ يوماً وقد ترتفع فى الجو البارد إلى ١٦ يوماً ، وتكون الزيادة أو النقص أولا فى مدة تغذية اليرقة ونموها فقد تطول إلى خمسة أيام وربما هبطت إلى أربعة أيام ونصف . ولعل لسخاء التغذية إلى جانب حرارة الجو أثراً فى ذلك ، كذلك فترة تحول العذراء إلى حشرة كاملة — وهى فترة استقرار — قد تطول إلى ثلاثة أيام ونصف يوم وقد تهبط إلى يومين ونصف يوم تبعاً لدرجة حرارة الجو ، أى أن هذا الاقتضاب النسبي فى مدة الحضانة قلما يسرى على الممالك الباردة الجو ، وقد يكون لبعض ضروب النحل بل لبعض سلالاته أثر بيولوجى فى مدة التطور هذه وفى اختلافها ، أما عن تعمير النحل بعد ولادتها — إذا جاز لى هذا التعبير — فالملكة قد تعيش نظرياً خمس سنوات وربما أكثر ، ولكن الواقع أن النحل قبل النحال قلما يسمح لها بأن تعيش أكثر من ثلاث سنوات ، إذ سرعان ما يدركها الكلال أو الشيخوخة نتيجة جهدها العنيف فى وضع البيض فلا يبقى النحل عليها . وكثير من المناحل العصرية تبدل ملكاتها فى كل عام من محطات التربية الممتازة . والمعتاد أن يحتفظ النحال بالملكة عامين فقط إلا إذا كانت فذة متفوقة ، وذلك لأن الملكة هى أساس الحياة فى الطائفة فيجب على النحال الحصيف ألا يبخل بثمنها وبتكاليف استبدالها لأنه سيغنم

أضعاف ما ينفق فى النهاية إذا ما رزقته بطائفة جيدة منتجة .
وأما عن العاملات فتختلف حياة كل منها باختلاف زمن ولادتها ، فإن عمر النحلة العاملة — كما يقال عن الإنسان بل عن كل كائن حى — هو عمر غددها التى تترتب عليها صحة أعضائها . فالنحلة والعاملة التى تولد فى الخريف ولا جهد عليها تؤديه تستطيع أن تعيش ستة أشهر ، فى حين أن النحلة التى تولد فى الربيع وعليها واجبات جمة متتابعة قد لا تعمر أكثر من ستة أسابيع. وأما الذكور فتستطيع أن تعمر شهوراً لو أن النحل العاملات تتركها وشأنها ، ولكن يندر أن يحدث هذا إلا فى المناطق الدافئة الجو المتوالية المراعى الوفيرة الرحيق ، وأما الغالب فقضاء العاملات عليها حينما يقبل الخريف وينقطع الرحيق ويبرد الجو ولا تبقى لها وظيفة مرعية — حينئذ تطردها العاملات شر طرد وتعض أجنحتها وأرجلها تشويهاً لها وتعجيزاً ، وعلى أى حال لا تسمح لها بالبقاء فى الخلية فتموت فى خارجها جوعاً . ومن عادة النحل ألا تقبل فى خليتها غير أفرادها فى العائلات وإن سمحت لبعض جيرانها بالدخول فى خليتها إذا جاء ذلك عفواً وكانت محملة بالعكبر على أرجلها الخلفية ومنتفخة مزهوة بما تحمله من الرحيق فى كيس العسل ! أما الذكور فلديها جواز مرور من أى طائفة إلى أخرى ومن أى منحل إلى

آخر ، إلا إذا استقر رأى النحل على التضحية بها ، وحينئذ لا يكون حظها غير الفناء وقد تتكدس أمام أبواب الخلايا حتى لينعت ما يصيبها بمذبحة الذكور !

— ما هذا الإبداع يا بثينة ؟ ! إنى أراك تتفنين فى وصف ما لم تشاهدى اعتماداً على مطالعتك فانتظرى حتى ترى هذه المذبحة المزعومة . . . ولا شك أنك تتحدثين بروح من التشفى فهل هو من جنسى أو شخصى ؟ . . . إن أخوف ما أخافه أن تعاملينى يا عزيزتى مثلما تعامل صاحباتك العاملات زملائى اليماخير !

فقهقهت بثينة ضاحكة وقالت : يظهر يا أمين أنك شاعر بذنوبك الكثيرة ، وليس أقلها أنك تقاطعنى ولا تريد أن أكمل محاضرتى ، وهذه هى غيرة الرجال المأثورة ... إن العاملات فعلا مصدر السلطات فى الطائفة ، وهن يكون جمهورية متوجة ، وهن المثل الأعلى لحياة العمل ولنظام العمل ولتوزيع الاختصاص وللدأب المتواصل ولمحاربة البطالة . وهاك بياناً بواجبات النحلة العاملة من أول يوم بعد الفقس إلى حين وفاتها .

العمر	الواجبات
الأيام الثلاثة الأول بعد الفقس	تشتغل بتنظيف عيون الأقراص وبالحضانة
اليوم الرابع	تكمل قدرتها على اللسع فتتهيأ للدفاع عن وطنها .

العمر	الواجبات
اليوم السادس إلى العاشر وأحياناً إلى الخامس عشر	تغذى اليرقات الصغيرة
اليوم السابع	أول طيران لها لترويض أجنحتها إذا سمح الجو بذلك ، وربما حدث هذا الطيران في اليوم الثالث أثناء الصيف وقد يتأخر إلى اليوم العاشر.
اليوم الثامن إلى السادس عشر	تبدأ من تناول الرحيق والعكبر والعلك (المادة الصمغية) التى تجلبها النحل السارحة لإيداعها فى الخلية .
اليوم التاسع إلى الثامن عشر	تمتنع عن تناول الرحيق والعكبر والعلك (المادة الصمغية) التى تجلبها النحل السارحة لإيداعها فى الخلية .
اليوم الثانى عشر إلى الثامن عشر	تشتغل ببناء الشمع .
اليوم الرابع عشر إلى العشرين	تبدأ بحراسة باب الخلية وبالسرح بجمع الرحيق والعكبر والماء الخ . وتستمر على ذلك حتى وفاتها .
اليوم الخامس والعشرون	تبدأ بجمع العلك .

وبالرغم من بعض الاختلاف فى تاريخ البداية بهذه الوظائف وفى مدة القيام بها فالمهم أن بين النحل العاملات توزيعاً محكماً للعمل وتقسيماً دقيقاً له وتقديساً مستمراً لروح العمل. وها هى ذى نظرة إلى باب أى خلية عامرة — فضلا عن مراقبة « خلية الرصد » — ترينا كيف تقسم النحل العمل فيما بينها : فها هى ذى النحل المروحة عند الباب ، وها هى ذى غيرها تبدو على أرضية الخلية وعند الباب أيضاً مشغولة بتنظيفها لفكوكها ، وها هى ذى بعض النحل تنقل إلى الخارج ما تساقط من قشر الشمع وأى أدران على قاعة الخلية وأى نحل ماتت داخلها ، وها هى ذى نحل أخرى مزدحمة عند حافة الغدير حول العشب تجمع الماء لتستعين به فى تهيئة غذائها ولتساعد بوضعه فى الخلية على عملية التبخر المائى التى يترتب عليها ضبط درجة الحرارة فى الخلية ، هذا إلى أفواج النحل المشغولة بجمع الرحيق والطلع والعلك وإلى جماعاتها المشغولة ببناء الأقراص أو بتغطية عيونها سواء بالشمع الخالص كما يحدث لعيون العسل أو بالشمع الممزوج بالطلع كما يحدث لأغطية بيوت الحضنة ولبيوت الملكات ، لأن هذا المزيج يهيىء للبيت ثقوباً دقيقة تساعد على تنفس الحشرة داخلها ، وتبدو هذه الأغطية قاتمة بالنسبة لأغطية بيوت العسل ، وأغطية بيوت الذكور تتميز بأنها محدبة كالقبة . وهكذا ترى أن اسم

« العاملات » هو اسم على مسميات حقًّا . فلقد يبلغ ببعض العاملات التوق إلى أداء الواجب ، بل إلى ما هو أكثر من الواجب ، أنه عند افتقاد ملكة الطائفة لحادثة من الحوادث أن تهرع فى لهفتها — وقد تنبهت مبايضها الضئيلة الأثرية — إلى البيض رغبة فى التعويض عن فقدان الملكة ، ولكن هذا البيض الذى تجود به إناث غير كاملات أو خناث لا ينتج سوى ذكور هزيلة ، وقد يعانى النحال من هذا الوفاء الغاشم من هذه « العاملات البياضة » التى قد تدل من البداية على لهفتها بتهافتها على وضع عدد من البيض — بدل بيضة واحدة كما هو شأن الملكة — فى كل عين تحت تأثير عامل الأمومة الجديدة والغيرة على حياة الطائفة ، ولذلك تنعت أحياناً هذه العاملات البياضة « بالأمهات الكاذبة » ، ويضطر النحال بأساليب شتى إلى التخلص منها أو إلى إضاعة نفوذها تمهيداً لإعطاء الطائفة ملكة جديدة أو بيت ملكة على وشك الخروج منه نقلا من طائفة أخرى ، وربما كان من أيسر الوسائل المهيئة لذلك إعطاء هذه الطائفة التى تظهر فيها العاملات البياضة أقراصاً من الحضنة المختومة من طوائف أخرى قوية ، لأن هذه الحضنة متى خرجت من بيوتها المختومة خلقت جواً جديداً وعقلية جديدة فى الطائفة وأرجعتها إلى حالتها الطبيعية فى نفسيتها فتقبل

الملكة الجديدة أو بيت الملكة التى على وشك الخروج .

— برافويا بثينة ، . . . هل من عجب بعد ذلك إذا تعلقنا بحب نحلتنا العزيزة وهى التى بلغت نفس منزلتها الحاضرة قبل أن تعرف الكرة الأرضية الإنسان الأول ؟ وهل من عجب إذا قدسها أجدادنا المصريون فنقشوها على معابدهم وعلى توابيت ملوكهم ؟

— وهل من عجب يا أمين إذا كان فرجيل Virgil — وكان شاعراً نحالا مثلك — قد تغنى بالنحل فى كتبه اللاتينية وأشاد بها ، وقد أعطت الإنسان غذاء شهياً ومصدراً كريماً لإضاءته ، فإلى القرن السادس عشر الميلادى لم يكن الإنسان يعرف سوى عسل النحل معيناً على تحلية غذائه ولم يكن يجد أفضل من شمعها لصناعة شمع الإضاءة وعلى الأخص فى كنائسه . لقد اكتشف الإنسان قصب السكر حول القرن الأول الميلادى ، وقد ذكر الكاتب العالم استرابو « Strabs » كيف أن أمير البحر لأسطول الإسكندر المقدونى أبلغه بإعجاب عن اكتشاف هذا « القصب العسلى » فى طريقه إلى الهند ، ولكن لم يفكر أحد قبل الأسبانيين فى القرن الخامس عشر فى استخراج العصير من القصب وفى صناعة السكر المتجمد حيث أقاموا مصنعاً له فى ماديرا . وحتى فى ذلك الوقت كان السكر من

الكماليات فلم يكن فى متناول عامة الناس ، وبقيت النحل ترعى الجماهير وأطفالها الصغار كما رعتهم من قبل . . .

ولكن الآية انقلبت الآن يا بثينة ، فقد كاد عسل النحل يعد من الكماليات ، وبعد أن أثبت علم التغذية فائدته لأطفالنا ولمرضانا فضلا عن أصحائنا حتى أن الدكتور بك «Dr. Beck» فى أمريكا ألف كتاباً عن ذلك سماه «العسل والصحة» «Honey and Health» جمع فيه آراء العلماء الثقات من شتى الأمم وآراء الهيئات الطبية المحترمة ، أصبح لا غنى للنحالين ولهيئاتهم العاملة عن السعى لنشر النحالة الحديثة المنتجة حتى يصير عسل النحل شائع الاستعمال بسعر مقبول يستطيع أن يدفعه كل إنسان ، فشتان بين القيمة الغذائية فضلا عن المذاق والخواص الطبية التى لعسل النحل السهل الهضم الشهى الطعم الزكى الرائحة وبين المحضرات السكرية المغشوشة التى يخدع بها الجمهور وتسمى عسلا فى حين أن الأزهار والنحل تتبرأ منها ولا تتبناها إلا آلات المصانع الحديدية ولا يمكن أن يقر هذا الغش إلا جاهل أو مغرض ، ولن تكون عاقبته إلا الإساءة للصحة العامة . . . لقد صدق القدماء حينما سموا عسل النحل « شراب الآلهة » !

وبينما هم فى هذا الحديث الحلو وقفت سيارة بجوار المنحل ونزل منها شاب أنيق وأقبل على المنحل وفى يديه علبة صغيرة وهو

يهتف : « لقد وصلت الأمانة يا أمين » .

ـ أهلا وسهلا أى أمانة يا فريد ؟

ـ إحدى لعبك يا عزيزى ، وقد وصلت بالبريد العاجل من المنحل التعاونى فى السويس ! فتفضل يا حبيبى وافرح بها ! . . . لقد ذهبت إلى منزلك زائراً فلم أجدك وأصرت والدتك على أن أحضر لك هذه اللعبة فوراً ، فانظر كيف تستبدان بى ! . . .

كان فريد طالباً فى السنة النهائية بكلية الطب بجامعة فؤاد وقد حضر إلى الإسكندرية لتمضية أجازته الصيفية ، وكانت بينه وبين أسرة أمين وشائج قرابة فكان يعرف بثينة ولكن دون اختلاط ، بل لعله لم يرها منذ سنوات كما أنه لم يتبينها فى قناعها وفى ملبسها الرجالى . . . وكانت أسرته موسرة فبدت عليه علائم الثروة والترف . وبعد تبادل التحايا وبعد الاعتذار إلى بثينة لتقصيره فى تحيتها ، قال أمين :

ـ لقد جئت لى بخير هدية يا فريد ، بل بهديتين ، فقد أوحشنى بعدك عنا فى القاهرة ، فجاءت زيارتك أول هدية نفيسة من صداقتك الباقية ، وجاءت هذه الملكة الكرنيولية النقية الهدية النفيسة الثانية . فما رأيك وأنت فى أجازتك السنوية لو أمضيت أياماً معنا فى المنحل مؤنِساً ومؤنَساً ومتعلماً ؟ ألا تزال تخاف النحل ؟ . . . فقال فريد وقد شجعه وأدهشه مرأى

بثينة التى لم تستثن أنوثتها أحداً من جاذبيتها : اخشى أن أكون تلميذاً بليداً ويخيب أملك فى ، بل وأكون باعثاً لتعطيل أعمالكما .

فقاطعته بثينة كما قاطعه أمين بعبارات التشجيع والترحيب ، واتفقوا على أن يحضروا معاً بانتظام إلى المنحل ، كما وعدهما فريد بأن يحضر شقيقته صفية إلى المنحل فى الأسبوع التالى للمعاونة على فرز العسل للمرة الأولى ، أو على جمع « القطفة » الأولى كما سماها أمين . وجاء لفريد بقبعة وقناع فلبسهما ووقف معهما يستمع ويتأمل معجباً . قال أمين :

ـــ أتدرى لماذا فرحت بهذه الملكة الكرنيولية يا فريد ؟

ـــ سمعت كثيراً يا سيدى عن مزايا هذا النحل الذى قيل إنه لا يلسع !

ـــ لا يا فريد ، ليس هذا هو السبب ، وعلى الهامش يجب أن تعرف أن جميع نحل العسل المستعمل فى مصر يلسع فعلاً ، ولكن النحل الكرنيولى (نسبة إلى كرنيوله موطنه ، وهى إحدى مقاطعات يوغوسلافيا) يمتاز مثل قريبه النحل القوقازى بالوداعة المتناهية نحو صديقه الإنسان ، وإن كان أبعد ما يكون عن الوداعة إزاء أعدائه الطبيعيين كالشفافير والزنابير . ولكن فرحتى بهذه الملكة لأنها من أول ما أنتجته محطة التربية التعاونية فى السويس ، وإنى رجل أومن بالتعاون وأعتقد أن الحركة التعاونية

كفيلة بحل جميع متاعبنا الاقتصادية وغيرها، وأنها مدرسة الشعب البرلمانية . وها هى ذى تسعف النحالين المصريين بملكات هذا النحل الممتاز الشحيح فى العالم . إن النحل الكرنيولى كما ترى سنجابى اللون كبير الحجم ، بل لعله أكبر نحل الخلايا حجماً ، وملكته كبيرة الحجم كذلك ولونها البنى أميل إلى القتامة ، وإذا نظرتما إلى داخل هذا الصندوق بعد رفعى الغطاء الورق الذى كان عليه العنوان من فوق الغطاء السلكى فإنكما ستريان الملكة وحولها بعض العاملات الصبية لتعهدها بالتغذية أثناء سفرها فى البريد ، ولو أن فى نهاية الصندوق مستودعاً صغيراً يحتوى قَنْداً مكوناً من العسل المعجون بدقيق السكر ، وهذه العجينة لا هى بالجافة التى لا تستطيع النحل التناول منها ولا هى بالمائعة التى تغرق النحل فيها ، فلو اتفق أن ماتت النحل المرافقة للملكة لأى سبب وبقيت الملكة حية فإن الملكة تستطيع تغذية نفسها من هذا القند مؤقتاً حتى ينتهى سفرها ما دام مقصوراً على يوم أو يومين . أما عن كيفية إدخال الملكة على النحل فلها مراسيمها وهى تختلف حسب طرائق الإدخال، ولكنها تشترك فى اعتبار واحد وهو ضرورة شعور النحل أولا بفقد ملكتها ثم إبداؤها الألفة نحو الملكة الجديدة قبل أن نسمح لأنفسنا بالإفراج عنها واختلاطها بالنحل . ومن الجائز إزاء النحل الكرنيولى

أو النحل القوقازى — وكلاهما بعيد عن العصبية أو الشراسة — أن ندخل الملكة عليه فوراً ، ولكن لا بد قبل الإفراج عنها من تعود النحل عليها . والوقت الحاضر ملائم جداً لإدخال الملكات ، فالحقول ما تزال سخية بالرحيق وفى ذلك ملهاة لها عن تتبع استبدال ملكة بأخرى . ولكنى على أى حال سأريكما كيفية إدخال هذه الملكة بطريقة هينة لا أقول إنها الطريقة المثلى ، فطرق إدخال الملكات توحيها الظروف وأحوال الطوائف والنويات ، ولكن حسبى أن أقول إنها من أمثل الطرق .

واتجه أمين معهما إلى طائفة كرنيولية قوية ففتح خليتها وأخذ منها ثلاثة أقراص من الحضنة المختومة وقرصين من العسل والطلع وعليها جميعاً نحلها المعطى لها ولكن دون الملكة ، فقد حرص على تركها فى الخلية ووضعها فى صندوق يسع ستة أقراص وهو على شكل خلية صغيرة على حامل ، وله غطاءان : غطاء داخلى من الخشب والسلك بمقبض فى الوسط وغطاء خارجى مغطى بالصاج ، وأحل محل تلك الأقراص إطارات بأساساتها الشمعية بعد أن وزعها ما بين أقراص الحضنة الباقية فى غرفة التربية للخلية التى فتحها ، مبيناً أن هذا إجراء مباح فى هذا الوقت لأن الفيض من العسل الذى لم ينته بعد سيسمح للنحل ببناء أقراصها الجديدة على تلك الأساسات كما سيسمح للملكة بالبيض فيها . وأما عن

ذلك الصندوق الذى وضع فيه تلك الأقراص الخمسة وعليها نحلها فقد قال عنه إنه يسمى « صندوق نواة » — والنواة عبارة عن طائفة صغيرة — وأنه سيدخل الملكة الجديدة فيه (وكان قد وضعها فى مكان ظليل حتى لا تسىء أشعة الشمس إلى الملكة ، ولو أن الوقت كان أصيلا والجو لطيفاً) ، وأنه ترك محل القرص السادس خالياً زيادة فى التهوية داخله إلى أن ينقل النواة فيما بعد متى ترعرعت إلى خلية كبيرة حيث يزودها بأقراص شمعية خالية أو بإطارات ذات أساسات ليعطيها الفرصة لاستكمال قوتها حتى تصبح طائفة كاملة . وقال أمين إنه سيقفل هذا الصندوق مؤقتاً مسافة نصف ساعة قبل إدخال الملكة الجديدة وذلك حتى يلاحظا تصرف النحل حينما تكتشف فقدان ملكتها وكذلك تصرف النحل البالغة بهرعها عائدة إلى خليتها الأصلية . وفى أثناء مرور هذا الوقت شرح لهما أمين أن سبب اختياره لأقراص الحضنة المختومة هو تعويض النواة عما تفقده من النحل السارحة العائدة إلى خليتها الأصلية لأن النحل التى ستخرج من البيوت المقفلة ستحل محل النحل الهاجرة بل ستزيد ، وستكون خير رفيقة للملكة الجديدة حينما يحين وقت بيضها فترعى حضنتها وتشجع الملكة على البيض ، وسرعان ما يحين وقت سرحها مع أخواتها السابقات ، وسرعان ما تصبح النواة

جديرة بالحلول فى خلية كبيرة وأهلا لأن تعد طائفة . وقال إن صندوق النواة هذا قابل لأن يكون صندوق سفر لإرسال النواة به فى قطار المساء إلى أى عنوان فى القطر بحيث يصل النحل فى أول النهار أى قبل اشتداد الحر ، وما على النحال إلا أن يسمر أطراف الإطارات داخل الصندوق ويحكم قفل غطائه الداخلى المؤلف من السلك والخشب ويسد بابه بعد أن تأوى النحل السارحة إليه — إذا كانت النواة قديمة فيه — وينزع الغطاء الخارجى محتفظاً به فى مخزنه إلى أن يعاد إليه الصندوق فارغاً فيعيد استعماله ، أو يمكن استعمال صناديق سفر أبسط وأخف وأرخص فتباع مع النحل دون احتياج المربى النحال إلى إعادتها إليه . ويجب أن يلصق أعلى صندوق السفر تحذير من وضعه فى الشمس أو بالقرب من النار أو فى مكان حار ساكن الهواء أو من تعريضه للمطر أو لأى إصابة أو رجة عنيفة ، ويجب أن يبقى قائماً هكذا أثناء السفر بمعنى أنه لا يجوز قلبه أو وضعه على جانبه . وأخذ أمين يشرح لهما فى إسهاب ضروب النحل الرئيسية المستعملة تجارياً لإنتاج العسل ، وخلاصة قوله إن ثمة ثلاثة ضروب من النحل تنعت بالنحل القياسى . ألا وهى النحل الكرنيولى والنحل القوقازى والنحل الإيطالى ، وقد نعتت هكذا لأنها ثابتة فى صفاتها قابلة للتأقلم ، كما أنها

كبيرة الطوائف منتجة للعسل . وقد جربت جميعاً فى المناطق الباردة والمعتدلة والاستوائية فكانت تتأقلم وتعيش وتنتج خيراً من إنتاج النحل الأصيل فى تلك المناطق . وهذه أمريكا كان نحلها الأصلى أسمر أو بنى اللون ولم يكن منتجاً إنتاجاً مذكوراً، فجلبت من إيطاليا ملكات إيطالية جيدة حولت بها وبما ربّته محلياً من ملكات إيطالية فى محطات معزولة لطوائف ذلك النحل الهزيل إلى طوائف إيطالية على مر السنين ، وأخيراً أدخلت النحل الكرنيولى والنحل القوقاسى لما ثبت لهما من مزايا خاصة لا بالنسبة للوداعة فقط بل فى إنتاج العسل الشمعى الفاخر ، ولما اتصفت به ملكاتها من الخصوبة واطول عمر هذا النحل السنجابى نسبياً ، ولتعففه عن السرقة من الطوائف الأخرى ، ولعزوفه عن جمع المادة الصمغية المفسدة لقطاعات العسل الشمعى ، ولسهولة إدخال الملكات عليه ولسهولة الاشتغال به عامة . وقد دلت تجربة النحل الكرنيولى فى مصر على أنه حرى بالتقدير ، واستفدنا فائدة إضافية من إنتاج الهجين الأول ما بين الكرنيولى السنجابى والمصرى الأصفر ، أى من تلقيح الملكات الكرنيولية العذارى بذكور مصرية أو من تلقيح ملكات مصرية عذارى بذكور كرنيولية ، إذ جاء هذا النحل الهجين الأول منتجاً أحسن إنتاج مستطاع

مقبول الطباع (وإن لم يكن فى وداعة الكرنيولى الأصيل)، وكان لنا بمثابة نحلة مصرية جديدة نافعة . أما النحل القوقاسى فكثير الشبه به ولكنه أصغر منه حجماً ، ولذلك كانت مصلحتنا فى الاكتفاء بالضرب الأول ، بل لا شك أن مصلحتنا القومية تدعو إلى جعل مصر محطة قومية عالمية لتربية النحل الكرنيولى استغلالا لما فيها من جهات معزولة متعددة فى الواحات وفى منطقة القنال وفى الفيوم وفى دمياط وفى جهات أخرى ، وانتفاعاً بظروف مصر الخاصة من اعتدال الجو وسبق الربيع فيها وانعدام أمراض النحل الوبائية وقلة تكاليف الإنتاج وحسن مواصلاتها الجوية مع ممالك شتى مما ييسر لها إنتاج ملكات هذا النحل الممتاز إنتاجاً مبكراً وتوزيعها على شتى الممالك توزيعاً سريعاً وبأثمان اقتصادية هى فى الوقت ذاته غنم لنا نظراً لقلة تكاليف الإنتاج نسبياً عندنا . وسيكون من الميسور لنا إذا ما أخذنا جدياً بسياسة إنشائية إصلاحية أن ننتج الآلاف العديدة من الملكات الكرنيولية العذارى ونوزعها بأسعار يسيرة على شتى المناحل المصرية لنحقق فى النهاية إبدال نحلها العصبى الهزيل بهجين الكرنيولى الأول المتفوق . هذا والملحوظ أن جميع النحل الأصفر كالمصرى والسورى والقبرصى والإيطالى عصبى المزاج وإن يكن على درجات متفاوتة ، ولا شك أن النحل الإيطالى أهدأ

هذه الضروب وأوفرها إنتاجاً وأصلحها للتأقلم ، ولذلك عد أحد ضروب النحل القياسية الثلاثة ، ولكنه أقل صلاحية لنا فى مصر من النحل السنجابى بنوعيه (أى الكرنيولى والقوقازى) إلا إذا كان نقياً ، لأنه متى تهجن فإن هجينه مع الدم المصرى سيكون عصبياً وقد يحتمل هجينه الأول وربما جاء فى مثل هدوء هجين الكرنيولى الأول ، ولكن الهجين الثانى وما بعده لا يمكن أن توصف طباعه بكلمة خير ، ولذلك ليست لنا مصلحة فى تشجيع التوالد بين الضروب الصفراء ، التى كثيرا ما يحدث الغش فى بيعها بعكس النحل الكرنيولى النقى فلا مجال للغش فى لونه السنجابى الواضح .

ولما بلغ أمين بحديثة هذا المبلغ كان قد مر نصف ساعة على تكوين تلك النواة ، فتطلع مع صاحبيه إلى باب صندوقها حيث رأوا النحل قلعة حائرة ما بين طائرة ومتمشية مسرعة تفتش حول بابه داخلة خارجة كأنما منها استوحى شكسبير وصفه لطائفة النحل الغاضبة فى روايته (هنرى السادس) ! وحينئذ ذهب أمين وأحضر دلواً صغيراً من الماء ، والعلبة الصغيرة التى وردت فيها الملكة ووصيفاتها وقفصاً مستديراً من السلك والمعدن فى هيئة قبة وقال لهما :

— الآن يمكننا إدخال هذه الملكة على النواة ، وطريقتى

أن لا أستعمل هذه العلبة التى جاء فيها لحبسها أثناء فترة الإدخال خصوصاً لأن النحل الوصيفات غريبات عن النواة ، ففى وجود هذه الوصيفات إثارة إضافية لبغضاء النحل . وإنما طريقتى هى أن أغمس هذه العلبة كما هى فى الماء نحو عشرين ثانية هكذا ، ثم أصفى ما فيها من الماء وأرفع الغطاء السلكى وعينى على الملكة واضعاً القاب على غطاء إحدى الخلايا المجاورة كأنه منضدة وفى سرعة استدرج الملكة للدخول فى قفص الإدخال هذا ، وحينما تصعد إلى أعلاه أضعه وفتحته إلى أسفل وفى سرعة أفتح صندوق السفر أو صندوق النواة وأستخرج منه أحد قرصى العسل والطلع وأزيح النحل عن أحد أركانه العليا وبعد تجريح غطاء العيون العسلية تجريحاً خفيفاً بالشوكة ، وحينما ألحظ الملكة فى أعلا قبة قفص الإدخال السلكى كما هو الحال الآن ، أنقل القفص سريعاً إلى المكان الذى أعددته لتثبيته عليه من القرص حتى يصل إلى أساسه الشمعى . وهكذا أعيده إلى محله وأقفل الصندوق دون أن تفوتنى كتابة المذكرة الواجبة عن النواة وما جرى لها ووضعها تحت الغطاء الخارجى للصندوق . وبهذه العملية سيتاح لنحل النواة الاطمئنان إلى وجود ملكة جديدة ، وسيتعرف إليها عن كثب ، ثلاثة أيام مثلا ، حتى تكتسب رائحة النواة قبل الإفراج عنها فى هدوء

وأمان ، وهى أثناء حبسها تبقى فى مأمن من الجوع . وبديهى أنه ممكن إجراء هذه العملية — بعد نفض النحل داخل الصندوق — فى إحدى غرف المنحل بعد قفل بابها . حتى إذا ما طارت الملكة مصادفة (والغرض من غمسها فى الماء تعطيلها عن ذلك) لم تقع فى يد النحال .

سرت بثينة وفريد من هذه المشاهدة ومن شرحها ، ولكن فريد استأذن فى الانصراف لارتباطه بمواعيد أخرى وتركهما على وعد من تكرار الزيارة لهما وللمنحل — تركهما وقد أكملا يومهما فى حبور ، ولكن بثينة بدا عليها اهتمام جديد لم يلحظه أمين فى البداية وقد أخذت تفكر وتفكر !

الفصل الثامن

رأت بثينة وأمين أن لا بد لهما من الإكثار من زيارة المنحل وقد انتصف شهر يونية وانضم إليهما فريد وقد تشجع واستثيرت رغبته، فكان ثلاثتهم صحبة منسجمة للدرس والائتناس. فكانوا يتبادلون الملاحظات والأسئلة والأجوبة فى زياراتهم اليومية للمنحل حتى صار فريد وبثينة توأمين فى الخبرة والمعرفة، وكان فريد وشقيقته صفية عوناً لأمين وبثينة فى إجراء عملية الفرز الأولى وقد بكرا لها، وزاد من أنسهما أن أحضرت بثينة معها شقيقتها الصغرى نادية. وفى أصيل اليوم السابق هيأ أمين الخلايا المراد فرزها بوضع جهاز خاص لفرز النحل من العاسلات فى فتحة الغطاء الداخلى الذى أحله ما بين العاسلات وغرفة التربية، مفسراً بأنه متى جاء الصباح فسيهبط النحل جميعه من العاسلات وستتاح لهم فرصة فرز أقراصها دون أى عناء أو مضايقة للنحل أولهم.

وفى صباح اليوم التالى حضر الجميع مبكرين واتفقوا على أن تتولى الآنسات الثلاث عملية الفرز داخل الغرفة المخصصة له، وأن يقوم أمين وفريد بنقل أقراص العسل إلى غرفة الفرز

ثم إرجاعها إلى الخلايا بعد إتمام فرزها . وبدأوا متعاونين بغسل حجرة الفرز ثم بغسل الفرازين والفناطيس المعدة لتلقى العسل المفروز فيها والمواعين المخصصة لوقوع الأغطية الشمعية من أقراص العسل عليها عند كشطها ، وكذلك أدوات الفرز والغرف الصغيرة من سكاكين وشوك ومغارف ونحوها . ولكن أمين رأى قبل البدء لعملية الفرز أن يوجه إلى الجميع ملاحظات عامة للاسترشاد بها وبيانا عن أسباب تصرفاته فقال :

— إذا كنت أتعبتكم بهذا الغسل الشامل لغرفة الفرز ومحتوياتها قبل إجراء عملية الفرز كما سأتعبكم بمثله بعد الفراغ منها ، فلا ريب أنكم تقدرون مثلى السبب الموجب لهذه العناية ، وهو أننا نتناول مادة غذائية سلمتها إلينا النحل نقية فوجب علينا أن نحافظ على نقائها ، ولو بيدى لما اكتفيت باستبدال الخلايا الطينية القذرة ، بل لوضعت قانوناً لهجين المناحل أسوة بمعامل الألبان وجميع المصانع المنتجة للمواد الغذائية ، ولا يعفينا من ذلك أن عسل النحل بطبيعته مادة غير صالحة لنمو الجراثيم الممرضة فيها مثل جراثيم التيفود والديسنطاريا وما إليها . وأحب قبل أن نبدأ العمل أن أوجه نظركم إلى بضعة اعتبارات هامة :

فأولها أن استعمال مصرف النحل ينبغى أن يقترن بسرعة الكشف عن العاسلات إذ لو حدث خلل فى هذا الجهاز

ــ على بساطته ــ فستكون النتيجة حبس النحل فى العاسلات وسيقضى عليها حتما إذا اشتد الحر كما ستصاب الأقراص بتلف ، ولذلك وضعت المصارف فى أماكنها من الأغطية الداخلية فى خمس وعشرين خلية ، أمس عصراً ، استعداداً لعملية الفرز هذا الصباح ، واكتفيت بهذا العدد لفرز اليوم لأنى قدرت أن فى ذلك ما يشغل وقتنا وأوعيتنا أو يزيد ، فإن فرز خمسمائة قرص تحوى زهاء خمسة وعشرين قنطاراً من العسل ليس أمراً هيناً ، وقد اتفقت مع مساعدى على الحضور قبل الغروب فى سيارة من شركة النقل الأهلية لنقل فناطيس العسل كما اتفقت مع شريكتى العزيزة الآنسة بثينة على تولى تصفيته ثم تعبئته فيما بعد وتعهدت بأن لا أغالطها فى نصيبها الحق جزاء تعبها بعد تسويق العسل والحصول على ثمنه ، .والآن أعلن تعهدى لكم أيضاً بأن لا أغالطكم وسيكون لكم نصيبكم أيضاً من هذا النضار السائل تحت أقدامكم وفى متناول أيديكم ، بل أخشى أن تسخطوا عليه لأنكم لن تتموا عملية الفرز إلا وتجدوا هذا النضار السائل منثوراً ومفروشاً أينما سرتم ولاصقاً بأجسامكم . . .

فضحك الجميع وقالت صفية إنهم مكتفون « برائحته » . . .

وقال فريد بل إنه متطلع إلى فكرة المشى على بساط العسل . . .

فقال أمين :

— لا تعجب لهذه الملاحظة ، فبالرغم من كل حيطة لا أدرى كيف يتسرب العسل إلى أرضية غرفة الفرز وإلى جوانبها وإلى كل من فيها وإلى كل محتوياتها ، ولذلك فإنى أخصص لمن يعملون فى فرز العسل طاقيات أو قبعات بيضاء خاصة ، وكذلك أردية خارجية بيضاء ، محاولة لصيانة العسل من التلوث ومحاولة لصيانة الفارزين من أن يعسلوا . . . وبهذه المناسبة تحضرنى أسطورة « الطريق الذهبى » أى المفروش بالذهب ، فهى ووصف الطريق العسلى سيان فى الخيال والحقيقة . . . وتجىء سيرة الطريق الذهبى فى قصص شتى للأطفال حتى رآه الكبار رأى العين فى غينيا الجديدة ، وقد رصف العمال بين أحراجها ميلين من طريق جديد فلما جفت الأرض وجدوا الطريق يتألق براقاً فى أشعة الشمس وقد حوت الحجارة التى يستعملوها فى رصف هذه المسافة الصغيرة منه ما قدر بخمسة وأربعين ألف أوقية من الذهب يبلغ ثمنها مليوناً من الدولارات ...! وهكذا تجىء سيرة العسل المفروش فى الطرق المزهرة فى كتب الأطفال الخيالية ، وكيف تخطر عليه الحوريات ، وكلما سارت عليه زاد حلاوة فتوزعه ذات اليمين وذات اليسار ، وكلما لمسته استحال إلى حلوى مبلورة هى أمنية الأطفال . . . وسنرى اليوم العسل تحت أقدام الآنسات !

فقاطعته بثينة قائلة : أراك قد عدت إلى استرسالك القديم يا أمين ، ولن ينفعنا ظرفك ومؤانستك إذا ضاع الوقت فإننا لم نبدأ بأى عمل بعد ، ولم تتعد فى ملاحظاتك أولاها . . .

فقال أمين صدقت ياعزيزتى فأنت أدرى الجميع بعيوبى وأنت جديرة بوقفى عند حدى . . . . إن ثانى الاعتبارات التى أريد توجيه أنظاركم إليها ياضيوفى الأعزاء هو أن الاستغناء عن مصرف النحل والاكتفاء بنفض الأقراص واحداً بعد آخر سواء بهزها أو بواسطة مسحها بفرشاة ناعمة طويلة الشعر ليس معناه المشقة والعطلة فحسب بل تعريض الطائفة كذلك إلى اضطراب شديد نتيجة هذا العمل ، وقد يكون من عواقبه فقدان الملكة وعلى الأخص إذا أضاف النحال إلى هذا الخطأ خطأ آخر وهو إجراء الفرز بعد انقطاع الرحيق حينما تنزع النحل إلى السرقة بعضها من بعض فتهجم النحل الغريبة على ملكة الطائفة وتقتلها وتضايق المشتغلين فى غرفة الفرز مهما أحكموا قفلها واحتاطوا ضد دخولها إليهم لسرقة العسل . أما ثالث الاعتبارات فهو أنى أتحاشى فرز الأقراص غير المختومة ، ولذلك لا أتعجل الفرز بل أنتظر حتى تغطيها النحل بطبقة من الشمع إيذاناً بنضوج ما فيها من العسل ، وحينئذ لا خوف على هذا العسل من الاختمار بعد فرزه ؛ لأن كثافته وتركيز السكر فيه ستحول

دون نشاط جراثيم الاختمار . وهأنذا لم أتلهف على الفرز المبكر حبًّا فى اكتساب السوق ولو بعسل ناضج قابل للاختمار ، ولم أتباطأ أكثر مما ينبغى حتى ينقطع الرحيق وتضايقنا النحل السارقة . وكثيراً ما يحدث فى هذه المنطقة ما بين منتصف يونية ومنتصف يولية أن يشح الرحيق وذلك قبل تزهير القطن أو الخضر تزهيراً كافياً ، وفى مقدمتها البامية التى تعتبر من الوجهة النباتية من فصيلة القطن وتدر مثله رحيقاً وفيراً مدة طويلة تعد بالأسابيع . ولكن الغالب فى هذا العام بسبب تأخير فيض البرسيم نتيجة تأخر الربيع أن لا تنشأ فترة الجدب المعتادة ، وأن يلاحق فيض العسل من الخضر والقطن — على قلة المزروع منه فى هذه المنطقة فى زمن الجدب — فيض البرسيم . وقد اعتاد النحالون فى مثل منطقتنا هذه فى فترة الجدب أن يبتعدوا ما أمكن أثناءها عن فتح الخلايا إلا لضرورة قصوى ، وعن عمل النويات ، وعن إدخال الملكات وما إلى ذلك من عمليات لا نتيجة لها غالباً إلا الفشل بسبب شيوع النحل السارقة ، وجسها النبض عند أبواب الخلايا واستعدادها لمهاجمة أية طائفة يتيمة كسيرة الجناح أو أية نواة ضعيفة ، وإن نجاح إدخال الملكات ليساعد عليه أن يكون أثناء فيض الرحيق أو أثناء تغذية صناعية سخية بشراب سكرى أو بعسل مخفف بالماء حتى تشغل النحلة بهذه

التغذية عن التربص للملكة الجديدة ، وهو مبدأ سيكولوجى له اعتباره فى الحشرات والحيوانات كما له اعتباره فى عقلية الإنسان . ولعلكم تذكرون خطبة الحجاج بن يوسف الثقفى فى المسجد الجامع بالكوفة حين ولى العراق وكان متلثما بعمامة خز حمراء كما نتلثم نحن بهذه الأقنعة فقد قال منذراً فيما قال : « . . أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده ! » أى عقاباً جسدياً يشغلون به عن مناوأته . ومبدأنا واحد ولكنا لا نشغل النحل فى هذه الحالة بالعقاب بل بالثواب ، وهو ما يفعله كثير من قادة الشعوب فيشغلونها بمســائل صغيرة تثير اهتمامها حينما تكون عنايتهم موجهة إلى مسألة كبرى تعنيهم وحدهم ، ومسألة المسائل للنحال فى تلك الحالة هى التوفيق فى إدخال الملكة وسلامتها وتلاحظون . . .

فقاطعته بثينة قائلة : لا يا أمين ، يظهر أنك تريد تقليد شيشرون . . . دعنا بالله من التاريخ والاجتماع ، ولنؤجل إكمال محاضرتك اللذيذة الممتعة إلى جلسة سمر فى بيتى أو إلى فرصة أخرى ، فإن الوقت يضحك منا ويهرب معجلا ، وقد مضت علينا ساعة فى غسل وحديث ولم ننجز شيئاً بعد من عمل اليوم ، مع أنك أنذرتنا بوجوب إنجازه . . .

— سمعاً وطاعة يا مولاتى !

وبزعامة بثينة وبإرشاد أمين بعد أن تعاون وفريد على نقل العاسلات تباعاً إلى غرفة الفرز تمكنوا من إنجاز عملهم على أحسن وجه (وإن لم يستطيعوا فرزجميع الأقراص) ومن إعادة الغرف بأقراصها المفروزة إلى الخلايا بعد أن رفعوا الأغطية الداخلية إلى أعلا العاسلات ونزعوا مصارف النحل منها . واتفقوا على أن يستريحوا يوماً ليكملوا فرز بقية المنحل على دفعتين بمثل ذلك الاستعداد . وقال لهم أمين إن النحل كفيلة بتنظيف الأقراص المفروزة وجمع ما عليها من عسل وإيداعه فى بعض عيون القرص ثم استئناف عملها فى الحقول للمحصول الثانى ، حتى إذا ما حان شهر أغسطس كان لهم أن يتطلعوا لفرز «القطفة الثانية » من العسل الناتج من القطن والخضر وهو زيتى اللون واكثف قواماً من عسل البرسيم الأبيض ومن عسل الموالح الذي لا يشبهه إلا فى اللون ، والذى يتيسر فى مناطق الدلتا الغنية بأشجار الموالح وعلى الأخص فى مديريتى المنوفية والقليوبية ، وذكرهم بأن العسل كالأنبذة شتى الألوان والطعوم ، فمنه عسل الفول الأبيض الذى اشتهرت به بعض المناطق فى الصعيد وعلى الأخص مديرية المنيا ومنه العسل القاتم الناتج من الأشجار العسلية فى جزيرة البساتين كبعض أعسال القاهرة والاسكندرية والقناطر الخيرية ومعظمه من إنتاج المدن التى تكثر فيها الحدائق إذ ليست لنا

الغابات الشائعة فى أقطار أخرى ، وقال إن العسل المصرى على اختلاف صنوفه من أفخر أعسال الدنيا ، فهو على أى حال جدير بعنايتنا . وقد علمهم أمين طريقة بسيطة لأعداد الأقراص للفرز ، فما كان يلجأ إلى السكين الطويلة الساخنة لإزالة أغطية الأقراص قائلا إنه لا يرى موجباً لاستعمال هذه السكين ، أو كبديلتها السكين البخارية والسكين الكهربائية ، إلا فى المناحل الكبرى — وقد سبق له استعمالها فى أمريكا حيث تستعمل أيضاً الفرازات الكهربائية — وحسبه فى منحله الصغير هذا (وإن اعتبر منحلا كبيراً فى مصر) أن يلجأ إلى كشط أغطية الأقراص تجريحاً بالشوكة فقط ، وسيكفى هذا لخروج العسل من عيون القرص بالقوة الدافعة للفراز حين إدارته . وقد عنى أمين من البداية بالتأكد من عدم صعود الملكات الى العاسلات قبل وضع مصرف النحل ما بينها وبين غرفة التربية ، فكانت الخلية التى يجد فى دورها الثانى أقراصاً من الحضنة يتركها حتى يفحصها فى مرة تالية ، ولو أن مصرف النحل كفيل على أى حال بهبوط الملكة مع نحلها ، وحدث فعلا أن فاتته رقعة من الحضنة ، فى أحد الأقراص العاسلة فبقيت النحل عليها ومعها الملكة فتدارك ذلك ، وقال إنه لا يجارى الداعين إلى استعمال « حاجز الملكة » مابين غرفة التربية والعاسلات لأنه معطل لعمل النحل .

والحاجز عبارة عن مسطح من الزنك مساحته السطحية مساحة غرفة الخلية ، وهو مثقوب بثقوب تسمح بمرور العاملات ولا تسمح بمرور الملكة إلا إذا كانت شاذة فى صغر حجمها كبعض الملكات المصرية ، وهو يوضع فوق غرفة التربية أى ما بينها وبين العاسلات . وثمة أشكال أخرى من حواجز الملكات بعضها مصنوع من السلك المتين المضفور والخشب . ولكن أمين كان ينفر من هذه المعدات التى تضاعف العمل وتضيع الوقت وتعرقل النحل . ومن أجل ذلك كان يضحك من استعمال مصايد الذكور على أبواب الخلايا ويجعل شعاره « الوقاية خير من العلاج » !

كان ذلك اليوم يوما من أيام النصر لأمين وبثينة ، فعادا مخمورين بحلاوته كما عاد الجميع فى مثل نشوتهما ، ولكن كانت لكل منهم آمال خاصة وإن اشتركوا فى أحلامهم المجنحة .

الفصـــل التاسع

مرت الأسابيع سراعاً ولكنها مرت حافلة عامرة وقد انتظم ثلاثتهم — أمين وبثينة وفريد — فى الحضور إلى المنحل، دون أن يفوتهم التردد أيضاً على المناحل الأخرى ، وتخلى أمين عن أنانيته وحبه الاستمتاع وحده بصحبة بثينة رغبة منه فى استفادتها علماً وتمريناً وإنتاجاً ، فكان يعرفها إلى أصدقائه النحالين المتعلمين وكان يعطيها كل الفرص المتاحة للمشاهدة والخبرة ، وأجاز أحلامها فهيأ لها فرصة أثناء فيض عسل القطن والخضر لتربية الملكات صناعياً مختاراً يرقات طائفة كرنيولية ممتازة فكانت فرحة بثينة عظيمة بنجاحها . وتردد الطلبة على المنحل فتهيأت منهم حلقات للدرس ، وكانت بثينة وفريد يتبادلان معاً إرشاد المبتدئين طوراً تحت إشراف أمين وتارة مستقلين . وكان أمين فى تدريبهما يجهد كأنه يسابق الزمن ، كأنما يريد أن يلقنهما فى أسابيع ما يستأهل شهوراً من الدرس وأن يمرنهما على تلك المعرفة تمريناً قوياً جباراً . والمثل يقول : «حيثما وجدت الرغبة وجدت الوسيلة» وقد كانت الرغبة قوية فى المعرفة والتمرن عند بثينة وفريد ، فكانا متجاوبين مع أستاذهما تجاوباً تاماً

وكانت حماستهما لا تحد . درس أمين معهما شتى الأزهار التى يهواها النحل ، وكثيراً ما كان يصحبهما إلى الحقول وإلى شاطئ الترعة وإلى حوافى الجداول لجمع الأزهار ثم يدرسونها معاً — فى مكتبه وعلى الأخص الأعشاب الآبدة منها — مستعينين بما لديه من مراجع علمية عن النباتات العسلية ، ولم يفته معهما فحص نماذج من العسل ميكروسكوبياً بعد ترسيب محتوياته من الطلع للاستدلال منها على مصادره ومعرفة صنفه . وهكذا كان ينتقل بهما من النظريات إلى العمليات ومن العمليات إلى الفحص العلمى الخالص وإن كانت له قيمته التطبيقية .

ودرس معهما بصفة خاصة كيفية ضبط الانثيال فى المنحل (وإن كان وقت الترويح إليه محصوراً فى مدة معينة تختلف باختلاف كل منطقة ، وإن عمها إجمالا جانب من فصل الربيع) وكيف يمكن عمل نول صناعى أى تقليداً للطبيعة وذلك بأخذ أقراص الحضنة بما عليها من نحل من الطائفة النزاعة إلى الانثيال المصرة على بناء بيوت الملكات وتربيتها ونقلها إلى خلية جديدة فى مكان آخر مع بيت ملكة جيد النضج ، على أن يترك فى الخلية الأصلية قرص من الحضنة المختومة وتنزع البيوت الأخرى إذا لم توجد حاجة إليها أو تستعمل فى خلايا أخرى تحتاج إليها إما بسبب يتم طوائفها وإما استبدالا لملكاتها

المسنة أو العاجزة ، وإما لتأليف نويات جديدة . وهكذا لا يبقى في الخلية الأصلية سوى أقراص العسل والطلع والملكة وبعض النحل الصبية والمتوسطة العمر وجمهرة النحل . وفى المعتاد يكفى هذا لتثبيط روح الانثيال التى يعدها أمين من أخطر ما يسيء إلى المناحل الخارجية أى المناحل الريفية البعيدة عن المنحل المركزى ، أى عن مكان الإدارة . كذلك أراهما كيف يمكن عمل ثلاث طوائف من طائفتين مستعيناً بأقراص من الحضنة وبيت ملكة من إحداهما وبالنحل من الطائفة الأخرى حيث يضع الخلية الجديدة محلها ، كما أراهما عمليات شتى على هذا النحو وغيره بالإكثار متى توفر النحل وبيوت الملكات والملكات ، وإنما كان يشترط لنجاح كل ذلك أولا مواتاة الظروف بالنسبة للجو والرحيق وثانياً استغلال رغبة النحل ذاتها فى التكاثر ، فكان يأبى تقسيم أى طائفة لا تنزع إلى بناء بيوت ملكات إلا إذا كانت فى متناوله ملكات جديدة مخصبة وكان مع ذلك الجو والرحيق يسبب ما يطرأ من ظهور « أمهات كاذبة » أى « عاملات بياضة » ، وهذه وإن لم تكن مألوفة بهذه الصورة فى هجين النحل الكرنيولى الإيطالى إلا أنها كثيراً ما تظهر فى هجين النحل الشرقى والأفريقى متى أحست الطائفة بفقد ملكتها فتكون هذه « العاملات البياضة » مبعث

متاعب عديدة . ودرس أمين معهما علامات السرقة ، سرقة النحل من بعض، وكيفية تحاشى ذلك بعدم فتح الخلايا أثناء النهار عندما ينضب الرحيق بالحقول وبتحاشى عرض أية مادة سكرية فى المنحل إبان فترة الجدب، وبالامتناع عن أية تغذية إلا قبيل المساء وعلى وجه السرعة وعند الضرورة فقط حتى لا تنتبه النحل الطائرة إلى هذه العملية ، فتهاجم الطوائف المغذاة حتى ولو كان لدى طوائفها هى الغذاء الكافى بل نفس التغذية الصناعية .

وعودهما الاستماع إلى أصوات النحل المختلفة وتبين الفروق بينها — من صوت الملكة التى تنادى طائفتها للانثيال، إلى صوت النحل الصبية التى تطير لأول مرة راقصة مرحة مستمهلة أمام باب الخلية دارسة معالمها وجيرتها قبل أن تجازف بالابتعاد عنها ، إلى صوت النحل اليتيمة المستكينة ، إلى صوت النحل الخائفة ، إلى صوت النحل القانعة الراضية ، إلى صوت النحل الغاضبة ، إلى صوت النحل السارقة ، إلى صوت الذكور المتميزة الطنين أثناء طيرانها، وكان يبين لها فائدة هذه المعرفة من الوجهة العملية . ووقعت مرة حادثة سرقة لنواة فعمل على وقف السرقة بنقل النواة من محلها مؤقتاً وبدهن بابها بمحلول الكربوليك فلم يجد ذلك نفعاً ، وأخيراً ضمها إلى طائفة صغيرة لم تعجبه ملكتها

فقتلها واضعاً جريدة مبسوطة فوق غرفة التربية وقد ثقبها ثقوباً متعددة بمسمار صغير واضعاً أقراص النواة بنحلها فى الدور الأعلى ، ثم قافلا الخلية بعد ذلك حتى يتيح للنحل فرصة قرض الجريدة فى مواضع الثقوب ثم الاختلاط بعضها ببعض دون نزاع بعد أن تتوحد رائحتها ، وقد أوضح لهما أن هذه هى الطريقة المثلى للتوحيد (أى الضم)، وأن الواجب اللجوء إليها كلما وجدت طوائف يتيمة أو نويات ضعيفة ولم تسمح الظروف — كما قد يحدث فى الخريف عند نهاية الموسم — بتربية ملكات جديدة وبالحصول على ملكات مخصبة جيدة ، إذ لا فائدة من محاولة تشتية نحل ضعيفة الطوائف وتعريضها لعبث الجو البارد الممطر بها ولمهاجمة الأعداء لها .

وتناول معهما مسألة تدريج العسل وإعداده فى حالة جذابة للسوق وكيفية خزنه. ولم يفته قبل التشتية وبعد انتهاء آخر فرز من التعاون معهما على تغذية الطوائف بعض التغذية السريعة ، إذ كان قد صرح أن ما فى الحقول من خضر وذرة كاف إلى حد بعيد بموافاة النحل بحاجتها من الغذاء حتى شهر مارس « المقبل » حين تشتد حاجة النحل إلى زيادة الغذاء بسبب التوسع فى تربية الحضنة .

وكان مما ذكره عن تدريج العسل أنه من الوجهة التجارية

تحسن بنا دراسة ذوق الجمهور الذى نبيع له أعسالنا ، فإذا كان شديد الانقسام بعضه يحب العسل الأبيض وبعضه يؤثر العسل الأصفر وغيرهما يؤثر العسل القاتم ، فمن المصلحة حينئذ فرز هذه الأعسال على حدة وتدريجها وتعيين أثمان خاصة لكل منها حسب المقدار الميسور من الفرز ومزاياه ، إذ من المعقول مثلا أن يكون عسل الأشجار العطر الرائحة — ولو أنه قاتم اللون — أغلى ثمناً من عسل القطن ، وعلى الأخص بعد أن أثبت التحليل الكيميائى وجود الحديد فى العسل القاتم مما يجعله ملائماً للأطفال ، أما إذا كان الجمهور لا يهمه هذا الاختلاف اللونى ، ويعنى على الأكثر بطعم العسل ، فمن الحكمة مزج الأعسال وضبط لون قياس لها يعرف به إنتاج المنحل إلى جانب اسمه ووسمه .

وكرر أمين التنويه بأهمية التعبئة الحسنة ، وإن كانت وحدها لاتكفى لرواج العسل ، وإذا خدع بها بعض المشترين أولا فسرعان ما يكشف عيب العسل وغشه فينصرف الجمهور عنه . ومن أبرز هذه العيوب الواضحة بيع عسل الكوارات باسم عسل ناتج من خلايا فرنجية حديثة . أو بيع عسل مغشوش مخلوط بشراب الجلوكوز كأنه عسل نحل نقى ، ولكن ليس معنى اغترار أى نحال بإنتاجه النظيف الجيد أن يهمل تعبئته الحسنة

أو يقصر الدعاية له ، ولعل أفضل الأوعية من وجهة الدعاية هى الأوعية الزجاجية البلورية ، وقد برعت أمريكا فى صناعتها بأشكال وأحجام شتى ، وبعضها فى هيئة مرجونة النحل وقد رسم شكل النحل بارزاً عند بابها، فمن هذه الزجاجات يلوح العسل جذاباً للناظرين ويراودهم لشرائه ، ولو أن لعلب الورق المشمع وللصفائح مزاياها إما من جهة الرخص وإما من جهة المتانة والقابلية للتصدير متى لحمت أغطيتها ، وكلتاهما مما يمكن وضع اسم المنحل وعنوانه مع تصوير النحل والأزهار وما إلى ذلك عليها فى صورة جذابة . وأشار أمين إلى أنه من مصلحة النحال أن يبيع إلى جانب العسل المفروز بعض العسل الشمعى أو على الأقل يعرضه فى متاجر بيع العسل كإعلان له ، ولو أن إنتاج العسل الشمعى وعلى الأخص فى هيئة القطاعات — وهى العلب الصغيرة المعدة لإنتاج رطل من العسل الشمعى فى كل منها — يحتاج أولا إلى طوائف بالغة القوة وثانياً إلى مناطق عظيمة السخاء غزيرة الفيض بالرحيق وثالثا إلى جهات غير شديدة الحرارة حتى لا تأبى النحل الاكتظاظ فى عاسلات القطاعات .

وانتهز أمين نجاح الفرزين فنوه من جديد بالأقراص الصناعية التى كان امتلاؤها بالعسل قرة للعيون ، والتى كانت تسمح

لمتانتها بالفرز السريع دون أى خشية عليها من التلف ، فى حين أن عدداً من الأقراص الشمعية — وعلى الأخص الأقراص الجديدة — ما كان يستطاع فرزها فرزاً كاملا ، وتعرض بعضها للتلف .

كذلك نوه أمين فى دروسه بالانتفاع بمنتجات المنحل الانتفاع الأوفى وبالإكثار منها إذ لا يجب أن تقتصر العناية على تسويق العسل والشمع فحسب ، وذكر أن فى أمريكا توجد شركات تعنى بصناعة خل العسل باعتباره ألطف طعماً وأصلح نفعاً من الخل التجارى المعتاد ، وحتى خل المولت (أى الخل المصنوع من الشعير المنبت أو شعير الجعة) . وثمة شركات تعنى بصناعة المشروبات الروحية لا يفوتها صنع التبغ أو خمر العسل ، وهو من المشروبات الروحية النقية الفاخرة .

ولو وجدت جمعية تعاونية مركزية تعنى بالتوسع فى منتجات المناحل وفى تسويقها فى محلاتها الخاصة لوجدت مجالا فسيحاً لعملها ، ولنشأت فيها أقسام مختلفة لكل منها اختصاصه ومجاله فى التحضير والبيع ، فعدا صناعة الخل والمخللات من خضر وفواكه توجد صناعة التبغ ، وصناعة المشروبات كالليموناده وأمزجة العسل باللبن والشيكولاته وصنوف الكوكتيل ، ثم صناعة الفواكه المحفوظة بالعسل ، فضلا عن الكعكة والملام ومخاليط الزينة وغيرها من صنوف المأكولات المتعددة التى يجملها

العسل ، ثم صناعة المربيات العسلية وصناعة صابون العسل والدهانات الطبية والورنيش الذى تطلى بها الأثاثات والأرضية الخشبية للغرف ، وغير ذلك من التحاضير التى لا حصر لها .

وما ظهر الوروار أو آكل النحل حتى كان أمين شديد السخط على عدم التعاون على محاربته وكيف أن القانون يحميه باعتباره من آكلى الحشرات مع أن تشريح حوصلته أثبت على أن جل محتوياتها إن لم يكن كلها عبارة عن نحل أو أجزاء من النحل . فهذا الطائر عدو لدود للنحل ، وهى تسمع لصوته المنفر المخوف وتراه يتبعها أفواجاً بل ويكاد يقف فى الجو وهو طائر ويلتقط أخواتها غنيمة باردة ، وبعضها فى شجاعتها تجرى وراءه تريد لسعه ، ولكن هيهات ! وهكذا يعطل الطوائف عن العمل بل قد ينكبها فى أعز شىء لديها وهى ملكاتها إذا ما عادت إلى الخلايا للتخصيب ، وقد يؤدى ذلك إلى خراب مناحل التربية . فمن الغرابة بعد ذلك أن يحمى مثل هذا الطائر هذه الحماية العمياء ! وهناك طيور لاقطة غير الوروار ولكن هذا الطائر الشره كان أشدها خطراً .

أما سخط أمين على الشفافير فكان أشد من سخطه على الوروار ، وقد عد ضررها للنحالة المصرية مقابلا لضرر الأمراض المعدية للنحل فى أوروبا وأمريكا ، وكان تألمه منصبا على

التهاون فى محاولة استئصالها أو على الأقل محاربتها كما يحارب الجراد ، فكلاهما ضار بالزراعة ، والشفافير لا تقضى على المناحل فحسب بل تسيء كذلك إلى محصول الفاكهة ، وإن النحالين ليعانون منها كثيراً ما بين تعطيل النحل وما بين الأنفاق على صيدها فى المناحل وما بين حبس الطوائف بالحواجز المعدنية المشابهة لحاجز الملكة مثبتة على أبواب الخلايا ، فى حين أن التشريع بمسؤولية كل مالك عن تسميم أعشاشها فى ملكة مع مراقبة تنفيذ ذلك كفيل باستئصال شأفتها فى سنوات قليلة بدل الخسائر الفادحة التى تصيبنا منها عاماً بعد عام . وأما عن أعداء النحل الأخرى كالفيران والضفادع والسحالى والعناكب والنمل فأمرها هين بالنسبة إلى هذه الشفافير المتوحشة . وقد يعد من أعداء النحل النحال الجاهل والنحل المنحطة : فالنحال الجاهل بسوء تصرفه قادر على إتلاف خير الطوائف وأقواها ، والنحل المنحطة إذا استقرت فى منحل أفسدت ذكورها تلقيح الملكات العذارى وبلبلت بطباعها الشاذة النظام الهادئ فى المنحل ما بين لسع مفاجيء لا مبرر له وسرقات متعددة وغير ذلك من المتاعب المضايقة ، ولذلك يجب على النحال الحصيف أن لا يسمح أبداً بإقامة مثل هذا النحل فى منحله، وكفى شيوع الذكور المصرية وتنقلها الذى لا يحد ما بين المناحل .

ولما اقترب الشتاء هم أمين أن تكون جميع الخلايا مثبتة جيداً بحواملها فى الأرض حتى لا ينال منها عصف الرياح ، كما همه أن تكون جميع طوائفها قوية ، وقد عمل على تحقيق ذلك ، ولم يعبأ بما اعتاده سواه من وضع قش الأرز وما إليه فى غرفة خالية فوق الغطاء الداخلى بل كان يصرح بأن أفضل غطاء للنحل هو النحل ، أى أن الطوائف القوية فى غنى عن أى غطاء خارجى وأن ما يؤذى النحل ليس البرد ما دام فى حدود الاعتدال كما هو الحال فى مصر ، وإنما هى الرطوبة ، ولذلك يجب أن يكون سقف الخلية محكماً لا يسمح بتسرب المطر إلى داخلها .

* * *

وهكذا انتهى الموسم على أحسن الأحوال من تعليم وصحبة وإنتاج ، فانقطع المتعلمون وانفض السامر ، ووزع أمين الهدايا على أصحابه وخص بثينة بهدية غالية نفيسة ، وحسب أن فريداً قد عاد إلى القاهرة مفاجأة لاستئناف دراسته فإذا به يزوره ويبلغه أنه حول دراسته إلى كلية الطب بجامعة فاروق الأول ، فسر أمين من ذلك لأنه كان يحب فريداً ويستظرفه ويعجب باستقامته وبتنزهه عن الغرور ، ولكن مضت الأيام ولم تتكرر الزيارة فحسبه فى البداية مشغولا بدراسته ورأى

من الواجب أن يسأل عنه وعلى الأخص لأنه فاتته رؤية بثينة زمناً، وكان كلما سأل عنها قيل له أنها ما تزال متغيبة فى العاصمة . . .

وذات مرة توجه إلى منزل فريد فإذا بشقيقته صفية تبلغه أنه ذهب إلى السينما مع الآنسة بثينة لمشاهدة عرض رواية (الأرملة الطروب) الغنائية !

فذهل أمين وأسقط فى يده ولكنه تمالك نفسه وسأل صفية :

— حسبت أن الآنسة بثينة ما تزال فى القاهرة .

— لا أعرف أنها سافرت بعد ، فهى كثيراً ما تزورنا مع شقيقتها الآنسة نادية ، وقد كنا نتحدث عنك أمس فقالت الانسة بثينة إنلك مشغول جداً فى هذه الأيام !

يا لله ! أهذه نهاية الحب ! أكذا يكون الوفاء ؟ أيمكن أن تفكر فى شاب صغير مثله لم ينضج بعد ؟ ثم ماهذه الزيارات المتواصلة المتبادلة بينها وبين فريد فى حين أنها كانت تهرب من لقاء أمين ؟ وما هذه السينما التى تجمعهما فى مشاهدة أوبريت غرامية قائمة على الاستهواء والمجازفة ؟ أكان سخيفاً أبله فى ابتعاده هو عن الاستهواء والمجازفة ؟ . . لقد فقد كل شىء ، حينما كان يأمل فى قرارة نفسه أن تكون فاتحة العام الجديد المقبل فاتحة سعادة جديدة له .

ولبث حائراً بعد انصرافه تتلاطم هذه الخواطر فى ذهنه وكله لوم لنفسه على تهيئة الفرص لفريد للظفر ببثينة بينما أطار حظه من يديه غباء وإهمالا . . . وبقى زمنا فى غم وكرب لا يدرى ماذا يصنع . أيواجه فريداً ويستوضحه حقيقة ما بينهما ، أم يذهب إلى بثينة التى حسبها محبوبته الخالدة ليشكو ويؤنب دون مواربة ؟ !

وأخيراً انتهى عزمه على مقابلة فريد فى اليوم التالى ، فتوجه إليه فى الصباح الباكر فإذا به على وشك الخروج من المنزل .

— خيراً يا أمين ؟ صباح الخير !

— جئت لأرائك فى مسألة هامة وعاجلة يافريد .

— أهى مسألة تتعلق بأعمالنا ؟

— كلا ؟ بل هى مسألة شخصية تعنيك وتعنى بثينة أيضاً .

— إنى فاهم ما تريد أن تقول ، ولكنى مضطر إلى سرعة التوجه إلى الكلية ، وقد كنت مع بثينة ونادية نتحدث عنك أمس ، فإن شئت فقابلنا اليوم فى منزلها الساعة الخامسة بعد الظهر وستسمع منا الكلمة الحاسمة عما يجول فى خاطرك !

وقبل أن يستوعب أمين هذه العبارات الجافة التى كانت تقرع سمعه كالحصى ، وقبل أن يفيق من صدقها ، كان فريد قد مرق وأسرع إلى الترام فركبه . . .

عاد أمين إلى منزله منكس الرأس حزيناً ، وكان قد علق إلى جوار مكتبه قصيدة إذا « IF » للشاعر كبلنج ، وكان مغرماً بتلاوتها من وقت إلى آخر ، ولا يغادر مكتبه دون أن يلقى نظرة عليها كأنما يستمد منها العزم ، ولكنه فى هذه المرة أراد أن يستمد منها العزاء والسلوى إذا عجز عن استثارة جلده وتدعيم رجولته ، فقرأ قول كبلنج :

« إذا استطعت حلماً دون أن تجعل الذى تراه من الأحلام فوقك سيداً

إذا استطعت فكراً دون أن تجعل الذى تراه من الأفكار غايتك القصوى

إذا استطعت أن تلقى (انتصاراً) و (نكبة) وعاملت ذين الخادعين سواء ». . . .

ولكن لا فائدة من استمرار القراءة أو من محاولة فهم ما يقرأ ، وفى هذا المأزق ذهبت تربيته الأمريكية مع الريح ، وما الفائدة من مخادعة نفسه وإيهامها أن حلمه ببثينة ليس متسلطاً عليه وأنه ليس غايته القصوى ؟ وما معنى التظاهر بأن يضع « نكبته » الحاضرة التى لا ريب فيها موضع المساواة مع «انتصاره» الذى كان يحلم به ؟... لا ، لا ، هذا رياء فى رياء ، وهذه حكم زائفة تنشد للعبث واللهو ، وليس لها الآن أى طعم أو معنى أو وقع فى

نفسه . . . وانتزع الورقة من الحائط ومزقها . . .

* * *

وحانت الساعة الخامسة بعد الظهر فكان أمين يطرق منزل بثينه وإذا بها شخصياً تستقبله، وكأنه لم يحدث منها أى حادث عكر صفوه وكاد يقضى على نفسيته ، ولاحظ أنها تلبس رداء جميلا ولم يذكر أنه رآها أبهى رونقاً مما رآها فى تلك اللحظة . كذلك لاحظ أن شقيقتها نادية فى مثل حلتها وقد توافقا ، فللأختين مسحة واحدة من الجاذبية . وتمالك أمين نفسه وأخذ يحدثها على انفراد وهو يظهر الثبات والاطمئنان :

ــ يابثينة يا حبيبتى ! لقد جئت إليك عاتباً وغير عاتب ، فأنت جميلة متوجة، ولك أن تختارى من تشائين من رعاياك ، ولكن وعدك القديم ما يزال مصوناً فى قلبى يرن فى أنحائه .

ــ وماذا حدث يا أمين حتى تستفز إلى العتاب والشكوى ؟ وهل قطعت عهداً بالزواج منك أليس من صفات الحياة التغير والتجدد ؟ أتنكر أنك أنت ذاتك تغيرت ؟ !

ــ ماذا حدث يامهجتى ؟! وهل بعد ما جرى حدوث ؟! أهذه عقبى تأميلى فيك يا بثينة ؟ إنى أدع لضميرك أن يعترف بعهدك المقطوع لى وهو عهد الحب والوفاء الصريح ، فأين ذهب ؟ أما أنا فلن أحول دونك أبداً ، وأنا أعبدك الآن كما

كنت في كل وقت ، فلا تذلى رجولتي يابثينة !

— إسمع يا أمين إن بيني وبين فريد كلمة صريحة ستسمعها الآن وسأرى كيف تحتملها ، ويجب أن يكون معنا بعد لحظة .

فلم تزد كلماتها خاطر أمين إلا بلبلة وهمًّا ، وكاد يهم بمغادرة المنزل لولا أن طرق الباب ثم دخل فريد ، فإذا به يستقبل أمين هاشًّا باشًّا ويحتضنه مداعباً خلافاً لما عهده منه في الصباح . وقبل أن يفيق أمين من ذهوله المجدد فاجأه فريد بقوله :

— إني أعدك في منزلة الأخ يا أمين ،وأومن بأني لم أر صديقا أنبل منك أو أطيب قلباً وأكرم نفساً ، وقد اعتبرت نفسي وكيلك وتآمرت مع بثينة عليك ، فاتفقنا أن يكون زفافك لها في يوم زفافي بنادية وأن يتم العقد في الساعة السابعة هذا المساء ، وبالفعل أرسلنا الدعوات لهذه الحفلة العائلية السعيدة ، وهاهي ذي السيدة والدتك قد حضرت فعلا . . .

ولم يدعه أمين يتم كلامه بل هوى عليه وعلى بثينة يقبلهما تقديراً ومحبة . . .

* * *

كان العام قد مر على هذا الزواج السعيد وفي ذكراه الأولى اعترفت بثينة لأمين بتبدل نظراتها العاطفية منذ صحبتهما في المنحل

تبدلا محسوسا فإن الحياة في حضن الريف وما كانت تراه من أمومة النحل ومن رسالة الطبيعة أثر في نفسها عن وعى وغير وعى فشعرت بأنه إذا كان لا قيمة للرجل بغير رجولته المكافحة القائدة، فكذلك ليس للمرأة من قيمة بغير أنوثتها التى ترعى الرجل . وإذا كان للرجل أن يدللها ويسعدها إلى جانب حمايتها وهى وظيفته الأولى نحوها، فلا يغار عليها دون أن يسألها أن تلهمه وتؤانسه وتسعده فهذه وظيفتها الأولى نحوه ، وهكذا يكون التجاوب السليم والتضافر على الحياة .

* * *

تعاونت بثينة وأمين تعاوناً قلبيا فى كل أعمالهما فذاع صيتهما فى النحالة والأدب ، ونعما بحياتهما الزوجية الموفقة ، ونجحا ماديًّا كما نجحا أدبيًّا ، واقتنيا منزلا ريفيا جميلا زينا حديقته بالخلايا البيضاء الزاهية المأهولة بالنحل الكرنيولى الوديع ، وكان المارة يشاهدون أحياناً سيدة مشرقة فى ردائها الأبيض وإلى جانبها طفلها الصغير الجميل وهى تشير بأصبعها إلى باب الخلية وتشرح له . . . وتوقفت النحل عن الطيران وقد سمعها تقول : « انظر ياسمير إلى هذه النحل فهى أخواتك ، وهى التى جمعت بين بابا وماما ، فيجب يا حبيبى أن تحبها كما تحبنا . . . »

اقرأ

طاهر الطناحي

أمير قصر الذهب

أمير قصر الذهب

طاهر الطناحي

أمير قصر الذهب

اقرأ ٦٧

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٦٧ — يونيو سنة ١٩٤٨



كلمة المؤلف

(١)

هذه القصة من قصص الحضارة العربية ، أو قصص الحياة الذهبية فى عصر الترف والذهب ، والمتاع والطرب ، ورخاء الفن والأدب . . وهى من صور السياسة والاجتماع ، فى زمن امتزجت فيه السياسة بنواحى الحياة العامة فى شتى صورها ، فكان للأدباء والعلماء ، والفلاسفة والفقهاء ، نصيب فيها وأى نصيب !

وقد ظهرت من هذه القصص الحلقة الأولى فى كتاب « على ضفاف دجلة والفرات » ، حوى خمس عشرة قصة ، صدرت منذ عامين ، ولقيت من خاصة القراء وعامتهم تقديراً أعجز عن شكره ، بل أخجل من ذكره .

أما هذه الحلقة فهى قصة واحدة تصور ألواناً من الحياة السياسية والفنية والاجتماعية ، وتحلل شخصية من أهم شخصيات التاريخ ، وأميراً من أشهر أمراء بنى العباس . وقد سميتها « أمير قصر الذهب » وهو اسم برّاق ، لأنه كان يسكن قصر جده أبى جعفر المنصور المعروف بقصر الذهب ، وهو أحد القصور

الشهيرة التى بناها فى بغداد ؛ ثم لأن عصره كان عصراً ذهبياً ، فكان الذهب من ألمع مفاخره وأكثرها تداولا وزخرفاً : فى وجوه الدنانير التى كانت تعد بمئات الألوف ، وفى نفائس الحلى والمقتنيات ، وفى الأثاث والرياش ، وبدائع القصور .

على أن الفن والثورة هما أبرز خصائص هذا الأمير الفنان ، فقد كانت حياته مزيجاً من الفن والسياسة ، والقديم والجديد ، واللهو والجد ، والزهد فى أبهة الملك والطمع فيه ؛ وكانت له آمال وأحلام جسام ، وجمع إلى فن الأدب فن الطرب ، وكان شاعراً فقيهاً ، وزعيماً مجدداً فى الغناء والموسيقى ؛ ثم أراد — إلى ذلك — أن يكون أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين ، وملكاً للعرب والعجم !

عاش « إبرهيم بن المهدى »[1] فى عصر أخيه هرون الرشيد ، ثم محمد الأمين ، ثم عبدالله المأمون ، ثم أبى إسحق المعتصم ، وهو العصر الذى بلغ فيه الغناء والموسيقى العربية أعلى مكان من الإتقان والإبداع ، وظهر فيهما فطاحل المغنين والمطربين كإسمعيل بن جامع ، وإبرهيم الموصلى ، وإسحق الموصلى ، وغيرهم ؛ ولكنه كان — بما وهب من جمال الصوت والنبوغ

---

(١) ولد إبراهيم فى سنة ١٦٢ هـ وتوفى سنة ٢٢٤ هـ فى عهد المعتصم وعمره ٦٢ سنة .

الفنى — فى المقدمة بينهم ؛ وقد تزعم حركة لم يتزعمها أحد قبله ، وهى حركة التجديد ، فابتدع لنفسه مذهباً ، وابتكر ألواناً من الأنغام والألحان سجلها له تاريخ هذا الفن على الرغم مما وقع بينه وبين إسحق الموصلى من معارك .

وكان الخليفة المأمون فى أوج مجده وذروة سلطانه يوم ثار عليه إبرهيم وخلعه ، وبايع لنفسه بالخلافة فى العراق ، و لمس على أريكة الملك ، وحشد الجيوش لمحاربة ابن أخيه ، ولم يخش بأسه وما كان عليه من تأييد الخراسانيين له ، وضخامة قوتهم حوله ، وما أصاب من عدة ومال ورجال ، لأن طموحه كان يدفعه إلى تحقيق أحلامه فى العرش ، وكانت تلك الأحلام تساوره منذ مات الرشيد ، ولم يكن الغناء يعيبه لأنه لم يتخذه حرفة وتكسباً ، بل تعاطاه تلذذاً ومتاعاً .

(ب)

وفن الغناء والموسيقى من الفنون الرفيعة وهو محبوب فى الإسلام ؛ وقد كان بعض الخلفاء والأمراء يمارسونه و يدرسونه ويقربون أهله ، ويقيمون المسابقات بين المغنين ، ويجزلون لهم العطاء . وبلغ من إكرام الوليد بن اليزيد للفنان الشهير « معبد » أنه لما مرض آواه فى قصره وتعهده بحسن رعايته ، حتى مات فشيع جنازته هو

وأخوه « الغمر » إلى مقره الأخير .

وروى أن النبي (ص) قال لعائشة : « أهديت الفتاة إلى بعلها ؟ » قالت : « نعم » قال : « فبعثت معها من يغنى ؟ » قالت : « لا » فقال النبي : « أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغناء ؟ ألا بعثت معها من يقول :

أتيناكم أتينـــاكم فحيونا نحييـــكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم

وحدث أن النبي (ص) مر بجارية تغنى :

هل عـــلى ويحكم إن لهوت من حرج

فابتسم النبي وقال : « لا حرج إن شاء الله » . . ،

وحسب النبي العربى حباً للصوت الجميل وتقديراً له أنه اختار بلال بن رباح مؤذناً لمسجده ، وكان يؤذن بصوت مؤثر ، ويرتل الأذان بأنغام حلوة شجية .

ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم منتصراً من إحدى غزواته قالت له زوجه عائشة :

ــ لقد أقسمت شيرين ، مولاة حسان بن ثابت ، إن رجعت منصوراً من غزوتك أن تغنى وتضرب بالرق فى بيتنا ، فماذا ترى ؟

فابتسم النبي وأذن لها فى الغناء والعزف فى بيته ، وجلس مع

بعض أهله وصحابته ومنهم الصديق أبو بكر يستمعون لشيرين .

ذلك لأن الغناء هو لغة الحياة والوجدان ونشيد الوجود لكل موجود ، فالطيور فى خمائلها ، والوحوش فى مجاهلها ، والدواب فى أكنانها ، والبلابل على أفنانها ، تترجم عن حياتها ، وتترنم بشعورها ، كلما صفت نفسها وأحست بجمال الحياة ، ونشوة الوجود . ولا شيء يعدل الغناء والموسيقى فى تنبيه العواطف وإثارة الهمم ، وتهيئة النفوس لقبول الكمالات ، وتوجيهها توجيهاً حسناً صالحاً . قال أفلاطون :

« من حزن فليستمع إلى الأصوات الجميلة ، فإن النفس إذا حزنت خمد نورها ، فاذا استمعت لما يطربها اشتعل منها ما خمد وتحرك فيها ما جمد » .

وقد كان بإسبارطة فتنة خطيرة شملت أنحاء المدينة ، وانتظمت جميع سكانها ، واستحال على ولاة الأمور إخمادها ، ففكر بعضهم فى جمع الموسيقيين وتوزيعهم بين المتنازعين — وفعلوا — فأشاعوا بينهم الأنغام والألحان ، فصفت نفوسهم ، وطابت قلوبهم ، وهدأت أعصابهم ، وزالت عنهم أسباب الخصام .

وروى أبو بكر الدنيورى حادثة شاهدها فقال :

« كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب ، فأضافنى رجل منها ، وأدخلنى خباءه فرأيت فيه عبداً أسود مقيداً بقيد ، ورأيت قبالته جمالا قد ماتت ، وبقى منها جمل ناحل كأنه ينزع روحه ، فقال لى الغلام : « أنت ضيف مولاى اليوم ولك أن تشفع لى عنده ، فإنه مكرم ضيفه ولا يرد شفاعتك » .

فلما حضر الطعام قلت : « والله لا آكل ما لم أشفع فى هذا العبد » .

فقال : « إن هذا العبد أفقرنى ، وأهلك جميع مالى » .

قلت : « ماذا فعل ؟ »، قال : « إن له صوتاً جميلا ، وإنى أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحملها أحمالا ثقالا ، وأخذ يحدو لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمه ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل ، ولكن أنت ضيفى ، فلكرامتك وهبته لك » .

فأحببت أن أسمع صوته ، وأصبحنا ، فأمره أن يحدو بى على جمل قوى ليستقى الماء من بئر هناك . فلما رفع صوته هام الجمل على وجهه فوقعت على الأرض ، وما أظن أنى سمعت قط صوتاً أحسن منه » !

والغناء والموسيقى وسيلة من وسائل التربية وعلاج النفس والجسم

من الأمراض[١] ومقياس لتقدم الشعوب ، ورقى أفرادها . وأنت تستطيع أن تحكم على الحالة الاجتماعية لكل أمة بنوع موسيقاها وما تتغنى به من أشعار وأقوال ، فإن كانت من ذوات الهمم العالية أو كانت من الأمم الذليلة المستضعفة بدا ذلك واضحاً فى قوة غنائها وارتقائه ، أو فى ضعفه وانحطاطه .

ولهذا نستطيع أن نحكم على حياة العباسيين فى العصر الذى عاش فيه إبرهيم بين المهدى بغنائه ، فقد كان غناء يشيع فيه تمجيد البطولة وصفات الكرم والشمم والإباء ، ولكنه شاع فيه أيضاً طابع العصر من الميل إلى اللهو والترف ، والتحرر من بعض النواهى ، والإغراق فى الملاذ .

(جـ)

وقد كانت الحقبة التى وقعت فيها حوادث هذه القصة حقبة اضطراب وفتن سياسية غير أنها من الوجهة الاجتماعية حافظت على الطابع العام لذلك العصر الذى ساد فيه الرخاء بالعراق ، وكانت الأموال تنصب فيه على بغداد انصباباً ، فكان البذخ

---

(١) أنشئت فى أمريكا مؤسسات للعلاج بالغناء والموسيقى منها مؤسسة هاريت إيرسيمور بنيويورك ، كما أدخل هذا النوع من العلاج فى كثير من المستشفيات .

والتأنق فى المأكل والملبس والمسكن لا يقتصران على الخلفاء والأمراء ، بل يتعديانهم إلى الكثيرين من السكان . وقد تنافسوا فى ضروب من اللهو وألوان المتاع ، وتسابقوا فى بناء القصور ، وتجميل المنازل وتنسيق البساتين ، واقتناء الأثاث والرياش الثمين ، والتحلى بالجواهر النفيسة ، والاستكثار من الجوارى الحسان ، ولطيف الخدم والغلمان .

وأدى رخاء هذا العصر وغضارة العيش فيه إلى تفنن أهله فى الملاذ ، والإقبال على شرب الخمور بين الأثرياء والأدباء ، وكان النبيذ أكثرها شيوعاً فى العراق ، وكان الخلفاء يستحلونه على أنه غير مسكر ، وصار شربه عادة مألوفة فى مجالس الغناء والموسيقى .

وأدخل العباسيون أسباب الأبهة والفخامة التى كانت للأكاسرة فى قصورهم ومجالسهم وسائر أحوالهم ، فاتخذوا المقاعد المطعمة والطنافس المطرزة ، والوسائد الموشاة ، والستور المحلاة بالنقوش البديعة ، وزينوا السقوف والجدران بالرسوم الذهبية والفضية الممثلة لما فى البر والبحر والجو من حيوان وأشجار وأطيار ومدن وأنهار ، وربما حلوا ستائرهم بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية ومأثور الحكم والأشعار .

وقد أقام الخلفاء الحجاب ، ونظموا المقابلات بالاستئذان

لغير الأمراء ، وكانت التحية على الخليفة « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . وقد يقبلون الأرض أمامه ، أو يقبلون يده على حسب الأقدار .

وكانت الأفضلية فى الجلوس بين يدى الخليفة فى ذلك العهد لبنى هاشم ، فيجلس الخليفة على السرير أو السدة ويجلس بنو هاشم على الكراسى عن يمينه والوزراء على الكراسى أو الوسائد عن يساره ويليهم سائر الطبقات .

ولا ينصرف أحد من مجلس الخليفة إلا إذا نهض أو أذن له بالإنصراف ؛ ولا يبدأ أحد بمحادثة الخليفة إلا إذا بدأه . وقد أباح الخليفة المأمون الكلام فى مجالسه للمناظرة فى العلم والأدب ، وكانت مجالسه لا تخلو من ذوى الظرف والخفة والفكاهة ، وكان الحديث يجرى باللغة العربية الفصحى ، كما أن الغناء كان بهذه اللغة ، ولم يقتصروا فيه على أشعار الحب والهيام ، بل تناولوا كثيراً من الأغراض حتى الرثاء .

وكان الخليفة إذا أراد أن يصرف جلساءه قال لهم : « إذا شئتم » أو « على بركة الله » أو غير ذلك حسب الأحوال . ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرى ، ووجهه نحو الخليفة حتى يتوارى .

وكان التطييب بأنواع الطيب من دلائل النبل عندهم ، ومن

أقوالهم : « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم : رجل رأيته راكباً ، ورجل سمعته يعرب كلامه ، ورجل شممت منه طيباً » . وكانوا لاقتباسهم من حضارة الفرس يقلدونهم فى الملابس ، وبخاصة الملوك والأمراء ورجال الحكومة وأهل الثراء ، فلبسوا الأقبية والطيالسة والخفاف والجوارب ، مع بقاء العامة على ألبسة العرب ؛ ثم اختصت كل طبقة بزى خاص ، فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء ومبطنة وطيلساناً أسود. والقضاة يلبسون القلانس الطوال والطيالسة الرقاق ، وأما غيرهم من الطبقات فاختلفت ملابسهم باختلاف أحوالهم .

وكانت بغداد فى ذلك الزمان عروس الشرق والغرب ، وعاصمة الحضارة العربية بما جمعت من علم وأدب وثروة وطرب ، وما حوت من فن وافتنان وأنس وجمال ، فلا عجب أن يظهر فيها من رجال الدين والدنيا من برزوا فى العلوم ، ونبغوا فى الفنون ، وكانوا أئمة خالدين ، وقادة مجددين ، ونوابغ ثائرين ، كالأمير الفنان والثائر الألمعى إبرهيم بن المهدى .

طاهر الطناحى

الفصل الأول

الفنان النبيل

أشرقت الشمس على ربوع بغداد فى موكب حافل بالجلال والبهجة والجمال ، وكان اليوم باسماً حلواً ندياً ، وكان فى روائه وطيبه مونقاً صفواً زكياً —كان من أيام الربيع الضاحك الطروب ، الرائع فى بهاء طلعته ، المختال بسحر فتنته ، الشادى بأنغام الحياة وألحان الوجود ؛ . . .

وجلس إبرهيم بن المهدى بين مباهج هذا اليوم الوسيم على سرير من الأبنوس فى شرفة قصر الذهب — قصر جده المنصور — وعليه قبة فوقها طارمة[1] ديباج أزهر ، وهو يتأمل مجالى الطبيعة الحسناء ، وينظر فى نهر دجلة إلى انسياب الماء فى الغضيرة[2] الخضراء ، وبين يديه وصائف حسان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، وحوله غلمان كالدنانير .

وكان القصر فخماً فاتناً يتألق ، قد أبدع فيه صانعه ،

---

(١) كلمة أعجمية معربة معناها ستر رقيق من الديباج

(٢) الغضيرة الأرض التى بها طين حر

فحلى جدرانه بصفائح الذهب والفضة والجواهر النفيسة ، والألوان الجذابة ، والنقوش الدقيقة . وله قبة خضراء تسمو متلألئة فى السماء إلى ثمانين ذراعاً كأن الثريا عرَست فيها ، أو كأن البدر شُدّ فى أعاليها .

وقد شاده المنصور فى وسط بغداد بالقرب من دَجلة بحيث يشرف على سائر احياء المدينة ، وأقام فى منتهى قبته فارساً يحمل رمحاً يتجه نحو مهب الريح أينما كانت . ثم بنى قصر الخلد ، وجعله مقر الخلافة ، وكان يسكنه هو وخلفاؤه من بعده . أما قصر الذهب فقد نزله إبرهيم بن المهدى بعد أبيه وجده . وكان إلى جمال بنائه وروعة زخارفه تحيط به الخمائل الغناء ، والحدائق الفيحاء ، وتعمره الجوارى الحسان ، وأنغام البلابل والغزلان .

ويعيش فيه إبرهيم فى هناءة الحياة الذهبية السعيدة التى عاشها خلفاء بنى العباس وأمراؤهم فى أوج مجدهم وذروة عظمتهم ، وضخامة ثروتهم ، وكأنما كانوا يحيون فى غرف الجنان .

وكان إبرهيم بن المهدى رفيع المنزلة ، نبيه الذكر ، شريف القدر ، زانه الشباب فزاده حسناً وإحساناً . وبسط الله له فى جمال الجسم ، وحلاوة الصوت ، وعذوبة النفس ، ودقة الحس ، والنبوغ فى فنى الأدب والطرب ؛ وكانت له طلعة سمراء جذابة تتهلل بالملاحة والظرف والنبالة .



مكث إبرهيم فى شرفة القصر يتأمل ساعة من الزمان تأمل المفكر الفنان ، ويستمتع بالرياض المنبسطة فى الحدائق الغناء وعلى ضفة النهر كأنما هى رياط[١] السندس أو مدنرات[٢] الدمقس ، والمياه تجرى تحته كالفضة الذائبة ، أو سبائك الذهب السائلة ، والطيور تغرد على الأفنان بأعذب الألحان ؛ وقد خفت الرياح حتى كادت أن تكون أرواحاً تهبط لتتصاعد ، وتتصاعد لتهبط فى طراوة ورشاقة ، وفى طيب كأنها تحمل أنفاس العاشقين .

وأخذت الأمير الفنان نشوة الطرب من هذا الجمال الباهر فاهتز النغم فى أطواء نفسه ، ونهض فنادى جواريه وغلمانه ليقيموا له مجلساً من مجالس أنسه . وأقبلت شارية[٣] ، وريّق ، وصَدوف ، ومعمعة ، ومكنونة . ووراءهن الراقصات وحاملو آلات الموسيقى ، وانتظموا فى صحن القصر ، وجلس إبرهيم على سدته ، وغنت شارية ثم ريق بعض أغانيه وألحانه على

(١) رياط : جمع ريطة ، وهى الملاءة ، القطعة الواحدة من النسيج .
(٢) ثوب مدنر بتشديد النون : أى مضروب بشكل الدنانير .
(٣) كبريات جوارى إبراهيم بن المهدى . وكانت شارية وريق تحسنان الغناء ، وصدوف تحسن العزف ، ومعمعة تحسن النفخ بالمزمار ، ومكنونة صاحبة إبريق الخمر تحمله لسيدها وتسقيه منه فى كأس له تدعى «الضحضاح»

عزف الآلات ، وكانت مكنونة تقدم الكأس لسيدها آنا بعد آن حتى ثمل بلذة الألحان ، ونشوة بنت الحان ، فقام من مجلسه ، وتناول العود من صدوف ، وجلس معهن يعزف ويغنى ، وكان أجمل أهل عصره صوتاً ، وأدقهم ذوقاً وأشدهم حباً للابتكار والتجديد ، لا يميل إلى المحاكاة والتقليد ، ويعيب على « إسحق[١] الموصلى » تعصبه للقديم ، مع علو مكانته ونبوغه فى صناعته .

وعلا صوت إبرهيم ، وانسابت تغاريده فى أجواز الفضاء ، فهزت كل من سمعها ، وملكت عليه نفسه ، فجلس الناس على شاطئ دجلة وفى البساتين القريبة يستمعون ويطربون ، وسكرت الجوارى والغلمان بعذوبة ما ابتكر هذا الفنان النابغ من أصوات وأوزان ، وسقط الإبريق والكأس من يد مكنونة ، وسالت الخمر وهى لا تدرى لما نابها من نشوة الطرب والأنغام .

* * *

نهض إبرهيم بعد ما استوفى تغريداً وتطريباً . وفى المساء خرج إلى قصر أخته عُليه[٢] بنت المهدى بالرصافة ، وكان قصراً

---

(١) من زعماء الغناء والموسيقى فى ذلك العصر وسيجىء ذكره

(٢) «علية» بضم العين وتشديد الياء . ولدت سنة ١٦٠ هـ وتوفيت سنة ٢١٠ فى عهد المأمون ، ولها من العمر خمسون سنة وتزوجت موسى ابن عيسى العباسى

فخماً جميلا بناه أبو جعفر المنصور لوالدها حينما كان ولياً للعهد ، وكانت كأخيها فنانة أديبة بارعة ، بل هى أميرة فى نسبها ، أميرة فى فنها وأدبها ، مليحة الوجه واسعة الجبهة اتساعاً كانت تتخذ لأجله العصائب المزدانة بالذهب والفضة والجواهر النفيسة ويقلدها نساء بغداد فى زينتها وزيها ، ويأخذن عن ذوقها الجميل .

وأقبل إبرهيم على أخته فوجدها جالسة على أريكة من العاج فوق سدة مزدانة بالوشى والديباج ، وقد تزيت بزى أميرات بنى العباس فى ذلك الزمان الناعم النضير ، ووقفت خلفها جاريتها الحسناء « خلوب » فى رشاقة وظرف ، ممسكة بمذبة أنيقة لتذب عنها كعادة بنات الأشراف ، وسيدات القصور ، فحياها وحيته مرحبة مهللة ، وقبلت كتفه وقبل رأسها ثم جلس ، فقال لها فى تجمل ولطف :

— كيف أنت يا أختى ؟ جعلنى الله فداءك :

فقالت فى رقة وعطف :

— بحمد الله يا أخى وفضله ورعايته . . .

قال لها :

— وكيف صحة جسمك ، وحال نفسك ؟

فقالت :

ــ صحة سابغة ، وعافية كاملة ، ونفس مطمئنة ، وعيشة راضية .

ونظر إبرهيم إلى « خلوب » وتشاغل بالنظر إليها ، فلاحظت عليه هذه النظرات ، وتنبه لهذه الملاحظة فاستحيا ، وخفض رأسه ثم رفعه وقال :

ــ وكيف هناؤك فى حياتك يا أختى ؟

ــ هناء عظيم أشكر الله عليه ، لا ينقصنى فيه شىء ولا يشغلنى عنه شاغل .

ــ وكيف أوقاتك ومجالس أنسك .

ــ إنها طيبة سارة لا حظ للشيطان فيها .

ــ وكيف أنت يا أختى ؟ جعلنى الله فداءك .

وجذبه النظر إلى « خلوب » ، فلاحظت أخته ، فغض فى استحياء ثم عاد يقول :

ــ وكيف هناؤك فى حياتك يا أختى . . . وكيف أوقاتك ومجالس أنسك ... وكيف صحة جسمك ، وحال نفسك ؟!

فنظرت إليه فى عتاب وقالت :

ــ سبحان الله ، أليس هذا قد مضى أمره وأجبنا عنه ؟ !

فازداد خجل إبرهيم ، وهمّ لينصرف مستأذناً ، فضحكت اخته وقالت :

ــ لا بأس عليك يا أخى ، اجلس ، فوالله إنى لمشوقة إلى

أنسك ، ولن أتركك حتى تسمع ما عندى وأسمع ما عندك ! .

قال إبرهيم :

— هات يا علية

فنادت جواريها وغلمانها ، واستدعت أخاها يعقوب بن المهدى وكان يحسن النفخ بالمزمار ، وعقدت مجلساً بهيجاً مؤنساً وغنت من شعرها :

تحببْ فإن الحب داعية الحب
وكم من بعيد الدار مستوجب القربِ
تبصر فإن حُدثت أن أخا هوى
نجا سالماً ، فارج النجاة من الحبِ
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضى
فأين حلاوات الرسائـل والكتب

وكان إبرهيم يهتز طرباً كلما تغنت بمقطع من مقاطع هذه الأغنية ، حتى إذا انتهت ناولته العود فأمسك به وغنى من شعره :

أجنُّ بليلى وهى غير سخيةٌ وتبخل ليلى بالهوى وأجودُ

فطربت علية طرباً شديداً ، وناولته كأساً من النبيذ وقالت :

— وحياتى لتغنين

فعزف إبرهيم ، وغنى من شعره :

جدد الحب بلايا أمرها ليس يسيرا
كبر الحب وقد ما كان إذ حل صغيرا
ذلل الحب رقابا كان أدناها عسيرا
ليس لى من حب إلفى غير حرمانى السرورا

فطربت عُليه ، وقامت فعانقته وقبلته فى فمه ، وقالت :

— بارك الله لك يا أخى ، وبارك لنا فيك ، ولافض فوك ، وبعد شانئوك .

ثم جعلت تتحدث معه وتروى له من الأدب والشعر ويروى لها كذلك حتى امتد الحديث إلى ذكر أخيهما هرون الرشيد وأيامه ، فقال إبرهيم !

حججت مرة مع الرشيد فبينا نحن فى الطريق وقد انفردت وحدى وأنا على دابتى إذ حملتنى عيناى ، فسلكت بى الدابة غير الطريق ، فانتبهت وأنا على غير الجادة ، فاشتد بى الحر فعطشت عطشاً شديداً ، فارتفع لى خباء فقصدته ، فاذا بقبة وبجانبها بئر ماء بقرب مزرعة ، وذلك بين مكة والمدينة فاطلعت فى القبة ، فإذا أنا بأسود نائم ، فأحس بى ففتح عينيه ثم استوى جالساً ، فإذا هو بشع الصورة ، فقلت : يا أسود ، اسقنى من هذا الماء . فقال محاكياً لى : يا أسود اسقنى من هذا الماء ! . ثم قال إن كنت عطشان فانزل واشرب . وكان تحتى برذون

خبيث نفور فخشيت أن أنزل عنه فينفر ، فضربت رأس البرزون . وما نفعني يا علية الغناء قط كما نفعني في ذلك اليوم فقالت علية : « وكيف كان ذلك » ؟

قال إبرهيم : لما أجابني الأسود بهذا الجواب سرت ورفعت عقيرتي وغنيت ، فلحق بي ، وقال :

— أيما أحب إليك أن أسقيك ماء وحده ، أو ماء وسويقا ؟ قلت :

— الماء والسويق .

فأخرج قعباً له ، فصب السويق في القدح ، فسقاني ، وأقبل يضرب بيده على رأسه وصدره ويقول : « واحر قلباه يا مولاى ، زدني وأنا أزيدك » ، وشربت السويق والماء . ثم قال : « يا مولاى إن بينك وبين الطريق أميالا ، ولست آمن عليك العطش ، لكني أملأ قربتي هذه ، وأحملها قدامك ، » فقلت له : «افعل» ، فملأ قربته وسار قدامى وهو يحجل في مشيته غير خارج عن الإيقاع ، فإذا أمسكت لأستريح أقبل علي ، فقال يا مولاى عطشت ، فأغنيه إلى أن أوقفني على الجادة من الطريق ، ثم قال : « سر رعاك الله ولا سلبك ما كساك من هذه النعم » ، فلحقت بالقافلة ، والرشيد قد فقدني ، وبث الخيل في البر لطلبي ، فسر بي حين رآني ، فأتيته فقصصت عليه الأمر ، فقال « علي بالأسود »

فما كان إلا يسير حتى مثل بين يديه ، فقال له :

ـــ ويلك ما حر قلبك ؟

فقال : « يا مولاى ميمونة » قال : « ومن ميمونة ؟ » قال : «حبشية يا مولاى» . فأمر من يستفهمه ، فإذا هى أمة لبعض أولاد الحسن بن على ، فاشتراها له ، فأبى مواليها إلا أن تكون هدية للرشيد ، فوهبها له .

فقالت علية لإبرهيم :

ـــ رحم الله أخى الرشيد ، فقد كان نبيل النفس ، عظيم المروءة . لقد فعلها معى ، فهذا « طل » الغلام وهبنى إياه ليكون فى خدمتى وركابى .

فقال إبرهيم : « فإن لم يصبها وابل فطل »[1] !

فضحكت علية . ثم نهض وودعته أخته ، وانصرف إلى قصره ، وكان الليل قد انتصف ، فأوى إبرهيم إلى مخدعه فى سلام

---

(١) يقال إن «طلا» كان غلاما جميلا من غلمان الرشيد ، فأحبته علية وقالت فيه شعرا فنهاها الرشيد عن كلامه وتسميته ، فدخل عليها وهى تقرأ قوله تعالى : «فإن لم يصبها وابل فطل» وأرادت أن تقول : «فطل» فقالت «فالذى نهانا عنه أمير المؤمنين» فأقبل الرشيد عليها وقبل رأسها وقال : « قد وهبت لك طلا ، ولا أمنعك بعد هذا من شىء تريدينه» . والمؤلف يشك فى صحة هذه الرواية .

فى ليالى القمر

كانت الليلة التالية ليلة وضاءة صافية من ليالى القمر . وما أدراك ما هذه الليالى الضاحكة القمراء فى بغداد عروس المشرق فى ذلك الحين ، فقد كان الناس يخرجون فيها للتزاور وشهود مجالس الأنس والطرب والشراب إلى وقت أخير من الليل ، فيأخذون من اللهو ومتاع الدنيا ما شاءت لهم . الحياة الرغدة الباسمة التى زخرت بأنواع اللذائذ والسرور على شواطىء الرافدين .

وكان إبرهيم بن المهدى ، قد اعتاد أن يخرج فى هذه الليالى زائراً لبعض آ له ، أو مؤانساً لأحد أصدقائه ، أو مناظراً لخصومه فى أغانيه وألحانه ، وقد مضى حين من الزمن لم تعكر الأحداث صفو بغداد وما يظلها من سعادة وهناءة عدا مقتل « الأمين » فقد هز هذا الحادث جوانب المدينة بل جوانب العراق ، هزاً أليماً . وكادت تحدث من أجله فتنة لولا ما كان عليه المأمون من قوة وعزم ، وما له من سلطان بين العرب والعجم ، فعادت إلى بغداد حياتها الناعمة وحظها السعيد .

---

(١) قتل الخليفة الأمين سنة ١٩٨ هـ ولمقتله قصة فى كتاب على «ضفاف دجلة والفرات »

وخرج « إبرهيم » فى المساء إلى بيت صديقه مخارق المغنى فى زى العامة من العرب ، وقد خلع ملابس الأمراء ، فمر فى طريقه بدار رشيقة متقنة البناء ينم ظرفها وجمال مرآها على أنها لثرى كبير من الأثرياء . وكان هذا الثرى يدعى « أبا غبدالله » وهو من كبار تجار العراق الذين امتدت تجارتهم إلى الهند وفارس واليمن وبلاد الأحباش . وقد دعا نخبة من أصدقائه التجار بعد أوبة من أسفاره ليحيي معهم ليلة ساهرة عامرة بالغناء والموسيقى والشراب ورقص الجوارى الحسان . وكانت أمثال هذه الليلة تفتن عشاق الطرب من الأمراء والأعيان وأهل الفنون يغشونها سواء أكانوا من المدعوين ، أم من الهواة المتلذذين فنظر «إبرهيم» إلى الدار فإذا كف ومعصم لحسناء قد خرجا من إحدى نوافذها ، ثم إذا وجه فاتن كأنما هو وجه القمر يطل من هذه النافذة ثم يختفى كالبرق . فاستهواه ما رأى واستثار فؤاده ، وهو الشاب الأديب الفنان المملوء حياة وشبابا ، وشعوراً رقيقاً مرهفاً ، فوقف واجماً مفكراً فيمن عسى أن تكون هذه الجارية الفاتنة ، وفيما عسى أن يكون فى هذه الدار من الأنس والمتاع ، ثم إذا بتاجرين من المدعوين قد أقبلا ، وسلما عليه ، فسلم عليهما ، ودخلا الدار ، فدخل هو بينهما ، وهما يظنانه من أصدقاء صاحب الدار ، فلم يكن لهما عهد برؤية إبرهيم بن

المهدى ومعرفته عن كثب ، وكذلك كان أبو عبدالله ، فإنه لم يعرفه ، ورحب به عند قدومه عليه وظن أنه صديق صاحبيه أتى معهما تفضلا ورغبة منه فى المؤانسة والمجالسة ، وسماع الغناء مع سائر الأهل والأصحاب .

وجلس إبرهيم معهم متنكراً ، وانتهى الطعام وأقبلت جارية حسناء تدعى « خالدة » كانت صاحبة الوجه الفاتن والكف والمعصم جمعت بين القمر نوراً والغصن ليناً وهى كما قال بشار :

بنت عشر وثمان قسمت　　بين غصن وكثيب وقمر

وكانت تتهادى فى استحياء وتمشى فى دلال وتثن كأنما تمشى على عواطفها فتذيب القلوب وتسحر الألباب . ووراء هذه الجارية موكب من الجوارى الحسان وملاح الغلمان يحملون آلات العزف والطرب ، ثم جلسوا جميعاً على تخت بالقرب من فسقية جميلة وفى وسطهم خالدة وغنت لبشار بن برد :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم　　ونفى عنى الكرى طيف ألم
نفسى يا عبـــد عنى واعلمى　　أننى يا عبد من لحم ودم
إن فى بردى جسماً ناحلا　　لو توكأت عليه لانهـــدم
وإذا قلت لها جودى لنـــا　　خرجت بالصمت عن لا ونعم
ختم الحب لها فى عنقى　　موضع الخاتم من أهل الذمم

فما كادت تنتهى حتى امتلك القوم الشجو والطرب ،

واستعادوها فأعادت الغناء . ثم قال لها إبرهيم أسمعينا يا خالدة من العباس بن الأحنف فغنت :

خليــلى ما للعاشقين قلوب
ولا للعيون الناظرات ذنوب
ويا معشر العشاق ما أوجع الهوى
إذا كان لا يلقى المحب حبيب
أموت لحيني والهوى لى مطاوع
كذاك منايا العاشقين ضروب
عدمت فوادى كيف عذبه الهوى
أما لفؤادى من هــواه نصيب

فاشتد طرب القوم ، وقال إبرهيم أحسنت والله يا جارية ولكن بقى عليك شيء! ! فعز عليها أن ينقدها وقامت نافرة وضربت بعودها الأرض ، وصاحت :

— متى كنتم تحضرون مجالسكم من لا يحسن السماع !

وخرجت ، فقام إبرهيم فى هدوء وثبات ، وأخذ العود فأصلحه واندفع يغنى بتلحينه :

أسرى بخالدة الخيال ولا أرى شيئاً ألذ من الخيال الطارق
إن البلية من تمــل حديثه فانقع فرادك من حديث الوامق
أهواك فوق هوى النفوس، ولم يزل مذ بنت قلبى كالجناح الخافق

شوقاً إليك ولم تجاز مودتى ليس المكذب بالحبيب الصادق

وما كاد ينتهى منها حتى خرجت الجارية ، فأخذت بيده وجعلت تقبلها وهى تقول :

— المعذرة يا سيدى ، والله ما سمعت أحداً يغنى هذا مثلك !

فقال إبرهيم : جعلت فداءك يا خالدة وما سمعت والله معتذرة أجمل منك ! وقام مولاها أبو عبدالله ففعل مثلما فعلت وقال مثلما قالت ورجاه أن يغنى صوتاً آخر فغنى من شعر بشار :

أيها الساقيان صبا شرابى واسقيانى من ريق بيضاء رود
إن دائى الظما وإن دوائى رشفة من رضاب ثغر برود
ولها مبسم كغر الأقاحى وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القلـ ب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليـــال والليالى يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقائى وعندى زفرات يأكلن قلب الحديد

فتأوه جميع السامعين وهتفوا معجبين مكبرين وقالوا :

— هذا والله الغناء . . . هذا والله الغناء . !

وجاء من طرب القوم ما كاد يذهلهم ، وناشدوا إبرهيم أن يزيدهم ، فغنى :

هـــذا محبك مطوى على كمده
صعب مدامعه تجرى على جسده

له يد تسأل الرحمن راحتــه
مما به ويد أخرى على كبــده
يا من رأى كلفا مستهتراً أسفاً
كانت منيته فى عينــه ويــده

فطربوا طرباً شديداً ، وغنى إبرهيم أصواتاً أخرى حتى منتصف الليل ، ثم انفض المجلس ، ونهض الحاضرون للخروج وساروا مودعين من أبى عبدالله ما عدا إبرهيم فقد رجاه أن يبقى ملاوة[1]من الوقت ، فمكث حتى انصرف القوم فقال له أبو عبدالله :

– ذهب والله ما خلا من أيامى باطلا إذ كنت لا أعرفك فمن أنت يرحمك الله ؟ . . .

فأبى إبرهيم أن يعرفه نفسه ، فألح عليه كثيراً حتى أخبره فبهت الرجل وقال : « الله أكبر ، سليل هاشم ، وحفيد العباس وأمير الغناء عندى . . . »

قال إبرهيم :

– لا تفضحنى يا عم يرحمك الله . . . فما كان ينبغى أن أغشى دارك فى هذه الحال !

فقال أبو عبدالله :

---

(١) الملاوة البرهة من الوقت

ــ لا بأس عليك يا سيدى فإن الدار دارك .

قال إبرهيم :

ــ أحمد إليك الله أبا عبدالله . . . وأتمنى لك حياة طيبة !

ونهض ليخرج ، فقال أبو عبدالله :

ــ لا والله حتى تقبل منى « خالدة » جارية لك ، فإنك أكرمتنى بأنسك ، وشرفتنى بضيافتك .

فاغتبط إبرهيم بهذه الهدية الحسناء

الفصل الثانى

الطموح

كان إبرهيم بن المهدى من أنبغ رجال عصره فى الغناء والموسيقى ، وكان مجدداً مبتكراً ، ممتازاً بطرائق التجديد والابتكار ، ينتقد القديم وأنصاره ، ويندد بزعمائه وفى رأسهم إسحق الموصلى. ومع أن أمه « شكله » بكسر الشين وسكون الكاف من أب أعجمى يدعى « شاه افرند » فقد كان إبرهيم أديباً عربياً صميماً ، خطيباً مصقعاً ، شاعراً راوية . ولم يكن فى لهوه وترفه مستهتراً متبذلا . وكان يناظر إسحق فى فن الغناء ، ويأخذ عليه تعصبه للقديم — فإذا حاجه إسحق فى بعض مستحدثاته قال :

— أنا ملك أغنى كما أشتهى !

وقد بقيت الخصومة بينه وبين إسحق فى عهود الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، وكان إبرهيم زعيم المجددين ، بينما كان إسحق زعيم المحافظين ، وعرفت طريقة الأول بالغناء الحديث وطريقة الثانى بالغناء القديم .

وكان إسحق الموصلى زعيماً فى فنه وابن زعيم فيه وهو إبرهيم

الموصلى . وقد اختصا بآل العباس . وكان إسحق يكنى « أبا محمد » ثم كناه الرشيد « أبا صفوان » وأمه أعجمية من أهل الرى تدعى « شاهك »(١) وقد درس علوم اللغة والأدب على الكسائى والأصمعى ، وأبى عبيدة وغيرهم ، وكان فن الغناء — على علو مكانه فيه — أقل ميزاته وقد وضع أربعمائة لحن من أجود الألحان .

ومات هرون الرشيد وقام النزاع بين الأمين والمأمون على الخلافة ، فلم يزج إسحق بنفسه فى هذا الخلاف ، بل بقى فى « بغداد » لخدمة الفن والأدب .

غير أن إبرهيم بن المهدى كانت تنازعه ثورة نفسية منذ مات أخوه الرشيد ، فكان يرى أنه أحق بالخلافة من الأمين والمأمون ، وما دام أبو جعفر المنصور تولى الخلافة بعد أخيه أبى العباس ، وما دام الرشيد تولى الخلافة كذلك بعد أخيه الهادى فلماذا لا يتولاها هو بعد أخيه الرشيد ؟ وبأى حق يعهد الرشيد لابنيه بالخلافة من بعده وهما لا يمتازان عنه فى شيء ؟ بل كان يرى أنه يمتاز عنهما فى كل شيء — كان يمتاز عنهما فى الأدب واللغة والفن وعلوم الدين ويمتاز عن الأمين بالفقه والرواية والفصاحة ولم يكن مغرقاً مثله فى اللهو مسرفاً فى اللذائذ والشراب . فكان

(١) ولد اسحق فى سنة ١٥٠ هـ وتوفى سنة ٢٣٥ هـ فى عهد المتوكل

يتمنى الخلافة ويشعر بثورة فى نفسه من أجلها ، ولكن التمنى والكفاية ليستا طريق الملك والسلطان ، بل إن لهما سبلا أخرى . وقد صار لكل من الأمين والمأمون قواد وجنود وأموال ، أما هو فلست له هذه القوى ، فليبتعد حيناً من الزمان وليكبت طموحه عن كل إنسان ، وليخفف ثورة نفسه حتى تسنح الفرصة ويحين الأوان .

ودخل عليه نديمه وصديقه محمد بن أمية . وكان كاتباً شاعراً ظريفاً فأخذ يسر إليه ما فى نفسه ، وبينما هما يتساران إذ دخل عليهما أبو العتاهية ، وقد عاد إلى التنسك ولبس الصوف وترك قول الشعر إلا فى الزهد ، فرفعه إبرهيم وسُر به ، وأقبل عليه بوجهه فقال أبو العتاهية :

– أيها الأمير بلغنى خبر فتى فى ناحيتك ومن مواليك يعرف بابن أمية يقول الشعر ، وأنشدت له شعراً فأعجبنى ، فما فعل ؟ فضحك إبرهيم ،وقال : « لعله أقرب الحاضرين مجلساً منك » ،فالتفت أبو العتاهية إلى ابن أمية ،وقال : « أنت هو ؟» فقال « نعم جعلت فداءك » . أما الشعر فإنما أنا شاب أعبث بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبث الشبان . فقال أبو العتاهية « ذاك والله زمان الشعر . وما قيل فيه فهو غرره وعيونه » . ثم التفت إلى إبرهيم بن المهدى ، وقال :

— إن رأى أمير المؤمنين أكرمه الله أن يأمره بإنشادى ما حضره من الشعر .

فقال إبرهيم :

— أنشده يا محمد . . .

فأنشده :

ربَّ وعد منك لا أنساه لى   أوجبَّ الشكر وإن لم تفعلِ
أقطع الدهر بظن حسن   وأجلى غمرة ما تنجلى
كلما أملت يوماً صالحاً   عرض المكروه لى فى أملى
وأرى الأيام لا تدنى الذى   أرتجى منك وتدنى أجلى

فطرب أبو العتاهية ، وقال إبرهيم : « أحسنت يا بن أمية » وجعل يردد هذه الأبيات !

* * *

وكان الأمين قد تولى الخلافة بعد أبيه ، وكان للمأمون إمارة خراسان وما يليها من شرق الدولة العباسية كعهد الرشيد ، فقد قسم الدولة بينهما عند وفاته إلى قسمين : قسم يليه الأمين وهو العراق والشام وما بعدهما إلى بلاد المغرب ، وقسم يليه المأمون وهو خراسان وسائر بلاد المشرق على أن تكون الخلافة للأمين . ولم يلبث أن وقع الخلاف بينهما ، وطمع كل منهما فى الآخر ، وانتهى الأمر بقتل الأمين ببغداد ، والمبايعة بالخلافة للمأمون .

وكان المأمون وقتئذ فى « مرو » فاحدث قتل الأمين أثراً سيئاً فى نفوس بنى العباس خاصة ، ونفوس العرب عامة ، فقد كان أول حادث من نوعه فى الأسرة العباسية ، واعتبره العرب خذلاناً لهم وانتصاراً للفرس أخوال المأمون[1] وأنصاره .

وكان الفرس يتشيعون للعلويين ، وإن كانوا يناصرون العباسيين ، وقد تربى « المأمون » فيهم ونشأ على احترام العلويين وحبهم خلافاً لأسلافه . ولما تولى الخلافة زاد فى احترامهم وتقريبهم ، واتخذ إمامهم « على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق العلوى » زوجاً لابنته « أم حبيب » وكان يحبه ويقدمه لتقواه وورعه ، وقد سماه « الرضا من آل محمد » ثم بايع له بولاية العهد من بعده دون ابنه العباس ، وكان لوزيره الشيعى الفضل بن سهل دور أصيل فى هذه المبايعة [2] وبلغت انباؤها بنى العباس بالعراق ، وشيعتهم من العرب ، فهالهم الأمر لأن

---

(١) كانت أم المأمون فارسية تدعى مراجل ، وقد ولد المأمون سنة ١٧٠ هـ وبويع بالخلافة بعد مقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ وتوفى سنة ٢١٨ . وكان ربعة أبيض طويل القامة واللحية واسع العينين (أعين) بخده خال اسود ، وكان أديبا شاعراً فقيها ، متأثرا بأستاذه ومربيه الفضل ابن سهل الذى أصبح كبير وزرائه ، وقد استوزر بعده أخاه الحسن بن سهل واستوزر عمرو بن مسعده ، وأحمد بن أبى خالد الأحول

(٢) بايع المأمون لعلى بن موسى بولاية العهد سنة ٢٠١ هـ .

الخلافة بذلك ستنتقل إلى العلويين .

وكان إبرهيم بن المهدى وقتئذ كبير آل العباس ببغداد ، فخرج من عزلته الفنية إلى السياسة ، واضطربت الحال فى بغداد ، وكان يتنازع العباسيين عاملان : عامل الولاء للخليفة الجديد ، وعامل الثورة عليه خصوصاً بعد ما وصلهم أن المأمون قد أبدل بالملابس السوداء « شعار العباسيين » الملابس الخضراء « شعار العلويين » وأحرق الأولى فى ملأ من الناس !

إذن كانت الفرصة سانحة لإبرهيم ليحقق آماله فى الخلافة ويطلق ما فى نفسه من طموح إلى الملك والسلطان . وإذن فليدع الفن فترة من الزمان ، أو إلى آخر الزمان إذا صحت الأحلام !

فى الحانة

لم تفقد بغداد فى ظلام هذه الفتنة شيئاً من نورها وجمال العيش فيها ، وطيب الحياة بين أبنائها ، فقد كانت هذه الأحداث تمر بها دون أن يعصف بها عاصف شديد . إذ كان النضال مقصوراً على رجال السياسة ، وأطماعهم فى النفوذ والجاه والسلطان . وكانت بغداد عروس الشرق وعاصمة الحضارة ، وزعيمة البلدان ، وكانت الأموال تنصب فيها انصباباً ، فكثرت

فيها مجالس الأنس والأدب والطرب .

وجلس جماعة من الأدباء والمغنين فى حانة لرجل رومى فى طرف من أطراف المدينة ، وكانت تحيط بالحانة أغراس وبساتين ، وفى جدرانها كوى كالجيوب فيها دنان الخمر ، وفوق الكوى رفوف عليها أباريق وأقداح من الزجاج والخشب وفى صدر الحانة بعض المعازف والأعواد والآلات وأخذ هؤلاء الأدباء والمغنون يتسامرون ويحتسون كؤوس الخمر ، يدور بها السقاة من الغلمان الحسان .

وكان بينهم الحسين بن الضحاك[1] ، وعمرو بن الوراق ، شاعرا الأمين ودعبل بن على الخزاعى [2] ، وأبو دلف قاسم العجلى أحد الشعراء والفرسان وأمراء العرب فى ذلك العصر . وعقيد وعلوية وزلزل من المغنين وابن نهيك من قواد الجند العباسى . وكان البعض يلعب النرد والبعض يلعب الشطرنج ، والبعض الآخر يشرب ويتحدث . فقال ابن الضحاك لصديقه عمرو بن الوراق :

---

(١) كان الحسين بن الضحاك ، وعمرو بن الوراق شاعرى الأمين وكان أبو نواس معهما ولكنه مات قبل مقتل الأمين وكان ابن الضحاك من شعراء الطبقة الأولى وقد عاش إلى سنة ٢٥٠ هـ

(٢) من خزاعة اليمن وكان من كبار الشعراء وقد مات سنة ٢٤٦هـ

— هيه يا عمرو . . . رحم الله الأمين ، وأيام الأمين ، وسلام على مجالس أنسه ، ومطالع سعده .. أين ليالى قصر الخلد والرصافة وأين المباهج والسرور فى حدائق المنصور ، والدهر ساج ساكن ، والعيش ناعم باسم ؟ ! . . . فقال عمرو :

— أجل يا بن الضحاك ، وأين فتنة البساتين ، والحور العين ، وملاعب الفرسان ، ومغانى القيان ، وبدائع الحراقات[1] والجوارى المنشآت تخطر فوق دجلة والفرات فى فخامتها النادرة ، وزينتها الساحرة . . . أين سفينة « الأسد » تفتك بالعباب والزبد ، وأين « العقاب » تسبق فى سيرها السحاب ، وأين سفينة « الفيل » فى حجمها الضخم ورواثها الجميل ، وأين « الدلفين » سيدة البحار ، ومليكة السفين ؟!

قال ابن الضحاك :

— وأين ما كان لنا من صحاب فى مجالس الأنس والشراب ، وأنعم بعهد الأمين ، عهد الهوى والشباب .

فقال عمرو :

— ما زلت — والله يا بن الضحاك — أتمثل جمال هذا العهد

---

(١) الحراقة بتشديد الراء اسم سفينة عندهم كان بها مرامى نيران يرمى بها الأعداء ، وكان للأمين عدة حراقات بأسماء بعض الحيوان كالأسد والعقاب والفيل والدلفين

كلما ذكرت أبا نواس وهو ينشد الأمين على إحدى تلك الحراقات ، ونحن نأنس بالرياضة معه على مياه دجلة فى شباب الربيع ، والأمين فرح طروب :

سخر الله للأمين المطايا   لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برا   سار فى الماء راكباً ليث غاب
« أسداً » باسطاً ذراعيه يهوى   أهوب الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو   ط ولا غمز رجله بالركاب
عجب الناس إذ رأوك على صو   رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه   كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور(١) ومنسر وجناحـــين   تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء إذا ما استعـــجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمـــين وأبقا   ه وأبقى له رداء الشباب

قال الحسين بن الضحاك :

— أسفاً فقد ذهب الأمين وشباب الأمين .

ابن الوراق :

ذهبت بهجة بغدا   د ، وكانت ذات بهجة
فلها فى كل يوم   رجة من بعد رجة

ابن الضحاك :

(١) الزور ملتقى أطراف عظام الصدر ومنه (فرس عريض الزور)

لا يرجع الماضى إلى الـــباقى طول الأبد
هيهات لا تبصر مـ ن قد مضى من أحد

وما كادا يصلان إلى ذلك حتى ترك « دعبل بن على » لعبة الشطرنج وكان يلعبها مع زلزل وقال :

ــ ما هذه الذكريات لأمور عفى عليها الزمان.. هونا عليكما خليفة أتى وخليفة ذهب ، وما يبالى الناس فالدنيا لمن غلب

فقال زلزل :

رب ركب قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

فقال علويه :

ــ صدقت ، وصدق والله عدى بن زيد ، دعونا من الخلافة والخلفاء وحدثونا من أخبار العشاق والأدباء .

قال دعبل :

ــ إنى محدثكم عن حادث ظريف وقع لى مع صريع الغوانى مسلم بن الوليد قاتله الله . . .

كنت ماراً بباب الكرخ[1]، فاحتوى الفكر على قلبى ، وأخذتنى نشوة ، فقلت شيئاً من الشعر ما وعيته من قبل . وهو :

دموع عينى لها انبساط ونوم عينى به انقباضُ

(١) محلة ببغداد وكرخ الماء ساقه كرخا والكارخ الذى يسوق الماء

فإذا أنا بجارية رائعة ، لها وجه زاهر ، ومطلع باهر ، وهى تسمع هذا البيت ، فاعترضتنى وقالت :

هذا قليل لمن دهته بلحظها الأعين المراضُ

فأجبتها :

فهل لمولاى عطف قلب فالود فى ديننا قراضُ (١)

ثم شعرت كأنى أخاطب حورية هبطت من الجنة ، فقد كانت تقطع الأنفاس بعذوبة ألفاظها ، وتختلس الأرواح ببراعة منطقها وتذهل الألباب برخيم نغمها ، مع رشاقة قدٍّ واعتدال ، فحار والله البصر فيها ، وتلجلج اللسان ، ثم ثاب لى عقلى وراجعتنى شجاعتى ، فقلت :

أترى الزمان يسرنا بتلاقى ويضم مشتاقاً إلى مشتاق

فأجابت :

ما للزمان يقال فيـــه وإنما أنت الزمان فسرنا بتلاقى

ثم سرت وتبعتنى — وذلك فى أيام إملاقى — فقلت ما لى إلا منزل مسلم بن الوليد ، فسرت بها إلى بابه ، فخرج ، فقلت له : « أكمل الخير معى . وجه صبيح يعدل الدنيا بما فيها ، وقد وقع بى ضيق وعسر » فقال : « والله لا أملك غير هذا المنديل » فقلت « هو البغية » وتناولته . فقال : « خذه فاشتر لنا بثمنه

(١) قراض بكسر القاف من قارضه بمعنى جازاه ، وقابل الشىء بمثله

شيئاً » فتركت الجارية عنده ، وذهبت فبعته واشتريت لحماً وخبزاً ونبيذاً ، وصرت إليه فوجدتها تتساقط معه حديثاً كأنه الزهر الممطور . فقال « ما صنعت ؟ » فأخبرته ، قال : « كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه جميل بلا ريحان وطيب . اذهب فأحضر لنا شيئاً من ذلك » وأخرج نصف دينار . فأخذته وذهبت ، ثم عدت إليهما فوجدت باب الدار مفتوحاً وليس لهما من أثر . . . !

فضحك علويه وصاحباه ، وقالوا :

ــ والله إنك لأحمق البشر . . !

وقهقهوا قهقهة عالية ملأت الحانة وأغرقوا فى الضحك !.

* * *

وهنا دخل أبو المهنأ مخارق المغنى وهو يترنم بهذه الأبيات :

يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا
عودى بيوم سرور كالذى كانا

لا تفقدبنا دعابات الحياة ولا
طيب البطالة إسراراً وإعلانا

سقياً لحسنك من حسن خصصت به
دون الدساكر من لذات دنيانا

حفت رياضك جنات مجـــاورة
ـ فى كل مخترق ـ نهراً وبستانا
لا زلت آهـــلة الأوطان عامرة
بأكرم الناس أعراقاً وأغصاناً

فقال زلزل المغنى :

ـ مرحباً أبا المهنأ . اجلس وزدنا من أنسك ولطفك

ونادى زلزل الساقى فناول مخارقاً كأساً فشربها وهو يقول :

يومنـــا يوم رذاذ واصطباح والتـــذاذ
ليس للمرء من الدنيـــــا سواها من ملاذ

فسمعه أبو دلف قاسم العجلى ، فنفر قائلا : كلا . . كلا . . فإن فى الدنيا ألذ منها .

لسلُّ السيوف وشقُّ الصفوف ونقض التراب وضرب القللْ
ولبس العجاجة(١) والخانقا ت تريك المنايا برأس الجبلْ
ألذ وأشهى من المسمعا ت وشرب المدامة فى يوم ظلْ

« فهذه والله لذتى . وإن استلذ أحد شيئاً من المعاقرة ملت إلى المقاومة والمبادرة ، ولا استلذ غيرهما »

فضحك دعبل فى تهكم ، وقال :

---

(١) العجاجة واحدة العجاج وهو الغبار ، ولبس العجاجة كناية عن الإغارة والحرب

– ما صدقت والله يا قاسم . . . وإذا كانت لذة الحرب لذتك وخوض المنايا غرامك ، فلماذا قلت :

بنفسى يا جنان وأنت منى مكان الروح من جسد الجبان
ولو أنى أقول مكان نفسى خشيت عليك بادرة الزمان

فقال أبو دلف :

– ذلك كان فى متقدم العمر وأيام الصبا وهل أنا أحسن ممن قال :

أذم لك الأيام فى ذات بيننا وما لليالى فى الذى بيننا عذر

فقال عقيد المغنى :

– لمن هذا البيت الجميل ؟

أجاب أبو دلف :

– سمعته من المأمون فى مجلس ضمنا للشعر والغناء

قال عقيد !

– كلام الملوك ، ملك الكلام ، ورائحة المسك تنم عليه . . . ،

فاعترض الحسين بن الضحاك ، وقال :

– ألم تقولوا دعونا من الخلافة والخلفاء ؟ !

فقال دعبل : ويحك يا حسين . . . الدنيا دول . . .

فاخط مع الدهر إذا ما خطا واجر مع الدهر كما يجرى

ابن الضحاك :

– كلا . . . كلا . . . لا أم لى إن بقيت فى بغداد بعد مقتل أمير المؤمنين الأمين . هيا بنا يا عمرو .

عمرو بن الوراق :

ولست بتارك بغـــداد يوماً ترحـّل من ترحـّل أو أقاما
إذا ما العيش ساعدنا فلسنا نبالى بعد من كان الإماما

وخرج الحسين بن الضحاك – وقد اعتزم أن يغادر بغداد – وترك أصحابه وهم يلهون . . . .

الفصل الثالث

الثورة

كان إسحق الموصلى يعقد مجالس الغناء والأدب والمناظرة فى قصره . وكان قصراً بديعاً يعيش فيه عيشة الأمراء والعظماء مما أفاء الله عليه وعلى أبيه إبرهيم الموصلى من عطايا هرون الرشيد . وقد كان يقول « لو بقى لنا الرشيد لبنينا جدران بيوتنا بالذهب والفضة » .

وكان أكثر ما يكون الحديث عنده عن إبرهيم بن المهدى ومستحدثاته ومبتكراته فى الغناء والموسيقى ، وكان ينكر عليه إسحق وينتقده انتقاداً مراً .

وزاره أبو دلف قاسم العجلى، ومخارق، وعمرو بن الوراق، مع جمع من الأصدقاء وجلسوا يشربون ويتحدثون .

وكانت بغداد فى هذه الآونة قد زخرت بأنباء المأمون واجراقه الملابس السوداء « شعار العباسيين » والاستبدال بها الملابس الخضراء « شعار العلويين » وما كان من مبايعته بولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا زعيمهم ، مما أحدث ثورة

فى نفوس بنى العباس والعربُ ببغداد والعراق .

وأخذت الفتنة تزحف من القصور إلى الدور ، ومن صدور الخاصة إلى أفواه العامة .

وجلس الأدباء والمغنون فى قصر إسحق الموصلى يتذاكرون ويتشاورون ويروى بعضهم لبعض ما سمعه من أنباء المأمون وشيعة العلويين فى « مرو » وخراسان .

فقال أبو دلف :

— وهل استشار المأمون الفقهاء فيما فعل واستحدث من هذا الأمر ؟

فقهقه عمرو بن الوراق ، وقال :

— أجل . . . أجل . . . إنى محدثكم ما سمعته من صديق جاء من « مرو » منذ أيام ، فقد روى أنه لما اعتزم المأمون تولية على بن موسى الرضا عهد الخلافة ، خلع الملابس السوداء ، جمع فقهاء المدينة عنده وأخذ يسألهم رأيهم ، فكان والله كلما قال قولاً قال الفقهاء .

« كلنا نقول بقول أمير المؤمنين ، وكلنا نرى رأى أمير المؤمنين » حتى لو كان قد قال لهم إن الوحى نزل على أبى نواس لقالوا : « كلنا نقول بقول أمير المؤمنين ، وكلنا نرى رأى أمير المؤمنين » . . !

فضحك جميع الحاضرين وقهقهوا قهقهة عالية وقال إسحق الموصلى :

اتق الله يا عمرو... اتق الله ... ودع عنك هذا التشنيع ..!

قال عمرو :

— والله ما حدثتكم كذباً ، ولا رويت لكم إلا ما سمعت من شاهد صادق . . .

فقال أبو دلف :

— سمعت الناس فى بغداد يتحدثون عن خلع المأمون ، والنداء بغيره خليفة للمسلمين ، فمن يكون يا ترى يصلح للخلافة من بعده ، ومن يا ترى يكون أمير المؤمنين الجديد ؟ ! . .

قال إسحق الموصلى :

— وهل بعد المأمون من رجل رشيد يصلح لخلافة المسلمين ؟

فقال مخارق :

— إبرهيم بن المهدى ، فهو أكبر أمراء العباس ! . .

فصاح دعبل :

إن كان إبرهيم مضطلعاً بها ... فلتصلحن من بعده لمخارق

ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ... ولتصلحن من بعده للمارق

قال إسحق :

— صدقت يا دعبل صدقت وويل للخلافة يتقلدها مغن .

مخارق :

— ما أصبت والله أبا محمد ... وأى بأس فى أن يتولى إبرهيم الخلافة ؛ . . أليس هو ابن الخليفة المهدى ، وأخا الخليفة هرون الرشيد وعم الخليفة المأمون ، ثم أليس هو من تعرف علماً وأدباً ونبلا وفضلا وملكاً للغناء والموسيقى ؟

اسحاق :

— سبحان الله ! تقول أى بأس أن يتولى مغن الخلافة ؟ إنى لا أرضى لنفسى أن أوصف بالغناء . ووددت أن أضرب كلما أراد مريد منى أن أغنى ، أو كلما قال قائل « إسحق الموصلى المغنى » وتمنيت بدل هذا أن أقرع عشر مقارع لا أطيق غيرها ولو أطقت أكثر منها لفضلتها على هذا الوصف . . . فكيف أرضى أن يكون الخليفة مغنياً . . . ؟

مخارق فى دهشة :

— كيف هذا يا إسحق أتضع من شأن الغناء ؟ والله ما بلغت ما بلغته إلا به ، ولا احترمك الناس إلا لأجله ، ولا قدمك الخلفاء إلا بما صححت أجناسه ، وميزت طرائقه ، وما كان لك فيه من ألحان شتى ، فكيف تحط من قدره الآن وقدر أهله ؟ !

إسحق :

— لقد أفسد إبرهيم المهدى الغناء ، فكيف أنسب نفسى

إليه بعد . . . ولو أنه تولى الخلافة لأفسدها .

مخارق :

ـ ويحك ثم ويحك أبا محمد . . . كيف ذلك ، والله لقد سمعت أباك إبرهيم الموصلى يقول :

« لو طلب إبرهيم بن المهدى بالغناء ما نطلب ، لما أكلنا خبزاً أبداً » ، ثم لقد شهدت أنت له بالفضل ، فقلت :

« ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبدالله بن العباس رجلا أفضل من إبرهيم بن المهدى » ثم أنت تعيبه وتقول فيه ما تقول الآن ؟ . . !

إسحق :

ـ لأنه تغير ، فتغيرنا . . .

مخارق :

ـ عجباً . . . إذا تغيرت النفوس تغيرت الآراء فى الرءوس. لقد كنت تشهد بكفايته وتعترف له فى فنه بالدراية والرواية .

إسحق :

ـ دعنى . . . دعنى أبا المهنأ فوالله ليست له دراية ولا رواية ولا كفاية ، لقد عابنا فى صناعتنا ، وأحدث فيها وخرج علينا ، وثار على قواعدنا . وإنى لأخشى أن يحدث بين المسلمين حدثا فى دينهم كما أحدث بيننا أحداثاً فى دنيانا . . . وإنى

أبغض صلفه وكبرياءه ، وما طبع عليه من ثورة وفتون .

اسمعوا : كنت عند هرون الرشيد يوماً فى مجلس مؤنس ، وكان عنده إبرهيم ، فقال لى الرشيد :

— غن يا إسحق . . .

فغنيت :

« أعاذلُ قد نهيتَ فما انتهيتُ
وقد طال العتاب فما ارعويتُ » .

فأقبل إبرهيم ، وقال لى أمام الرشيد : « ما أصبت يا إسحق ولا أحسنت » فقلت له :

— ليس هذا مما تحسنه ولا تعرفه ، وإن شئت فغنه ، فإن لم أجد أنك تخطىء فيه منذ ابتدائك إلى انتهائك فدمى حلال » !

ثم قلت للرشيد :

— يا أمير المومنين هذه صناعتى وصناعة أبى ، وهى التى قربتنا منك ، واستخدمتنا لك ، وأوطأتنا بساطك فإذا نازعنا إياها منازع بلا علم لم نجد بدأ من الإيضاح » !

فقال الرشيد : « لا غرو ، ولا لوم عليك يا إسحق » ثم قام الرشيد من المجلس لبعض شأنه ، فقال لى إبرهيم : « ويلك يا إسحق تجترئ على يا بن الفاعلة ، وتقول ما قلت ! »

فقلت له : « وأنت الآن تشتمنى ، وأنا لا أقدر على إجابتك

وأنت ابن الخليفة ، وأخو الخليفة ، ولولا ذلك لكنت قلت لك مثل ما قلت : أترى أنى لا أحسن أن أقول لك يا بن الفاعلة مثنى وثلاث ورباع . . . ولكن قولى هذا ينصرف إلى خالك الأعلم . . . ولولاك لذكرت صناعته ومذهبه »

وكان خاله كما تعلمون بيطاراً يعالج نعال الدواب ، ثم قلت له :

« أنت تظن أن الخلافة تصير إليك يوماً ما ، فلا تزال تهددنى بذلك ، وتعادينى كما تعادى سائر أولياء أخيك الرشيد حسداً له ولولده ، وتستخف بأوليائه تشفياً ، وإنى أرجو الله ألا يخرج الخلافة من يد الرشيد وولده ، فإن صارت إليك — والعياذ بالله — فحرام على العيش يومئذ ، والموت أطيب من الحياة معك » !

قال إسحق :

« وهنا عاد الرشيد ، فوثب إبرهيم بين يديه يقول « يا أمير المؤمنين شتمنى إسحق ، وذكر خالى وأمى واستخف بى » . فتغير وجه الرشيد ، وقال لى : « ويلك . . . ما تقول ؟ » فقلت : « سل من حضر » فأقبل على خادمه مسرور وسأله عما حدث ، فجعل مسرور يخبره فكان وجهه يربدُّ ثم يربدُّ إلى أن انتهى إلى

ذكر الخلافة ، فسرى عن الرشيد ، ورجع لونه والتفت إلى إبرهيم وقال له :

« لا ذنب له . . شتمته ، فعرفك أنه لا يقدر على جوابك . ارجع إلى موضعك ، وأمسك عن هذا ، وإياك أن تعود إليه » !

فقام إبرهيم منصرفاً ، ولما انقضى المجلس أمر الرشيد ألا أخرج فساء ظنى ، وأهمتنى نفسى ، ثم أقبل على وقال لى أمام بعض الخدم : « ويلك يا إسحق أتراني لم أفهم قولك ومرادك ، قد والله شتمته ثلاث مرات . . . ويلك لا تعد . . . أخبرنى لو ضربك إبرهيم أكنت أقتص لك منه ، فأضربه وهو أخى يا جاهل . . . أم ترى لو أمر غلمانه فقتلوك ، أكنت أقتله بك ؟ ، » !

فقلت للرشيد :

« قد والله قتلتنى يا أمير المؤمنين بهذا الكلام ، ولئن بلغه ليقتلنى ، وما أشك أنه سيبلغه ! »

فصاح الرشيد بمسرور الخادم ، وقال :

— على بإبرهيم الساعة .

فأحضره . وقال لى الرشيد « قم يا إسحق فانصرف » فقلت لجماعة من الخدم ، وكلهم كان لى محباً « أخبرونى بما يجرى »

فأخبروني أنه لما جلس إبرهيم بين يدى الرشيد، وبخه وجهَّله ، وقال له : « أتستخف بخادمى وصنيعتى ، ونديمى وابن نديمى فى مجلسى . . . هاه . . . هاه . . . أتجترىء على هذا وأمثاله بحضرتى . . . وأنت مالك وللغناء حتى تتوهم أنك تبلغ مبلغ إسحق ، ثم تظن أنك تخطئه فيما لا تدريه . . . ألا تعلم ويلك أن هذا سوء أدب وقلة معرفة وعدم مبالاة ! والله العظيم والله العظيم وحق رسول الله ، وإلا أنا لست للمهدى لئن أصابه أحد بسوء ، أو سقط عليه حجر من السماء ، أو سقط من دابته فمات أو سقط عليه سقف أو جدار ، أو مات فجأة ، لأقتلنك . قم الآن ، فانصرف . . . ! »

فخرج إبرهيم يتعثر وهو يكاد يموت . . . !

* * *

سمعت الجماعة من إسحق هذه القصة ، وكانت بغداد وقتئذ تضطرب بالفتنة ، وكان بنو العباس ينادون بإبرهيم بن المهدى خليفة للمسلين ، وأميراً للمؤمنين ويبايعون له ، ويخلعون المأمون ، لأنه خرج على سنة آبائه وشعارهم وسياستهم فى الملك والسلطان بما أتاحه للعلويين من نفوذ .

ودخل « بديح » غلام إسحق ينبئه أن الناس نادوا لإبرهيم ولقبوه « إبرهيم المبارك » و « أمير المؤمنين » وما كاد ينتهى من

كلامه حتى سمع إسحق وضيوفه النداء بخلافة إبرهيم على مآذن بغداد وفى أسواقها ، فقال علويه :

ــ ما رأيك أبا محمد . لقد استعذت بالله من أن يصبح إبرهيم خليفة ، وها هوذا قد واتته الخلافة ، فماذا أنت صانع ؟

إسحق :

ــ لا عيش لى فى بغداد ، والموت أهون على من هذا . . .

مخارق :

ــ والله لم أر أفصح لساناً ، ولا أحسن بياناً ، ولا أجود شعراً ولا أسد رأياً ، ولا أبلغ فى التصرف فى الفقه وسائر الآداب الرفيعة من إبرهيم بن المهدى .

إسحق :

ــ أنفاق وتملق يا مخارق ، ولما تمض على مبايعته ساعة ..؟ !

ثم نهض إسحق ونهض الحاضرون ، فخرجوا واستبقى منهم علوية ، فأفضى إليه أنه راحل عن بغداد اليوم وأنه يوصى له بأمر أولاده وشئونه ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، فسأله علويه :

ــ إلى أين أبا محمد ؟

قال إسحق :

ــ إلى خراسان ، إلى مرو ، إلى المأمون ، فإنه مولاى وابن مولاى وهو بى أولى .

* * *

خرج إسحق متنكراً فى زى أعرابى ، وقد حلق لحيته ، وكانت بغداد تهتز بالدعاء لإبرهيم ومبايعته والهتاف له وتزدحم بمواكب الهاتفين وهم ينادون :

« إبرهيم . . . إبرهيم أمير المؤمنين .. لا طاعة للمأمون .. لا طاعة للمأمون . . . »

ثم ينشدون :

يا بنى العباس أنتم شفا ء وضياء للقلوب ونور
أنتمو أهل الخلافة فينا ولكم منبرها والسرير
لا يزال الملك فيكم مدى الدهـر مقيماً ما أقام ثبير
وأبو إسحق(١) خير إمام ما له فى العالمين نظير
واضح الغرة للخير فيه حين يبدو شاهد وبشير
زانه الله بعز وجلال وجمال ووقار وخير

وشايعت بغداد الخليفة الجديد ، وأقام بنو العباس فى قصر الخلد ـ قصر الخلافة ـ حفلا فاخراً له رقصت فيه الجوارى الحسان ، وغنت فيه « خالدة » بشعر جرير :

إنا لنرجو إذا ماالغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من لمطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

(١) أبو إسحق كنية إبراهيم بن المهدى

إبرهيم المبارك

بلغت أنباء هذه الفتنة المأمون فى « مرو » فاشتد عليه وتمثل له خطرها إن لم يسرع فى إخمادها قبل أن تستفحل فى دولته ، وتذهب بملكه ، وأيقن أنه قد تجاوز الحكمة فى التدبير وغفل عن السداد فى الرأى والتقدير ، فما كان ينبغى له أن يقدم على ما أقدم عليه فأغضب بنى العباس وأثار العراق ، ولم يكن من الكياسة أن يتسرع فى تنفيذ رأى رآه قبل أن ينضجه التفكير الطويل .

رأى أن يعهد بولاية العهد لعلى بن موسى الكاظم لأنه فى زمنه خير أبناء هاشم جميعاً ، ولم يجد أفضل منه يصلح للخلافة من بعده ، ولعله كان ينظر فى ذلك إلى مصلحة المسلمين وحدها ، ولعله كان متأثراً باحترامه للعلويين منذ تربى فى شيعتهم ، بل من المؤكد أن مربيه الفضل بن سهل كان أكبر المؤثرين عليه فى هذه الناحية ، وأول المحبذين لهذا العمل ، إذ كان علوياً يخفى تشيعه كما كان البرامكة يفعلون .

ونظر المأمون فى أولاد العباس وكان عددهم وقتئذ ثلاثة

وثلاثين ألفاً ، فلم يجد بينهم من يصلح للخلافة إذا قورنوا بعلى بن موسى الرضا علماً وتقى وديناً وقد ولد على سنة ١٥٣ وهو ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب وكان هو أحد أئمة الشيعة الاثنى عشر .

ولى المأمون علياً العهد من بعده ، ولم يكن يتوقع أن يثور عليه الناس فى العراق ، بل لعله كان يتوقع ، ولكنه لم يخش الثورة ولم يحفل بها وقد دان له المشرق والمغرب وأصبح لا ينازعه فى السلطان منازع !

* * *

ثار العراق وقاد الثورة بنو العباس فى بغداد ، ونصبوا عمه إبرهيم ابن المهدى خليفة للمسلمين ، فرأى المأمون أن يعالج الحال بأحد أمرين : الأول أن يرسل جيشاً لإخضاع إبرهيم وخلعه من الخلافة ، والثانى أن يخلع على بن موسى من ولاية العهد فيرضى بنى العباس ويرضى العرب .

ولكن العلاج الثانى قد يثير الفرس فى خراسان وهم أنصار هذه البيعة لعلى ، فلا بد من طريقة أخرى لا تثير الفريقين ورأى المأمون أولا أن يخضع إبرهيم بن المهدى ، فجند جيشاً

كبيراً بقيادة الحسن بن سهل وأمره أن يذهب إلى بغداد ويأتى بإبرهيم حياً أو ميتاً . . . !

وكان إبرهيم قد جمع الجموع ، وألف جيشين أحدهما بقيادة عيسى بن أبى خالد أحد القواد السابقين للمأمون ، والثانى بقيادة إبرهيم بن عائشة وخرج الجيشان فقابلا جيش الحسن بالقرب من بغداد ، ودارت رحى القتال ، فانهزم الحسن ، وفر بمن معه إلى « سمر » فطارداه حتى خرج إلى خراسان . . .

* * *

كتب النصر فى أول الأمر لإبرهيم بن المهدى على المأمون وكان نصراً مبيناً زاد من إقبال الناس عليه ومبايعتهم له ، وجلس إبرهيم على أريكة الرشيد ودعى « إبرهيم المبارك » وسكن قصر الخلد ببغداد وتبوأ عرش آل العباس ، وكان العرش من الذهب الخالص المرصع بالجواهر النفيسة ، ووراءه حارسان بيد كل منهما سيف مسلول ، وقد نصب العرش فى صدر القاعة فوق سدة قائمة على أعمدة صغيرة من الأبنوس المنزل فيه العاج ، وسقفها من الديباج الأسود المزركش برسوم فنية جميلة من الذهب وازدانت حاشيتها من الأمام والجانبين بأهلة مدلاة فيها ورد ونجوم من الياقوت الأحمر والأصفر على نظام بديع وقد لبس ابرهيم حلة الخلافة التى كان يلبسها الرشيد ، وهى

مؤلفة من ملابس سوداء وطيلسان أسود وقلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الحرير الموشى . وبين ثنايا العمامة عقود صغيرة من الجواهر . وفى مقدمتها طرة من أسلاك الذهب على هيئة عرف الطاووس .

ودخل عليه أخوه المنصور بن المهدى وابن أخيه صالح بن الرشيد ، وابناه : هبة الله[1] ، وبقية الله ، وبعض أمراء بنى العباس ، فجلسوا عن يمينه ، ودخل عيسى بن أبى خالد قائد العسكر وبعض رجال الدولة الآخرين ، فجلسوا عن يساره ، وسأل إبرهيم أخاه المنصور :

ــ ما حال أعمامنا بالكوفة يا منصور ، هل أجابوا إلى البيعة لنا وخلع المأمون ؟

قال المنصور :

ــ نعم يا أمير المؤمنين وقد وعدوا أن يحضروا غداً إلى بغداد

فقال إبرهيم :

ــ حمداً لله على ما أنعم

ثم التفت إلى عيسى بن أبى خالد ، وقال :

ــ وكيف حال القوم يا عيسى ؟

عيسى :

---

(١) كان لإبرهيم بن المهدى ولدان هما « هبة الله » و « بقية الله »

ـــ إن أهل بغداد والعراق يدينون لك بالطاعة ، وقد كشف الله عدوك ، فإن أنت قويت هذا الأمر ، حفظت تراث آبائك ، ولم تملكه العلويين وشيعتهم من الفرس ، واحتفظت بمجد العرب .

فقال إبرهيم :

ـــ لن يضيع هذا الأمر من يدى إن شاء الله !

ودخل إبرهيم بن عائشة فسلم وجلس خاشعاً مطرقاً ، فقال له إبرهيم بن المهدى :

ـــ أحسنت أبا على . . فتح الله عليك ونصر الحق على يدك ،

فأجاب ابن عائشة :

ـــ هذا من فضل الله وعون أمير المؤمنين .

فقال إبرهيم :

ـــ وأين إسحق الموصلى ؟ . . بعثت إليك أن أغلق فى وجهه السبل فلا تدعه يفر من العراق ! !

ابن عائشة :

ـــ قاتله الله ! لقد فر يا أمير المومنين ونحن مشغولون عنه بالحسن بن سهل ، وقد تزيا بزى أعرابى وما عرفته الشرطة .

فقال إبرهيم بن المهدى فى غيظ :

— ويل لهذا المارق ! ! يقول عنى ويل للخلافة يتقلدها إبرهيم كأنما لست أهلاً لها ... والله أنى لأحق بالخلافة بعد أخى الرشيد من الأمين والمأمون !

قاتله الله ! إنه خصم لدود حقود . لقد استعاذ بالله أن أكون حيث أنا الآن ، ولكن الله خيب رجاءه ، وكان يعيبنى بالغناء وهو يعلم أنى فى العلم مناظر ، وفى الغناء متلذذ وأنى ملك وابن ملك ! . .

فقال عيسى بن أبى خالد :

— والله يا أمير المومنين إن سيفى لظمآن إلى هذا المارق ووددت لو رأيته فأقتله أينما كان . . !

* * *

ودخل الحاجب فقطع كلام عيسى بقوله :

— رسول يا مولاى جاء من عبدالله المأمون . . .

فأذن له إبرهيم فدخل وركع وسلم ، ثم قدم له كتاباً من المأمون فتناوله وفضه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير المؤمنين عبدالله المأمون . السلام على أبى إسحق إبرهيم بن المهدى ورحمة الله .

« أما بعد ، فقد علمت أمر خروجك علينا ، وادعاءك لنفسك الخلافة متجاوزاً فى ذلك حد الله فيما أعطيته من العهود والمواثيق

أمام أمير المؤمنين الرشيد فى البيعة لولده من بعده . وقد كنت عذرتك حين علمت بغضبك لمبايعتى لعلى بن موسى الرضا بولاية العهد ، وعذرت بنى العباس فى ذلك ، وقد شاء الله ولا راد لمشيئته أن يضع بيننا الخصومة فى هذا الأمر ، فاختار علينا رضى الله عنه إلى جواره وانتقل إلى جنة الخلد راضياً مرضياً .

«فأنا أدعوك ومن معك إلى الطاعة ، وعلىَّ عهد الله أن أعطيك الأمان وسيكون لك من عفوى وقربى ما أنت به أهل إن شاء الله»

قرأ إبرهيم هذا الخطاب . . . وعجب لموت على بن موسى الرضا فى هذا الأوان ، وسأل الرسول :

— أو هل مات حقاً على بن موسى ؟

قال الرسول :

— إنه مات بطوس فجأة . . . !

— فجأة . . وكيف كان ذلك ؟

— خرج المأمون يوماً من مرو إلى مدينة طوس لزيارة قبر الرشيد ، ودعا علياً للزيارة معه ، فلبى دعوته ، وأقاما يومين فى هذه المدينة ، وبينما كانا يأكلان جاء الغلام بطبق من العنب فأكل على منه كثيراً فمات . . !

— وهل مات من العنب ؟

— بلى قد مات . . .

فقال أحد الحاضرين :

ـــ والله يا أمير المومنين ما مات على بن موسى إلا مسموماً !

فقال صالح بن الرشيد :

ـــ عجباً . كان المأمون يحب علياً ويحترمه ويجله . . ،

فسكت إبرهيم بن المهدى ساعة . وكأنما كان يفكر فى هذا الحادث وكيف أن السياسة وأطماع الملك والسلطان لا قلب لها ولا نبل فيها ، إلا لمن عصم الله ، وهم قليل من قليل . ثم التفت إلى رسول المأمون وقال :

ـــ بلغ مولاك أنى قرأت كتابه ولكل كتاب جواب . . . !

* * *

انصرف الرسول والتفت إبرهيم إلى من حوله وقال :

ـــ ماذا تقولون فى كتاب المأمون ؟

ـــ إنه خداع ، وما نظنه صادقاً فى قوله يا أمير المؤمنين

إبرهيم :

ـــ صدقتم

ثم التفت إلى ابنه « هبةالله » وأملى عليه الكتاب الآتى إلى المأمون :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير المؤمنين إبرهيم بن المهدى إلى عبدالله المأمون .

« أما بعد . فقد جاءنى كتابك ، فعجبت من خطابك فيه ، وما اجترأت على به من وصفى بالخروج والثورة عليك ، وقد علمت أنى لم أخلعك وحدى لكن الناس فى العراق خلعوك وخرجوا عليك لخروجك على سنة آبائك وشعار آلك ، وتفريطك فى أمرهم ، تريد أن تنقله من ولد العباس إلى ولد على . وقد أقمناه نحن بالسيوف ، وسقيناه بالدماء ، وألزمناهم الحجة بالطاعة لنا منذ اختارنا الله فيه دونهم وفتح الله بنا على المسلمين .

« ثم تزعم أنى نقضت العهود والمواثيق ، فأيها كانت علىّ فى أمرك ؟ . . لقد عهد أبوك بالخلافة للأمين دونك وولاك أمر خراسان تحت ولايته فطمعت فيه ، واغتصبت حقه ، ناقضاً ما قطعته على نفسك ، أمام الله وأمام الرشيد والناس ، ولم تحفظ عهده ولم ترع قرابته ، ولم تخش الله فيه فسلطت عليه صعاليك الجند يذبحونه كما تذبح الشاة فى ظلام الليل وهو يضيح فى جزع ويحكم . . ويحكم . . . أنا ابن عم رسول الله أنا ابن هرون الرشيد . . . الله الله فى دمى . . . فلم يتقوا الله فيه أو تأخذهم رأفة به . ثم صلبوه على باب الأنبار ومثلوا بجثته تمثيلا ، وفصلوا رأسه وأتوا بها إليك محمولة فى ترس كما تحمل رءوس الكفار ، فأينا كان أحفظ للعهود والمواثيق ؟ وأينا كان باراً بقرابته رءوفاً بذوى رحمه وآله .

« لقد والله أتيت أمراً نكراً، وأحدثت فى بنى العباس ما لم يسبقك إليه غيرك، فقتلت أخاك ومثلت به، وخلعت شعار آلك وأردت أن تسلبهم حقهم فى الولاية على المسلمين ، فأى حق علينا فى الطاعة لك . ونحن أحق بها منك والسلام » .

ثم طوى الكتاب وبعث به إلى المأمون . . .

الفصل الرابع

فى مدينة مرو

ما زال المأمون بمرو عاصمة خراسان لم يبرحها ، وكان الخراسانيون أشد أنصاره قوة ، وأعظمهم عدة ، وأكثرهم عدداً فلما بلغته ثورة إبرهيم بن المهدى ببغداد ، وكل إلى وزيره الأكبر الفضل بن سهل فى إطفائها ، فبعث بجيش يقوده أخوه الحسن بن سهل لمحاربة إبرهيم والقضاء على ثورته ، والقبض عليه وتشتيت شمله ولكن هذا الجيش لم يكتب له النجاح ، وفر الحسن بمن معه إلى سمر ، ثم إلى خراسان :

وأراد المأمون أن يعالج إبرهيم بالسياسة ، فبعث إليه بكتابه يؤمنه ويفسح له عنده من عفوه ورعايته ، فرد عليه إبرهيم بكتابه السابق .

قرأ المأمون الكتاب وهو يتميز غيظاً ثم طواه وهو يقول :

— قاتل الله إبرهيم . . . لست من الرشيد ولا الرشيد منى ن لم أثرها عليه حرباً شعواء تأكله وتأكل أصحابه . . . !

وجمع وزراءه وقواده وشاورهم فى الأمر ، فانتهوا إلى إرسال

جيش آخر بقيادة « حميد بن عبد المجيد » أحد كبار القواد على أن يكون هذا الجيش أكثر عدداً وأشد جنداً . فخرج الجيش يقوده حميد ، وخرج معه المأمون بموكبه إلى الصحراء فودعه..

* * *

عاد المأمون وهو واثق من نجاح قائده وفوز جيشه هذه المرة ودخل قاعة العرش ومعه أخوه أبو إسحق المعتصم وبعض الأمراء والوزراء وجلس على أريكة الملك . وإنه لكذلك إذا بحاجبه « فتح » يدخل ويقول :

ـ يا أمير المؤمنين ، مولاكم ابن البواب[1] يستأذن . . فأذن له ، فدخل محيياً راكعاً ، فقال له المأمون :

ـ ماذا وراءك يا بن البواب ؟

فأخرج ابن البواب ورقة وقال :

ـ إن أذن أمير المؤمنين أنشدته هذا الشعر .

قال المأمون :

ـ هات ما عندك . . .

فشرع ابن البواب ينشد :

(١) « ابن البواب » الشاعر ، غير علي بن هلال الخطاط المعروف بابن البواب أيضاً والمتوفي سنة ٤١٣ هـ

أجزنى فإنى قد ظمئت إلى الوعد
متى تنجز الوعد المؤكد بالعهـــد
أعيذك من خلف الملوك وقد بدا
تقطع أنفاسى عليك من الوجـــد
أيبخل فرد الحسن عنى بنائل
قليـــل وقد أفردته بهوى فرد

فقال المأمون :

ــ أحسنت . . . أحسنت . . .

قال ابن البواب :

رأى الله عبدالله خير عباده فملكه والله أعلم بالعبـــد
ألا إنما المأمون للناس عصمة مميزة بين الضلالة والرشد

المأمون :

ــ أحسنت والله ، وأجدت يا بن البواب . . .

ابن البواب :

ــ يا أمير المؤمنين . إنما أحسن وأجاد قائلها . . . !

المأمون :

ــ أو لست أنت القائل . . . ؟

ابن البواب :

— نعم يا أمير المؤمنين لست هو، بل عبدك « الحسين بن الضحاك » . . . !

فاحمر وجه المأمون غضباً ، وقال :

— لا حيا الله من ذكرت ، ولا بياه ، ولا أقربه عينا . . . أليس هو القائل حينما قتل أخى « الأمين » :

أعينى جودا وابكيالى محمداً ولا تذخرا دمعاً عليه وأسعدا
فلا تمت الأشياء بعد محمد ولا زال شمل الملك فيه مبددا
ولا فرح «المأمون» بالملك بعده ولا زال فى الدنيا طريداً مشردا

« هذا بذاك ، ولا شىء له عندنا » . . . !

ابن البواب :

— وأين فضل إحسان أمير المؤمنين وسعة حلمه ؟

المأمون :

— لا أحسن الله إليه ، ولا وسعه حلم حليم !

ابن البواب :

— وأين عادة أمير المؤمنين فى العفو والكرم ؟

فسكت المأمون برهة ، ثم قال :

— وأين من ذكرت .. أببغداد هو أم بمرو ؟

ابن البواب :

— هو الساعة بباب أمير المؤمنين .

فنادى المأمون حاجبه ، وأمره أن يأتى بابن الضحاك فدخل الحسين ، فركع وقبل الأرض ، وقال :

— السلام على مولاى أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . .

المأمون :

— لا سلمك الله يا هذا ، ولا رحمك ولا بارك لك . هيه يا بن الضحاك تهجونى ، ثم تقصد اليوم بابى ؟ ؟

ابن الضحاك :

— ذاك لكرم علمته فيك ، وحلم اشتهر عنك يا أمير المؤمنين . . .

المأمون :

— أخبرنى . . . ويلك . . . هل رأيت يوم قتل أخى الأمين أن هاشمية قتلت أو هتكت ، أو نبذت صارخة فى الطريق ؟

ابن الضحاك :

— لا يا أمير المؤمنين . . .

المأمون :

— إذن ففيم قولك :

هتكوا بحرمتك التى هتكت حرم الرسول ودونها السجفُ
تركوا حريم أبيهموا نفــلا والمحصنات صوارخ هتفُ

هيهات بعدك أن يدوم لهم عزٌّ وأن يبقى لهم شرفُ

ابن الضحاك :

— أستغفر الله ، وأستغفر أمير المومنين فما ، حدث ذلك . . .

المأمون :

— وهل رأيت نساء بني هاشم في بغداد يندبن كنساء العامة ؟

ابن الضحاك :

— لا يا أمير المومنين ، وحاش لهن أن يفعلن .

المأمون :

— إذن فما معنى قولك :

وسرب ظباء من ذوابة هاشم هتفن بدعوى خير حي وميتِ
أردُّ يداً مني إذا ما ذكرته على كبد حرى وقلب مفتتِ
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ولا بلغت آمالهم ما تمنتِ

ابن الضحاك :

— أنشدك الله يا مولاى . ، !

المأمون :

— وهل تركنا الدين ولم نصن حرمته فعاد عندنا مطروحاً مهيناً ، وذهبت بشاشة كل شيء في هذه الدنيا ؟

ابن الضحاك :

— لا — جعلت فداءك — فقد اعتز الدين والدنيا بك يا أمير المؤمنين .

المأمون :

— إذن ففيم قولك فى « الأمين » :

هو الجبل الذى هوت المعالى لهدته وريع الصالحونا
ستندب بعدك الدنيا جواراً وتندب بعدك الدين المصونا
فقد ذهبت بشاشة كل شىء وعاد الدين مطروحاً مهيناً

ابن الضحاك :

— يا أمير المؤمنين . . . لوعةٌ غلبتنى ، وروعةٌ فاجأتنى ، ونعمةٌ حرمتها بعد أن غمرتنى ، وإحسان شكرته فأنطقنى ، وسيدٌ فقدته فأقلقنى ، فإن عاقبت فبحقك ، وإن عفوت فبفضلك ! .

المأمون :

— يا بن الضحاك جعلت عقوبتك امتناعى عن استخدامك وقد عفوت عنك وأمرت بأدرار رزقك ، وإعطائك ما فات منها . . .

ابن الضحاك :

— أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وحفظه للدين والدنيا . !

وأذن له المأمون ، فانصرف ، وما كاد يغيب حتى أقبل قاضى

القضاة « يحيي بن اكثم[١] » واستأذن لإسحق الموصلى ودخلا معاً ، وكان إسحق قد وصل إلى « مرو » بعد ما فر من وجه إبرهيم بن المهدى . فسلم كل منهما على أمير المؤمنين ، وجلسا ، فقال المأمون :

— خبرنى يا يحيي . أكان علينا بأس فيما أخذناه من اللباس الأخضر دون الأسود ؟

فقال يحيي :

— حاش يا أمير المؤمنين . بل حسنا فعلت ، فان الأخضر خير من الأسود ، والخضرة رخاء وخصب ، والسواد ظلام وجدب أرأيت كيف تخضر الأرض فى الربيع ويهتز رباها . والملابس الخضراء ملابس بيت الحسين بن على ، وهى ملابس أهل الجنة يلبسون من سندس خضر وإستبرق . . . !

قال المأمون :

— وهل كان من بأس إذ بايعت لعلى بن موسى الرضا رحمه الله بولاية العهد من بعدى ، وهو أفضل بنى هاشم فى

---

(١) قاضى قضاة المأمون ، وكان يتملق المأمون كثيراً وقد قال له مرة «يا أمير المؤمنين إن خضنا الطب كنت جالينوس فى معرفته ، أو علم النجوم كنت هرمس فى حسابه ، أو الفقه كنت على بن أبى طالب فى علمه ، أو ذكرنا السخاء كنت فوق حاتم ، أو صدق الحديث كنت أباذر»

هذا الزمان ؟ !

فقال يحيى :

— والله يا أمير المؤمنين لقد كان أصح الناس بعدك ديناً ، وأكثرهم ورعاً . . .

فقال إسحق الموصلى : .

— يا أمير المؤمنين ما رأيت أبا نواس — رحمه الله ترك معنى من المعانى إلا قال فيه شعراً . وقد ذكرته يوماً بذلك وقلت له : « يا أبا نواس قلت ما قلت فى كل شىء وهذا على بن موسى لم تقل فيه شيئاً » فقال :

— والله يا إسحق ما تركت ذلك إلا إعظاماً لمقامه ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله شعراً ، ثم سكت قليلا وأنشد :

قيل لى أنت أحسن الناس طرا   فى فنون من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديح   يثمر الدر فى يدى مجتنيه
فلماذا تركت مدح ابن موسى   والخصال التى تجمعن فيه
قلت لا أستطيع مدح إمام   كان جبريل خادماً لأبيه

قال المأمون :

— صدق والله الحسن بن هانىء

ثم التفت إلى إسحق ، وقال :

— وأين كنت يا إسحق بعد فرارك من بغداد ؟

قال إسحق :

ـ خرجت يا أمير المؤمنين من بغداد متنكراً فلم يظفر بى إبرهيم فضربت فى الصحراء حتى أتيت مدينة « الرقة » وقد حمى النهار، فوقفت أستريح فى فناء بيت رحب، فما لبثت أن مر بى خادم يقود حماراً فارهاً[١] عليه جارية حسناء، تحتها منديل مصرى، وعليها من اللباس الفاخر ما ليس وراءه غاية فدخلت البيت الذى كنت واقفاً بجواره[٢]. ثم لم ألبث أن جاء شابان جميلان، فاستأذنا فأذن لهما، فدخلت أنا معهما، فظنا أن صاحب الدار دعانى، وظن صاحب الدار أنى معهما، فجلسنا وأتى بالطعام، فأكلنا وبالشراب فوضع بين أيدينا، وخرجت الجارية الحسناء، وفى يدها عود فغنت لذى الرمة :

ألم تعلمى يا مى أنى وبيننا　　مهاو[٣] لطرف العين فيهن مطرح
ذكرتك أن مرت بنا أم شادن[٤]　　أمام المطايا تشرئب وتسنح

وشربنا يا أمير المؤمنين على هذا الغناء الجميل ساعة، واهتزت اعطافى، وسأل صاحب الدار الشابين عنى فأخبراه أنهما لا يعرفانى فقال :

(١) الفاره النشيط الخفيف　(٢) هذه القصة رواها الأغانى لاسحق وروى غيره ما يشبهها لإبرهيم بن المهدى　(٣) جمع مهواة وهى ما بين الجبلين　(٤) أم شادن كنية الغزال

— هذا طفيلى ، ولكنه ظريف ، فأجملوا عشرته .

وغنت الجارية بعد ذلك ثلاثة أدوار كلها من أدوارى فأخطأت فى الدور الثالث ، فاستعدته منها لأصححه فغضبت ، فقال أحد الشابين : «ما رأيت طفيلياً أصفق منك وجها لم ترض بالتطفيل حتى تريد تصحيح الغناء» فأطرقت ولم أجبه ، ثم قاموا للصلاة وتأخرت قليلا فأخذت عود الجارية فشددته وضبطته ضبطاً محكماً وعدت إلى موضعى ، فصليت ، وعادوا فأخذت الجارية العود فمسته فعرفت أن أحداً مسه ، فقالت «من مس عودى ؟» قالوا : «ما مسه أحد» قالت : «بلى والله لقد مسه حاذق متقدم فى الغناء» قلت : «أنا أصلحته» قالت : «فبالله خذه واضرب به» فأخذته وضربت ؛ فما بقى أحد فى المجلس إلا وثب على قدميه وهز عطفيه . ثم قالوا : «بالله يا سيدى من أنت؟» قلت : «أنا إسحق الموصلى» فأقبلوا على يا أمير المؤمنين ، وغنيت الأدوار التى غنتها الجارية ، فقال صاحب الدار : «هل لك أن تقيم عندى شهراً والجارية والحمار لك مع ما عليهما من الحلى» قلت : «نعم» فأقمت عنده شهراً لا يدرى أحد أين أنا ، وهأنذا جئت إليك يا أمير المؤمنين

فضحك المأمون وقال :

— قاتلك الله . . . كنت أبحث عنك طويلا ، حتى حسبت

أن إبرهيم بن المهدى قد احتجزك .

قال إسحق :

ـــ الحمد لله الذى نجانى من المارق . . . !

* * *

ودخل « فتح » الحاجب فقال :

ـــ كلثوم العتابي[١] يا أمير المؤمنين .

فأذن له المأمون ، فدخل ، وحياه ، فقال :

ـــ حيا الله أمير المؤمنين وبياه ، وبارك عهده .

قال المأمون :

ـــ حياك الله وبياك يا عتابى ، بلغتنا وفاتك فغمتنا ، ثم انتهت إلينا وفادتك فسرتنا . . . !

كلثوم :

ـــ أحمد الله على الموت والحياة ما دمت فى رعاية أمير المؤمنين .

المأمون :

ـــ وكيف حالك يا عتابى ؟

ـــ حال رجل لا يطمع فى الدنيا إلا فى رضا أمير المؤمنين .

(١) من كبار شعراء ذلك العصر . وأصله من قنسرين وله مصنفات فى اللغة والأدب . وكان متقشفاً زاهدا .

فاستظرفه المأمون وأراد أن يمزح معه ، فقد كانت له أطوار غريبة ، فقال له :

— وكيف شأنك يا عتابى ؟

فأجاب :

— فى خير إن شاء الله

فسكت المأمون وتشاغل بشىء ثم عاد فقال :

— وكيف حالك يا عتابى ؟

فقال كلثوم :

— أتهزأ بى يا أمير المؤمنين . . . إن الإيناس[١] قبل الإبساس؟

قال إسحق الموصلى :

— وما هو الإبساس يا شيخ ؟

فقال كلثوم :

— ومن أنت أيها الوسواس ؟

قال إسحق :

— أنا من بعض الناس .

كلثوم :

— وما اسمك يا هذا ؟

---

(١) الإيناس ضد الإيحاش . والإبساس الرفق بالناقة عند الحلب وهو أن يقال بس بس وهو مثل يقال فى المداراة عند الطلب

إسحق :

ــ اسمى « كل بصل » . . . !

كلثوم :

ــ هذا اسم منكر مستنكر . وما« كل بصل» في الأسماء ؟

إسحق :

ــ ما أقل إنصافك يا شيخ ، وما اسمك أنت ؟

كلثوم :

ــ اسمى كما سمعت « كلثوم »

إسحق :

ــ وما « كل ثوم » بين الأسماء . والبصل خير من الثوم . . !

فضحك المأمون حتى استلقى ، وضحك من بالمجلس ، فقال كلثوم . . . ،

ــ قاتلك الله ما أملحك . . . ولكن ما رأيت كالبصل حرارة

قال إسحق :

ــ وما رأيت كالثوم رائحة . . . ،

فقال كلثوم :

ــ غلبنى والله يا أمير المؤمنين . . .

إسحق :

ــ ما دمت أقررت بأنى غلبتك فمن أكون ؟

كلثوم :

– لعلك الشيخ الذى تناهت إلينا أخباره بالكوفة ويعرف بإسحق الموصلى .

إسحق :

– هو من قلت . . . وقد سرتنى رؤيتك .

وما كاد ينتهى إسحق حتى استأذن « فتح » الحاجب لرئيس الشرطة دينار بن عبدالله ، فأذن له المأمون ودخل ، وحيا الخليفة ، فسأله عما جاء به ، فقال دينار :

– جئت يا مولاى برجل يدعى أنه النبى « إبرهيم الخليل » عليه السلام . فابتسم المأمون وقال متهكماً :

– أدخله نستمع لوحيه .

فذهب دينار ، وأتى بالرجل

فقال له المأمون :

– هل أنت إبرهيم الخليل ؟

قال الرجل :

– نعم . . . نعم . . . يا عبدالله .

فغاظت المأمون جرأته ، فقال يحيى بن أكثم :

– هل يأذن أمير المؤمنين أن أناقشه ؟

قال المأمون :

ــ دونك وإياه . . .

فقال يحيى :

ــ يا هذا إن إبرهيم الخليل كانت له براهين . . .

قال الرجل :

ــ وما هى براهينه ؟

يحيى :

ــ أضرمت له النار ، وألقى فيها ، فكانت عليه برداً وسلاماً ! فنحن نضرم لك النار ، ونطرحك فيها ، فإن كانت عليك برداً وسلاماً آمنا بك وصدقناك .

الرجل :

ــ هذا برهان عسير ، فاسألنى برهاناً آخر .

يحيى :

ــ وكان من براهين موسى أن ألقى العصا ، فإذا هى حية تسعى وضرب بها البحر ، فانفلق ، فافعل بعصاك مثله .

الرجل :

ــ هذا برهان صعب . وما لنا وللعصا ، وللحية يا صاح ولسنا أمام فرعون ، بل أمام المأمون . . !

يحيى :

ــ وكانت براهين عيسى عليه السلام إبراء المرضى ،

وإحياء الموتى فافعل مثل ما فعل . . .

الرجل :

ـ جئت بالطامة الكبرى . مالى وللمرضى ، والأطباء كثيرون ثم مالى وللموتى ، وقد بعثت للأحياء . . . !

فضحك المأمون والحاضرون وقال للرجل :

ـ لا بد لك من براهين وإلا ضربنا عنقك . . . !

قال الرجل :

ـ ما معى شيء مما تطلبون . ولقد قلت لجبريل حين أرسلت بالرسالة إنكم ترسلوننى إلى قوم فيهم أمير المؤمنين المأمون وفيهم قاضى القضاة يحيى بن أكثم ؛ فأعطونى برهاناً أذهب به إليهم فغضب جبريل وقال : « اذهب أولا وانظر ما يقول لك القوم ، ثم نعطيك ما يطلبون » !

فأغرق المأمون فى الضحك ، وقال :

ـ هذا نبى يصلح للمنادمة . . . !

ثم أمر بإطلاقه وانفض المجلس وخرج المأمون ليقضى وقتاً فى الرياضة وصيد الثعالب والظباء ليخفف عن نفسه متاعب الملك ، وهموم التفكير فى ثورة العراق ، وفى الثائر إبرهيم ابن المهدى . . . !

ساحر ومسحور

عاد المأمون من الصيد بعد ما قضى فيه ثلاثة أيام . وقد أصاب من الثعالب والغزلان عدداً ، وقنص فيما قنص نمراً مخططاً ثائراً أتى به حياً ، فسماه « إبرهيم المبارك » تفاؤلا بأنه سيتغلب على إبرهيم ، ويقبض عليه ويطفئ ثورته ، ويأتى إليه مقيداً ذليلا ، كما قنص هذا النمر وقيده ، وأضعف قوته وأذل كبرياءه .

وكان المأمون لا ينفك مهتماً بثورة إبرهيم وخروجه عليه ، وزاد فى همه ما علمه من انضمام بنى العباس إليه فى الكوفة والأنبار وبغداد وسائر العراق والشام ، وقد شايعوه وبايعوه أميراً للمومنين ولكنه منذ بعث « حميد بن عبد الحميد » بجيشه وما حوى من عدة ضخمة وعدد غفير ، وما زوده به هو وجنوده من الوصايا والوعود بالعطايا الجزيلة ، كان مطمئناً إلى أن قائده سيبلغ ما يريد ، ويحقق له ما يتمنى .

وكان الفضل بن سهل وزيره الأكبر يزيده اطمئناناً وأملا بما يهون عليه من شأن إبرهيم ، ويخفى عنه بعض ما يحدث فى العراق من خطر هذه الثورة ، ونقمة الناس على المأمون ، شأن بطانة الملوك ووزرائهم ، يخفون عنهم حقيقة ما يجرى بين الشعب

ولكن المأمون كانت له عيون ينظر بها غير عيون الفضل بن سهل ، وكان يتابع أنباء جيش « حميد » على الدوام . . وجلس المأمون فى ديوانه وهو فى « مرو » يعالج شئون خراسان ، وكانت هناك طائفة من الزنادقة اهتم بالقضاء عليهم وعلى دعوتهم بين الناس ، وكانوا من الزنادقة المانوية أتباع « مانى » . . وهو مانى بن فاتك الحكيم الذى ظهر فى عهد ملك الفرس سابور بن أزدشير بعد ظهور المسيحية . وقد ابتدع دينا بين المسيحية والمجوسية ، وكان ينفى نبوة موسى ، ويعترف بنبوة المسيح . وقد زعم أن العالم مركب من أصلين قديمين هما النور والظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا . وأن النور جوهره حسن فاضل ، كريم صاف نقى طيب الريح جميل المنظر وأن الظلمة جوهر قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر .

وأن للنور خمسة أجناس ، أربعة منها أبدان ، والخامس روحها فالأبدان هى النار ، والنور ، والريح ، والماء ، وروحها النسيم ، وللظلمة خمسة أجناس كذلك منها أربعة أبدان وهى الحريق والظلام ، والسموم ، والضباب ، وروحها الدخان . وهى تدعى الهامة وتتحرك فى هذه الأبدان .

وكان لمانى اعتقاد فى بعض الشرائع دون البعض الآخر ، وله فى ذلك مذهب وأتباع طالما حاربهم المأمون .

واستأذن دينار رئيس العسكر فى الدخول . فأذن له المأمون فدخل وسأله عن شأنه وما أتى به ، فأنبأه أنه قبض على عشرة من الزنادقة المانوية فأمر بإحضارهم فسألهم :

— أنتم الزنادقة ؟

فقال أحدهم :

— أنا لست زنديقاً يا أمير المؤمنين .

قال المأمون :

— وما خبرك يا هذا ، ولماذا جئت معهم ؟

— امرأتى طالق يا أمير المؤمنين إن كنت والله أعرف هؤلاء أو أعرف من أمرهم شيئاً ، وإنما أنا رجل طفيلى .

المأمون « ضاحكاً » .

— طفيلى . . .

الرجل :

— نعم طفيلى . رأيت هؤلاء قد اجتمعوا ، فقلت ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة ، فدخلت فى وسطهم ومضيت معهم ، فأركبهم الموكلون بهم سفينة ، فرأيت فرشاً ممهداً وخبزاً وسلالا مملوءة ، فقلت : نزهة لطيفة يمضون بها إلى بعض البساتين والقصور . وهذا يوم سار » وبشرت نفسى ، ولكن لم أر نزهة ولا بستاناً . وبينما نحن كذلك إذ جاء الشرطة ، فقيدوهم وقيدونى معهم

وأنا لا أدرى شيئاً ، فقلت لهم : « ايش انتم ؟ » فقالوا : « بل ايش أنت . . ومن أنت . . أمن إخواننا ؟ » قلت : « كلاّ . بل أنا طفيلى أحببت أن لا تتركونى دون هذه النزهة الجميلة ، والوليمة المباركة» . فتبسم القوم ونظر بعضهم إلى بعض وضحكوا . ثم قالوا : « لقد حصلت معنا فى الإحصاء، وأوثقت فى الحديد . أما نحن فزنادقة مانوية أمر المأمون بالقبض علينا . » ووالله يا أمير المؤمنين ما أدرى من هو « مانى » . وهل هو رجل أو امرأة ، وهل هو إنسان أو شيطان ! . . . »

فقهقه المأمون قهقهة عالية وقال :

— يا دينار . فك قيود هذا الرجل .

فقال الطفيلى :

— أحمد الله إلى أمير المؤمنين .. أأنطلق ؟ . . .

المأمون :

— لا بل انتظر ها هنا . . .

وأشار إلى ناحية من المجلس . ثم التفت المأمون إلى الزنادقة ، وقال :

— وأنتم ماذا تقولون عن العالم ؟

أحدهم :

— نقول ما قاله « مانى » إنه نشأ من النور والظلام . . .

المأمون لباقيهم :

— وأنتم تقولون هذا القول ؟

الجميع :

— نعم . . . نعم . . . !

المأمون لدينار :

— يا دينار . اذهب بهم إلى أحد أصلى العالم . . . اذهب بهم إلى ظلام السجن أعماهم الله . . .

وأراد بعضهم أن يتكلموا فعاجلهم المأمون قائلا :

— اخسأوا قاتلكم الله . . .

ودفعهم الجنود إلى السجن ، ثم التفت إلى الطفيلى وقال :

— وأنت يا هذا تطفلت ، فغامرت ، والله لأكاد أن أقذف بك معهم !

الطفيلى :

— عفواً يا أمير المؤمنين ، وليسعنى حلمك ، فقد جاءوا بى إليك وهى مغامرة كانت خيراً وبركة وبرداً وسلاماً . وهى عندى خير من ثلاث ولائم . . . !

فضحك المأمون ، وقال له :

— قاتلك الله . إن فيك لظرفاً . . . انصرف وعفوت عنك !

* * *

انصرف الطفيلى . . . وما كاد يغيب عن المجلس حتى سمعت ضجة فى الخارج ، فإذا بالوزير الأكبر الفضل قادماً محمولا كعادته على كرسى مجنح ، وكان المأمون قد أجاز له ذلك تكريماً له ، وسماه ذا الرياستين . . !

وأقبل الفضل فى هذه الهيئة . حتى إذا كان على مرأى من المأمون نزل وترجل ، وسلم على أمير المؤمنين وجلس عن يساره فقال المأمون :

— كيف حال العراق يا فضل ؟

— إنها حال تسر أمير المؤمنين ، وتكبت أعداءه . . . إن العراقيين يلتفون حولك ويخلصون لمولاى الحب والولاء .

— وما شأن إبرهيم بن المهدى فيهم .

— إنه مخذول منبوذ فى طائفة قليلة من رعاع القوم

فسكت المأمون ملياً ، وقال :

— ولكن الوافدين من بغداد يقولون غير ذلك .

فقال الفضل فى غير تريث :

— وهل دخلت على أمير المؤمنين يوماً بكذب ، أو حدثته بغير ما أعلم ، أو مالأت أحداً عليه ، وإذا كان أمير المؤمنين قد شرفنى بثقته ورفعنى إلى موضع أمانته وسره ، فكيف يقول لى هذا القول . . . ؟!

— لا والله يا فضل ما علمت عنك سوءاً ، ولكن إذا كانت الحال على ما تصف فكيف أنباء جيش حميد بن عبد الحميد ؟

— إنه على ما يحب أمير المؤمنين قد انتصر منذ الساعة الأولى

— ولكنى علمت أنه خسر الجولة الأولى بين جيشه وجيش إبرهيم . . !

وهنا دخل الحاجب يستأذن لهرثمة بن أعين أحد قواد العباسيين القدماء ، وأكبرهم فى عهد المهدى والرشيد ، وكان بينه وبين الفضل بن سهل ضغينة ولم يكن راضياً عن سياسته فأذن له ودخل ، فقال :

— السلام على مولاى أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته

المأمون :

— وعلى هرثمة السلام والبركات . لماذا تجشمت كل هذا السفر يا أبا حاتم (١) ؟

هرثمة :

— تجشمت ذلك ، لأقضى حق الله فى طاعة أمير المؤمنين وأنبهه إلى أمره وأقوم بالنصح له .

المأمون ، وقد أدرك مراده :

— يا أبا حاتم ليست بك حاجة إلى هذا ، وأنت شيخ مريض

(١) كنية هرثمة

تعب ، فانصرف إلى منزلك تسترح .

هرثمة :

— لا يا أمير المؤمنين ما تجشمت طول السفر ، ووعثاء الطريق لأنصرف إلى منزلى !

المأمون :

— بلى يا أبا حاتم . أحب أن تنصرف لتستريح . ودع ذكر ما لا نحتاج إليه ، وما أنت عنه فى غنى .

هرثمة :

— كلا يا أمير المؤمنين ، حتى أقضى الحق فى نصحك ، فإنى لا آمن أن يحدث على فى هذه الساعة حادث ، فألقى ربى مقصراً فى حق أمامى .

ثم التفت هرثمة إلى الفضل بن سهل وقال مشيراً إليه فى تهكم :

— الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى لم يمتنى حتى رأيت هذا المجوسى يحمل إلى مجلسك فى كرسى مجنح ، ويجلس بين يديك على كرسى كأمراء بنى العباس . . !

فقال المأمون متجهماً :

— دع ما لا يعنيك يا هرثمة لما يعنيك . ولا شأن لك بالفضل ابن سهل .

هرثمة :

ــ يا أمير المؤمنين ما لمسرور وسلام خادمى أبيك الرشيد يحبسان بغير ذنب ، ويأخذ هذا المجوسى أمتعتهما ، فيمزقها ويحرقها . . ألأنهما أعانا أباك الرشيد فى الفتك بجعفر البرمكى وآله ، فيأتى هذا وينتقم من الأحياء للأموات .

المأمون غاضباً :

ــ يا هرثمة مالك وذكر ما لا نحتاج إليه . !

وهنا نهض الفضل فى غضب وحقد وقال لهرثمة :

ــ وما أنت وهذا يا سفيه . . يأمرك أمير المؤمنين أن تمسك عن الكلام ، ولا تتعرض لما لا يعنيك ، فتأبى ، وتقول ما تقول غير مكترث بحقه ، ولا سامع لقوله ولا محترم لطاعته ، أو تظن أنك تكرهه على أن يسمع منك لغواً ، ويصدق منك كذباً ، ويأخذنى بما سولت نفسك البغيضة حسداً منك لأوليائه ، وتطاولا على خاصة رجاله . ويلك . . . وأين لك هذه المنزلة . ؟ تقول لأمير المؤمنين إنك تنبهه إلى أمره ، وتقوم له بالنصح ، كأنه نزل منك حيث ينزل الولى من المولى ، وقد ردك فى ذلك رداً لطيفاً ، وأجابك جواباً ليناً ، فما ارعويت ، ولا استحيت ، بل كنت تجيب بالقول الجرىء والكلام البذئ . أكان حلم أمير المؤمنين ، أعزه الله يسع منك أكثر ما وسع ، وقد أتاه

ما كان من سعيك لإبرهيم بن المهدى وثنائك عليه ، وخيانتك ليلة خلع الأمين . لولا أن طاهراً بن الحسين[١] فطن لما دبرت وكشف ما عليه تآمرت ، فأوقعك الله وأوقع المخلوع ، فخرجت من نهر دجلة تزعم أنك كنت تريد أسره والذهاب به إلى الخليفة ، وتسليمه بردة الخلافة والخاتم والقضيب ، فما صدقتك ولا سمعت لك وأبعدتك عن نعماء أمير المؤمنين ، فرحت تشيع الأباطيل ، وظننت يا جاهل بسوء تدبيرك ، أنك لو أتيت أمير المومنين ، فلغوت بما لغوت ، واجترأت بما اجترأت ، صدقك وأحلك محل الناصح الأمين ، ولكنك ما كدت تفتح شفتيك بما افتريت حتى استبان سوء قصدك ، وعرف سبيل غيك فأوقفك عند حدك وردك إلى شأنك فما انتبهت ولا ارعويت .

«أرأيت لو أن أمير المؤمنين بطش بك الساعة أكان لك منه معاذ ؟.. والله لأكاد أركلك برجلي ركلة تذهب بك إلى نار جهنم . . اذهب . . اخسأ .. لا رحمك الله .. »

ثم نادى الفضل ديناراً وجنده قائلا :

— خذوا برجل هذا الجاهل السفيه وجروه على وجهه إلى السجن . . !

---

(١) طاهر بن الحسين هو قائد المأمون في الحرب بينه وبين الأمين وهو الذى حاصر بغداد إلى أن قتل الأمين وحمل رأسه إلى المأمون

ففعل الجند ما أمر الفضل . . . وسكت المأمون ثم قال له :

ـ أحسنت يا فضل . . . والله لو لم تقل له ما قلت، لكنت قلته ، ولو لم تفعل ما فعلت لأمرت الساعة أن يقتل .

ثم نهض المأمون ، وأذن للفضل والحاضرين بالانصراف ، ولكنه استبقى كاتبه عمرو بن مسعدة .

* * *

انصرف القوم ثم التفت المأمون إلى عمرو وقال :

ـ أرأيت يا عمرو ما فعل الفضل بن سهل بالشيخ هرثمة فى مجلسى مع بلائه فى هذه الدولة . وهو قائدى وقائد أبى وجدى والله إنى لهممت أن أقتل الفضل بن سهل الساعة . . . ،

ابن مسعدة !

ـ والله يا أمير المومنين ما تكلم الشيخ هرثمة إلا حقاً ولقد ستر الفضل عنك كثيراً وأغضب منك أهل العراق حتى قالوا عنه « إنه ساحر وأنك مسحور به . . ! »

المأمون :

ـ عجباً .. أهكذا يقولون ؟ !

ثم أطرق المأمون فى تفكير عميق .

عمرو بن مسعدة

كان عمرو بن مسعدة — ويكنى أبا الفضل[١] — من أصل تركى أبيض الوجه فى احمرار. وجده «صول بن صول» كان رجلا تركياً تولى إمارة جرجان، وتشبه بالفرس فى عاداتهم وأخلاقهم، وكلمة «صول» كانت لقباً لحكام دهستان، كما يطلق لقب كسرى على الساسانيين من ملوك الفرس.

وقد تولى عمرو الكتابة للمأمون، فأحبه وآثره وقدمه على سائر كتابه، وولاه ديوان الرسائل وديوان الخاتم والتوقيع والأزقة، ثم تولى حكم فارس وكرمان. وكان المأمون يعجب ببلاغته، ويسند إليه الكتابة فى مهام دولته.

ودخل أحمد بن يوسف الكاتب على المأمون يوماً، فرأى بيده كتاباً من عمرو، وهو يتأمل فيه مدة، فوقف حتى انتهى منه والتفت إلى أحمد، فقال له: «إن فى هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت من الرشيد عن البلاغة من أنها التباعد عن الإطالة، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى. وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك حتى جاءنى هذا

(١) توفى عمرو بن مسعدة فى سنة ٢١٧ هـ قبل وفاة المأمون بعام واحد.

الكتاب من عمرو فإذا فيه : (كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده ورؤساء أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم فأخلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم) .

« وإن استحساني هذا الكتاب بعثني على أن أمرت للجند بأعطيتهم لسبعة أشهر . . لله عمرو ما أبلغه ، ألا ترى كيف أومأ إلى وجه المسألة في الإخبار ، وإعفاءه سلطانه من الإكثار »

وكان عمرو ذا ثروة واسعة مما أقطعه إياه المأمون ومما نزل عنه من خراج بعض الولايات كما كان خلفاء ذلك العهد الذهبي يفعلون لخاصتهم حتى قيل إنه مات عن ثمانية ملايين دينار بعد ما عاش عيشه البذخ والترف ، وبذل ما بذل من كثير الأموال للعلماء والشعراء وغيرهم . ولا غرو فقد كان ملك العباسيين أكبر من قارة أوروبا ، وكانت الضرائب تجبي من كل مكان إلى بغداد.. !

وقد كان لعمرو فرس أدهم أغر لم يكن للمأمون مثله : فرآه يوماً واستحسنه فبادر عمرو بإهدائه إليه مع كتاب فيه هذه الأبيات :

يا إماماً لا يدانيه إذا عدّ إمام
فضل الناس كما يفضل نقصاناً تمام
قد بعثنا بجواد مثله ليس يرام

فرس يزهى به للـ ـحسن سرج ولجـــام
دونه الخيـــل كما دو نك فى الفضل الأنام
وجهه صبح ولكن سائر الجسم ظــلام
والذى يصلح للمو لى على العبــد حرام

كانت هذه منزلة عمرو عند المأمون ، فليس غريباً أن يستبقيه ، ويصرف من حضر فى المجلس ، وفيهم الفضل بن سهل كبير وزرائه وعظيم دولته . وقد كان بين عمرو وفضل ما بين الوزراء والنظراء ورجال السلطان من تنافس ودسائس وايثار للنفس بالحظوة والولاء .

* * *

فلما أفضى المأمون بما فى نفسه لعمرو حين رأى الشيخ هرثمة ابن أعين يفعل به الفضل بن سهل ما فعل بمجلسه ، أجاب الخيفة بما أجاب به ، وقال له إن الفضل ستر عنك كثيراً ، وأغضب أهل العراق حتى قالوا « إنه ساحر وإنك به مسحور » ! !

فقال المأمون لعمرو :

— ومن يعلم هذا غيرك من رجالى يا أبا الفضل ؟

فأجاب :

— يعلمه خلف المصرى ، وعلى بن سعيد ، وعلى بن هشام

فبعث المأمون من أتى بهؤلاء الثلاثة فى اليوم التالى . . .

حضروا وسلموا وركعوا، وقبلوا الأرض ثم رفعوا رءوسهم فقال لهم المأمون :

ــ ماذا تقولون فى الفضل بن سهل . . . هل هو يغشنى . . !

فالتفت بعضهم إلى بعض ، ولم يتكلموا . فأعاد المأمون سؤاله . فسكتوا ثم قال خلف المصرى :

ــ لا نقول شيئاً يا مولاى حتى تعطينا الأمان من الفضل . !

المأمون :

ــ قولوا وأنتم آمنون .

خلف المصرى :

ــ إنه والله يا أمير المؤمنين ما صدقك الفضل بن سهل حين حدثك عن بغداد والعراق وإبرهيم بن المهدى ، وإن بغداد اليوم تتأجج بفتنة شعواء ، فإن لم يتداركها أمير المؤمنين ذهبت بسلطانه .

على بن هشام :

ــ نعم يا أمير المؤمنين وإن أمر إبرهيم بن المهدى لفى صعود واقبال ، وقد صار العراقيون فى كل مكان يهتفون به وينادونه خليفة المسلمين ، وأمير المؤمنين .

على بن سعيد :

ــ وقد غشك الفضل بن سهل فى أمر هرثمة . والله يا أمير

المؤمنين ما كذب هرثمة ، ولا خانك في أمر ولا ائتمر بك يوم حصار الأمين ببغداد ، وما أراد له أن يفر من وجهك إنما كان كل همه أن يحفظ حياته ، وأن يأتي به حياً ، لأنه يعلم أنك كنت تحب لأخيك الحياة ، ولكن الفضل سلط عليه طاهر بن الحسين وهذا سلط عليه صعاليك الجند فذبحوه كما تذبح الشاة وكان ما كان من لوم الناس ، وغضب بني العباس .

خلف المصري :

— والله يا أمير المؤمنين لقد نصحك الفضل فغشك ، وأنبأك فكذبك ، وما تجشم الشيخ هرثمة ما تجشم من السفر والتعب وهو شيخ طاعن السن واهن القوى إلا ليؤدي حق الله في طاعتك ، وحق ولائه لأهل بيتك ، ولكنه أخذ من مجلسك على ما رأيت وألقي في السجن ، وما خرج الفضل من عندك حتى بعث إليه من قتله !

المأمون :

— وقد قتله ؟!

خلف المصري :

— نعم قتل غلام الفضل الشيخ هرثمة في السجن منذ ساعة !

فدمدم المأمون بكلام ثم قال :

— أهكذا يفعل بأوليائي ، والله ليلقين جزاءه . . . !

عمرو بن مسعدة :

ــ يا أمير المؤمنين لقد رفعت الفضل بن سهل ، وأحللته الغاية من حظوتك ، وجعلت له الرياستين رياسة الحرب ورياسة التدبير تفضلا منك ونعمة ، فظن من سوء رأيه أنه نظير نفسك ، وأنه إن نزلت عن مكانك صار له عرشك وسلطانك . وكان يقال « إذا عرف الملك من الرجل أنه قد ساواه فى الرأى والمنزلة والهيبة والمال والتبع فليصرعه ، فإن لم يفعل كان هو المصروع »

ثم ما عرف يا أمير المؤمنين فضلك عليه . ولا شكر نعماءك ، بل اتخذها حرباً لأوليائك ، واستغلها لمآرب أعدائك وقد رأيت ما فعله بهرثمة فى مجلسك اجتراء منه عليك ، واستخفافاً بحقك ، ولو كان قد وضع نفسه موضعها لما فعل ما فعل بحضرتك ، ولما تولى ذلك عن أمير المؤمنين ، وهو أعلم بالأمور . !

المأمون :

ــ يا عمرو . حقاً لقد رفعته على الناس ، وأحللته عندى محل بنى العباس ، وأقطعته وأعطيته ، وجعلت له مرتبة من يقول فى كل شىء فيسمع منه ولا يرد ، ولا يتقدم غيره عليه فى المراتب .

ولكن خل شأنه ، فله يوم آخر . وانظر ماذا ترى فى أمر الفتنة بالعراق .

ابن مسعدة :

— أرى الرأى أن يأمر أمير المؤمنين ، فنخرج ويخرج معنا إلى بغداد ، فإن الناس قد فتنوا هناك بإبرهيم بن المهدى . ولو رآك البغداديون بينهم لهدأت ثائرتهم وانطفأت فتنتهم واغتبطوا بمقدم أمير المؤمنين وهرعوا إليه بالطاعة والولاء فإنهم يحبونه ويعظمونه منذ كان صبياً معروفاً بينهم بالنجابة والفصاحة والتقوى .

يا أمير المؤمنين إن النفاق من أخلاق الجماهير ، وأنت فى حكمة تدبيرك ، وبراعة سياستك ، وفصاحة لسانك وعظيم كياستك أقدر على أن ترد الأمر إلى نصابه ، وقد ميزك الله بالعلم وفضلك بالسداد ووفقك إلى ما أنت به أهل ، وما أنت به جدير وأرادك حافظاً لتراث الرشيد فى ولده وأن تكون للدين والدنيا خير امام .

المأمون :

— أحسنت يا عمرو . . . نعم الرأى ما رأيت . ولنذهب إلى بغداد . . . هيا بنا إلى دار السلام .

الفصل الخامس

إلى عروس المشرق

برح المأمون « مرو » إلى بغداد[١] دار السلام ، لإطفاء الفتنة ، والقضاء على دعوة إبرهيم بن المهدى وتوطيد دعائم خلافته ، وتثبيت وطائد ملكه ، وتشييد أركانه ، والتقرب من العرب وتقريبهم ، والجمع بالمودة بينهم وبين أنصاره الخراسانيين .

وقد مات على بن موسى الرضا وانتهى أمر ولاية العهد التى ولاه إياها المأمون فأغضبت بنى العباس والعرب فى العراق . ولكن هل يرضى العرب ذهاب الموت بهذه الولاية دون شعار العلويين الأخضر الذى ما زال يتمسك به المأمون ويلبسه هو ورجاله ؟ وهل يرضى العرب فى العراق أن يتعاونوا مع الفضل بن سهل وزيره . وهو من هو فى تعصبه للفرس والشيعة العلوية ، ومحاربته سراً وجهراً لقادة العرب والقضاء على نفوذهم فى الدولة ؟ ؟

لا بد إذن من الرجوع إلى شعار العباسيين وسنتهم وأوضاعهم

(١) دار السلام من أسماء بغداد وفيه إشارة إلى قوله تعالى « لهم دار السلام عند ربهم » ومن أسمائها « مدينة المنصور » و « الزوراء » و « دار الخلافة »

وله فى ذلك مندوحة أى مندوحة ليطفىء هذه الفتنة الشعواء وليعيد الأمور إلى نصابها بعد ما اضطرب حبلها ومثل خطرها .

* * *

رجع المأمون إلى شعار آبائه فخلع الملابس الخضراء ، ولبس الملابس السوداء ، وقلده فى ذلك وزراؤه وقواده ورجال دولته . ولم ير الفرس فى ذلك غضاضة لأنهم يحبونه ويثقون بمحبته لهم ، واحترامه لكبارهم ، وهم أخواله وأنصاره .

أما الفضل بن سهل فقد رأى المأمون ألا يصحبه إلى العراق فى موكبه ، وفى هذه الفتنة التى يعتبره العراقيون عاملها الأول ، ولولا أعماله ما وقع ما وقع ولولاه ما فكر المأمون فيما فكر فيه ، ولما أقدم على ما أقدم عليه من الخروج على سنة آبائه ، والميل إلى ولاء العلويين .

خرج المأمون فى موكبه الضخم إلى العراق وأشار على الفضل أن يذهب إلى مسقط رأسه « سرخس » وأن يقيم فيها مدة حتى تهدأ الحال وتستتب الأمور فيبعث إليه بالحضور إلى بغداد . واستصحب المأمون أخاه أبا إسحق المعتصم ، وابنه العباس ، وكاتبه عمرو بن مسعدة ، وقاضى القضاة يحيى بن أكثم ، وأحمد بن أبى خالد الأحول ، وإسحق الموصلى ، وغيرهم من خاصة رجاله وحاشيته وأعيان دولته .

وسافر الفضل بن سهل إلى « سرخس » وكان له فيها قصر كبير ، فأقام به أياماً ، وبينما كان جالساً فى وقت الغروب يلعب الشطرنج مع بعض أهله إذ فاجأه أربعة رجال يحملون السيوف ، فهم إليهم بسيفه فدافعهم ، ودافعوه حتى ضعف عن مقاومتهم فلجأ إلى الحمام وأغلقه عليه ، فاقتحموا بابه ، وتعاوروه بالسيوف حتى قتلوه ، وكان يصيح :

— قتلنى غلمان أمير المؤمنين . . . قتلنى غلمان المأمون ! .

وكان هولاء الغلمان : غالب السعودى ، وفرخ الديلمى ، وقسطنطين العربى ، وموفق الصقلبى .

زواج سياسى

وصل موكب المأمون إلى « الرقة » فى طريقه إلى بغداد فأقام بعض الوقت ليستريح ، فجاءه من سرخس فارس ينبئه بمقتل الفضل بن سهل ، بأيدى غلمانه الأربعة فتظاهر بالحزن والأسى وقال عمرو بن مسعدة :

— أرى أن يقتل هؤلاء الغلمان ، فإنهم إن بقوا سلوا على أمير المؤمنين ألسنة الناس ، ولا نأمن أن يسلوا عليه سيوف خراسان .

فقال المأمون :

ـ نعم الرأى ما رأيت . . .

وأمر بقتلهم فقتلوا . ثم بعث إلى الحسن بن سهل ، وكان وقتئذ فى « واسط » فحضر وأقامه فى الوزارة مقام أخيه حتى لا يغضب الخراسانيون . وكان الحسن بن سهل قبل أن يلى الوزارة من أكبر قواد المأمون ، وكان أديباً فصيحاً ، ذا رأى وحزم ورجاحة عقل غير متعصب تعصب أخيه للعلويين وإن كان متشيعاً لهم كغيره من الفرس وقد قاد الجيوش وحارب إبرهيم بن المهدى ، وأصيب أثناء ذلك بمرض السوداء « النورستانيا » فتغير عقله حتى شد فى الحديد وحبس فى بيته زمناً وخلفه على العسكر أحد قواده ثم شفى ، فاستدعاه المأمون بعد مقتل أخيه وشمله برعايته وعطفه وأعلى مكانه فى دولته ، ووهب له أموالا كثيرة وأقطعه « فم الصلح » . !

وأراد أن يزيد فى إكرامه فخطب ابنته خديجة المسماة « بوران »[١] سنة ٢٠٣ هـ وكانت وقتئذ فى الحادية عشرة من عمرها ، فأجل البناء بها . وهى من أجمل نساء عصرها وأكثرهن ذكاء وفصاحة وفتوناً .

وكذلك أراد المأمون أن يرضى الفرس والعرب معاً وأن يجمع

(١) بوران اسمها الفارسى وقد ولدت سنة ١٩٢هـ وزفت إلى المأمون سنة ٢١٠هـ وماتت سنة ٢٧١هـ فى زمن المعتضد ولها من العمر ٧٩ سنة

حوله الفريقين ، وما كاد موكبه يبرح « الرقة » إلى بغداد حتى جاءته الأنباء بنصر قائده حميد بن عبد الحميد على إبرهيم بن المهدى وفراره من بغداد .

فى بغداد

اغتبط المأمون بهذه البشرى وتفاءل برحيله إلى بغداد ظافراً منصوراً وشد رحاله مسرعاً إلى عاصمة الدولة ، وعروس المشرق ، ودخلها فى موكب فخم يحف به القواد والفرسان ، ويتقدمه الجنود بالأعلام والطبول ومن ورائه طوائف الفرس والعرب فى مشهد رائع بديع .

ووصل الموكب إلى « قصر الخلد » — قصر الخلافة — وكان مشيداً على الشاطىء الغربى من دجلة ، وأقيمت فيه أريكة[1] فخمة جلس عليها المأمون بملابسه السوداء ، وعليه بردة الخلافة وبيده الخاتم والقضيب ، وعلى رأسه عمامة سوداء فى مقدمتها طرة من أسلاك الذهب كعرف الطاووس ، ووقف وراءه وحوله الحراس يحملون السيوف والنشاب ، وجلس على يمينه أخوه أبو إسحق المعتصم ، وابنه أبو العباس ، وعن

(١) سبق وصف هذه الأريكة ووصف قاعة العرش فى هذا الكتاب

يساره الحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعده ، وأحمد بن أبى خالد وغيرهم من الوزراء والقواد .

ودخل عليه أخوه صالح بن الرشيد فحياه وهنأه وقال :

حمدنا الله شكراً إذ حبانا   بنصرك يا أمير المؤمنينا
فأنت خليفة الرحمن حقا   جمعت سماحة وجمعت دينا

فقال المأمون :

ــ أحسنت يا صالح . . . لمن هذان البيتان ؟

صالح :

ــ للحسين بن الضحاك .

المأمون :

ــ لقد أحسن وأجاد . . . ولكن لا شىء له عندنا .

أنبئنى يا صالح كيف رأيت الناس فى بغداد ؟

صالح :

ــ رأيتهم يا أمير المؤمنين فى كل مكان يتسابقون إلى موكبك ويتقاتلون على رؤيتك ، ويتنافسون فى تقبيل يدك ويهتفون فى حماسة باسمك ويقولون :

ــ المأمون أمير المؤمنين ــ لا طاعة لإبرهيم . . . !

فهز المأمون رأسه وقال :

ــ هذه نعمة جليلة أحمد الله عليها . ولكن لا يغرنك ما ترى

من نفاق الناس وتملقهم فطالما نافقوا الغالب وانفضوا عن المغلوب . أو لم يكونوا بالأمس يهتفون لإبرهيم بن المهدى وينادونه بالخلافة ويسندون له كل فضل ويلقبونه « المبارك » .

ولكن هكذا الدنيا يا صالح ، وهكذا الناس . . . ،

صالح :

ـ صدقت يا أمير المؤمنين . . .

* * *

واستأذن دينار بن عبدالله على المأمون فسأله .

المأمون :

ـ ما وراءك يا دينار . . هل قبضت على إبرهيم بن المهدى ؟

دينار :

ـ لن يفلت أبداً من جنود أمير المؤمنين ، وقد بعثت وراءه من يقبض عليه فى العراق والشام .

المأمون :

ـ سوف لا يفلت إن شاءالله . وأرجو أن تأتونى به حياً ولا تقتلوه ولا تمسوه بسوء . . !

دينار :

ـ سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين .

فقال العباس بن المأمون :

— يا أمير المؤمنين .. إن إبرهيم خائن لك ، وقد طمع فيك وخلعك ، والرأى عندى أن يقتل أينما وجد . . !

المأمون :

— هون عليك يا عباس . . .

العباس :

— لست تأمن يا أمير المؤمنين أن يعود إبرهيم لمثل ما فعل ، فيسبب لك المتاعب . . .

المأمون :

— صدقت يا بنى ولكن من أراد الملك فليوطد نفسه على المتاعب .

زبيدة

وبينما هم فى المجلس إذ دخل الحاجب « فتح » يقول :

— أم جعفر زبيدة يا أمير المؤمنين .

فقام المأمون إجلالا لزوجة الرشيد وحفيدة أبى جعفر المنصور وصرف من حوله من الوزراء والرجال وبقى أخواه المعتصم وصالح وابنه العباس .

ودخلت زبيدة وبصحبتها علية بنت المهدى عمة المأمون . وكانت منذ قتل ابنها الأمين معتكفة فى قصرها « دار القرار » على شاطئ دجلة حتى إذا أقبل المأمون جاءت لتحييه وتفضى إليه بما فى نفسها ، فلما دخلت قال المأمون :

ــ حياك الله يا أماه ... كيف حالك ؟

زبيدة :

ــ حيا الله أمير المؤمنين ، وأبقاه للدين والدنيا .

المأمون :

ــ رحم الله أبى وأخى وأبقاك يا أماه ، فوالله ما كنت أرجو أن يقتل الأمين ، فعلها طاهر بن الحسين قاتله الله ففجعنا فيه ، وسل علينا سيوف الناس وألسنتهم. وما أمرناه إلا أن يبعث به به أسيراً فبعث به عقيراً . . .

زبيدة :

ــ ما علمت عنك سوءاً يا أمير المؤمنين . ولقد كنت أعرف حبك لأخيك وبرك به . وقد فعلها «ابن الحسين» حقاً وما كان يبالى بتضرعى وشفاعتى عنده ، وأعرض عنى .

وأخرجنى مكشوفة الوجه حاسراً

وأنهب أموالى وأحرق آدرى

المأمون :

— هذا قضاء الله نفذ ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه و فى لك فى البر بالمحل الذى كان فيه الأمين .

زبيدة :

وقلت لريب الدهر إن هلكت يدُ
فقد بقيت والحمد لله لى يـدُ
إذا بقى المأمون لى ، فالرشيد لى
ولى جعفر[1] لم يفقـدا ومحمـد

المأمون :

— أبقاك الله يا أماه . وإنك عندى بالمنزلة التى كانت عند أبى وجدى فسلى ما شئت .

زبيدة :

— يا أمير المؤمنين نحن عرب ، وللعرب رحم ونسب ، فأنظر إلى عرب العراق والشام ، كما نظرت إلى عجم خراسان .

المأمون :

— والله يا أماه ما نزلت قيس عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فما أحببتها ، ولا

(١) جعفر بن أبى جعفر المنصور والدها وكان المنصور يحبها ويدللها وهو الذى سماها زبيدة . وهذان البيتان من شعر أبى العتاهية على لسان زبيدة بعد قتل الأمين .

أحبتني قط ، وأما قضاعة فإن سادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من الشيعة ، وأما ربيعة فساخطة على الله عز وجل منذ بعث نبيه من مضر .

زبيدة :

ــ يا أمير المؤمنين قد عرفت بالحكمة والكياسة والعدل ، وقد مات الرشيد وما مات حتى كان العرب راضين عنه ، فانظر إلى ما يرضى العرب كما نظرت إلى العجم .

المأمون :

ــ أفعل إن شاء الله .

وتناولت زبيدة حلة الخلافة التي كان يلبسها الرشيد في حياته ، وكانت تحملها إحدى وصيفاتها ، فقدمتها للمأمون هدية وتذكاراً جميلا ، فتناولها مسروراً وشكر لها هذه الهدية النفيسة ، واستأذنت وخرجت مع علية مودعتين منه أجمل وداع وما كادتا تبعدان حتى بعث المأمون في طلب عمرو بن مسعدة ، فأقبل مسرعاً ، فأراه حلة الرشيد ، وحدثه عما جرى بينه وبين زبيدة ، فقال عمرو :

ــ لقد نصحت أم جعفر والله يا أمير المرمنين . ومثلك فوق نصح الناصحين .

قال المأمون :

— وفقنى الله . . . وكيف حال بغداد اليوم يا بن مسعدة ؟

عمرو :

أصبحت الأمة فى غبطـــة من أمر دنياها ومن دينها
إذ حفظت عهد إمام الهدى خير بنى حواء مأمونهـــا
على شفا كانت فلما وفت تخلصت من سوء تحيينها
ألا تراها كيف بعد الردى وفقها الله لتزيينهـــا

قال المأمون :

— أحسنت يا بن مسعدة ، وبارك الله لك . . .

الفشل

فشل إبرهيم بن المهدى وفر من بغداد بعد هزيمته أمام جيش المأمون بقيادة حميد بن عبد الحميد ، وقد ضيق عليه حميد منافذ السبل وبعث وراءه الجنود فى كل مكان وبث دينار بن عبدالله العيون فى الصحارى والبلدان . فلم يستطع أن يبرح العراق إلى بلد آخر ، فاختفى بالمدائن[1] فى ألوان وطرق شتى من الاختفاء وذات يوم ضاقت به الحال . وكان يوماً صائفاً شديد القيظ ،

(١) المدائن مدينة بالقرب من بغداد كان فيها إيوان كسرى ، وسميت بهذا الجمع لما كانت عليه من سعة وضخامة كأنها عدة مدن

فسار متنكراً إلى زقاق لا منفذ فيه فصادف رجلا أسود واقفاً على باب دار له فالتفت إليه وهو خائف يترقب وقال :

— أعندك موضع أقيم فيه ساعة ؟

فنظر الأسود إليه نظرة فاحصة ، وقال :

— نعم . . . وعلى الرحب والسعة . . .

وفتح الباب ووسع له ، فدخل إبرهيم إلى بيت فيه حصير نظيف ووسادة وحشية جلد نظيفتان ، فجلس عليها ولكن الأسود لم يجلس .

فدعاه إبرهيم للجلوس فأبى ، وقال :

— إنى خارج لبعض شأنى . . ولينتظر سيدى قليلا . . .

وتركه وخرج وأغلق الباب عليه فأوجس إبرهيم فى نفسه خيفة ، وأيقن أنه يمكر به وأنه ذاهب ليدل عليه العسكر ليفوز بجائزة المأمون، فقد جعل لمن دل عليه مائة ألف درهم . . !

وما كان باستطاعة إبرهيم أن يفر من هذه الدار فقد أغلق الأسود الباب إغلاقاً محكماً ، وأخذ معه مفتاحها فزاد خوف إبرهيم ، ومضت مدة يسيرة ، ولكنها كانت طويلة بما فيها من فزع وأوهام .

وأقبل الأسود يحمل طبقاً فوقه كل ما يشتهى من خبز ولحم وقد جلب معه قدراً جديدة ، وجرة وكيزاناً نظيفة وقال لإبرهيم :

— جعلنى الله فداءك يا سيدى .. إننى رجل حجام ، وأعلم أنك تتقزز مما أتولاه من الحجامة، فشأنك بما لم أمسسه أو تقع عليه يدى لتصنع به طعامك .

فدهش إبرهيم لكرم هذا الرجل ومرءوته وقام فطهى طعامه ، وكانت به حاجة إليه شديدة ، وتناول منه ما اشتهى حتى إذا فرغ ، تقدم الأسود فقال له :

— هل لك يا سيدى فى شىء من النبيذ ؟

قال إبرهيم :

— ما أكره ذلك . . جزيت خيراً .

فأتى بآنية نظيفة ، وكأس نظيفة ، وقدم له نبيذاً حسناً، ثم انتحى ناحية أخرى وأتى بنبيذ آخر وقال :

— أتأذن لى ياسيدى — جعلنى الله فداءك — أن أقعد ناحية منك فأشرب مسروراً بك ؟ !

فعجب الرجل من رقته وأدبه ، وأجاب :

— نعم . وهنيئاً لك ، وطبت نفساً . . .

فأخذا يشربان . . حتى إذا تناول الأسود ثلاثاً قام فأخرج من خزانته عوداً ، وقال لإبرهيم .

— يا سيدى ليس من قدرى أن أسألك أن تغنى ، ولكن قد

وجبت عليك حرمتى ، فإن رأيت أن تشرف عبدك بأن تغنيه فعلت .

فبهت إبرهيم وقال له :

ــ وكيف توهمت أنى أحسن الغناء ؟ . . .

فابتسم الأسود وقال :

ــ يا سبحان الله . . . أهذا مبلغ ظنك بى ؟ أفلم أعرفك يا سيدى إبرهيم ، وأنت القمر لا يخفى على رائيه ، والمسك لا يغيب شذاه عن عارفيه ؟

فأسقط فى يد إبرهيم بن المهدى وقال :

ــ وهل تبغى أن تبيع مروءتك معى بعرض الدنيا ؟

ــ أستغفر الله وأستغفرك يا سيدى إن كنت قد قصرت فى حقك أو أردت بك سوءاً . . . ولكنى ما توهمت يوماً أن تشرفنى فى منزل وتسعدنى بهذه الضيافة . فإذا شئت زدتنى من كرمك ، وأسمعتنى شيئاً من جميل غنائك فإنى رجل أعشق الغناء ، وأعجب بك

فتناول إبرهيم العود ، وقال :

ــ حباً وكرامة . . لك ما طلبت . . !

وما كاد يعزف إبرهيم على العود حتى قال الأسود :

ــ أتأذن لى يا سيدى أن تغنى ما أقترحه عليك ؟

فقال إبرهيم :

ــ هات ما شئت ...

فاقترح ثلاثة أدوار من أصوات إبرهيم ، فقال له :

ــ ومن أين عرفت هذه الأصوات ؟

قال الأسود :

ــ كنت أخدم إبرهيم الموصلى ، فسمعته يثنى عليك ، ويذكرك بهذه الأصوات ذكراً طيباً .

فابتسم إبرهيم مغتبطاً وشرع يغنى هذه الأدوار . حتى انتهى منها ، فقال الأسود :

ــ بحياتك عندى يا سيدى إلا غنيت شيئاً من شعر مجنون ليلى .

فسكت إبرهيم برهة ثم بدا عليه الشجو والأسى فأنشد :

جرى السيل فاستبكانى السيل إذ جرى
وفاضت له من مقلتى غروب
وما ذاك إلا حين أيقنت أنه
يكون بواد أنت منه قريب
يكون أجاجاً دونكم فإذا انتهى
إليكم تلقى طيبكم فيطيب
فيا سكنى أكناف نخلة كلكم
إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

أظل غريبَ الدار فى أرض عامر
إلى كل مهجور هنـــاك غريب
ولا خير فى الدنيا إذا أنت لم تزر
حبيباً ولم يطرق إليك حبيب

ومكث مع صاحبه فى شرب وغناء إلى ساعة متأخرة من الليل ثم أراد أن يخرج من عنده ، وكان يحمل معه « خريطة » فيها دنانير ، فقال للأسود : « خذها فاصرفها فى بعض شأنك . ولك عندنا مزيد إن شاء الله » .

فقال الأسود :

ــ ما أعجب هذا . . . والله يا سيدى لقد هممت أن أعرض عليك جملة ما عندى من مال ، وأسألك أن تقبلها تفضلا منك وكرماً ، ثم أجللتك عن ذلك . . . !

فخجل إبرهيم وقال :

ــ قتلتنى والله كرماً وأدباً ومروءة .

وخرج من عنده مودعاً وهو يتمنى له أحسن ما يتمنى من أمن وسلام .

* * *

وكان إبرهيم يتنكر بألوان شتى من التنكر حتى لا يعرفه عيون المأمون المنبثون فى كل سبيل ، فما كاد يبرح دار الأسود

حتى اشتبه فيه جندى من الشرطة ، فسار وراءه وشعر إبرهيم بهذا الجندى ، فسار حتى دخل الدار التى يختبىء بها فدخلها ، وأغلق بابها ، وكانت لرجل نبطى من أنباط المدائن كان يعرفه إبرهيم منذ عهد الرشيد ، فلما لجأ إليه وسعه بمروءته وأخفى أمره عن الناس .

وقف الجندى يرقب الدار ورأى إبرهيم أن الرجل يريد أن يوقع به ، ويدل عليه حيث يقيم ، فانتظر حتى انشق النهار فأراد أن يفر من الدار ، ولكنه وجد الجندى ما يزال يرقبه ويتربص له ، ويفحص كل من خرج منها فتزيا بزى النساء وخرج مع امرأتين من دار النبطى .

سار إبرهيم بهذا الزى وسط هاتين المرأتين ، فرآهن الجندى فسار وراءهن حتى بعدن عن الدار ثم تقدم منهن ، وقال :

— من أنتن ومن أين جئتن ، وإلى أين تذهبن ؟

فتكلمت إحدى المرأتين بكلام تعللت فيه بعلات ، ثم تكلمت الأخرى بكلام مثله ، ثم سأل الجندى إبرهيم فبدا من صوته أنه صوت رجل ، فسأله الجندى واشتد فى سؤاله ، فأخرج إبرهيم خاتماً ثميناً ، وأعطاه إياه . فزادت ريبة الجندى وقال :

— هذا خاتم رجل له شأن . . !

فأخذه وأمر الثلاث أن يسرن معه إلى رئيس العسكر . فلما

وصلن أمر كلا منهن بالسفور فسفرت المرأتان وأبى إبرهيم أن يسفر عن وجهه فجذب حجابه رئيس العسكر فبدت لحيته ، وعرف أنه « إبرهيم بن المهدى » !

فقبض عليه وقيده بالأغلال وبعث إلى دينار بن عبدالله يخبره ذلك !

* * *

أقبل دينار — فى غبطة — مسرعاً ، فوجد إبرهيم مقبوضاً عليه مقيداً بالأغلال ، فساقه إلى ديوان المأمون ودخل مستأذناً فأذن له ، فركع وحيا أمير المؤمنين ، ثم قال :

— بشراك أمير المؤمنين فقد قبضنا على « ابن شكلة » إبرهيم ابن المهدى

المأمون :

— حسناً . . . أين هو ؟

دينار :

— هو مقيد ببابك يا أمير المؤمنين .

المأمون :

— حمداً لله الذى أظفرنى به . . . أدخله يا دينار .

فخرج دينار ليحضره ، فقال المعتصم :

— أرى يا أمير المؤمنين أن يقتل جزاء خروجه عليك وعصيانه أمرك .

وقال العباس :

— نعم يا أمير المؤمنين « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » وقد خرج إبرهيم على الله ورسوله بالخروج عليك .

وهنا جاء دينار بإبرهيم بن المهدى يحجل فى قيوده وحوله الجنود شاهرين السيوف ، فلما رآه المأمون قال له :

— هيه يا إبرهيم . . . هيه يا إبرهيم . . . !

فقال إبرهيم :

— السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

المأمون :

— لا سلم الله عليك يا هذا . . .

إبرهيم :

— حفظك الله يا أمير المؤمنين ورعاك برعايته وكلأك بعنايته .

المأمون :

— لا حفظك الله يا إبرهيم ولا رعاك ولا كلأك ولا أنزلك

منزلا حسناً . . . لقد والله وقعت وأوقعك شر عملك ، وسوء تدبيرك .

إبرهيم :

— يا أمير المؤمنين أنشدك الله فإن لى أطفالا صغاراً ، وفراخاً ضعافاً . . . وأنا أولى عندك بالرحمة . . . !

المأمون :

— لا رحمك الله يا إبرهيم ، تذهب بين الناس فتعصى أمرى وتخرج على طاعتى ، وتثيرها فتنة عمياء ، وحرباً شعواء ، وتزعم أنك أحق بالخلافة من ولد الرشيد . . والله لأكاد أهم بقتلك . . !

إبرهيم :

— يا أمير المؤمنين قد أصبحت ولى ثأرى ، والقدرة تذهب الحفيظة . ومن مد له الغرور فى الأمل لم يأمن عادية الدهر ، وقد جعلك الله فوق كل ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فان تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك .

المأمون :

— هيهات يا إبرهيم . هذا كلام سبقك به فحل بنى العاص ابن أمية وقارحهم « سعيد بن العاص » وهو يخاطب معاوية فى العفو عنه . . . !

إبرهيم :

— مه يا بن أخى ، وأنت أيضاً إن عفوت فقد سبقك فحل بنى حرب ، وقارحهم إلى العفو « معاوية بن أبى سفيان » فلا تكن حالى عندك فى ذلك أبعد من حال سعيد عند معاوية . فإنك أشرف منه . وأنا أشرف من سعيد وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية وإن أعظم الهجنة[1] أن تسبق « أمية » هاشما[2] إلى مكرمة . . . !

المأمون :

— صدقت ياعم . . . ولكن المعتصم ، والعباس أشارا علىّ بقتلك . . . ،

إبرهيم :

— أما حقيقة الرأى فى السياسة وتدبير الملك فقد أشارا به عليك يا أمير المؤمنين ، وما غشاك إذ كان ما كان منى . ولكن الله عودك العفو ، وجنبك وضيع الانتقام .

المأمون :

— نعم وعفوت عنك ، ولكنك تذهب فى ذمة وزيرى أحمد ابن أبى خالد الأحول . . .

وأمر بفك أغلاله ونادى المأمون أحمد ، فقال له :

— خذه يا أحمد عندك ، فهو صديقك . . . وأنت أولى به .

(١) الهجنة : العيب (٢) يعنى بنى أمية وبنى هاشم

قال أحمد :

ــ وما تغنى صداقتى عنه ، وأمير المؤمنين ساخط عليه وإن كنت لا أمتنع من قول الحق فيه .

فقال إبرهيم :

ــ يا أمير المومنين إن قتلتنى فقد قتلت الملوك قبلك أقل جرماً منى وإن عفوت عنى عفوت عمن لم يعف ملك قبلك عن مثله .

وفسكت المأمون ثم تمثل :

فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمى

قومى همو قتلوا أميم أخى فإذا رميت أصابنى سهمى

خذه يا أحمد عندك مكرماً . وقد عفوت عنه إلا أن يحدث حدثاً فراقبه وامنعه أن يأتى شرا .

بشرى

خرج إبرهيم بن المهدى مع أحمد بن أبى خالد . وبعد هنيهة دخل « فتح » حاجب المأمون يخبره أن رسولا من مصر يدعى « سالم بن بلمه » أرسله القائد عبدالله[1] بن طاهر يحمل بشرى

(١) هو ابن طاهر بن الحسين قائد المأمون الأكبر الذى هزم الأمين وخلعه . وكان عبد الله أديباً فصيحاً كريماً

دخوله مصر ، واستيلائه عليها .

فأذن له المأمون ، فدخل فحيا الخليفة ، فقال له :

ـــ كيف حال ابن طاهر يا سالم ؟

ـــ حال طيبة كما يحب أمير المؤمنين ويرضى ، فقد دخل مصر واستولى عليها .

ـــ وهل قبض على واليها عبدالله بن الحكم .

ـــ نعم يا مولاى ، وكان ابن طاهر قد حمل عليه حملة قاضية ، فتفرقت جنوده ، ووهنته جهوده ، وتشتت شمله ، فلجأ إلى الفسطاط فأغلق بابها عليه ، وعلى من بقى من رجاله ، فحاصره قائدك عبدالله أياماً فبعث إليه ابن الحكم بهدية !

فاحمر وجه المأمون وحملق فى وجه سالم وقال فى غير تريث :

ـــ وهل قبل الهدية ؟ ؟

ـــ حاش لعبدالله يا أمير المؤمنين وهو وليك وقائدك، فقد جاءه رسول ابن الحكم بألف وصيف وألف وصيفة ، ومع كل منهم ألف دينار فأرسل إليه ابن طاهر يقول :

ـــ لو كنت قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلا « بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها . ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ». فلما بلغ ذلك ابن الحكم بعث يطلب الأمان فأعطاه إياه ، وخرج مستسلماً . . . !

المأمون وقد التفت إلى وزرائه :

ـــ لله ابن طاهر ولياً مخلصاً ، وقائداً مظفراً ، وأخاً وفياً ، والله لو كان مكانه عيسى(١) بن أبي خالد ـــ قاتله الله ـــ لنقض عهدى كما فعل بى عند إبرهيم بن المهدى فقد ذهب بخراجى وفيئى ، وزينت له الدنيا ، فأجلس إبرهيم خليفة ، وحارب دونه ، ودعاه مع الداعين « إبرهيم المبارك ، وأمير المؤمنين . ! »

ثم أعطى الرسول كتاباً يهنىء فيه عبدالله بهذا الفتح ويوليه مصر والشام والجزيرة . وكتب له فى أسفله :

أخى أنت ومولاى ومن أشكر نعماه
فما أحببت من شىء فإنى الدهر أهواه
وما تكره من شىء فإنى لست أرضاه،
لك الله على ذاك لك الله لك الله

وكان صالح بن الرشيد جالساً فقال :

ـــ لقد والله صح رأيك فى عبدالله . وفى وفائه لك وإخلاصه لأمرك ، فقد ذهب إليه رجل يدعو بالخلافة للقاسم(٢) بن إبرهيم ابن طباطبا العلوى ، ويذكر مناقبه وعلمه ، فقال له عبدالله :

ـــ أتنصفنى أيها الرجل ؟

(١) هو الذى ناصر إبرهيم بن المهدى على المأمون وقد مر ذكره .
(٢) من ولد على بن أبى طالب

قال :

— نعم . . . !

فقال :

— هل يجب شكر الله على العباد ؟

قال :

— نعم . . . !

فقال :

— فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة والتفضل ؟

قال :

— نعم . . !

فقال :

— فتجيء إلى وأنا فى هذه الحالة التى ترى .. لى خاتم فى المشرق جائز ، وفى المغرب كذلك ، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول . ثم ما التفت يمينى وشمالى وورائى وقدامى إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها على ، ومنة ختم بها رقبتى ، ويداً لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرماً ، فتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان . وتقول اغدر بمن كان أولا لهذا وآخراً واسع فى إزالة خيط عنقه وسفك دمه . . . ! تراك لو دعوتنى إلى الجنة

عياناً من حيث أعلم أكان الله يحب أن أغدر به وأكفر احسانه ومنته وأنكث بيعته ؟ !

فسكت الرجل يا أمير المؤمنين ، فقال له عبدالله :

ـ أما أنه قد بلغني شأنك وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك فارحل عن هذا البلد ، فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك ، وما آمن من ذلك عليك، كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك!

فقال المأمون :

ـ يا صالح . . ذلك غرس يدى . وإلف أدبي ، وترب نفسى . وما أشك يوماً فيما عهدته فيه من حب وولاء .

الفصل السادس

مصير الفنان

أعد أحمد بن أبى خالد الأحول داراً أنيقة لإبرهيم بن المهدى ليقيم فيها كما أمر المأمون، وليكون فى رعايته وتحت رقابته . فأقام بها موفور الراحة والتكريم، وأقامت معه جواريه: شارية ، وريق ، ومكنونة ، وخالدة ، وصدوف ، ومعمعة ، وبعض غلمانه . وكان يزوره ابناه هبةالله وبقيةالله وبعض أصدقائه ويقضى وقته فى الأدب والغناء ثم فى التفكير فى مصيره بعد أن قضى عليه المأمون ، وأودعه عند أحمد بن أبى خالد كالمسجون وإن كانت له الحرية فى الخروج إلى فناء الدار وحديقتها والاجتماع بالناس .

وقد كان يرهقه هذا التفكير وكان الخوف من المأمون يقلقه ويتشاءم من نفسه ، ويرى أن اسم « ابراهيم » مشؤوم ، فما سمى به أحد إلا ناله من الشؤم نصيب ، فإبرهيم الخليل لقى من نمروز ما لقى وطرح فى النار ، وابرهيم بن محمد (ص) مات طفلا صغيراً ولم يعمر ، وإبرهيم الإمام قتله

مروان بن محمد خنقاً فى سجن حرّان ، وابرهيم بن الوليد خلع ، وابرهيم بن عبدالله بن الحسين العلوى قتله المنصور وعمه إبرهيم بن الحسين سقط عليه السجن فمات . ثم هو قد خلع من الخلافة وفشل فى ثورته وهزم أمام المأمون ، وقبض عليه وقيد بالأغلال واعتقل .. فأى مصير مشؤوم ينتظره إلا أن يكون الموت مهما تعلل بالآمال .

وجلس يائساً مبتئساً ، ثم دخلت عليه جاريته خالدة فرأته واجماً حزيناً ، فسألته عما به فلم يجبها فخرجت مشفقة عليه فناداها أن تأتى له بالعود . فذهبت وعادت تحمله فأخذه الشجو وجعل يغنّى :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى
هوى الدهر بى عنها وولى بها عنى
فإن أبك نفسى أبك نفساً نفيسة
وإن أحتسبها احتسبها على ضنّ
وأفلتنى « عيسى » (١) وكانت خديعة
حللت بها ماكى وفلت بها سنى

وزاره أحمد بن يوسف أحد كتاب المأمون وصديق إبرهيم وكان أديباً راوية محدثاً ، فجعل إبرهيم يحدثه ومن حضر عنده

---

(١) عيسى بن أبي خالد خانه كما خان المأمون من قبل .

حديثاً من الشعر والغناء ، ويروى لهم طرائف بعضها يضحك وبعضها يعظ وأحمد بن يوسف ساكت حتى طال المجلس فقال أحد الحاضرين لابن يوسف :

— مالك لا تنبح يا كلب الروم . قد كنت نباحاً فما لك اليوم .

فتبسم إبرهيم بن المهدى وقال :

— لو كنت رأيتنى أنا فى حضرة جعفر بن يحيى البرمكى لرحمتنى كما رحمت أحمد منى . . !

* * *

وبينما هم كذلك إذا بمخارق المغنى يدخل وهو يترنم فدعاه إبرهيم للغناء ، فأبى وأبى الحاضرون إلا أن يسمعوا أمير الغناء إبرهيم فنادى جاريته فأحضرت آلات الموسيقى وجلس إبرهيم وحوله بعض جواريه يغنى فى قول أبى العتاهية :

قال لى أحمد ولم يدر ما بى   أتحب الغداة عتبة حقاً
فتنفست ثم قلت نعم حبٌّ   جرى فى العروق عرقاً فعرقاً

فطرب الحاضرون حتى خيل لهم أن الدار تهتز طرباً ، وأن الإيوان يسير بهم سيراً ، فلما فرغ تقدم منه مخارق وقبل يده وقال :

— جعلنى الله فداءك يا سيدى . . هذا هو الغناء . . فأين أنا منك ؟ !

فقال إبرهيم :

ــ لولا أنى أرفع نفسى عن هذه الصناعة لأظهرت فيها ما يعلم الناس معه إنهم لم يروا مثلى . .

ونهض القوم ، وانفض المجلس ، ودخل إبرهيم إلى مخدعه . . وكان أحمد بن أبى خالد قد وكل به كبرى جواريه لتوفيه حقه فى الخدمة والإعظام وكانت تدعى « ميمونة » وهى من خيرة الجوارى الحسان فأقبلت تسأله فى رشاقة ولطف هل من حاجة لسيدها ، كما تفعل كل يوم ، فقد عنيت بخدمته وراحته واطمئنانه حتى جل مقدارها عنده وأحبها . فقال لها :

ــ نعم لى حاجة أيها المليحة الحسناء .

قالت فى استحياء :

ــ وما هى يا سيدى ؟

قال :

ــ أن تناولينى هذه الكأس .

فذهبت فى رفق وتقدمت تناوله ، وما كادت تقترب منه حتى خطف يدها ، فقبلها . . .

فاحمر وجهها خجلا وتأخرت وقبلت الأرض بين يديه احتراماً ، وخرجت مسرعة ، فقال إبرهيم .

يا غزالا لى إليه شافع من مقلتيه

والذى أجللت خديه فقبلت يديـــه
بأبى وجهك ما أكثر حسادى عليــه
وأنا ضيف وجــزاء الضيف إحسان إليــه

وجعل يترنم بهذه الأبيات .. !

* * *

مكث « إبرهيم » مدة فى دار أحمد بن أبى خالد يقضى وقته على هذه الحال ، وكان المأمون يسأل أحمد عنه ويتتبع أنباءه ، ويبعث إليه من يحادثه ، ويناظره حتى يقف على أغراضه وسريرة نفسه .

وذات ليلة خرج المأمون ومعه اسحاق الموصلى ، فمر بالدار التى يقيم فيها فسمعا فيها غناء ، فوقفا تحت جناحها فإذا إبرهيم يغنى فى حنان وشجن :

يا مشرع الماء قد شدت موارده
أما أليك سبيـــل غير مسدود
لحائم حـــام حتى لا حياة به
مشرد عن طريق الماء مطرود

فقال المأمون لإسحاق :

— إن صوت إبرهيم ليهزنى ويطربنى ، وما أريد أن يحبس عنى .

قال اسحاق :

— يا أمير المؤمنين إن إبرهيم يتمثل بما لم يقله ، ويغنى ما ليس له .

المأمون :

— ولمن هذا القول ؟ . . .

اسحاق :

— لعبدك اسحاق يا مولاى . . .

المأمون :

— أحسنت القول وأحسن هو الغناء . . والله يا اسحاق إنه لأعذب منك صوتاً ، وأجمل منك صنعة

اسحاق « فى غيظ يخفيه » :

— صدق أمير المؤمنين ، وان إبرهيم لأحسن الأنس والجن والطير صوتاً . . وحسبه هذا . . !

وعاد المأمون إلى قصر الخلد ، حتى إذا انبلج الصبح وارتفع النهار وجلس فى ديوانه ، أقبل رسول من إبرهيم إلى المأمون يحمل قصيدة من نظمه يستعطف فيها المأمون فلما قرأها ، قال :

— إن من الكلام ما يفوق الدرر ويغلب السحر ، وان كلام عمى منه . . اطلقوا عمى وردوا إليه ماله وأتونى به مكرماً . . .

فذهب أحمد بن أبى خالد غير متريث إلى إبرهيم وجاءه

بالبشرى وطلب إليه أن يسير معه إلى المأمون فنهض ولبس وتطيب ، ودخل عليه فسلم وقبل البساط فأجابه المأمون جواباً حسناً وقال :

— يا عم صر إلى المنادمة وارجع إلى الأنس ، فلن ترى مني أبداً إلا ما تحب .

فقال إبرهيم :

رددت مالى ولم تمنن علىَّ به
وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
تعفو بعـــدل وتسطو ان سطوت به
فلا عدمناك من عاف ومنتقم
فبؤت منك ، وقد كافأتها بيـــد
هى الحياتان من موت ومن عدم

قال المأمون :

— اجلس يا عم آمناً مطمئناً فلن ترى منى ما تكره إلا أن تحدث حدثاً أو تتغير عن طاعة ، وأرجو أن لا يكون ذلك منك إن شاء الله .

* * *

عاد إبرهيم إلى حريته الأولى ، وعاد إلى حياته الفنية إلى حياة الأنس والطرب ، وقربه المأمون ووثق به ودخل على المأمون ذات

يوم مبتذلا فى ثياب المغنين وزيهم فلما رآه المأمون ضحك وقال :
ــ نزع عمى ثياب الكبر عن منكبيه . . !
وكان مخارق المغنى حاضراً المجلس فأذن له المأمون أن يغنى بحضرة إبرهيم فغنى أحد الأدوار فقال إبرهيم :
ــ أسأت وأخطأت يا مخارق .
قال المأمون :
ــ يا عم إن كان أساء وأخطأ ، فأحسن أنت .
فقام إبرهيم وجلس للغناء ، وغنى الدور حتى فرغ منه فقال المأمون :
ــ أحسنت والله يا عم . . .
فقال إبرهيم لمخارق :
ــ أعده الآن يا مخارق .
فأعاده فأحسن ، فقال إبرهيم :
ــ يا أمير المؤمنين كم بين الصوت الآن وبينه فى أول الأمر .
قال المأمون :
ــ ما أبعد ما بينهما . . !
فالتفت إبرهيم إلى مخارق وقال :
ــ إنما مثلك يا مخارق مثل الثوب الوشى الفاخر إذا تغافل عنه أهله سقط عليه الغبار فحال لونه فإذا نفض عاد إلى جوهره .

فابتسم المأمون وقال لإبرهيم :

— حدثنى يا عم . . .

قال إبرهيم :

— يا أمير المؤمنين لقد رأيت فى منامى بالأمس رؤيا عجباً .

فقال المأمون :

— وما هى ؟ ! . . .

قال :

— رأيت على بن أبى طالب فى النوم فمشينا حتى جئنا قنطرة ، فذهب يتقدمنى ، فأمسكت به ، وقلت له « إنما أنت رجل تدعى هذا الحق با مرأة ، ونحن أحق به منك »

فما رأيت له فى الجواب بلاغة كما يوصف عنه .

فقال المأمون :

— وأى شىء قال لك ؟

قال :

— ما زادنى يا أمير المؤمنين على أن قال « سلاما سلاماً » !

فضحك المأمون وقال :

— قد والله أجابك أبلغ جواب !

فقال إبرهيم :

— وكيف ذلك ؟ !

قال المأمون :

ــ عرفك أنك جاهل لا يجاوب مثلك . فقد قال الله عز وجل « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .. فخجل إبرهيم وسكت . . . وكذلك لم يفقد المأمون ميله للعلويين ورأيه فيهم على الرغم مما وقع من أحداث كادت تذهب بملكه ، وعلى الرغم مما شرعه من تدبير وسياسة جديدة منذ بارح « مرو » ووصل إلى بغداد ، فقد كانت سياسة أراد بها أن يرضى العرب ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تغضب الفرس .. وكان الفرس يعرفون ميله للشيعة العلوية وإن كان قد قتل عميدهم الفضل بن سهل ، فقد رفع أخاه الحسن بن سهل وأكرمه وخطب ابنته « بوران » فأعلى نسبه وشرفه ، وضاعف له من التكريم والتمجيد بين الناس وهو تكريم للفرس بين العرب .

الفصل السابع

العرس

مضت على خطبة المأمون لبوران خديجة بنت الحسن بن سهل سبع سنوات .. وكانت سنة ٢١٠ هـ فبلغت الثامنة عشرة من عمرها ، واكتملت أنوثتها ، وتجلت غضارتها تجلى الأزهار فى نضارتها ، وتهادت فى موكب من الفتنة والشباب ، واختالت بها أيامه الساحرة ، وأعراسه الراقصة الباهرة .

وكان الحسن بن سهل قد بلغ عند المأمون من المكانة والكرامة وعلو الشأن وسعة الجاه ما لم يبلغه أحد من وزرائه وخاصة رجاله وذوى سلطانه .

وكان الحسن بن الضحاك الشاعر ما زال منبوذاً من المأمون طريداً من مجالسه ، فلما رأى الدنيا تقبل ضاحكة على الحسن ابن سهل جعل يتزلف إليه ، فيزجى إليه المديح بعد المديح فى القصيد تلو القصيد ويقول له فيما يقول :

أرى الآمال غير معرجات   على أحد سوى الحسن بن سهل
يبارى يومه غـــده سماحاً   كلا اليومين بان بكل فضل

أرى حسناً تقدم مستبداً ببعد من رياسته وقبل
سليل مزارب برعوا حلوماً وراح صغيرهم بسداد كهل
ليهنك أن ما أرجأت رشد وما أمضيت من قول وفعل

فقربه الحسن ودعاه ووصله ووعده بإصلاح ما بينه وبين المأمون . وصار ابن الضحاك أنيس مجالسه وأخا أدبه وفراغه ولذائذه .

وجالسه الحسن يوماً فقال له :

— يا حسين ماذا عنيت بقولك :

يا خلى الذرع[1] من شجنى إنمـــا أشكو لترحمنى

فقال ابن الضحاك قد بينته فقلت :

منعك الميسور يؤنسنى وقليل اليأس يقتلنى

فقال الحسن :

— إنك لتضيع بالخلاعة ما أعطيته من البراعة . . !

فسكت ابن الضحاك ولم يتكلم قال الحسن :

— مالك يا حسين ؟

ابن الضحاك :

لا شيء يا سيدى وإنما أفكر فى براعة أضاعتها الخلاعة رحمها الله .

(١) يقال خلي الذرع وخالى الذرع أى قلبه خال من الهجوم

فضحك الحسن وكان اليوم من أيام الخريف وقد أقبل وسمى من المطر ، فرش رشا خفيفاً ، وكان الحسن متفائلا فجلس فى إيوان قصره ، وحوله الوصيفات يقمن على خدمته ووقف وراءه غلام حسن نضير فنظر ابن الضحاك إلى ذلك وأنشأ يقول :

ألست ترى ديمــة تهطل وهــذا صباحك مستقبل

فقال الحسن بن سهل :

— بلى . . .

قال ابن الضحاك :

وتلك المدام وقــد شاقنا بطلعــته الشادن الأكحل

فقال الحسن :

— صدقت . . !

ابن الضحاك :

وقد أشكل العيش فى يومنا فيا حبذا عيشنا المشكل

فقال الحسن : « العيش مشكل » . فما ترى ؟ « قال ابن الضحاك :

— مبادرة القصف ، وتقريب الإلف .

قال الحسن :

— على أن تقيم معنا وتبيت عندنا . . !

فقال ابن الضحاك :

لك الوفاء ، وعليك مثله من الشرط . . .

قال :

ــ ما هو ؟

فقال ابن الضحاك :

ــ أن يسقيني هذا الغلام الواقف على رأسك .

فضحك الحسن وقال :

ــ ذلك لك .

ودعا بالطعام فأكلا وبالشراب فشربا أقداحاً . فلما ثمل ابن الضحاك قال :

وا بأبي أبيض في صفرة كأنه تبر من الفضة
صفاته فاتنه كلها فبعضه يذكرني بعضه
يا ليته زودني قبـــلة أولا ، فمن وجنته عضه

فقال الحسن :

ــ قد عمل فيك النبيذ يا ابن الضحاك !

ابن الضحاك :

ــ لا وحياتك . . .

الحسن :

ــ هذا شر من ذلك . . . قد وهبت لك الغلام خذه لا بارك الله لك فيه .

وأقام الحسين بن الضحاك على ولائه للحسن بن سهل وقد حاول أن يصلح أمره عند المأمون ، فلم يستطع لسوء رأيه فيه وانصراف هواه عنه . . .

* * *

وكان المأمون قد أقام الحسن على مدينة « فم الصلح [1]» وما يليها من فارس الأهواز . فلما أراد البناء ببوران سنة ٢١٠ ﻫ بارح بغداد إلى هذه المدينة

وكان العباس بن المأمون قد تقدم أباه ، فوصل ظهراً بزكبه إلى « فم الصلح » فتلقاه الحسن خارج عسكره فى موضع على شاطىء دجلة قد بنى فيه جوسقا . فلما رآه العباس ثنى رجله لينزل ، فحلف الحسن ألا يفعل وقال :

— بحق أمير المؤمنين لا تنزل . . .

واعتنقه وهو راكب وأنزله وجلس فى الجوسق ساعة هو ومن معه ، وقدم له غلمان الحسن شراب الفاكهة ثم قدم له الحسن بن سهل دابته فركبها وركب خلفه حتى وصل الركب إلى القصر .

وفى وقت الغروب خرج الحسن وحوله حاشيته وفرسانه وجنوده ليستقبلوا أمير المؤمنين ، وكان قد خرج من بغداد

(١) فم الصلح على نهر دجلة بالقرب من واسط

فى موكب فخم تتقدمه الطبول والموسيقى وحوله الفرسان بسيوفهم المشروعة وملابسهم الحريرية المزركشة وخيلهم المحلى بالديباج ، وأعلامهم العباسية السوداء الموشاة وخلفه الجنود يحملون الحراب وقد اصطحب معه أخاه أبو إسحاق المعتصم ، وعمه إبرهيم بن المهدى وأم جعفر زبيدة زوجة الرشيد وعمته عليه بنت المهدى ، وأخته حمدونه بنت الرشيد وطائفة من الأميرات والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة . وكان الحسن قد أقام مضارب فاخرة خارج العسكر بها أنوار تتلألأ ، وزينات باهرة ووصل الموكب فركع الحسن بن سهل ورجاله بين يدى الخليفة ثم تقدموا فحملوه إلى أن أجلسوه فى الجوسق وتوافد كبراء المدينة وأعيانها يحيون أمير المؤمنين ويؤكدون له الطاعة والولاء .

ثم سار الموكب إلى قصر فخم من قصور الحسن أعده لضيافة المأمون فنزله، فرأى فيه ما شاء الله أن يرى من الأثاث والرياش والمتاع مما لا يباريه فى فخامته وأبهته ما كان فى إيوان كسرى أنو شروان من عظمة وجمال ، وألوان من زخارف النبات والحيوان .

* * *

وقد حوى القصر مئات من الوجوه الحسان ، والحور والولدان

وجلست إحداهن وتدعى « جنان » مع زميلات لها فى إحدى المقصورات وقد تحجبن عن الأنظار ، فقالت :

ــ طوبى لبوران هذا الحظ الميمون ما أسعدها تتزوج أمير المؤمنين المأمون !

فقالت الثانية وتدعى « جوهرة » :

ــ وهل لسيدتى بوران كفء غير أمير المؤمنين يا جنان فهى أجمل فتيات خراسان .

ليس فيهــا ما يقال له   كملت لو أن ذا كملا
كل جزء من ملاحتهــا   كائن من حسنها مثلا

قالت الثالثة وتدعى « خلوب » :

ــ أصبت يا جوهرة ، فالجمال يسبى القلوب .

فقالت الرابعة وهى « خالصة » :

ــ وهل فى ذلك شك يا خلوب .

جنان :

ــ على رسلك يا خالصة إن بوران جميلة ولكنها ناقصة . فهى غادة من غادات الأعاجم . وليست من كرائم بنى هاشم

جوهرة :

ــ وهل يعيبها ذلك يا جنان .. إن لم تكن لهاشم فهى لكسرى أنو شروان .

جنان :

— ما أجهلك يا جوهرة . إن فى الجوارى غفلة مستنكرة فوالله ما هذا الزواج إلا أمراً مدبراً وثمناً مقدراً .

جوهرة :

— كفى كفى . . . لماذا يا ترى ؟

جنان :

— لرأس الفضل بن سهل .

خالصة :

— صه . . صه . . إن غلمان أمير المؤمنين عن كثب . !

* * *

وهنا مر إبرهيم بن المهدى ، وكان وافداً لمقابلة أمير المؤمنين فى القصر استجابة لدعوته فأجفلت الجوارى وهن يظننه أمير المؤمنين فلمحته جنان وعرفته ، فعادت ونادت زميلاتها ، فأقبلن عليه وهن يقلن :

— حياك الله يا أبا إسحاق . . ماذا أتى بك إلينا كأننا على ميعاد . . !

فقال إبرهيم :

— حيا كن الله وبيا كن أيتها الجوارى الحسان .. ماذاتفعلن؟ وأخذ يداعبهن ، وأخذن يداعبنه . فقال لجنان :

— كأنى بأبى نواس يقول فيك ما قاله يوم كنت جارية لآل الثقفى ورآك فى عرس فقال :

شهدت جلوة العروس جنان فاستمالت بحسنها النظارة
حسبوها العروس حين رأوها ما دهانا بها سواك عمارة(١)

فقالت جنان :

— رحم الله أبا نواس كان لى محباً وكنت عليه قاسية لقد بعث إلى رسوله فقلت له « لا برح الهجران ربعك ولا بلغت أملك ممن أحببت . . » !

فضحك إبرهيم وقال :

— ولقد استجاب الله دعاءك . . . !

ثم التفت إلى خالصة ، وكان معها ثلاث نرجسات قد زينت بها صدرها فداعبها بيده ، وقال :

ثلاث عيونٍ من النرجس على قائم أخضر أملس
تذكرنى طيب ريا الحبيب فتمنعنى لذة المجلس

وضحك إبرهيم وتضاحك الجوارى . ثم بارحهن إلى داخل القصر ، وبقين فى مكانهن صامتات فقالت جوهرة :

— ما أجمل إبرهيم له عينان خلابتان وقامة كغصن البان ما أحلاه يا جنان .

---

(١) عماره هى زوجة عبد الرحمن الثقفى ومو لاتها

جنان :

— أسكتي يا ألعبان يا صنيعة الشيطان .

وبينما هن كذلك إذ سمعن أصوات الغلمان يقولون :

— أمير المؤمنين المأمون . . .

وكان المأمون يمر بالقصر ، فأجفلن ، ودخلن إلى الغرف مسرعات !

الزفاف

وكانت ليلة الزفاف ليلة عامرة باهرة « كأن كل سرور حاضر فيها » .. فازدانت مدينة فم الصلح زينة لم تر الدنيا مثلها ، وزهت قصور الحسن بن سهل بأنواع المسرات والزخارف والأنوار . وقام على خدمة هذا العرس ثلاثة آلاف وستمائة خادم وملاح . وبدا القصر الذى نزله المأمون فى لألائه وبهائه ، كأنه الثريا فى سمائها ، والنجوم نزلت من عليائها ، وقد فرشت بالبسط الموشاة بالذهب والجواهر النفيسة . وأضيئت فى جوانب الدار شموع من العنبر والند والمسك المعجون ، ووضعت فى قاعة الزفاف شمعة من العنبر وزنها ٢٨٠ مثقالا أى « اثنتان وأربعون أقة » .

وفرشت هذه القاعة ببساط ذهبى بديع ونثرت عليه الدرر ، ودخل المأمون مع عروسه ، وحولها بنو هاشم وبنو الحسن بن

سهل والأعيان والقواد وكرائم الفتيات والنساء . ولما رأى المأمون ، هذا البساط وما عليه من درر منثورة قال :

ــ رحم الله أبا نواس كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها
حصباء در على أرض من الذهب

وقد نثر الحسن بن سهل فى ذلك العرس من الأموال ما لم ينثره ملك فى جاهلية ولا إسلام كما نثر على الحاضرات والحاضرين بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات جياد وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت فى يد أحدهم فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر حظه ، فيمضى إلى الوكيل الذى نصب لذلك فيقول له : « ضيعة يقال لها كذا » أو « جارية يقال لها فلانة » أو « جواد يقال له كذا » ثم نثر على سائر طبقات الناس آلاف الدراهم والدنانير ونوافج المسك ، وبيض العنبر ــ عدا ما أنفقه المأمون على القواد والأجناد ، وسائر أهل المدينة ، وقد بلغت نفقات هذا العرس خمسة ملايين درهم (أى نحو مائة ألف جنيه مصرى) .

* * *

وجلس المأمون مع عروسه على عرش منصوب فى صدر القاعة صنع من الأبنوس والديباج والحرير الموشى وحلى بالجواهر

النفيسة ثم أقبل إبرهيم بن المهدى ووراءه عدد من العازفين والعازفات من الغلمان والجوارى الحسان . وجلس على منصة فى وسط القاعة . وأخذ يغنى :

يا خير من ذملت يمانية به بعد الرسول لآيس أو طامع
وأبر من عبدالإله على الهدى نفساً وأحكمه بحق صارع
أحياك من ولاك أطول مدة ورمى عدوك فى الوتين بقاطع
إن الذى قسم الفضائل حازها فى صلب آدم للإمام السابع(١)

فقال المأمون :

ــ أحسنت يا عم ، وأحييت لى طرباً ، وزدتنى هناء بارك الله لك .

ثم وقف الشاعر إبرهيم بن العباس الصولى وهنأ الحسن بن سهل بما حاز من شرف لمصاهرة الخليفة المأمون فقال :

ليهنك أصهار أذلت بعزها
خدوداً وجدعت الأنوف الرواغما
جمعت بهـــا الشملين من آل هاشم
وحزت بها للأكرمـــين المكارما
بنوك غدوا آل النبى ووارثوا الـــ
خلافـــة والحاوون كسرى وهاشما

(١) المأمون هو سابع خليفة من خلفاء بنى العباس .

فقال الحسن :

ــ أحسن الله جزاءك أبا إسحاق ، فما الكثير من فعلنا بجزاء لليسير من حقك . . !

ثم قام محمد بن حازم الباهلى فقال :

بارك الله للحسن ولبوران فى الختن
يا بن هرون قد ظفر ت ولكن ببنت من

فقال المأمون :

ــ والله ما ندرى خيراً أراد أم شراً . . .

ثم قامت الراقصات فرقصن على عزف الموسيقى وهن ينشدن من شعر بشار :

يا ليلتى تزداد بشرا من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت إلـ يك سقتك بالعينين خمرا
وكأن رجــع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانهــا هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت علــ يه ثيابها ذهبا وعطرا

وبعد أن انتهت الراقصات عاد إبرهيم بن المهدى فغنى لمروان بن أبى حفصة هذه الأبيات :

طرقتك زائرة فحى خيالهــا بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

هل تطمسون من السماء نجومهـــا
بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحـــدون مقالة من ربكم
جبريل بلغها النبي فقالهـــا
شهدت من الأنفال آخر آية(١)
بـــتراثهم فأردتم إبطالهـــا

فأجاد إبرهيم الغناء . وكان المأمون يحب إنشادها وغناءها فقال له :

ـ أحسنت يا عم ما لم يحسنه سواك .

وبقى العرس عامراً بألوان الزينة والطرب ولذائذ الحياة التى لم تر الدنيا مثلها ، حتى انتهى ، وترك وراءه ذكراً خالداً لأروع عرس فى هذا العصر الذهبى العجيب !

استمر إبرهيم مخلصاً للخليفة المأمون موالياً له وكان يحبه وينزله عنده منزلا رفيعاً ، وكانت أيام إبرهيم فى ذلك الحين أعراساً للفن والأنس والإبداع .

(١) يريد قوله تعالى « أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وهذه الأبيات من قصيدة لمروان بن أبى حفصة مدح بها الخليفة المهدى، فكان لفرط إعجابه يزحف حين إنشادها من منصته كلما سمع بيتاً حتى صار على البساط وكانت مائة بيت فأجازه المهدى بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف أعطيها شاعر فى أيام بنى العباس وقد لحنها إبرهيم بن المهدى

* * *

ومرض المأمون وتوفى سنة ٢١٨ هـ فحزن عليه إبرهيم حزناً شديداً ، ولم يعمر بعده طويلا إذ مرض بعد سبع سنين من وفاته بمدينة « سر من رأى » فلما تداعت حياته ، وأشرفت على النهاية جعل يتندم ويذكر ما سلف من شرابه ولذاته وغنائه ولهوه ، فقيل له :

— تب يا إبرهيم واحرق دفاتر الغناء . . !

فحرك رأسه وهو على فراشه ، وقال :

— يا مجانين هبوا أنى أحرقت دفاتر الغناء كلها . . ريق إيش أعمل بها . . هل أقتلها ، وهى تحفظ لى كل شىء فى دفاتر الغناء ؟ !

وقد مات[1] إبرهيم ، فحسب الناس أنه لم يمت لمكانته فى نفوسهم ، ولما أحدث فى أذهانهم وآذانهم من ثورة غنائية لاتفنى ولا يمحى صداها حتى كانوا يقولون :

« إن إبرهيم لم يمت . وإنما دعى إلى الجنة لأن بالجنة عرسا . . ! »

لقد بدأ إبرهيم أميراً وفناناً ، وانتهى أميراً وفناناً وكان بين

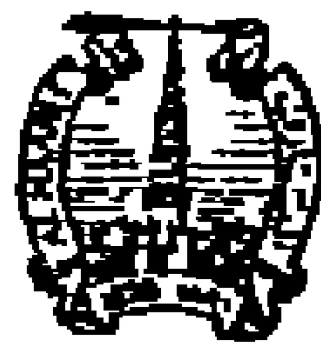
(١) مات ابرهيم بن المهدى سنة ٢٢٤ وقيل سنة ٢٢٥ فى عهد المعتصم وعمره نحو ٦٢ سنة

ذلك فناناً ثائراً ، ومحارباً ثائراً ، ثار على الفن وللفن ، وثار على الخلافة وللخلافة وتزعم ثورة التجديد فى الغناء والموسيقى ، وقاد ثورة العراق على المأمون ، وارتدى بردة الخلافة وتبوأ عرش الملك ، وقدر له أن يجلس فترة من الزمان على أريكة هرون الرشيد . ولكن هذا العرش لم يدم له طويلا ، لأنه عرش صنعته السياسة ، وصنعته الأحداث ، ولعبت به الأهواء .

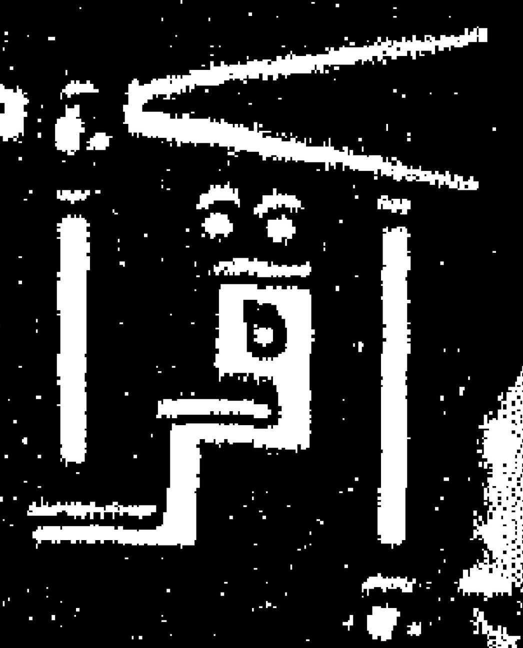
أما عرش الفن ، فهو أقوى مكاناً ، وأرسخ بنياناً ، وأثبت على الأيام أساساً ، تبوأه إبرهيم ، فلم تزعزعه سخائم الخصوم ، ولم يعمل فيه حسد الحاسدين ، بل بقى له وبقى هو سيداً عليه طول الزمان . وكان كما قال يغنى كما يشاء ، ويبدع ما يشاء فاعتزت به دولة الموسيقى والغناء . وخلد ذكره بين الخالدين من أهل الفن والأدب ، واعلام الأنس والطرب . وعاش حياته اميراً فى فنه ، اميراً فى نسبه ، اميراً فى متاعه ، اميراً فى ترفعه وعزة نفسه ، حتى فارق هذه الحياة وأطفأ الموت نوره ، وكأنما أطفأ انوار عرس من الأعراس

قصص من ألف ليلة للأطفال

بقلم الأستاذ كامل كيلانى



دار المعارف بمصر



جمال الدين الأفغاني

عبد القادر المغربي

جمال الدين الأفغاني

عبد القادر المغربي

جمال الدين الأفغاني

ذكريات وأحاديث

الطبعة الثانية

اقرأ ٦٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٦٨ — الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.



جمال الدين الأفغاني

جاء فى كتاب « الإسلام والتجديد فى مصر » لمؤلفه الكاتب الأمريكى المشهور الدكتور تشارلس آدمس فى صفحة ٢٤٠ ما يلى :

« تفيض كتابات الشيخ عبد القادر المغربى بنفحة من »
« الروح النقدية الحرة التى اشتملت عليها كتابات جمال الدين »
« ومحمد عبده وتدل على ما بين تعاليم المغربى وتعاليم مدرسة »
« الشيخ عبده من تشابه . اهـ »

جمال الدين الأفغانى

ولد سنة ١٢٥٤هـ ١٨٣٩م — وكانت وفاته ١٣١٤هـ ١٨٩٧م

١

مهما بحث الباحثون فى تاريخ نهضة الشرق الإسلامى وتشعبت بهم الطرق فى تعيين أسباب يقظته وعوامل نهضته — تجدهم يرجعون فى ذلك أخيراً إلى شخصية فذة فى مواهبها أوحدية فى هممها وعزائمها : هى شخصية جمال الدين الأفغانى . فإذا كان لغيره من رجال الإصلاح الذين عاشوا حوالى زمنه بعض المشاركة فى هذا السعى وفى تلتاة شعور الشرق والشرقيين فإن لجمال الدين وحده موقفاً لم يقفه غيره من أولئك الرجال . موقفاً ملؤه الإقدام والثبات والإلحاح والتجرد واشتداد العارضة فى المعارضة والتنقل من بلد إلى بلد والتعرض لخطر النفى والسجن والقتل أحياناً .

قام فى أواسط القرن الماضى رجال مصلحون من أبناء الشرق الإسلامى متقاربو الزمن حذروا قومهم وأنذروا ملوكهم وأمراءهم بدنو الخطر ، ووجوب التعجل بالإصلاح قبل وقوع الخطر :

مصطفى رشيد باشا ومدحت باشا فى تركيا . وميلكم خان فى إيران . وأحمد خان وأمير على فى الهند . وخير الدين باشا فى تونس . لكن موقف كل واحد من هؤلاء فى التنبيه والإيقاظ والجهر بالإصلاح كان محدوداً بحدود بلاده . وصوته الإصلاحى ما كان يتخطى آذان أهل مملكته . أما جمال الدين فقد كان موقفه محدوداً بحدود العالم الإسلامى وصوته الجهير كان يدوى فى سمع كل من عاش فى زمنه من أهل ملته . فأى قطر من الأقطار الإسلامية عربية كانت أو أعجمية لم يرتفع له فيه صوت ؟ أو لم يكن له فيه مريدون يحملون رسالة شيخهم فى وجوب النهوض ، وتحطيم القيود وإزالة العقبات أمام الناهضين ؟

وصراحته فى دعوته هذه هى التى كانت تحول أحياناً بينه وبين نجاحه فيما كان يسعى إليه .

بل لقائل أن يقول : إن إخفاق جمال الدين فى بعض ما حاوله هو سلم النجاح فى كثير مما حاوله ، ومن يدرى ؟ لعل جمال الدين لو صانع الحكام وسارع فى هواهم ، وأوّل لهم مخازيهم كما كان يفعل غيره من الشيوخ لخفت صوته ، وماتت دعوته . ولما خلفه فيها تلاميذ يصدعون بها ، ويلاقون الألاقىّ فى سبيلها .

* * *

توفى جمال الدين فى الآستانة عام ١٣١٥ هجرية (١٨٩٧م) ونحن اليوم فى سنة ١٣٦٦ ﻫ (١٩٤٨ م) فيكون قد مر على وفاته نصف قرن و نيف .

مرور نصف قرن على وفاته نبه العالم الإسلامى إلى هذا الرجل وفضله على الشرق والشرقيين . فرأوا أن يحتفلوا له ، ويحيوا ذكراه بضرب من الذكريات يكون أشد علاقة بذاته ، واكثر اتصالا بتاريخ حياته :

ذلك أن ينقلوا رفاته من بلاد غربته إلى منبت أسلته . فتألفت فى بغداد لجنة من كبار أدبائها ، وأحرار رجالها، لاستقبال جثمان المصلح العظيم من الآستانة إلى بغداد . ولما وصل إليها الجثمان احتفلت به الحكومة العراقية والشعب العراقى احتفالا عظيما ، وألقيت الخطب والقصائد فى تعديد مناقبه ، والإشادة بذكره ، والتنويه بفضله . ثم نقل الجثمان بطائرة خاصة إلى بلاد الأفغان وذلك فى كانون الأول سنة ١٩٤٤ م

هذا الخبر عن نقل جثمان السيد جمال الدين هاج فى خاطرى ذكرى أستاذى العظيم . ومثل أمام عينى شخصه الكريم ورأيت من وفاء الذمم أن أحتفل بمرور كل هذا الزمن على معرفتى به فوضعت هذا الكتاب فى سيرة حياته واصفاً من خبره وجميل

ذكرياته ، وما شاهدته واطلعت عليه من مختلف شئونه ما أرجو أن تكون فيه متعة للقراء ، وتبرئة لذمتى من قلة الوفاء .

والكلام على جمال الدين وتقصى أخباره له عدة شعب . وسأقتصر فى معظم ما أدونه عنه على ما عرفته من أمره بنفسى ، أو سمعته من الرواة بأذنى . أما التوسع فى نقل عامة أخباره فهذا إنما يكون فى كتاب ضخم لا فى رسالة تؤلف من عبارات معدودة ، وتقرأ فى دقائق محدودة .

٢

أول ما فوجئت باسم جمال الدين كنت تلميذاً فى المدرسة السلطانية التى أمر بإنشائها فى بيروت الوالى حمدى باشا سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) وكان ناظر المدرسة يومئذ الشيخ أحمد عباس الأزهرى المشهور فى بلاد الشام بعلمه وفضله والتهاب وطنيته .

رأيت يوماً الشيخ أحمد بين الطلاب وهم فى ساحة المدرسة يرتعون ويلعبون وحوله طائفة منهم وبيده جريدة يشير بها إليهم . وسمعته يقول لهم — وقد سألوه عنها — إنها (العروة الوثقى) يصدرها السيد جمال الدين الأفغانى ويساعده فى تحريرها صديقى الشيخ محمد عبده المصرى . وأفاض الشيخ أحمد فى وصف (العروة) والغرض من إنشائها ووصف الرجلين وعلو مكانتهما . وبدرت منه التفاتة وإذا تلميذان صغيران يمران أمامه فأشار إلى أحدهما وقال : هذا ابن* الشيخ محمد عبده وأشار إلى الآخر قائلا : وهذا أخوه حمودة .

---

* واسمه (محمد) على اسم والده أو محروس فقد اشتبه ذلك على وقد مات رحمه الله قبل أن يتم العشرين .

وكنت لا آبه بهذين التلميذين ، ولا أرتاح لرؤيتهما ، فصرت من يومئذ أنظر إليهما بإجلال ، وأحب التقرب منهما والحديث إليهما . ورجعت إلى طرابلس الشام من المدرسة السلطانية عام ١٣٠١ هـ حاملا إلى صديقي الشيخ رضا صاحب المنار رحمه الله خبر (العروة الوثقى) ومنشئيها وأخذت أبحث معه عن أعدادها وكانت ثمانية عشر عدداً مبعثرة لدى بعض فضلاء طرابلس الذين كانت تأتيهم عفواً أو بطلب منهم . فجعلت التقطها من عندهم لأنسخها وأعيدها إليهم . وكان شريكي في هذا الحرص الشيخ رشيد وكان هو ينسخ المهم من مقالاتها أما أنا فكنت أنسخها بقلمي من ألفها إلى يائها ثم جمعت كراريسها في مجلد* بلغت صفحاته خمسمائة صفحة مازال عندي إلى اليوم وهذه صورة ما كان مكتوباً على رأس كل عدد منها :

---

* أتمت (العروة) نسخاً وبياضاً سنة ١٣٠٧ هـ وفي سنة ١٣٢٨ هـ طبعت في بيروت على نفقة الشيخ حسين الحبال صاحب جريدة أبابيل.

العروة الوثق

لا انفصام لها

جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس

مدير السياسة

جمال الدين الحسينى الأفغانى

المحرر الأول

الشيخ محمد عبده

ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية

قد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات فى السنة لمن تسمح بها نفسه

من شاء أن يبعث إلينا بتحارير أو رسائل فى أى موضوع كان رغبة نشره فى الجريدة أو التنبيه على أمر مهم فليرسلها إلى إدارة الجريدة بهذا العنوان : 6. Rue Martel à Paris

وهذه صورة ما كتب فى فاتحة العدد الأول :

العدد الأول من

العروة الوثقى

لا انفصام لها

يوم الخميس فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق متعلقاً بأحوال الشرق وعلى

الله المتكل فى نجاح العمل . خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت . بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت . أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر إلخ ...

وهذه الفاتحة هى خلاصة برنامج الغرض الذى أنشئت مجلة (العروة الوثقى) من أجله : تنبيه الضعفاء إلى ما يريده الأقوياء بهم . وشرح الأسباب التى أدت إلى ضعف الضعفاء وقوة الأقوياء . ويريد بالأقوياء سياسى أوربا وزملاءهم سياسى الشرق الذين ساروا على آثارهم وقلدوهم فى استبدادهم بالضعفاء والتفريط في مصالحهم .

فالأفغانى وعبده كانا يريدان أن يكون لهؤلاء الضعفاء وهم المسلمون دول قوية آخذة بأسباب المدنية والعمران الموصلة إلى العزة والاستقلال مع مراعاة تعاليم الإسلام الأساسية .

* * *

هذه الفكرة التى تلقنتها من العروة الوثقى اختمرت فى نفسى واستولى سلطانها على شعورى وحسى . فأعطيت (العروة) كل وقتى دراسة وتفهماً . وكنت أحياناً أعنى بشرح ألفاظها وتعابيرها . مثال ذلك قولى تعليقاً على قول العروة (وبلغ صوت وقوقة القواقد الإنجليز إلى أقاصى المسكونة) : «الوقوقة فى الأصل

أصوات الطير ونباح الكلاب » — وعلى قولها : (لهذا لا تمْكِن إنكلترا بدسائسها فى قطر إلا عند سكون أهله) : « تمكن » أى تبيض وتفرخ من أمكنت القملة أو الجرادة إذا ألقت بيوضها . والمكن بيض الضبّان والجراد » .

فلا جرم أن « العروة الوثقى » مهدت بين يدى ناشئة العرب مناهج فى الكتابة وأساليب الإنشاء ما كانوا يعهدونها من قبل ونبهت إلى وجوب استعمال كلمات اللغة الفصحى والاستعانة بها على إيراد المعانى العصرية ومطالب الحياة الاجتماعية الجديدة : كقولها (وبنوا قلاعاً من العساكر ، مدرعة بلؤام من حراب البنادق ، مسيجة بآلا ت من صنع هنرى مارتن) و« اللؤام » تلاؤم ريش النبال ، فاستعلمتها (العروة) فى تلاؤم حراب البنادق .

وقد تضمن العدد الأول مما يحتاج إلى الشرح من فصيح اللغة نحو ثلاثين كلمة . وعلى هذا قد تبلغ الكلمات اللغوية فى أعداد العروة كلها زهاء خمسمائة كلمة . ومن هذه الكلمات قوله : (وتاه فيها الخريت وضل المرشد)،(لم يكن له أثر إلا فى حواشى طوامير الأوهام)، (لم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته)،(التعصب لفظ تلوكه الألسن بحيث صار تكأة للمتكلمين : يلجأ إليه العيي فى تهتهته ، والدملقانى فى تفيهقه)،

(على غوارب أمواج الحوادث نائمون . تقذفهم كريبة وتتلقفهم أخرى) والكريبة الداهية العظمى .(هل يبعد أن يمتد لياق المهدى السودانى إلى الأقطار الإسلامية الأخرى) ،« واللياق »شعلة النار. (واشتهرت إنكلترا بخلابة الشرقيين وأخذهم بالرويغة . . . ولم يكن قصدها من هذه الزغزغة إلا أن يكون السودان فراطة لاحق لأحد فيه) إلى غير ذلك من الألفاظ والتعابير التى يجدر اقتباسها وتداولها .

وقد استعملت العروة كلمة (النقاط) جمع نقطة بمعنى المركز العسكرى "Poste" أو بمعنى موقع إستراتيجى كما يقولون اليوم ، فقالت :(وتمكن الإنكليز من النقاط الحربية فى البحر كمالطة وقبرص) ولعل العروة أول من استعمل (النقطة والنقاط) بهذا المعنى . والأغلاط اللغوية فى العروة قليلة جداً من ذلك قولها : (وينقبون على المصالح الوطنية) صوابه (عن المصالح) وقد استعملت من الكلم مالا عهد لنا به مثل جمع (خان) بمعنى ملك الترك على (خوانين) والمعروف بيننا جمعه على (خانات) . ولعلها إنما جمعته على (خوانين) تفادياً من اشتباهه بخانات المسافرين . ومن كناياته الجميلة غير المعهودة قوله : (وهو تحت الجناح) أى أن الغرض المطلوب هو فى الكف أو فى متناول اليد . ومن معانى الجناح (الإبط) كأنه قال إن الشيء

المطلوب تحت الإبط . على أن الجناح يكون بمعنى اليد لكن كلمة (تحت) تشعر بأن المراد بالجناح الإبط لا اليد .

وهكذا نرى أن (العروة) تضمنت من الكلمات الفصيحة والتعابير الرشيقة ما شاع على ألسنة الكتاب وأسنة أقلامهم ، محتذين مثاله ، متداولين استعماله . فكانت العروة الوثقى وأساليبها الكتابية أساساً لنهضة جديدة فى الإنشاء العربى وتجديد الأساليب الكتابية العربية .

أما المطالب والموضوعات الاجتماعية والانتقادية والأخلاقية فحدث عن كثرتها وفائدتها ولا حرج .

وأما الشؤونات السياسية فهى بيت القصيد ، وحب الحصيد من الأغراض التى أنشئت لأجلها (العروة) ، وتراها تدور حول التشنيع على الإنكليز فى أطماعهم ، وهيج النفوس عليهم ، وتأريث نيران الفتن من حواليهم . وما قالته منذ ست وستين سنة كأنه مما يقال اليوم . اسمعوا ما قال فى العدد الأول (وإنما رأت الروسية أن الوقت وقت العمل فى آسيا فطلبت الراحة من جهة حدودها الأوربية لتتفرغ لإجراء مقاصدها فى أطراف الهند . وإن الفزع من هذا الانتقال الفجائى قد ظهر أثره فى جميع الجرائد الإنكليزية . ليت الإنكليز صرفوا قوتهم ووجهوا عزيمتهم لدفع ما يلم بهم من الخطر القريب ، ولم يقعوا فى

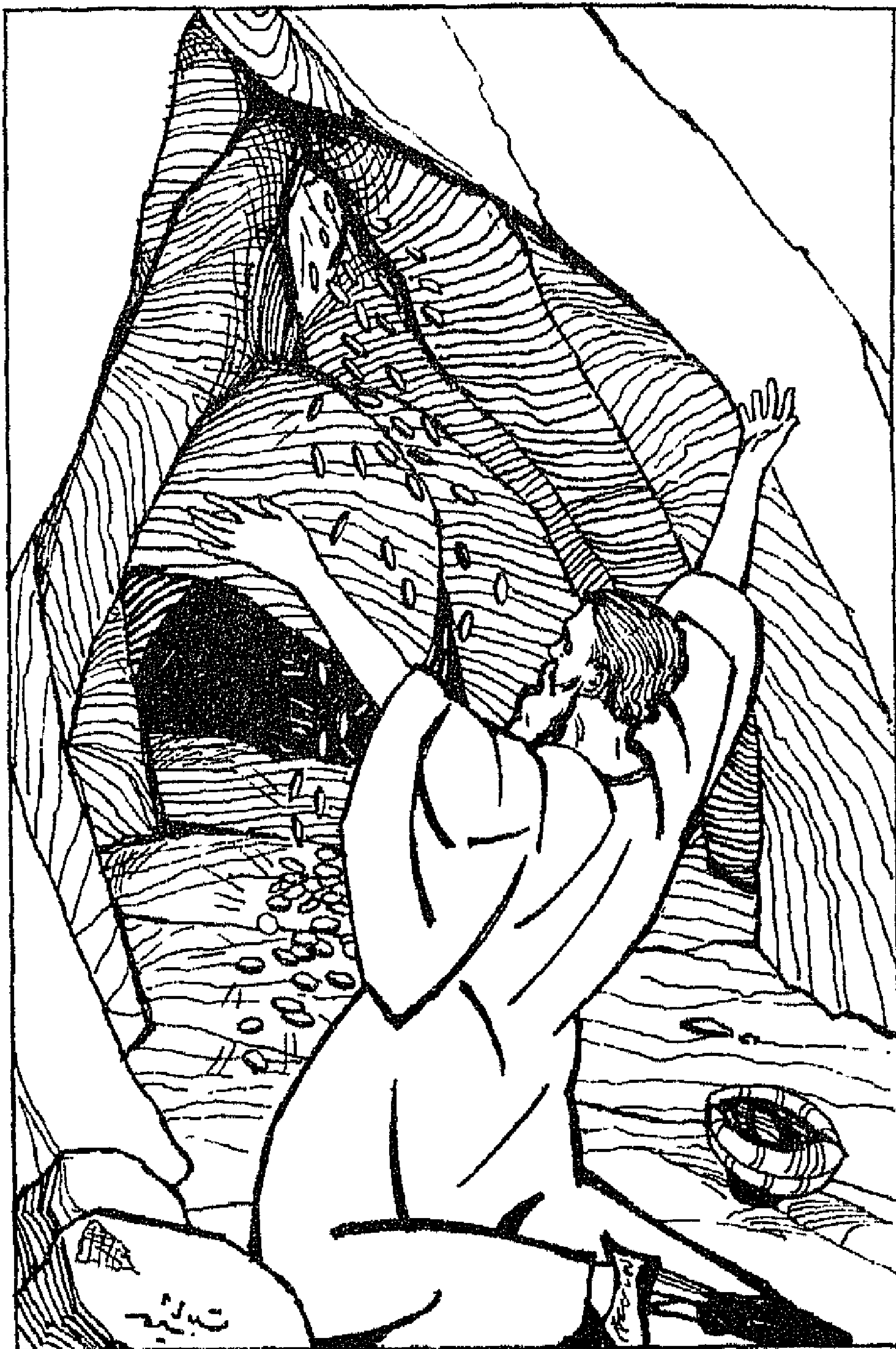
شرك المسألة المصرية فإن ما كانوا يخافونه من مصر كان وهماً صرفاً ، فلما طرقوها أوقدوا فتنة ما كانت تخطر ببال أحد . ثم هم بعد ذلك فى عجز عن علاجها إلخ . . .)

وكانت العروة تتفنن فى أساليب التأليب على الإنجليز وتصغير شأنهم والتحذير من الوقوع فى حبائلهم حتى تلجأ أحياناً إلى رواية مثل الأسطورتين التاليتين :

أسطورة

ذكروا فى أساطير الأولين أن هيكلا عظيما كان خارج مدينة اصطخر وربما أوى إليه بعض سراة الليل إذا اشتدت بهم وحشة الظلام . وما أوى إليه أحد إلا غالته المنية ، فيأتى طلاب أثره لقص خبره ، فيدخلون الهيكل فى ضوء النهار فيجدونه ميتاً . ثم لا يهتدون لسبب موته لسلامة بدنه من كل ما يعهد سبباً للموت . واشتهر أمر الهيكل بين السابلة والقطان وأخذ كل قاصد حذره من المبيت به حتى ضاقت الدنيا برجل فاختار الموت على الحياة وصعب عليه انتحار* نفسه بيده فذهب إلى الهيكل

* الانتحار فعل لازم فكان الظاهر أن يقول صعب عليه الانتحار أو أن ينحر نفسه والأفصح أن يقول : بخع نفسه



لعله يصادف منيته . فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الهلاك فلم يصغ إليهم . وقال إنما أتيت لتلك العاقبة . وانفلت من نصحائه إلى حيث يظن هلاكه . فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة ، كأن جمعاً عظيما يخاطبه : ها نحن وصلنا لتمزيق بدنك ، وسحق عظامك . فصاح اليائس : ألا فاقدموا فقد سئمت الحياة . فلم يتم كلامه إلا وقد حدثت قرقعة شديدة ، وانحل الطلسم ، وانشق الجدار ، وتناثرت منه الدراهم والدنانير ، وتفتحت أبواب الكنوز . فاطمأن الخائف ونام حتى أصبح . ولما أضحى النهار وجاء الواقفون على خبره ليحملوا جنازته وجدوه فرحاً مستبشراً يسألهم بعض الأوعية ليحمل ما وجده من الذهب والفضة . فاستخبروه قصته . فبعد البيان علموا أن هلاك من هلك إنما كان بالفزع من تلك المزعجات التى لا حقيقة لها : وبريطانيا العظمى هيكل عظيم يأوى إليه المغرورون إذا أوحشت نفوسهم ظلمات السياسة فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام . وكم هلك بين جدرانه من لا مريرة لهم ، ولا ثبات لجأشهم . وأخشى أن يسوق اليأس إلى ذلك الهيكل قوى المريرة ، ماقت الحياة فما تكون إلا هنيهة يصعد فيها صوت اليأس فينقض الجدار وينحل هذا الطلسم الأعظم .

أسطورة أخرى

قالوا إن زنجياً أسود هائل المنظر غليظ الشفتين مقلوب المشفرين جاحظ العينين ، أحمر الحادقتين ، بشع الوجه ، أفطس الأنف : منكر الصورة ، كان يحمل ولداً فى ليلة مظلمة يسير به فى زقاق من أزقة بغداد. والولد – كلما نظر إليه – يفزع ويبكى وينتحب ويصيح ويعول . وكلما اشتد به الفزع ربته الزنجى ومسح ظهره ، وقال له : لا تخف ياولدى فإننى معك وأنيسك وحافظك من كل شر . وبعد تكرير هذه الملاطفات من الزنجى للصبى قال الصبى : يا سيدى إنما خوفى وفزعى منك لا من وحشة الظلام . وهكذا شأن حكومة إنكلترا مع المصريين . كلما اشتدت الخطوب ، وعظمت المصائب ، وزاد الخلل فى البلاد المصرية مسحت حكومة بريطانيا على ظهر توفيق باشا ووزرائه بيدها الناعمة (وإنما هى نعومة الثعبان) وأقبلت على الأهالى تمنيهم بوعودها المرونقة* وتقول لهم : لا تحزنوا فإنى معكم . وجميع المصريين من توفيق باشا إلى وزرائه . إلى عامة

* الرونق الحسن . وقد اشتق الكاتب منه اسم مفعول فقال مرونق أى مزين مزخرف .

الأهلين يجأرون وينادون إنما خوفنا وجزعنا منك ، وراحتنا واطمئناننا بتنحيك عنا وتركنا وشأننا . ا هـ .

* * *

هذا نموذج من جهد جمال الدين الأفغاني ونشاطه السياسي . وهذه هي أفانينه الخلابة التي كان يوزعها على قرائه في « العروة الوثقى» وكنت أدرس مضامين (العروة) دراسة عميقة . وأستوحي من خلال سطورها أفكارا وآراء : منها ما كانت تقبله (البيئة) وترضاه . ومنها ما كانت تستنكره وتأباه . وأخطر ما كنت أفكر فيه وألهج به وأدعو إليه من مبادئ العروة (الإصلاح الديني) . وكان رفيقي ومؤنسي في هذا الطريق الوعر الشيخ رشيد رضا رحمه الله . وما كان يلذنا شيء بقدر ما يلذنا أن نعرف خبراً جديداً أو حديثاً مستطرفاً عن جمال الدين الأفغاني . فكان يقصه أحدنا على الآخر ويمتن عليه به مفاكهاً مداعباً :

قال الشيخ رشيد في مقدمته لكتابي (الجزء الثاني من البينات) : « وأكبر ما أثر في أنفسنا وعقولنا وظهر أثره في إنشائنا لفظاً ومعنى جريدة (العروة الوثقى) لحكيمي الشرق ومجددي نهضته العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية والدينية والإسلامية . وجدت أعداداً منها فوجدتني دخلت في حياة جديدة . وأطلعت صديقي المغربي على تلك الأعداد كدأبنا في اطلاع كل منا الآخر على مايستحسنه

ويراه مفيداً . ثم طفقت أبحث عن بقية الأعداد وأستنسخ ما أجده منها وينسخ هو أيضاً حتى كملت لنا ورسخت آراء الحكيمين وأفكارهما أو مذهبهما الإصلاحى فى أنفسنا . وقد قال لنا مرة أستاذنا الشيخ حسين الجسر : إن بينكما جوامع كثيرة أخصها حب السيد جمال الدين الأفغانى واتباع أفكاره . فقلنا له : بل أخصها تتلمذنا لفضيلتكم وتلقينا عنكم . » ا ه .

وبلغنا أن مصوراً مسيحيا من أهل بلـــدنا (طرابلس) عاد إليها بعد غيابه عنها فى بلاد الهند سنين متطاولة فأخبرنا إنه اجتمع بجمال الدين الأفغانى وأنه يروى عنه أخباراً طريفة . فهرعنا إلى محل عمله ودمرنا عليه . وكنا نلح بالاستفسار عن جمال الدين ونلهيه أحياناً عن شغله الذى بين يديه . فكان يروى لنا ما يعرف من أعماله وأقواله . ويصفه لنا وصف العارف به ، الواقف على حقيقة خبره . وعرف أهل طراباس منا حب استطلاعنا لأخبار السيد الأفغانى فكان كل من أراد التودد إلينا أو إدخال السرور علينا يجيئنا بخبر عنه .

ومن ذلك أن الشيخ على العمرى المشهور بالصلاح والكرامة رحمه الله صادفنا فى الطريق يوماً فأطلعنا على كتاب جاءه من الآستانة بتوقيع (جمال الدين الخطيب) وقال لنا : إنه لا يعرف أحداً فى الاستانة مسمى بجمال الدين إلا السيد الأفغانى يريد

بذلك مطايبتنا ، وإدخال السرور علينا . وكانت مطايبة الناس من عادته . فإذا الكتاب بتوقيع (جمال الدين الخطيب) . وكنا لا نعلم من هو هذا (الخطيب) . والأفغانى لا يلقب نفسه بالخطيب ، ولم يشتهر به . والكتاب حسن الخط جيد الإنشاء . وقد ظهر لنا من مضمونه أن كاتبه وقع فى ضائقة روحية أقلقته فهو يلتجئ إلى الشيخ العمرى فى الدعاء له فيكشف الله عنه ما هو به فازددنا شكا فى أن يكون الكتاب من السيد الأفغانى . ثم تبين أخيراً أن صاحب الكتاب دمشقى فاضل من آل الخطيب ، يتعاطى النيابات الشرعية ، وهو أخو صديقنا الأستاذ زكى بك الخطيب المحامى والسياسى المشهور.

وكثرة اهتمامنا بالأفغانى والشيخ عبده والحرص على الاتصال بالوافدين من مصر والآستانة لمعرفة خبرهما والتحدث بما يروى عنهما من آراء وأفكار قد تكون غير مألوفة، حتى جعل الناس فى بعض الأحايين يقعون فينا ويتقولون علينا . وكنا لا نبالى ذلك ونكثر من الجدل والدفاع عن الشيخين وتعاليمهما ، ووجوب الانتفاع بعلمهما ونصحهما .

بقيت على هذه الحال فى طرابلس زهاء عشر سنين ١٣٠١ — ١٣١٠ هـ ثم برحتها إلى الآستانة من أجل الدخول فى بعض معاهدها الدينية فمكثت ثمة سنة واحدة اجتمعت خلالها

بجمال الدين مراراً وهأنذا أصف ما شاهدته منه ، وأروى ما سمعته عنه . غير أنه يحسن قبل الشروع فيما إليه قصدت أن آتى على خلاصة من سيرته لتكون تمهيداً بين يدى السبب الذى جعله يتخذ الآستانة مثوى أخيراً له :

٣

نشأ جمال الدين فى مدينة كابل عاصمة الأفغان . فهو إذن أفغانى . والإيرانيون يقولون إنه إيرانى . وهذا الخلاف فى نسبة جمال الدين من أعجب الأمور وأدعاها للاستغراب . كما أن الرجل عاش فى عصرنا وبلادنا . وأعماله ومساعيه تقع تحت مواقع أبصارنا . والأدلة متوفرة لمعرفة حقيقة نسبه . فالشك فى أفغانيته يورثنا الشك فى كثير من أخبار رجال التاريخ الأقدمين ونسبتهم ومناشئ مناقبهم ومثالبهم . وقد كنت كتبت مقالا نيراً فى (جمال الدين أهو أفغانى أم إيرانى) نشر فى المؤيد* سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩) ولعل مقالى هذا من أصرح ما كتب فى هذا الموضوع . ولم يبلغ السيد الثامنة عشرة من عمره حتى أتم دراسته للعلوم المختلفة وعرض له أن يسافر إلى الهند لدراسة بعض العلوم العصرية ؛ وقصد الحجاز لأداء الفريضة سنة ١٢٧٣ هجرية . ثم رجع إلى الأفغان وتقلد إحدى وظائفها . ووقع خلاف بين أمراء الأفغان فانحاز السيد إلى (محمد أعظم خان) وكان له بمثابة وزير دولة .

* ثم نشر هذا المقال في كتابي البينات جزء ١ صفحة ١٥٠ فليراجعه من أراد .

وشايع الإنكليز (شير على) فتغلب هذا على محمد أعظم . ومن هنا نشأت العداوة بين الإنكليز وجمال الدين واشتهرت حتى قال سليم بك العنحورى فى شعر له :

فكأنني بيكونسفيلد[1] زمانه وكأنها من بغضها الأفغاني

وأخيراً تغلب (شير على) على منافسه فلم يتعرض للسيد بسوء لكنه أضمره له . وأحس السيد بذلك فرحل عن الأفغان سنة ١٢٨٥ هـ ومر بالهند إلى مصر فأقام أربعين يوماً . قال الأستاذ الشيخ محمد عبده : (تردد فى أثنائها على الأزهر وخالطه كثير من الطلبة السوريين وسألوه أن يقرأ لهم شرح الإظهار فقرأه لهم فى بيته) اهـ .

ويظهر أنه كان للسوريين دالة عظيمة على السيد مذ رضى أن يقرأ لهم (الإظهار)[2] وعلم النحو أقل شأناً من أن يشتغل السيد فى نشره وتلقينه الطلاب، إذ أن الحكمة والفلسفة والسياسة العليا كانت مطمع نظره وأكثر ما يهمه نشره من العلوم بين مريدية سواء أكانوا من أهلها أم لا . وقد روى بعض الفضلاء أن الشيخ محمد عبده قال: «كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة

(١) بيكو نسفيلد Beaconsfield هو الوزير الإنكليزى السياسى الكبير وكان يدعى فى أول الأمر دزرائيلى (١٨٠٤ - ١٨٨١ م)

(٢) الإظهار متن مختصر فى علم النحو لمؤلفه (البركوى) اشتهر أمره عند الأتراك العثمانيين وسكان الولايات العربية التابعة لهم فى ذلك العهد .

لمريدها وغير مريدها . ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد وإن لم يكن من أهله . وكنت أغبطه على ذلك لأنني تؤثر فيّ حالة المجلس للوقت فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محلا قابلا واستعداداً ظاهراً » أهـ

ثم شخص السيد من مصر إلى الآستانة في عهد الصدر عالى باشا وكان بزيه الأفغاني : (جبة وكساء وعمامة عجراء) فعظم أمره وارتفعت منزلته . وأطلق لسانه بسائق من طبعه في وجوب الإصلاح والتعجيل به قبل فوات وقته .

قال المستر بلنت الإنكليزي : « إن سعي العثمانيين في تحويل حكومتهم إلى دستورية في بادئ الأمر قد ينسب إلى شيء من تأثير جمال الدين فقد أقام في عاصمتهم يحاورهم ويخطب فيهم » .

وهكذا كان تأثير جمال الدين في نهضة مصر أيضاً ؛ فقد خطب سعد باشا زغلول في بعض الحفلات وقال للمصريين : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم ، لا أقول ذلك ولا أدعيه بل لا أتصوره . إنما نهضتكم قديمة من عهد محمد علي وعرابي . وللسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها وهذا حق يجب أن لا نكتمه ؛ لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف » .

عين جمال الدين وهو فى الآستانة عضواً فى مجلس المعارف الأعلى وألقى خطاباً فى حفلة (دار الفنون) باللغة التركية التى أتقنها بعد ستة أشهر من نزوله الآستانة . فأنكر المشايخ من خطابه بعض الآراء . وكان شيخ الإسلام حسن فهمى أفندى متغيراً عليه فقام علماء الآستانة وخطباء مساجدها يردون على جمال الدين ويسفهون قوله . وكان يومئذ فى الآستانة والدى (مصطفى ابن أحمد المغربى) فوضع رسالة فى الرد عليه أيضاً مازالت مخطوطة فى مكتبتى إلى اليوم وسماها (عين الصواب فى الرد على من قال إن الرسالة والنبوة صنعتان تنالان بالاكتساب) قال فى آخرها : وكان الفراغ من تبييضها فى ذى الحجة سنة ١٢٨٧ هـ . وأكد الشيخ محمد عبده أن السيد جمال الدين لم يقل هذا فى مسألة النبوة والرسالة ، وإنما مشايخ الأتراك تحاملوا عليه فألصقوا التهمة به وهو منها براء . وكان والدى لا يعرف التركية فلم يتبين حقيقة الواقع فكتب فى رسالته ما عرفه من مذهب أهل السنة والجماعة وما قرروه فى هذه المسألة التى قال فيها صاحب جوهرة التوحيد :

ولم تكن نبوة مكتسبه
ولو رقى فى الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يوتيه لمن
يشاء جل الله واهب المنن

غير ان والدى في مقدمة رسالته أطال في التشنيع على السيد وتعييره بالتهمة التي نسبت إليه . وأرجو ألا يكون مؤاخذاً لما وقر في نفسه من حسن القصد وسلامة النية .

ويظهر أن حادثة (دار الفنون) أثرت في نفس جمال الدين تأثيراً جعله ضعيف الثقة بالعلماء والاعتماد عليهم . فقد رووا أن السلطان عبد الحميد لما أراد أن يوفد بعثة من علماء الآستانة لنشر الإسلام في بلاد اليابان بناء على طلب إمبراطورها واستشار جمال الدين لم يوافقه، وكان هذا في جيئته الثانية إلى الآستانة كما سيأتي تفصيله . وقال للسلطان : « إن العلماء نفروا المسلمين من الإسلام فأجدر أن ينفروا الكافرين . والرأى أن ترسل إلى الإمبراطور هدايا مع كتاب تعدونه فيه بتلبية طلبه . ثم نجتهد في تخريج طائفة من العلماء يصلحون للدعوة ويدخلون إليها من بابها المعقول » .

أدت هذه الحادثة أخيراً (حادثة خطابه في دار الفنون) إلى خروج السيد من الآستانة مبعداً مظلوماً ، فنزل مصر لا على نية الإقامة فيها ، غير أن رياض باشا حمله على البقاء . وعينت له حكومته ألف قرش في الشهر . فأقبل فضلاء مصر عليه كما كان يفعل فضلاء سوريا في مدة إقامته القصيرة الأولى . وكان يدرس العلوم المختلفة من فلسفة وحكمة وغيرهما في داره فكان يفكك



عن العقول عقُـل الأوهام. ويرشد من حوله إلى حقائق الإسلام، فإذا ذكرت كلمة التوحيد مثلا قال: « إن الناس لو فهموا معناها لما استعانوا إلا بالله . ولما طلبوا المدد إلا من الله . وإذا ذكر التصوف قال : « أنا لا أفهم معنى لقولهم : الفناء فى الله . وإنما الفناء يكون فى خلق الله . ومعنى الفناء فيهم تعليمهم وتنبيههم إلى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم » . وكان يقول : « ما أكثر الجرائد السياسية والعلمية والأدبية فى هذه البلاد! مع أن أهاليها فى حاجة إلى جريدة أبسط من ذلك كله : إلى جريدة تقول لهم اغسلوا أرجلكم اغسلوا أيديكم اغسلوا أثوابكم » .

وقد نشأ له من جراء صراحته هذه وتجديده فى العلم والدين وفهم الحياة ، مريدون كثيرون فحسده الشيوخ ولا سيما من يعد قراءة الفلسفة من الكفر . ومال إليهم العامة . وخاض السيد غمار السياسة المصرية . ونبه المصريين إلى وجوب تنظيم حكومتهم فساعد هذا كله على تنكر ولاة الأمور له . والخشية منه . ولا سيما بغضه للإنكليز الذى كان يعلنه ولا يخفيه. وانتظم فى سلك الماسونية لينفسح له المجال أمام الأعمال السياسية . وكتب مقالات فى السياسة تولى غلادستون نفسه الرد عليها . ووافق ذلك تولية (توفيق باشا) للخديوية فلم يطق الصبر على السيد فأخرج من القطر المصرى فذهب إلى الهند وذلك سنة ١٢٩٦هـ . وكان سفره من

السويس فعرض عليه قنصل الإنكليز مبلغاً من المال نفقة سفر فأبى وقال كلمته المأثورة : « الأسد أينما ذهب لا يعدم فريسته ». فتكون مدة إقامته الثانية فى مصر ثمانى سنوات . ثم غادر الهند إلى لندن فباريس وهناك اتصل به الشيخ محمد عبده وأصدرا جريدة (العروة الوثقى) التى وصفنا من خبرها ما وصفنا فى صدر الكلام . وكان إصدارها بتكليف من جمعية (العروة الوثقى المصرية) . ثم أقفلت بسبب إقفال أبواب الهند ومصر والسودان فى وجهها . لكن السيد لم يترك الكلام فى السياسة فكتب فى الصحف الباريسية وجرت له أبحاث مع رينان فى العلم والإسلام . وطلبه (تشرشل) و (سالسبورى) إلى لندن ليسألاه رأيه فى مهدى السودان . فذهب إليهما . ثم رجع إلى باريس . فطلبه شاه إيران (ناصر الدين) فخف إلى طهران فولاه الشاه وزارة الحربية فأحبه الإيرانيون ومالوا إلى تعاليمه . فخافه الشاه وتغير عليه . وأحس السيد فاستأذنه فى السفر انتجاعاً للصحة . فذهب إلى موسكو فبطرسبرج وكان له فى كل مكان ينزله مريدون مشتاقون إليه سماعون له عاملون على نشر آرائه . وزار معرض باريس سنة ١٨٨٩ م والتقى ثمة بالشاه ناصر الدين فلاطفه الشاه واطمأن جمال الدين إليه . وعاد معه إلى طهران وعادت إليه مكانته الأولى فيها . وجعل يبث الروح الدستورية بين أبنائها .

فعاد الشاه إلى تنكره له فأحس السيد بذلك واستأذنه فى زيارة (شاه عبد العظيم) وهى بلدة على بعد عشرين كيلو متراً من طهران وتبعه محبوه. واتخذ من قداسة المكان طريقاً إلى الجهر برأيه فى إصلاح الحكومة فلم يطق الشاه صبراً عليه فأرسل قوة عسكرية إليه فاحتملوه من فراش مرضه إلى حدود تركيا. فنزل البصرة واتفق أن كان فى البصرة يومئذ قاضيها عبد الحميد أفندى الرافعى الطرابلسى فروى بعض الإخوان عن لسان القاضى طرائف من أخبار السيد الأفغانى وهو فى البصرة أودعتها مقالى المنشور فى (البينات بعنوان جمال الدين أفغانى أم إيرانى) . وستأتى مناسبة لذكر نزول السيد البصرة واقتباس شيء من أخباره فيها. واستأذن السيد الأفغانى وهو فى البصرة حكومة الآستانة فى أن يذهب إلى السياحة فى داخلية جزيرة العرب فلم يؤذن له ثم أذنوا له فى الذهاب إلى لندن. ثم لم تابث أن جاءت برقية بمنعه. وكان غادر البصرة بعد أن بذل وسعه فى تأريث نار الفتن بين الإيرانيين والشاه : من ذلك أنه حصل على نسخة من كتاب (على بابا) تأليف (جيمس موريو) فترجمها إلى الفارسية وجعل يبعث بنسخ منها إلى إيران ليقرأها الطلاب والنشء الجديد فيعرفوا كيف يستهزئ الأجانب بهم ويهبوا إلى الإصلاح.

وبعد أن غادر البصرة أقام فى لندن يتحدث إلى الإنكليز فى

مجتمعاتهم وأنديتهم . وكان يكتب المقالات الرنانة فى جريدة (ضياء الخافقين) بتوقيع السيد» .وكان معظم اهتمامه فى كتاباته وأحاديثه فى الطعن على الشاه . وما آلت إليه حالة إيران فى عهده . فكان الشاه يكتب إلى السلطان عبد الحميد شاكياً له منه فوسط السلطان سفيره رستم باشا فى أن يقدم جمال الدين إلى الآستانة فلم يفلح رستم وأفلح الشيخ (أبو الهدى) فكتب إلى السيد بفنون من معسول الكلام فانخدع وشخص إلى الآستانة . ونزل فى (المسافرخانة) حيث كنت أوافيه مع جماعة من محبيه ومريديه . فهو إذن نزل الآستانة مرتين : المرة الأولى (سنة١٢٨٧ ﻫ ١٨٧٠ م) والمرة الثانية (سنة ١٣١٠ ﻫ ١٨٩٢ م) وبين المرتين ثلاث وعشرون سنة وستأتى زيادة تفصيل لأخبار السيد جمال الدين مع شاه إيران . وكان السيد مع (أبى الهدى) فى أول الأمر على وفاق . وجميل صحبة . وقد شهدتهما يوم يريدان الركوب فى عربة من دار أبى الهدى إلى المابين ، فجعل كل منهما يقسم على رفيقه أن يركب فى الجهة اليمنى . ورفيقه يأبى . وقد ارتفعت أصواتهما بالأيمان على مرأى ممن حولهما . والأفغانى لم يكن يكترث لما يسمونه رسميات أو تشريفات غير أنه قد تكلف ذلك لأول نزوله الآستانة مراعاة لمقام صديقه الجديد (الشيخ أبى الهدى) .

على أن ذلك لم يدم طويلا ، فإن كلا من الصديقين رجع إلى شنشنته وما ركز فى طبعه (إن التخلق يأتى دونه الخلق) ولذلك عادا فاختلفا بعد التفاهم . وتناكرا بعد التراحم . حتى أدى الحال بينهما أخيراً إلى اللمز والتعيير ، وكان أبو الهدى ينبز الأفغانى بالمازندرانى . وسمعت شيخنا الشيخ حسين الطرابلسى مؤلف الرسالة الحميدية يقول : إنه كان فى مجلس الشيخ أبى الهدى بالآستانة فحدث أحد الجلساء عن بعض علماء أوربا المستشرقين وقال : إن هذا المستشرق عمد إلى القرآن فرتب آياته بحسب معانيها وموضوعاتها فصولا فصولا فجمع فى فصل الآيات المتعلقة باليهود مثلا . وفى فصل آخر الآيات المتعلقة بالنصارى . وفى فصل آيات الطلاق . آيات الإرث . آيات الجنة . آيات النار . وهكذا . وروى المحدث هذا الخبر عن لسان السيد الأفغانى . قال وقد استحسن الأفغانى هذا الصنيع من المستشرق ولم ينكره . قال شيخنا الجسر فغضب أبو الهدى الصيادى عند سماع هذا الحديث عن جمال الدين وقال : إن العمل كفر والرضى به كفر . وجعل يشنع على جمال الدين . وسمعت أخيراً من السيد بديع بك المؤيد العظم ، وهو من أعرف الناس بأخبار الآستانة ورجالها فى العهد الحميدى ، قال : إن السلطان أنعم على السيد الأفغانى برتبة (قاضى عسكر) وأحضرت إليه شاراتها :

جبة فضفاض ملونة . وزينة للصدر والرأس مذهبة . ولما أخبر السيد بالإرادة السلطانية وطلب منه أن يقوم إلى حيث يلبس هذه التشريفة أبى وقال للرسول : قل لمولاى السلطان إن جمال الدين يرى أن رتبة العلم أعلى الرتب . وبعضهم يروى أن جمال أجاب بقوله : « إنه لا يريد أن يكون كالبغل المزركش » معرضاً بالسيد الصيادى الذى بلغ من رتب الدولة أعلاها ونال من زينة المراتب أثمنها وأغلاها .

* * *

وبعد وصولى إلى الآستانة بأيام وقبل أن أتصل بالسيد الأفغانى كانت تقع عينى أحياناً على رجل غريب الزىّ جذاب الملامح ممتلئ الجسم إلى قصر . أسمر اللون أسود الشعر . خفيف العارضين له لمة مسترسلة إلى شحمة الأذنين . يلبس لبوس علماء الأتراك ، جبة سوداء غير سابغة الطول . وعمامة بيضاء مختلفة فى تكويرها عن عمائم علماء الآستانة علمت أخيراً أنه هو السيد الأفغانى . وجعلت أتهيأ لزيارته . والاهتمام بأمر مقابلته وقد لحظ منى هذا الاهتمام بعض معارفى من التجار السوريين فقال :

« حضرت بعض المجالس فى الآستانة فسمعتهم يتحدثون عن هذا الذى تذكره وتعلى من شأنه . ومما ذكروه عنه أنه

يكثر من التردد على متنزه (الكاغد خانه) وهناك طائفة من الغجر * منتبذين فى ناحية منه يعيشون تحت أكواخهم المعهودة وأن الشيخ جمال الدين ينتاب هؤلاء الغجر ويلم بهم كلما زار ذلك المتنزه يكلمهم ويصغى إلى حديثهم » . فقلت له : إن السيد جمال الدين على ما يظهر يجد فى حديث هؤلاء القوم ما يسليه . ويسرى عنه هموم حياة النصب التى يحياها . فلم يعجب التاجر قولى وبقى مصرًّا على استنكار ما كان يفعله جمال الدين من غشيان هذه الأكواخ ومحادثة أهلها وأن هذا يضع منه ، ويحط من قدره . فقلت له : إن طبع السيد الأفغانى مشتق من طباع الفلاسفة ، فهو يرفه عن نفسه بمحادثة الغجر وربما تعود ذلك ليتوسل إلى إكرامهم والرضح لهم بالبخشيش وجعلهم يشعرون بشىء من راحة الحياة ولون من ألوانها الضاحكة وأنهم غير منسيين من إخوانهم البشر ذوى الرغد والعز والسلطان . والسيد فى بلاده الأفغان على مقربة من بلاد الهند وقد ألم بها المرة بعد المرة ورأى بعينيه نظام الطبقات السائد فيها وشناعته ومبلغ حطه من كرامة الجنس البشرى ، فهو بتأنيسه لأولئك المحدودين المنكودى الحظ كأنه يعلن شريعة الأخوة الإنسانية التى علم بها الإسلام وجهر بها النبى عليه الصلاة والسلام فى

* ويسمون أيضاً النور والمطاربة ويسميهم الأتراك جنكانه

مثل قوله : (يا الناس إن الرب واحد والأب واحد) .

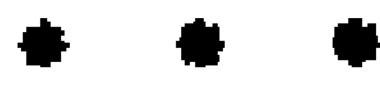
وأن العقلية الفلسفية ليست كالعقلية التجارية : فإن نفس الفيلسوف يلذها أن تغوص فى أعمق طباع البشر وأخفى أسرار حياتهم على اختلاف طبقاتهم . وهؤلاء الغجر طبقة من الناس تحيا حياة خاصة وتمتاز بعقلية غريبة . ويروى عنهم من الأخبار ونوادر القصص ما يسلى السيد جمال الدين . ويشغله قليلا عن الحد الذى يعانيه فى مقاومة الملوك المستبدين . ومجادلة البلداء من العلماء والعظماء .

والأفغانى فى تحدثه إلى الغجر وتنزله إلى مجاملتهم وتأنيسهم يشبه ما حكى لنا عنه وهو فى القاهرة : أخبره مريدوه الحريصون على تفكيهه وتسليته ، أن فتاة أوربية لها (مشرب) فى حىّ الأزبكية تسقى فيه البيرة بيدها وأنها غاية فى الجمال والذكاء والأدب . فقال لهم جمال الدين : هيوا بنا إليها .

وقد عرف من أمر السيد أنه ما كان يتعاطى محرماً . وراوى الخبر لم يقل إنه شرب البيرة عند الفتاة . على أن بعضهم رخص بالبيرة لأنها تتخذ من غير عصير العنب المسمى خمراً والقليل منها لا يسكر (كما قالوا) .

دخل السيد الأفغانى ورفاقه على الفتاة وإذا هى كما وصفوها

جمالا وذكاء فأشار إليها بعض رفاق السيد منوها بمقامه . فأقبلت عليه بالتأنيس وبعذب الكلام . وأقبل عليها هو بالبحث والتفتيش عن خبايا نفسها . وأسرار حياتها . ثم التفت إلى رفاقه قائلا : أتريدون أن أبكيها لكم ؟ فقالوا وقد عجبوا لقوله : نعم . فالتفت إليها وقال ما معناه : إنى رأيت من جمالك وذكائك وحسن أدبك ما آسف عليه وعليك وعلى ضياع حياتك تمضى سبهللا ، كان يمكنك بهذه الأوصاف التى أنت عليها أن تبلغى أقصى درجات السعادة والمجد والشهرة ، وكثير من وصيفات القصور لسن على بعض ما أنت عليه من جمال وعقل . وذكاء ونبل . آسف جداً على شبابك وجمالك أن يبتذلا فى هذه الحانة التى يؤمها أحياناً أشرار الناس وأوباشهم فترين وتسمعين منهم ما يجرح كرامتك . ويؤذى أدبك ، وسمو تربيتك . وأطال السيد فى هذا ونحوه والتفت الرفاق إلى الفتاة فإذا هى مطرقة خاشعة تنحدر دموعها على وجنتيها . وقد أرعش البكاء شفتيها . عندها قال رفاق السيد للسيد : أجئنا بك إلى هنا يا أستاذنا لنسر ونطرب ، أو نبكى ونحزن ؟ فقال لهم أتريدون أن أبدل بكاءها ضحكا . وحزنها هناء ؟ قالوا افعل . فالتفت إليها وكلمها كلاماً فيه فكاهة ودعابة فعادت إلى المرح والانبساط .



قصدت إلى زيارة السيد الأفغانى فى (المسافرخانة) حيث كان ينزل المسافرون من ضيوف الخلافة . فاستأذنت عليه . وكان لديه طائفة من أهل الفضل والأدب . أذكر منهم الفاضلين السلاوى وإبرهيم أدهم زعيمى أدباء العرب فى عاصمة الترك فى العهد الحميدى . ومن أشهر المترددين على السيد يومئذ الشيخ عبد الرشيد إبرهيم الرحالة المسلم الروسى . وكان السيد يخصه برعايته وعطفه . ولم أكد آخذ مكانى من المجلس حتى سألنى السيد عن نفسى . فانتسبت إليه بذكر بلدى وأسرتى وأنى أخذت العلم عن شيخى الشيخ حسين الجسر. فأثنى السيد على الشيخ وقال إنه قرأ مؤلفه (الرسالة الحميدية) مذ كان السيد فى البصرة . والرسالة الحميدية هذه أثبت فيها شيخنا الجسر أحقية الدين الإسلامى وحقيقته . رداً على طوائف المنكرين له . وقد أطال النفس رحمه الله فى الرد على الدهريين والداروينيين خاصة . وقد سمعت من لفظ شيخى المشار إليه رحمه الله أنه لما كان فى الآستانة اجتمع بالسيد جمال الدين فى المابين فى دائرة الحاج على بك كبير القرناء . ولم يكونا التقيا قبل ذلك . فأثنى الأفغانى على الشيخ وعلى رسالته الحميدية التى قرأها مذ كان فى البصرة لكنه انتقد (جريدة طرابلس) وكانت أنشئت

حديثاً . (سنة ١٣١٠ هـ) . وكان صاحبها ومديرها المسئول وجيهاً عصامياً من وجهاء طرابلس ، وكانت جريدته أخبارية يهم صاحبها قبل كل شيء رواجها واستثمارها ورضى الحكام عنها . وقد حفظ صفحتها الأولى لشيخنا الجسر الذى كان السبب فى سماح الحكومة بإصدارها فى طرابلس . فكان الشيخ يكتب الافتتاحيات المسهبة فى الدين والأخلاق والاجتماع بتوقيع منتحل ، فقال السيد الأفغانى لشيخنا الجسر رحمهما الله : ما هذا يا أستاذ ؟ إن جريدتكم (طرابلس) جمعت بين الكفر والإيمان : أقرأ فى صفحتها الأولى الحض على الفضيلة والخير ومكارم الأخلاق وفى باقى الصفحات ضروباً من التملق والنفاق (وهذا الصنيع من أبعد ما يكون عن طبع الأفغانى). قال شيخنا الجسر : فاعتذرت عن مدير الجريدة بطبيعة الوقت . وأن الجريدة لا تعيش فى بلاد مثل بلادنا ما لم تتمش إدارتها على هذه الطريقة من اللين والرفق ومجاملة الحكام . قال فلم يقبل الأفغانى هذا العذر .

قال شيخنا : ورجوت الأفغانى أن يخفض صوته فى حديثه معى كيلا يشعر رجال المابين أننى صحافى أكتب فى صحف الأخبار . فامتعض الأفغانى وقال : ولماذا يا أستاذ تحاذر هذا وتأبى الانتساب إلى الصحافة ؟ الصحافة عمل شريف وأنا صحافى وكان لى فى باريس جريدة أكتب فيها . وقد أراد بها (العروة

الوثقى) فجعل شيخنا الجسر يحتج عليه باختلاف البيئات . وتباين أطوار البلاد . وأن مثله (أى مثل شيخنا الجسر) فى انتسابه إلى علم الدين يزرى به فى نظر الناس الاشتغال بالصحافة. فلم يقبل الأفغانى عذره هذا بالطبع .

أقول : وقد أيد رأى شيخنا الجسر فى الصحافة ومنزلتها يومئذ ما كان بعد ذلك من الشيخ (أبى خطوة) القاضى الشرعى المصرى الكبير الذى فصل فى (مسألة الزوجية) وحكم بأن الصحافى ليس كفؤاً للشريفات . فقامت قيامة رجال الصحافة المصرية يومئذ وأوسعوا القاضى لوماً ، وحكمه استنكاراً . ومهما يكن فقد كان صنيعه مؤيداً للجسر على الأفغانى تأييداً لا يقول به الكثيرون من الأفاضل .

وقد كان شيخى الجسر مصلحاً دينيًّا دقيق النظر . لكنه مع هذا بقى طول حياته محافظاً متحفظاً شديد الحذر . وأهم ما استفدناه من طريقته فى الإصلاح يمكن تلخيصه مما وقع لى فى زمن الحداثة وطلب العلم :

ذلك أننى بعد أن تلقيت من دراستى على والدى الاستسلام إلى كل ما جاء فى الكتب الموروثة عن أسلافنا الماضين ، والتصديق بنصوصها من دون تردد ولا ارتياب ، عدت فاقتبست من شيخنا الجسر تعاليم فيها شىء من حرية النقد . وانطلاق الفكر : وقد

تعلمنا أن النصوص الدينية الموروثة فيها الغث وفيها السمين . وأن بينها ما هو غير صحيح ولا معقول ولا منطبق على القرآن ولا السنة النبوية الصحيحة ، فيجب الانتباه إليه . والتنبيه عليه . والتحذير منه وتمييز غثه من سمينه . وحقه من باطله . ولتمييز الحق من الباطل فى نقل الأخبار طريقتان : (١) التدقيق فى سند الخبر وروايته . (٢) تدقيق النظر فى إمكانية الخبر وعدم إمكانيته وهذا ما قرره الفيلسوف العربى ابن خلدون فى الكتاب الأول من مقدمته الذى بحث فيه عن طبيعة العمران فقد قال ثمّ ما نصه :

« وتمحيص الخبر إنما هو بمعرفة طبائع العمران . وهو أحسن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الأخبار . وتمييز صدقها من كذبها . وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة . ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر فى نفسه ممكن أو ممتنع . وأما إذا كان الخبر مستحيلا فلا فائدة للنظر فى تعديل الرواة وتجريحهم . » اهـ

فكأن شيخنا الجسر رحمه الله فى دروسه إنما يشرح لنا ما قاله ابن خلدون فى نظريته . وقد علمنا بأن ندقق الخبر . ونعمق النظر : فليس كل نص يقبل . سواء أعقل أم لم يعقل . بل نزن كل ذلك بميزان القرآن والسنة وطبائع العمران (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) ، بينما كان والدى رحمه الله بسبب تربيته

الأزهريَة لا يسمح لى فى أن أنحو هذا النحو فى النظر والتدقيق وإعمال الفكر فى التفريق بين النصوص الدينية .

غير أنى لما اتصلت بالسيد الأفغانى وأنعمت النظر فى دراسة تعاليمه انتقلت فى حياتى الفكرية إلى الدور الثالث أو الطور الثالث وهو أن نفهم النص الدينى فهماً صحيحاً : مراعى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها . ونستوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة . ثم نجرأ على التصريح بما فهمناه من النص سواء أوافق رأى غيرنا أم لا . وقد اقتبسنا هذه الطريقة فى الفهم من أقوال السيد الأفغانى وتعاليمه المروية والمبثوثة فى (العروة الوثقى) أولا ثم فى سائر ما علق بكفنا من كتاباته وكتابات تلميذه الشيخ محمد عبده ثانياً . فالأساس الذى بنى عليه الإصلاح الدينى إذن هو تمييز نصوص الدين والحرص على فهمها فهماً حرًّا . مستنداً إلى قواعد اللغة العربية وقوانين بلاغتها . ثم الجرأة فى الدعوة إلى الصحيح المعقول من تلك النصوص والتعاليم واطراح الباطل الدخيل عليها . والجهر بذلك كله من دون جمجمة فى قول . أو تقيّة من ذى صولْ .

قال السيد الأفغانى لجلسائه وقد سئل عن رحلاته إلى لندن إنه ذهب إليها ثلاث مرات كان يقصد فى إحداها باريس فألم بلندن إلمامة خفيفة لم تتجاوز خمسة عشر يوماً . قال وقد

اتفق لى فيها أن إنكلترا أرادت أن أكون فى الوفد الذى عزمت على إيفاده إلى الثائر فى السودان (محمد أحمد المتمهدى) بقصد مذاكرته فى أمر الصلح ؛ وكانت ثورته الشغل الشاغل لإنكلترا فى ذلك الحين . قال السيد : وقد سررت فى نفسى من هذه الرحلة إلى السودان ، لما أنه انفتح أمام عينى الطريق إلى خدمة المسألة المصرية . ومعالجة أسباب إنقاذها من سلطة الإنكليز — لو تم ذلك لكنه لم يتم بسبب موت المتمهدى .

أما المرة الثالثة التى نزل فيها السيد الأفغانى (لندن) فقد كان الغرض منها مقاومة ناصر الدين شاه . بعد ما كان من سوء معاملته للسيد وهو مريض فى (شاه عبد العظيم) وإبعاده إلى الحدود التركية كما أمر . وكان السيد إذا ذكر شاه إيران طعن عليه طعناً قبيحاً . ولا يألو فى تعديد مثالبه والتهكم به . والزراية عليه . وأخذ فى لندن يسعى فى إلقاء النفرة بينه وبين إنكلترا . قال : « لأن الشاه طغا وتجبر وبالغ فى الكبر والعتو وسب الأشراف والأولياء وسلم وزارته لوزير شاب جاهل عات ظالم فخرب بلاد إيران . ولم يجرئه على فعله هذا إلا استناده إلى إنكلترا . فإذا أعلنت إنكلترا أنها لا تؤيده فى أعماله المنكرة هذه سلمت إيران . وعاد إليها الأمن والأمان » .

فكان جل ما يرمى إليه السيد فى نزوله (لندن) هو أن

يحفظ قلب إنكلترا على الشاه ووزيره الشاب. وقد بلغ أمنيته هذه بواسطه نشر مقالاته فى الصحف والأحاديث عن الشاه فى المحافل حتى صغر الشاه فى نفوس الإنكليز . وحقر فى أعينهم . وهان قدره عليهم .

ولم يخف هذا على الشاه فكبر عليه وتعاظمه وأقلق راحته . فجعل يفكر فى طريق الخلاص من السيد وإخراجه من (لندن) فرأت حكومته أولا أن ترسل كتاباً إلى السيد بواسطة سفيرها تستعطفه وتقسم عليه بجده المصطفى (ص) أن يقلع عن مقاومة الشاه ويكف عن الطعن عليه والوقيعة فيه . وعرضت عليه أن يطلب فى مقابل ذلك ما يشاء ويتمنى فأجابهم السيد : «لا أتمنى إلا أن تزهق روح الشاه ويشق بطنه . ويوضع فى القبور» .

كل هذا سمعته من فم شيخنا الأفغانى الذى كان يرويه بطلاقة لسان وتوقد جنان .

وما كان أجوده بالأحاديث وقص الأخبار على جلسائه فقد كان لا يبخل عليهم بجواب . ولا يعييه خطاب .

هذا فيما يتعلق بالجد من الأمور . أما لحين المطايبة وإرسال النكت فهو الروض لا تهدأ عن التغريد أطياره . ولا تألو فى نشر الشذى أزهاره . وكنت أتخيل قبل اجتماعى بشيخنا الأفغانى

وكثرة ما وصفوه لنا بالفلسفة والحكمة أنني سأراه عابس الوجه مهيب السمت شديد الإطراق قليل الكلام . إذا سئل إجاب بالإيجاز . وأورد كلامه كما تورد الأحاجى والألغاز . شأن أولئك الذين يسمون أنفسهم فلاسفة أو متفلسفين ويغمضون فيما يقولون أو يكتبون . فلا يفهم ما يعنون ويقصدون .

أما فيلسوفنا (الأفغانى) فما كنا نراه إلا مشرق الوجه. منبسط الأسارير. جذاب لحظ المقلتين . تبرق عيناه وهو يحدث بما يسأل عنه . وتنفرج شفتاه عن ابتسامة لطيفة حين سماعه النوادر من جلسائه . ولهذا أحبه مريدوه . وكثر زواره . وشاعت فى الناس أخباره .

روى الأستاذ عباس محمود العقاد فى بعض كلامه على سعد باشا زغلول ،وقد بشره (أى بشر سعداً) يوماً أحد أصحاب الرؤى والأحلام بنجاح الوفد فى الانتخابات النيابية . فقال سعد : وماذا عليه ؟ إن أخفقنا معشر الوفد بين لم نر له وجهاً . وإن نجحنا جاءنا يطلب البشارة . ثم تابع سعد حديثه حاكياً حكاية السيد جمال الدين الأفغانى مذ كان مسافراً فى سفينة وقد خيف عليها الغرق فقال : أخبرنا الشيخ جمال الدين أنه لما رأى الصبية والنساء وضعاف القلوب فى السفينة يضطربون ويهلعون ذهب يؤكد لهم أشد التوكيد أن سفينتهم لن تغرق

فى تلك السفرة ويقسم لهم أنها لناجية بلامراء . قال الشيخ : وكان القوم يظنون فى القداسة مذ يروننى بالعمامة الخضراء فيحسبوننى من دراويش الهند الذ ين يكشفون الغيوب .ويطلعون على أسرار المستقبل.والمسألة بعد مسألة حسابية : إن غرقت السفينة لم أجد منهم من يكذبنى . وإن سلمت ظفرت بالقداسة من أقرب سبيل . وسمعته مرة يروى نكتة عن رجلين قال أحدهما لصاحبه يعظه وينصح له : يا أخى لماذا لا تصلى ؟ الصلاة فضلها كذا ومكانتها من العبادات كذا وكذا . صل أربعين يوماً فقط وانظر إذا كان يمكنك بعدها أن تترك الصلاة ؟ فأجابه صاحبه وأنت يا أخى اترك الصلاة أربعين يوماً ثم انظر إذا كان يمكنك بعدها أن تعود إليها . فضحك جلساء السيد لهذه النكتة الدالة على خبث هذا التارك للصلاة ومحاجته فيها بباطل القول وزور الكلام.

قال لنا السيد : مر بالهند سفير أرسلته حكومته الأمريكية إلى بلاد الصين ثم ما لبث وهو فى الهند أن اجتمع بالمسلمين وأكثر من مخالطتهم والترس بهم فمال قلبه إلى الإسلام فأسلم، وحاول أن ينقل الإسلام إلى بلاده وينشره بين الأمريكيين وأخبروه بمكانة السيد من العرفان والمقدرة، وأنه يقيم فى الاستانة؛ فكتب السفير كتاباً إلى البرنس (فاضل باشا المصرى) يخبره فيه بعزمه على نشر الإسلام فى أمريكا . وفى طيه كتاب آخر منه إلى

السيد جمال الدين يطلب منه فيه أن يتهيأ للرحيل معه إلى أمريكا. وشرح له قصده من هذه الرحلة وكتب كتاباً ثالثا إلى الجمعية الإسلامية فى ليفربول يخبرهم بغرضه أيضاً فأرسل رئيس هذه الجمعية (عبد الله وليم) كتاباً إلى (فاضل باشا) وفى طيه كتاب إلى السيد يحضه فيه على تلبية السفير وأن يشخص السيد أولا إليهم فى (ليفربول) فيؤلفوا بعثة دينية إسلامية يتولى السيد رئاستها ويصحبوه برجال من عندهم يثقون بكفايتهم ومقدرتهم . فلم يسع (فاضل باشا) إلا أن يعرض هذه الرسائل على السلطان عبد الحميد فلم يسمح السلطان بذلك ضنًّا بتلك الجوهرة أن تخرج من صدفتها الجديدة . ولا أذكر ما إذا كان السيد هو الذى نطق بتلك العبارة (أى ضنًّا بتلك الجوهرة إلخ . . .) أو هى من مقولى والجوهرة هو جمال الدين . وصدفته الجديدة هى الاستانة . التى دعاه السلطان إليها . وأنزله على الرحب فيها ليريح زميله شاه إيران من حملاته كما وصفنا آنفاً. وكيف يسمح السلطان للسيد بالسفر إلى أمريكا فينشر ثم من أخبار الاستانة وعجر المابين وبجره ما يزعج السلطان.ويقلق راحته . ومن رأى العبرة فى غيره فليعتبر . وقد جعل عبد الله نديم المصرى دعوة السلطان للسيد الأفغانى إلى الاستانة منقبة من مناقب السلطان فقال : وساح « أى السيد » فى الأقطار . وخالط الأمم. وداخل

السياسيين . ودرس التاريخ الحاضر والماضى . وامتد باعه فى العقليات . فأصبح أمة واحدة بين ذوى الفضل . وهذا الذى دعا مولانا الخليفة الأعظم لاستدعائه إلى عاصمته . وإدخاله فى لفيف العلماء الخاص بمجلسه العالى . فقد أهلته المعارف والتجارب والمخالطة العامة لمسامرة الملوك والنظر فى السياسات وهذا كله من فضل السيد الأعظم .ا هـ .

وسئل السيد عن رأيه فى (عبد الله وليم) الإنكليزى الذى كان أسلم فى ذلك العهد وألف جمعيته المذكورة وعما إذا كان اجتمع به ؟ فأثنى السيد عليه . وقال إنه على هدى من أمره .

قال ولما كنت فى لندن أرسل (عبد الله وليم) إلى كتاباً يدعونى إليه فى (ليفربول) ، وحاولت إجابة طلبه غير أن دعوة السلطان إياى إلى الاستانة حالت دون ذهابى إلى ليفربول .

قال السيد : واستأذنت يوماً على السلطان فعينوا لى يوم الخميس للمقابلة . وجئت يوم الخميس فقالوا لى تعال يوم الإثنين . وتكرر هذا منهم . فقلت للحاج على بك (رئيس القرناء): إننى لا أجىء إليكم من بعد اليوم . ثم اجتمع بالسلطان قال فأثنيت على جلالته : إذ كان محبًّا للدين . عاملا على نشره . قال : وطالت المذاكرة بشان إيفادى إلى أمريكا حسب طلب السفير الآنف الذكر . وكاد يتم الأمر . ثم عدلوا

عنه ورأوا أن الأصلح أن يذهب السيد إلى أوروبا فيقوم ثم ببعض الأغراض السياسية المتعلقة بمصالح الدولة العلية . ثم ضربوا صفحاً عن كل ذلك وقال له السلطان : أريد أن أجعل وطنك الاستانة إذ لم يكن لك وطن .

والحق أن السلطان كان يخشى شرّة السيد ويحاذر صولته كما مر آنفاً . فهو يفضل أن يبقى محبوساً فى القفص .

أما أن السلطان يريد أن يجعل الاستانة وطناً للسيد فهو قول لا محصل له فى نظر السيد لأن الإسلام بطبيعته يعلم بأن بلاد الإسلام مهما اتسعت رقعتها . وترامت أطرافها . تكون كل قرية أو بقعة منها وطناً للمسلم الذى ينزلها . فأهلها أخوته . وحكومتها حكومته . ويعنيه من أمرها ما يعنى سكانها أنفسهم فله أن يشتغل بسياستها . وينقد حكامها . ويرفع صوته بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيها . وهذا ما كان من جمال الدين طول حياته التى عاشها : فقد كان أفغانياً فى الأفغان، إيرانياً فى إيران هندياً فى الهند حجازياً مصرياً فى الحجاز ومصر تركياً فى بلاد الترك . وكان إذا سئل السيد عن وطنه أجاب : ليس لى وطن على أنه لا وطن اليوم للمسلمين ، يشير بهذا إلى أنهم غرباء فى أوطانهم مادام الأجانب مسيطرون عليهم . لا جرم أن شيخنا الأفغانى كان فى حياته وجولاته فى بلاد الإسلام

رمزاً قائماً بنفسه إلى وحدة الممالك الإسلامية . وأن سكانها شعب واحد . يعيشون فى وطن واحد . ولذا كان أكبر غرض يسعى إليه هو إقامة حكومة إسلامية قوية ينضوى إلى رايتها جميع شعوب الإسلام . هذا كان همه الأكبر . وهدفه الأعظم . لكنه وأسفاه لم يجد من ينقطع إليه فى خدمة غرضه من المريدين به سوى الشيخ محمد عبده . على أن هذا شعر أخيراً بصعوبة الأمر وأوجس خيفة من الخيبة فيه قبل حلول وقته المقدر له ، فكان يشير على جمال الدين وهما فى باريس بترك الصحافة وهجر السياسة إلى الانقطاع للعلم والدرس والتعليم فى مدارس يبنونها . ومعاهد يؤسسونها .فكان يقول له جمال الدين :اسكت أنت مثبط . وكأن المتنبى نظر إلى السيد الأفغانى بعين الغضب مذ قال :

أهم بشيء والليـــالى كأنها
تطاردنى عن كونه وأطارد
بعيـــداً عن الأوطان فى كل بلدة
إذا عظم المطلوب قل المساعد

ويا ليت الأفغانى كان اليوم حياً فيرى ما وفق إليه زعماء العرب أخيراً من تكوين هذه (الجامعة العربية) فإن فيها بعض ما كان يدعو السيد إليه ويحرص عليه . من أمر الوحدة .

لا جرم أن فى وحدة العرب وقوتهم قوة للإسلام فى جميع بلاد الإسلام . ولاسيما إذا عرفت رجال الجامعة كيف يخلصون فى العمل . ويتفقون فى الاتجاه . ويطبقون أعمالهم وقرارات جامعتهم على نواميس مدنية هذا العصر ويفرغون مساعيهم فى قوالب عقلية أهله . ودهاء ساسته . وهم فاعلون إن شاء الله .

وعرض فى مجلس السيد ذكر لميرزا باقر . فسئل السيد عنه . فحكى لنا ملخص ما عرفه من أمره . ومبتدإ خبره . فقال :

إن هذا الرجل تعلم فى مدارس الهند الإنكليزية وهو صغير فتنصر . وسمى ميرزا يوحنا . ثم صار ترجماناً لمشير الجيش الإنكليزى . واجتمع به السيد جمال الدين فى فرضة بوشير فى إيران عندما كانت العساكر الإنكليزية تحتل تلك الأنحاء احتلالا عسكريًّا . وكان ميرزا شاعراً فى اللغة الإنكليزية والفارسية . عارفاً بالعربية . وكان يقول الأشعار يهجو بها صاحب الرسالة . وكان مسلمو تلك الجهات لا يقدرون على معارضته خشية شره وسطوة الإنكليز . ثم جعل يتردد على السيد من وقت إلى آخر . فكان السيد يعارضه فى سوء ما يقول . وكان عمر السيد يومئذ عشرين سنة . وكان ذلك أثناء عودته من الحجاز إلى وطنه الأفغان . فكان ميرزا يرد على السيد كلامه مستهيناً به . فامتعض السيد يوماً وقال له : أنهاك أن تأتى داري بعد اليوم . فلم

يكترث ميرزا لقوله . وثابر على المجيء . وبقى على عادته من التفوه بما لا يليق . فهيأ السيد زمرة من شجعان الأفغان وجهزهم بالهراوى الضخمة . حتى إذا صدر منه ما ضاق صدر السيد عنه قام إليه ولطمه على وجهه بملء يده . ثم أشار إلى رجاله فهبوا إليه وبطحوه وانهالوا عليه بالهراوى ضرباً وجيعاً حتى سال الدم من فمه ومنخريه واستغاث بجدى السيد (النبى والحسين) فتركه السيد وذهب حبواً إلى الإنكليز . فلامه هؤلاء وقالوا له : أنت المخطىء فى مجادلتك قوماً خرجت من دينهم . وكان السيد أمر رجاله الأفغانيين أنهم إذا رأوا ميرزا فى حيهم يقتلونه . فرأوه يوماً مطلا برأسه من دار بعض القساوسة فعرفوه وأراغوا باب الدار وراموا فتحه فامتنع عليهم. فعزموا على حرق الدار. واحضروا النار ، ولولا أن القسيس نزل إليهم من الدار مقسما بالإنجيل على أن ميرزا لا يأتيهم بعد الآن لأحرقوه . ثم ضرب الدهر ضرباته وإذا السيد جمال الدين فى باريس فجعل يسأل عن الميرزا حنا ولا أحد يخبره عنه . ففى بعض الأيام جاءه كتاب فضه . وإذا هو بتوقيع ميرزا باقر . وقد افتتح كتابه بالصلاة والسلام على النبى حنيفاً مسلماً . ثم اجتمعا وتصافيا . وكان السيد يرسله مع الشيخ محمد عبده إلى باريس ليترجم بينه وبين رجال السياسة . فأرسله مرة معه لمذاكرة السياسيين بشأن (مالية مصر)

فجعل ميرزا فى أثناء الترجمة يتعرض للمسائل الإسلامية وبيان مزايا الإسلام والدعوة إليه . وكان هذا دأبه . فكان الشيخ عبده يقول له مبتسما : خل الدعوة لوقت آخر . ومكان آخر . نحن اليوم مشتغلون بمسائل مالية مصر وغيرها من الشئون لا فى مسائل الدين والدعوة إليه . وميرزا لا يصغى إلى نصيحته . ولا يرجع عن اللهج بدعوته . وكان يطبع نشرات يدعو بها إلى الإسلام ويقف على أبواب الكنائس ويدسها فى أيدى الداخلين والخارجين من أغنياء ومعدمين . وقد نظم بعض الإيرانيين قصيدة باللغة الفارسية مدح بها فيكتوريا ملكة الإنكليز وكلفوا ميرزا باقر ترجمتها إلى الإنكليزية فترجمها شعراً وعرضوا عليه مكافأة عليها مبلغ خمسمائة جنيه فأعرض مستنكفاً . وقال لا أريد مكافأة عليها إلا الجلاء عن مصر . الجلاء عن مصر. وكان رحمه الله فقيراً جداً لا يملك قوت يومه .

هذا ما سمعناه من فم جمال الدين عن ميرزا باقر رحمه الله وأنه ختم حياته الجديدة بنشر مزايا الإسلام والدفاع عنه والدعوة إليه والكتابة فى مناقبه والمقارنة بينه وبين الأديان الأخرى . على نمط ما كان يفعل كل من صاحبيه السيد الأفغانى والشيخ عبده .وما أشد اغتباطنا فى أن يقوم فينا عدة رجال كجمال الدين لا جمال الدين واحد . وكان الشيخ محمد عبده رحمه الله يأسف

ويحوقل مذ يسمعهم يقولون له : إنه لا يوجد فى المسلمين غيره . ويقول لهم : إن قولكم هذا يؤلمنى جداً . وكم أتمنى أن يكون فى المسلمين كثيرون أفضل منى وأقدر على العمل فى خدمتهم . وتوفير مصلحتهم . والذود عن حقوقهم .

وما قاله الشيخ عبده يذكّر بما كان من الفخر الرازى : فقد كان يقوم على منبر الرى خطيبا فيطرق طويلا ثم يرفع رأسه ويضرب بيده على لحيته وينشد :

خلت الديار فسدتُ غير مسود

ومن البلاء تفردى بالسؤدد

* * *

وسمعت السيد الأفغانى يقول فى مجلس له : إن أهل أوربا مستعدون لقبول الإسلام إذا أحسنت الدعوة إليه . فقد قارنوا بين الدين الإسلامى وبين غيره فوجدوا البون شاسعاً من حيث يسر العقائد وقرب تناولها . وأقرب من أهل أوروبا إلى قبول الإسلام أهل أمريكا . وإنما كانوا أقرب من الأوربيين لأنه لايوجد بينهم وبين الأمم الإسلامية عداوات موروثة ولا أضغان مدفونة مثلما هو الحال بين المسلمين والأوربيين .

قال السيد : والقرآن من أكبر الوسائل فى لفت نظر الإفرنج إلى حسن الإسلام فهو يدعوهم بلسان حاله إليه . لكنهم

يرون حالة المسلمين السوأى من خلال القرآن فيقعدون عن اتباعه والإيمان به .

قال : فإذا أردنا اليوم أن نحمل غيرنا على الدخول فى ديننا وجب علينا قبل كل شيء أن نقيم لهم البرهان على أننا لسنا متمسكين بخصال الإسلام . فلم نكن مسلمين ... كاملين .
وأفاض السيد فى مزايا القرآن وتعاليمه السامية : من ذلك أنه (أى القرآن) أول من دلنا على الوصول إلى الحقائق بالطريقة الفلسفية وهى (لمه) و (لماذا) إذ أن معظم آيات القرآن واردة فى معرض لم كان الأمر كذا ؟ ولماذا كان الأمر كذا ؟ وتكليف المخاطبين أن يعطوا الجواب المعقول على هذا السؤال وليست الفلسفة سوى ذلك .

قال : ومن مزايا القرآن أن العرب قبل إنزال القرآن عليهم كانوا فى حالة همجية لا توصف . فلم يمض عليهم قرن ونصف قرن حتى ملكوا عالم زمانهم . وفاقوا أمم الأرض سياسة وعلما وفلسفة وصناعة وتجارة . وكل هذا لعمرى لم ينتج إلا عن هدى القرآن وإرشاد القرآن : فالقرآن وحده الذى كان كافياً فى اجتذاب الأمم القديمة وهدايتها جدير أن يكون كافياً اليوم أيضاً فى اجتذاب الأمم الحديثة وهدايتها .

ولما انتهى الحديث بالسيد إلى هنا تنفس وقال : لولانا . لولانا .

القصور منا والتبعة علينا . انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه . والوقوف عند بابه . دون التخطى إلى محرابه . ولا بد هنا من إرسال نظرة عميقة فى قول شيخنا الأفغانى : « القرآن وحده » فإن فى قوله هذا إشارة إلى أن المسلمين فى الصدر الأول كفاهم القرآن وحده فى هداية البشر . أما اليوم فلماذا لم يكفهم القرآن وحده هداية البشر وهداية أنفسهم ؟ أليس هذا عجيباً من مواضع العجب » ؟

السيد الأفغانى ينبهنا إلى أن القرآن لم يعد وحده فى قلوبنا ولا على أكفنا . ليسهل علينا العمل بتعاليمه . وليتيسر لنا عرضه على الأمم مبشرين ومنذرين . وقد كانت الدعوة إلى القرآن والتبشير به من أكبر ما يطمح إليه الأفغانى فى حياته . وكان يتلو على من يرى فيه المقدرة على الدعوة قوله تعالى :(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وإنما نحن اليوم حملنا مع القرآن أبحاثاً لفظية . ومناقشات حول أحكامه فرضية . واستنتاجات ليست فى مصلحة البشر . ولا هى من وسائل هدايتهم إلى الإيمان به . وأضفنا إليه من الشرح والتفسير مالا محصل له سوى الإغراب وإرضاء العامة . وأى حاجة لأن يزداد على قوله تعالى « وجىء يومئذ

بجهنم » هذه الجملة (تقاد ــ أى جهنم ــ بسبعين ألف زمام وكل زمام بيد سبعين ألف ملك) فى نظير ذلك من الزيادات المفسدات للدين المزعزعات لليقين .

وكما قلنا فيما سبق إن تمييز النصوص صحيحها من فاسدها والجرأة فى نصرة الصحيح والجهر بالدعوة إليه وحده ــ هو أول قاعدة من قواعد الإصلاح الدينى ــ نقول بمناسبة قول شيخنا الأفغانى « القرآن وحده » إن القاعدة الثانية للإصلاح وتيسير الدين للدعوة هى الاعتماد على القرآن وحده فى هذا الإصلاح والدعوة . ونحن نعلم من شيخنا الأفغانى أن ما آخى القرآن هو من القرآن . فالحديث المتواتر هو من درجة القرآن فى إثبات الحكم ، وكذلك إجماع المسلمين فى الصدر الأول على حكم من الأحكام العملية الماضية مع الزمن هو مما يتمشى مع القرآن . ولا سيما أعمال النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته هو تفسير للقرآن وعمل بالقرآن فهو إذن من القرآن . فالتواتر والإجماع وأعمال النبى المتوارثة إلى اليوم هى السنة الصحيحة التى تدخل فى مفهوم القرآن وحده والدعوة إلى القرآن وحده .

القرآن وحده سبب الهداية والعمدة فى الدعاية . أما ما تراكم عليه وتجمع حواليه من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم ، فينبغى ألا نعول عليها كوحى . وإنما نستأنس بها كرأى

ولا نحملها على أكفنا مع القرآن فى الدعوة إليه . وإرشاد الأمم إلى تعاليمه لصعوبة ذلك وتعسره وإضاعة الوقت فى عرضه . ألسنا مكلفين بالدعوة إلى الإسلام وحمل الأمم على قبوله ؟ وهل تمكن الدعوة من دون ترجمة تعاليم الإسلام إلى لغة الأقوام الذين ندعوهم ؟ هل فى طاقة سكان البرازيل مثلا إذا أردنا دعوتهم إلى الإسلام أن يفهموا كنه الإسلام من ترجمة أقوال علماء الإسلام وآرائهم المتشعبة فى تفسير القرآن والحديث . ألق نظرك على فهرست أحد الكتب الدينية الكبرى وتأمل فيها لترى ما الذى يمكن عرضه والدعوة اليه من أحكامها وتعاليمها وما لا يمكن تجد أن ما لا يمكن العمل به ولا الدعوة إليه ولا تطبيق مفاصله أصبح عبأ يجب الاستغناء عنه بما يمكن . والممكن هو ما فى القرآن وحده كما قال السيد الأفغانى . وكما أشار إليه فى آخر رسالته فى إبطال مذهب الدهريين منه قال : « لم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان . فلو قام الدين على قواعد الأمر الألهى الحق ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يذهب بمعتقديه فى جوادّ الكمال الصورى والمعنوى » .

وكأن السيد يريد أن يقول فى تعاليم الإسلام إن الشجرة إذا ازداد نموها . واشتد التفافها . وكثرت أوراقها . وتشعبت أغصانها .

قل ثمرها وتضاءلت غلتها . فالبستانى الحاذق يعمد إليها فيبتر ويشذب . ويقلم ويهذب . ويبقى على بعض أصولها . فيتسرب الغذاء إلى هذه الأصول وحدها . وبذلك يعود إلى الشجرة طاقة إثمارها . وإيتاء أكلها . وهكذا القرآن يجب أن تنصرف هم المصلحين وتتجه عزائمهم إلى فهمه وحده . وفهم حياة النبى العملية التى تفسره وحده . وتنمية شعور المسلمين وتربيتهم على قداسته وحده . وإنما كان هذا لأن تزاحم الأمم على الحياة فى هذا العصر استأثر بالوقت فلم يبق منه للثقافات الدينية والدراسات الروحية إلا القليل ، فيجب اغتنام القليل وتسخيره فى خدمة القرآن فيخف الحمل وتسير السفينة باسم الله .

ورأى بعض جلساء السيد الأفغانى ما تركه الحديث السابق فى نفسه من أثر انفعال وتأثر فرفه عنه بشىء من المفاكهة والمطايبة وهو سؤاله عن سبب زهده فى الزواج . وسأله آخر من طلاب العلوم عن الجوهر الفرد ودليله . وهما سؤالان متناقضان من حيث الجد والفكاهة . وكان بلغنا أن السلطان عبد الحميد رغب إليه أن يتزوج بإحدى سرارى القصر فيفرد له منزلا بأثاثه ورياشه . على أن السلطان ما كان يهمه أن يتزوج جمال الدين بقدر ما كان يهمه أن يربطه بزوج ومسكن فيبقى تحت مراقبة جواسيسه وتهدأ بلاده وبلاد الشاه خاصة . ولم يغن الشاه ذلك

قتيلا . فإنه قتل بيد رجل من رجال جمال الدين متأثراً بآرائه ونزعاته .

أجاب السيد الأفغانى عن دليل الجوهر الفرد بأننا لو وضعنا كرة تامة الكروية على جسم مسطح تام التسطح لم تثبت عليه الكرة إلا بالجوهر الفرد . وإلا لم تكن الكرة كرة أو السطح مسطحاً. وأفاض فى بيان ذلك وبيان الجزء الذيموقراطى* والفرق بين هذا الجزء وبين الجوهر الفرد الذى يؤدى انكاره إلى القول بقدم المادة وقال إن الجزء الذيمقراطى هو الذى لا ينقسم فى الخارج فعلا وإنما ينقسم عقلا ووهماً . بدليل أنه لو فرض جزء بين جزأين فإما أن يكون له شمال ويمين فيكون منقسما أو لا فيلزم تداخل الأجسام وهو محال .

واعترض الحديث بعض أدباء الترك الحاضرين فى المجلس بمناسبة ذكر الجوهر الفرد فأنشد أبياتاً بالتركية . وصف فيها الشاعر فم محبوبه بشدة الصغر فقال : « جوهر لا يتجزأ ديسه م ياخود فم » أى هل أقول عن فم محبوبى إنه فم أو جوهر فرد .

ومن كلام السيد الأفغانى فى فلسفة اليونان واحتضان فلاسفة الإسلام لها قوله : « ان القول بوحدة الوجود أصله دين قدماء اليونان وقد دخل فى مذاهب العرب عند ترجمتهم لكتب أولئك

* نسبة إلى الفيلسوف القائل به وهو ذيموقراطيس .

القدماء . فهو دين متداخل فى دين من غير شعور الآخذين به » .
وكان السيد الأفغانى يعجبه الحديث عن اليونان وفلاسفتهم ومن حذا حذوهم من فلاسفة الإسلام . وهذا ما جعل (رينان) يقول فيه : كنت وأنا أحدث جمال الدين الأفغانى كأنى أحدث ابن سينا أوابن رشد . وروى العلامة سليمان البستانى أن السيد الأفغانى قال له منذ بلغه أنه شارع فى ترجمة الإلياذة : « إنه ليسرنا جداً أن تفعل اليوم ما كان يجب على العرب أن يفعلوه قبل ألف عام ونيف . ويا حبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون بادروا بادىء بدء إلى نقل الإلياذة ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها » ا هـ . أما سبب زهد السيد الأفغانى فى الزواج فأجاب عنه بقوله : « الإنسان فى هذا العالم يشبه مسافرا عاريا حافيا يسير فى مفازة ذات تضاريس وأشواك وعواثير تحيط به من كل جانب وهو يجتهد فى التخلص منها ثم النجاة بنفسه سالماً . فما بالكم لو حملنا على ظهر هذا المسافر مسافراً آخر أعياه السير أما يخشى عليه الهلاك ؟ كذلك شأن المتزوج .
ثم قال إنه لو تزوج وقد بلغ هذا العمر (وكان عمره يومئذ ستاً وخمسين سنة) لاستغرب الناس منه ذلك كما يستغرب من الشيخ عليش لو سار بتلاميذه إلى أزبكية مصر وجلس معهم إلى بعض المشارب ثم أمر الجارسون أن يحضر إلى الشيخ ده

زجاجة بيرا . وإلى الشيخ دوكها زجاجة شمبانيا .

وكان السيد يرتضخ لهجة مصرية . ولا غرو فقد أقام فى مصر نحو ثمانى سنوات . والشيخ عليش هذا شيخ مغربى من علماء الأزهر اشتهر بالتقوى والصلاح والتشدد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وله حكايات جمة فى شدته على السيد الأفغانى وتلاميذه وخاصة على الشيخ حسن الطويل (أحد علماء الأزهر المتخصصين فى الفلسفة وتعليمها) فكان الشيخ عليش يهرول إلى مكامنهم فى زوايا الأزهر ويشلّهم بعكازته شلا . ولا يدعهم يلوثون بقاع الأزهر الطاهرة بالكفر والزندقة .

وهكذا عاش شيخنا الأفغانى عزباً . والتحق بربه عزباً . وقد شغله عن اتخاذ الأهل والولد انصرافه بهموم نفسه وشراشر قلبه إلى إنشاء دولة إسلامية تتخذ من أسباب الرقى والمدنية والعزة ما تحمى به نفسها . وتنقذ غيرها من الأمم الإسلامية المستضعفة .

وذكر السيد الأفغانى للشيخ عليش وتمثله به فى مسألة الزواج يدل على أن السيد رحمه الله كان يتسع صدره لغضب الشيخ عليش ويتلقى ما كان منه من شدة الوطأة عليه وعلى تلاميذه بكثير من الصبر وبكثير من العذر: فإن قلق الشيخ عليش وهياجه ضد المشتغلين بالفلسفة خشية أن يتسرب إلى الدين ما يفسده

ويضر بسلامته أمر طبيعى فيمن كان على مثل حاله وورعه وتربيته الأزهرية فلا يستغرب منه هذا بل ربما كان من المستغرب أن يتسامح مع هؤلاء المجددين من النوابت .

أما ما لم يكن طبيعيًّا فى نظر السيد الأفغانى ولا يمكن أن يتحمله أو يغمض فيه بحال من الأحوال فهو الخيانة الوطنية والتفريط بالمصالح القومية : فما كان يتسامح قط مع أولئك الزعماء الذين يخونون وطنهم ويساومون على مصالح أمتهم . وهذا ما كان من السيد الأفغانى مع شيخ الإسلام التركى (حسن فهمى أفندى) : فإن شيخ الإسلام هذا كان قاوم السيد الأفغانى فى الآستانة لما جاءها لأول مرة . وأخرجه منها ظلماً وعدواناً بسبب خطابه الذى كان ألقاه فى (دار الفنون) كما مر تفصيله . فلم ينس جمال الدين هذا من عمل حسن فهمى فقال فيه كلمة عرض فيها بخيانته لوطنه تعريضاً محضاً . وقد جاء ذلك فى رسالة* للسيد جمال الدين بعنوان (الحكومة الاستبدادية) وقد وصف فيها هذه الحكومة وقارنها بالحكومات الأخرى : حكومة قاسية وحكومة ظالمة ورحيمة وعالمة وأفينة غرة ومتنطسة وقد قال فى رجال هذه الحكومة الأخيرة : يكون من شأن رجالها

---

* نشرت هذه الرسالة فى العدد (٣٣) من جريدة مصر بتاريخ ١٢ صفر سنة ١٢٩٦ هـ الموافق لسنة ١٨٧٨ ميلادية .

كذا وكذا . ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة وصيانة استقلالها لايكونان إلا بارتباطاتها السياسية وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى وأنها لا تتم إلا برجال عارفين دهاة متبصرين محبين لأوطانهم لا كحسن فهمى أفندى شيخ الإسلام الأسبق فى الآستانة الذى كان يقول لعدو وطنه الجنرال (أغناتيف) سفير الروسيا فيها « إنك عينى اليمنى وإن حيدراً ابنى عينى اليسرى » . ذكر ذلك حضرة مدحت أفندى فى كتابه المسمى بأس الانقلاب . اهـ

٤

وللسيد الأفغانى رسالة بليغة فى إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم . وإثبات أن الدين أساس المدنية . والكفر فساد العمران ألفها السيد باللغة الفارسية . ونقلها إلى العربية الشيخ محمد عبده بمساعدة (عارف أفندى أبى تراب) الأفغانى تابع السيد جمال الدين الخاص . وطبعت الرسالة فى بيروت سنة ١٣٠٣ هـ . وقد سألنا السيد الأفغانى فى بعض جلساتنا إليه عن السبب فى تأليفه هذه الرسالة التى اشتهرت بأنها رد على النيشريين ومن هم هؤلاء النيشريون ؟ فقال :

إن كثيرين من مسلمى الهند تلوثوا بهذه البدعة التى بثها الإنكليز فى بلادهم من حيث أنهم (أى الإنكليز) رأوها أقرب وسيلة للوصول إلى غرضهم . وتأييد سلطانهم فى الهند . وجد الإنكليز أن الديانة الإسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان فى أوطانهم . ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التى لا يمكن انسلاخه عنها . ولا انتزاعها من فطرة ابنائه . ففكروا فى أمر يضعف أثر هذه العقيدة فى نفوسهم فرأوا أن أقرب طريق إلى نيل مرادهم هو نشر التعطيل

بين المسلمين . وأن الدعوة إليه أنفذ إلى قلوبهم من الدعوة إلى التثليث . والتعطيل الذى هو الإلحاد يسمى بالإنكليزية (نيشر) أو (نيجر) Nature * ففتحوا مدرسة عظمى لنشر تعاليم النيشرية وبث مبادئها فى نفوس النشء المسلم . فضل كثيرون منهم . وأشربوا حب الإلحاد فى قلوبهم . ولا سيما أولاد الأمراء الذين كان معظم طلاب تلك المدرسة منهم . فلما ألف السيد رسالته فى الرد على النيشريين . وانتشرت فى طول بلاد الهند وعرضها أخرج كثيرون من أمرائها أولادهم من تلك المدرسة . ورجع آخرون عما كان خامر نفوسهم من التعطيل والإلحاد .

قال السيد : وإنما سعى الإنكليز فى جعل المسلمين دهريين ولم يسعوا فى جعلهم مسيحيين . لأنهم رأوا بعد طول تجربة واختبار أن دعوة المبشرين لمسلمى الهند بالنصرانية لم تنجح . وأن مساعيهم فى نشرها كانت تذهب أدراج الرياح : لأنهم وجدوا أن المسلمين نصارى وزيادة فهم يؤمنون بعيسى ومريم وبجميع التعاليم المعقولة التى علم بها المسيح (ويبرئونه وأمه من كل شين) كما يبرئه المسيحيون .

ولزيادة الفائدة فى التثبت من هذا الموضوع ، موضوع نشر الإلحاد

* هذا ما يفهمه الناس من لفظه (نيشر) أما هى فى الأصل فمعناها (طبيعة) (Neture) وكان ينبغى أن تكتب (ناتشور) .

ومقاومة شيخنا الأفغانى له بكل هذه الشدة، ننقل صورة الكتاب الذى أرسله إليه (مولوى محمد واصل) مدرس الفنون الرياضية فى مدرسة الأعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد الهند وهى هذه :

١٩ محرم سنة ١٢٩٨ ﻫ

قال المولوى محمد (بعد رسوم المخاطبة) : يقرع آذاننا فى هذه الأيام صوت نيشر نيشر . وإنه ليصل إلينا من جميع الأقطار الهندية : من الممالك الغربية والشمالية و (أوده) و (بنجاب) و (بنغاله) و (السند) و (حيدر آباد الدكن) ولا تخلو بلدة أو قصبة من جماعة يلقبون بهذا اللقب (نيشرى) ويظهر لنا أن من يعلق عليهم هذا اللقب ينمو عددهم على امتداد الزمان خصوصاً بين المسلمين . ولقد سألت أكثر من لاقيت من هذه الطائفة : ما هى حقيقة النيشرية ؟ وفى أى وقت كان ظهور النيشريين؟ وهل من قصد هذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا أن تقوّم عماد المدنية . ولا تعدو هذا المقصد ؟ أو لها مقاصد أخرى ؟ وهل طريقتهم تنافى أصول الدين المطلق أو هى لا تعارضه بوجه ما ؟ وأية نسبة بين آثار هذا المشرب وآثار مطلق الدين فى عالم المدنية ؟ والهيأة الاجتماعية الإنسانية؟ فإن كانت هذه الطريقة من النحل القديمة فلم لم تنشر بيننا ولم تعهد لها دعاة إلا فى هذه الأوقات ؟ وإن كانت جديدة فما

الغاية من إحداثها ؟ وأى أثر يكون عن الأخذ بها ؟ ولكن لم يفدنى أحد عما سالت بجواب شاف كاف . ولهذا التمس من جنابكم العالى أن تشرحوا حقيقة النيشرية والنيشريين بتفصيل ينقع الغلة . ويشفى العلة والسلام ا هـ .

فأجابه شيخنا الأفغانى بكتاب هذا نصه :

محبى العزيز :

(النيشر) اسم للطبيعة . وطريقة النيشر هى تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت فى بلاد اليونان فى القرنين الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح . ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ووضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال والأبضاع بين الناس عامة . وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا وبالغوا فى السعى إليه . وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة . وتقلبوا فى مظاهر متعددة . وكيفما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها . وعاد عليهم سعيهم بالزوال . وأيما ذاهب ذهب فى غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة تجلى له أنه لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية . وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية : إذ لا ريب فى أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعى . ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين ألبتة . وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان وطرح كل عقد دينى . وأما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سُلاكها مع طول

الزمن على نشأتها فسببه أن نظام الألفة الإنسانية وهو من آثار الحكمة الآلهية السامية كانت له الغلبة على أصولها الواهية . وشريعتها الفاسدة . ولهذا السر الآلهى انبعثت نفوس البشر لمحو ما ظهر منها . ومن هذا لم يسبق لهم ثبات قدم . ولم تقم لهم قائمة أمر . ولا فى وقت من الأوقات . ولتفصيل ما ذكرنا نتقدم بانشاء رسالة صغيرة أرجو أن تكون مقبولة عند العقل الغريزى لذلك الصديق الفاضل وأن تنال من ذوى العقول الصافية نظرة الاعتبار ا هـ .

شرح لنا السيد الأفغانى فى مجلسه كل هذا وانتهى به القول إلى وصف ما عليه قبائل الهند من الجهل والغباوة . وقال: حبذا لو أن الدولة العثمانية ترسل بعثات من العلماء إليهم لا لأجل دعوتهم إلى الإسلام فإنهم مسلمون . ولكن لأجل أن يعلموهم قواعد الإسلام : فإن جهلهم لها جعلهم مسلمين بالاسم . حتى إذا سئلوا عن الدين الذى يدينون به قالوا فى الجواب (نأكل لحم البقر والحمد لله) يعنون أنهم من أتباع الدين الذى كل ما يعرفونه عنه أنه يبيح لهم أكل البقر . وليسوا من اتباع الدين الذى لا يبيح لهم ذلك ؛ وهو دين وثنيي الهند الذين يعبدون البقر . ولا يأكلون لحومها .

قال : فقبائل الهند لا يعرفون من أحكام دينهم دين الإسلام

إلا جواز أكل لحم البقر . مثل هؤلاء يجب علينا أن ننشر بينهم تعاليم ديننا . وهذا بالطبع أقرب وأوجب من نشره بين غير المسلمين . ثم قال : وياليت أهل مصر الذين ينفقون فى موالد الأولياء مليونى ليرة أو أكثر فى السنة الواحدة أنفقوا ذلك فى سبيل نشر الإسلام بين تلك القبائل الجاهلة فإنه أصلح للأمة . وأعون على لم شعثها .

واستطرد إلى وصف نيشربى الهند ومآربهم والطرق التى يسلكونها للوصول إلى أغراضهم : من ذلك أنهم يدعون أن ابراهيم وموسى وعيسى وطائفة كبيرة من عظماء العالم كانوا نيشريين : يضللون بذلك عقول السذج ويهونون عليهم الدخول فى بدعتهم .

وما قاله السيد عن نيشربى الشرق الأوسط ذكرنى بما يقال عن ماسون الشرق الأدنى فقلت له : إنه لا يوجد فى بلادنا نيشرية ولا نيشريون وانما يتردد مكان ذلك اسم الماسونية والماسون وتدعى هذه الطائفة أن كثيرين من عظماء التاريخ كانوا من شيعتهم . فما هو المبدأ الماسونى وما هو مختصر تاريخ الماسونيين؟ فقال : إن الماسونية نشأت فى الأوربا (كذا كان يلفظها السيد وكأنها ترجمة لقول الافرنج Europe) وكان الغرض من نشوئها فى الأصل إضعاف السلطة البابوية . فقلت له : إذن هى مسيحية

محضة فى نشأتها وفى أغراضها التى ترمى إليها فما لها ولغير المسيحيين؟
فقال : إن السبب الأصلى فى قيام الماسونية هو ما قلناه من مقاومة سلطة البابا لكن أربابها لما دونوا تعاليمها رأوا تقوية لها أو لأنفسهم أن يوسعوا نطاق تلك التعاليم بحيث يسمح لغير المسيحيين أن يدخلوا فيها ويعدوا من أبنائها . وبذلك أصبحت الماسونية شيعة سياسية أو حزباً سياسياً لا شائبة للدين فيه . غير أن دعاتها يشترطون على من أراد الانتساب إليها أن يكون معتقداً بوجود الله وببقاء النفس من حيث يؤدى ذلك إلى سلامة البشر من الإلحاد . وإفاضة المدنية على مجتمعه .

ثم قال السيد : وكما كانت روح الماسونية سياسية محضة كانت روح البروتستانية سياسية دينية . ومن هنا انساق الحديث إلى طائفة (الجزويت) فقال السيد إنها جمعية دينية محضة ثم شرح ما لهذه الطائفة من النية السوأى نحو الإسلام وأهله . فذكرت له مثالا لذلك ما كان يرتكبه بعض اليسوعيين من تحريف الكتب التى يطبعونها والتلاعب بالنصوص التاريخية التى ينشرونها . وفيها بعض الكيد للمسلمين . وبذلك شوهوا خدمتهم للعلم والتاريخ . وأضعفوا من ميل المسلمين إلى الاستفادة من مطبوعاتهم . فوافق السيد الأفغانى على ما قلته . وأيده بقوله : إن اليسوعيين لم يطردوا من فرنسا إلا لكثرة دسائسهم وغلوهم فى

مذهبهم حتى أصبح اسم (جزويت) شتماً يشتم به الرجل الآخر . على أن تلك الطائفة قليلة العدد بالنسبة إلى غيرها من الرهبنات فإن اتباعها لا يتجاوزون العشرين ألفاً . وسبب هذه القلة فيهم أنهم لا يقبلون دخول أحد فى زمرتهم ما لم يتوفر فيه شرطان : الأول أن يكون غنيًّا ذا ثروة ونفوذ مالى عظيم . والثانى أن يكون عالماً متبحراً . أو خطيباً ماهراً . ويختبرون مقدرته بإعطائه موضوعاً علميًّا يكتب فيه ويعلق عليه من رأيه . فإن أعجبهم قبلوه وإلا رفضوه .

وسألنا شيخنا عن مصير آثاره وما وضعه من الرسائل والتصانيف فقال إنه لا يوجد لديه منها فى الأستانة شيء وقد تركها فى لندن حينما غادرها إلى الآستانة على جناح السرعة . حتى إنه لم يصحب من أمتعته سوى سفط أودعه لبوس بدنه .

وسألته عما إذا كان أنجز وعده الذى بلغنا عنه من أنه سيؤلف كتاباً فى حقيقة الديانة الإسلامية فقال إنه لم يؤلفه بعد وإنما هو كتب باللغة الفارسية عدة مقالات فى الدين الإسلامى وسمو تعاليمه لكنها ليست محفوظة لديه وإنما هى مبعثرة هنا وهناك عند أصدقائه ومريديه الكثيرين المنتشرين فى الهند والبصرة ومصر ولندن .

ولما سمعنا هذا من السيد عجبنا منه كيف لا يرغب فى وضع التصانيف المطولة وإنما ترتاح نفسه إلى كتابة المقالات فى الدين الإسلامى وسمو تعاليمه والدعوة إليه . وياليته جمع تلك المقالات وأعدها للطبع ولم يتركها مبعثرة هنا وهناك لدى أنصاره المنتشرين فى أقطار العالم الإسلامى . وهو أيضاً لم يكترث لذكر بعض مصنفاته التى طبعت كرسالة (الرد على النيشريين) ورسالة (البيان فى تاريخ الإنكليز والأفغان) و (العلة الحقيقية لسعادة الإنسان) . على أن هذه الأخيرة ليست مستقلة وإنما هى مقدمة صدر بها تاريخه (البيان) المذكور* .

وروى الشيخ عبد الرشيد أبرهيم إن للسيد الأفغانى رسالة فى الرد على المسيحيين . ولم يذكر شيخنا الأفغانى هذه الآثار ولم يعدها من مصنفاته . وإنما اقتصر على ذكر مقالات كتبها فى سمو الدين الإسلامى . ومثل السيد الأفغانى تلميذه (أستاذنا الشيخ محمد عبده) فإنه أيضاً ما كان يعنى بوضع المصنفات ولم يؤثر عنه منها إلا رسالة لطيفة الحجم فى العقائد الإسلامية .

---

* وكلا الرسالة والتاريخ طبعا بمطبعة جريدة مصر في الإسكندرية سنة ١٨٧٨ م ثم أعيد طبع التاريخ وحده ١٩٠١ باسم (تتمة البيان فى تاريخ الأفغان) فى مطبعة الموسوعات بمصر على نفقة على يوسف الكريدلى . وفى تسمية التاريخ بالتتمة خطأ إذ أن التتمة اسم للمقدمة لا للتاريخ .

وهى (رسالة التوحيد) المشهورة . والارسالة فى إصلاح المحاكم ورسالة فى الرد على هانوتو . ورسالة فى الإسلام والنصرانية . وله مصنف فى العلوم الأزهرية تكلفه منذ كان يعمل مع علماء الأزهر فى علوم الأزهر . فأنت ترى أن آثاره لم تتخط شكل الرسالة واسمها . وما نسب إليه من التفسير لم يضعه وضعاً بقصد التصنيف فى تفسير القرآن وإنما هى دروس كان يلقيها على الطلاب فى الرواق العباسى أحد أروقة الأزهر فكان الحريصون من المريدين وأشهرهم صديقنا (الشيخ رشيد رضا) يدونون ما يسمعون منه فى التفسير . فالمصلحان العظيمان لم يشاءا أن يؤلفا ولا أن يخوضا غمار المناقشات الدينية والعلمية : علماً منهما بأن كثرة الخوض فى أحكام الدين وعقائده وموروث تعاليمه والتوسع فى شرحها يزيد المسلمين بلبلة وخلافاً ويورط الخائض فى مناظرات مع الآخرين تؤدى حتماً إلى مهاترات ومجادلات تنتهى أخيراً إلى بذاءات ومنابذات . علم هذا شيخانا العظيمان فزهدا فى إطالة النفس فى وضع المصنفات . وعدّا ذلك قاطعاً عليهما عملهما فى الإصلاح الإسلامى والاشتغال عنه بما لا يفيد من العلم . ولا ينسجم مع أخلاق العلماء . ولا جرم أن الجدل مع المخالفين والرد ورد الرد يشغل رجال الإصلاح عما هم بسبيله من الإصلاح . وتعبيد طرقه . وتعميم الدعوة إليه . هنا دعوة

إلى الإصلاح الدينى وقرت فى نفس المصلحين العظيمين وقد تعبدا إلى الله فى نشرها . وإقناع إخوانهم المسلمين بها . ويجب أن يسبق الدعوة إلى الشىء تعيين ذلك الشىء وتشخيص هدفه وتحديده من أطرافه . وأن يكون ململماً موجزاً تحيط به نفس السامع . ويستوعبه فهمه . وتتشربه مداركه : فلا ينبغى أن يشاب الإصلاح بما ليس من موضوعه من الاستطرادات والحشويات . ولو بحجة الرد عليها : فإن ذكرها يغرى بها . ويفتح باب الجدل حواليها . كما وقع للمؤلفين الأقدمين من فحول علمائنا . وبعد أن تُحدد مطالب (الإصلاح) وتعين يجب الإلحاح فى الدعوة إليها . وحمل الآخرين على النظر فيها . وكلما حاول الآخرون الخروج عنها إلى الجدل فى غيرها ردهم المصلح بلطف أو بعنف إليها قائلا : هذه هى مطالب الإصلاح لا نريد بدلا منها . ولا انصرافاً عنها . وإذا لم يكن للمصلح بد من الجدل قصر جداله عليها . وإذا حورب حورب من أجلها . وليحذر اللغط . فإنه من أكبر الغلط . هذا (لوثيروس) أشهر المصلحين الذين نجحوا فى إصلاحهم إلى أبعد حد . لم يكن يقدر له النجاح لو لم يدع إلى شيء معدود ومبدإ محدود . غامر فى الدعوة إليه . والصبر عليه . وعرض نفسه للخطر فى سبيله . فنال المراد . وقضى نهمته مما

أراد . ولا نظنه خرج فى دعوته إلى الجدل فى غير مطالب الدعوة المعدودة المحدودة . ولذا عاشت دعوته وملأت الخافقين رعيته .

ما لنا وله، هذا (محمد) وبحسبنا (محمد) مثلا : قام صلى الله عليه وسلم فى وجه المشركين فرفع صوته بالدعوة إلى شيء واحد : الأوثان باطلة . والله واحد . التوحيد التوحيد . دعوا الشرك دعوا الشرك . قضى على ذلك عشر سنوات فى بقعة واحدة (مكة) . لا تكاد تعرف له دعوة فيها إلى غير توحيد الإلـه . وخلع الأوثان . والاستكثار من ضرب الشواهد والأمثال وتنويع أساليب الحجاج فى تصوير قبح ما هم عليه . وحسن ما يدعوهم إليه . وبهذه الصورة انتشر التوحيد . وخالطت بشاشته قلوب العرب . حتى إذا تم له صلى الله عليه وسلم ما أراد أخذ فى وضع بناء الشرع على أساسه . وتوجيه أتباعه إلى الاهتداء بنبراسه .

وهذا ما كان يطمح إليه شيخنا الأفغانى . ولذلك لم يكثر من التأليف خشية أن يصرفه عن الدعوة إلى المقصود والأمل المنشود وهو وحده يجب أن يكون هدف المصلحين العاملين .

* * *

وجرى فى بعض جلساتنا إلى السيد ذكر ما وقع له ولناصر الدين شاه من الإحن والمحن . وقلنا له إننا اطلعنا على كتابه الذى

أرسله من البصرة إلى أكبر مجتهدى الشيعة (جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازى) المقيم فى (السامرا*) .

وأشرنا إلى ما فى الكتاب من بلاغة وحسن تصرف فى التهييج وإثارة الحفائظ على الشاه. فتهلل وجه السيد وتدفق فى وصف ما وقع له من ذلك الشاه . وكان يلذ له تكرار الحديث فى ذلك فقال :

جئت بطرسبرج فمكثت فيها أكثر من أربع سنوات . وفى خلال هذه المدة زارها الشاه . وأحب الاجتماع بى . فلم أرغب فى مقابلته . ثم سافرت إلى (مونيخ) من بلاد الألمان . فجاءها الشاه أيضاً . وطلب مقابلتى فامتنعت . فتوسط بيننا بعض كبار الرجال الألمانيين وغيرهم فاجتمعنا وطلب منى الذهاب إلى بلاده كى يجعلنى رئيس وزرائه . فأبيت وقلت له إننى متهيىء للسفر إلى باريس ومشاهدة معرضها (سنة ١٨٨٩ م) ولكن الشاه أخذ يلح على الحاحاً شديداً . فلم أجد مناصاً من إجابة طلبه . والذهاب معه إلى بلاده . قال السيد : ومن جملة قول الشاه فىّ « هذا رجل العالم السياسى الحربى اللائق أن يكون رئيس وزارة يقوم فيها بتدبير الأمة » . فقلت للسيد كيف يدعوك الشاه لأن تكون رئيس وزرائه وأنت مشهور بفرط رغبتك فى تشييد عقائد أهل السنة ؟ فقال جنون منه وهوس .

* واقعة على الدجلة بين بغداد وتكريت وهى (سر من رأى) المعتصمية

(كذا سألته وكذا أجابني) وكلاً السؤال والجواب مستغرب في نظري اليوم . ولا أتذكر السبب الذي دعاني إلى أن أوجه إليه هذا السؤال . ويخطر لي أنني إنما أردت استخراج تصريح منه فيما يتعلق بكونه أفغانيا سنيًّا أو إيرانيًّا شيعيا . فدل جوابه على أنه ليس من الإيرانية ولا الشيعية في شيء . قال السيد : وبعد أن أقمت في بلاد إيران حيناً من الزمن طلبت الذهاب إلى الأوروبا فمنعني الشاه من السفر وبلغني عن لسانه كلام خشن فيّ . وأنه ينوي لي نية سوء . وأن يحجر علي في البلاد الإيرانية، فاحتلت على الذهاب إلى مقام شاه عبد العظيم على مسافة عشرين كيلو متراً من طهران . والشاه عبد العظيم هذا من أحفاد بعض أئمة آل البيت . ومقامه حرم من دخله كان آمناً . فمكثت ثم سبعة أشهر وكتبت وأنا هناك عدة مقالات . وحررت في الجرائد جملة رسائل أودعتها مثالب الشاه وحض الشعب الإيراني على خلعه . ثم خرجت من مقام الشاه عبد العظيم إلى البصرة وأقمت فيها حيناً وجرت لي أمور ذات بال : منها إرسال الكتاب إلى بعض مجتهدي الشيعة . ثم قمت من البصرة إلى لندن وعدت إلى الكتابة في تقريع الشاه وذمه . والعمل على إسقاطه . ومن لندن طلبني جلالة السلطان عبد الحميد فاعتذرت بأني منهمك في أمر الشاه . ومشغول بمقاومته . ثم طلبني ثانية (وكان الشيخ أبو الهدى

تعهد للسلطان بأنه سيقنع السيد بلزوم الحضور) فأجبت الطلب ويممت دار السعادة . ناوياً الرجوع إلى لندن بعد مقابلة السطان فأنال أربى من تنكيس الشاه . وإنزاله عن العرش . (وما أشد سلامة صدر السيد الأفغانى مذ ظن أنه يمكن الخروج من الاستانة . والتخلص من الفخ الذى أوقعه فيه السلطان عبد الحميد والشيخ أبو الهدى) قال : ولما قدمت الاستانة أخبرنى السلطان بأن سفير إيران طب مقابلته مرتين فكان لا يسمح له . ثم أذن له فى المرة الثالثة . فكان مما قاله السلطان لجمال الدين : طلب منى السفير أن آمرك بالكف عن الشاه وترك التعرض له . وهأنذا أطلب منك تركه والإعراض عنه . فقلت إننى امتثالا لأمر مولانا خليفة العصر (عفوت الشاه عفوت الشاه) . فقال السلطان حينئذ : يحق لشاه إيران أن يخاف منك خوفاً عظيما . وقد كان أشكل على يومئذ قول جمال الدين (عفوت الشاه) أى تعدية فعل (عفا) بنفسه من دون حرف الجر (عن) فراجعت بعض المعاجم فوجدتهم يجوزون تعديته بنفسه على هذه الصورة : عفوت عن فلان . وعفوت عن فلان ذنبه . وشيخنا الأفغانى لم يقل عفوت عن الشاه ذنبه بل قال عفوت الشاه . فلا يزال فى صحة عبارته نظر .

وذكر السيد أنه حمل بعض مجتهدى إيران على تحريم شرب

الدخان وقد أراد ببعض المجتهدين (الميرزا محمد حسن الشيرازى) فأصدر المجتهد فتوى حرم فيها على الإيرانيين شرب الدخان فامتنعوا عن شربه امتناعاً شديداً حتى أن الشاه طلب نارجيلة (شيشة) ليدخن بها . فأجابه حجابه بأنه لا توجد النارجيلة فى القصر . لأن المجتهدين حظروا التدخين .

وثار العامة على الشاه وأحاطوا بقصره ليقتلوه أو يلغى المقاولة المعقودة مع الإفرنج لأجل تأسيس شركة (ريجى) فى بلاده فاضطر الشاه إلى فسخ المقاولة . ودفع إلى أربابها فى مقابل العطل والضرر تعويضاً بلغ نصف مليون ليرة إنكليزية . هذا ما قاله جمال الدين فى بيان السبب الذى جعل الشاه يلتجىء فى آخر الأمر إلى السلطان عبد الحميد ويتوسطه فى كف صولة جمال الدين عنه .

ويحسن أن نروى للقارىء ملخصاً من خبر إقامة السيد الأفغانى فى البصرة وما جرى له فيها حسبما أشار إليه السيد نفسه فى حديثه السابق .

قص على أحد وجهاء طرابلس الشام الخبر الآتى يرويه عن صديقه الشيخ عبد الحميد أفندى الرافعى وكان متولياً قضاء البصرة لحين نزول السيد جمال الدين الأفغانى فيها مبعداً من قبل حكومة شاه إيران . وإنما حدثنى الوجيه الطرابلسى بهذا الحديث

لأنه سمع مني وصف الضجة القائمة حول أفغانية السيد جمال الدين وإيرانيته على أثر ما نشره (محمد حسن خان) الملقب باعتماد الدولة وهو من كبار موظفي حكومة إيران المقربين لدى ملكها ناصر الدين شاه — في كتابه (المآثر والآثار)— وهو بمثابة السالنامات التي تصدرها الحكومة العثمانية في بلادها من وقت إلى آخر . فقد قال اعتماد الدولة : « إن جمال الدين من قرية أسد أباد من أعمال إيران . له مقام عال في العلوم العتيقة والجديدة . يفتخر به أهل إيران ولهم الحق . تعلم العلوم الشرعية في مدينة قزوين ومدينة طهران . وسافر إلى بلاد أفغانستان وهندستان ومنها إلى الممالك العثمانية ومصر . إلى أن قال : وأهل السنة والجماعة يزعمون أنه أفغاني الجنس كما كتب كبير تلامذته أستاذ الأدب الشيخ محمد عبده في مقدمة رسالة الرد على الدهريين » . انتهى قول اعتماد الدولة . وسألني سائل في بعض أندية طرابلس عن هذا القول وعن التوفيق بينه وبين ما قاله كل من الشيخ محمد عبده وأديب بك إسحق وسليم بك عنحوري وثلاثتهم من أصدقاء الأفغاني وممن خالطوه طويلا وقد حققوا أنه أفغاني الجنس . فقلت في التأويل : إنني وأنا في مصر (٩٠٥— ٩٠٩م) سمعت فاضلا إيرانياً أزهرياً يروى عن شيوخ قومه أن والد السيد جمال الدين إيراني من ولاية (مازندران) إحدى

مقاطعات إيران وكان ضابطاً فى الجيش الإيرانى . فارتأت حكومة إيران أن ترسل ضابطها هذا إلى بلاد الأفغان فى مهمة تتعلق بالحدود بين المملكتين أو لسبب آخر من الأسباب . فذهب الضابط إلى بلاد الأفغان وطابت له السكنى فيها . وتزوج إحدى كرائمها . وولد له جمال الدين منها فى بلاد الأفغان . أو أن جمال الدين ولد لأبيه فى إيران ثم حمله أبوه معه إلى الأفغان حين ذهابه إليها ا هـ .

هذا ما قاله الإيرانى الأزهرى مما يصلح للتوفيق بين القولين والتقريب بين الروايتين . وعلى هذا تكون تسميته جمال الدين بالأفغانى وهو إيرانى كتسمية مؤرخى العرب للإسكندر ابن فيلبوس (الاسكندر اليونانى أو الرومى) مع أنه مكدونى : لم يولد فى بلاد اليونان . ولا علاقة له بشعبها . لكنه افتتحها وكان أستاذه (أرسطو) من فلاسفتها . ومعظم جنوده من أبنائها . ولم استتم كلامى هذا عن نسبة جمال الدين حتى انبرى الوجيه الطرابلسى المذكور وقال ممتعضاً منكراً كل ما قالوه فى نسبة جمال الدين إلى إيران وقال : إن جعل السيد من أبناء إيران أو مواليد إيران فرية افترتها عليه حكومة ناصر الدين شاه بقصد الانتقام منه . وإن الخبر اليقين هو فيما حدثنى به صديقى (الشيخ عبد الحميد الرافعى) قاضى البصرة فى أثناء نزول

الأفغانى فيها مبعداً من إيران فهو إذن شاهد عيان . قال القاضى : كان والى البصرة ليوم قدوم جمال الدين إليها (هدايت باشا) وهو رجل جليل القدر كثير التقوى والصلاح . فاحتفل الوالى وأركان الولاية بالسيد وأكرموا نزله . وإذا برقية (شيفرة) وردت إلى الوالى من المابين يسألونه فيها عن نشأة جمال الدين وأصله وفصله وهل هو إيرانى كما يزعم الشاه . قال القاضى : فاستحسن الوالى أن يتوسطنى لدى السيد جمال الدين فأسأله عن أصله . ومبتدإ خبره من حيث لا أجعله يشعر بقصدى ووساطتى . ولكن ذكاء جمال الدين الخارق جعله ينتبه إلى الغرض من سؤالى . فبادرنى بقوله إنه أفغانى الأصل والفرع وأنه لا علاقة جنسية له بإيران ولا تابعية . وأن الشاه يشيع ذلك عنه إرادة اجترار إلى إيران ثم الانتقام منه والتنكيل به . قال (أى جمال الدين) وفى سنة ١٢٨٧ هـ فى زمن وزارة صفوت باشا للمعارف كان عينه عضواً فى مجلس المعارف الأعلى بناء على كونه أفغانى الجنس ثم قال فليسألوا (أى رجال المابين) الوزارة المشار إليها إن أحبوا.

قال القاضى : فأبلغت هدايت باشا ما قصه على السيد الأفغانى فأودعه برقية شيفرة رفعها إلى المابين . قال القاضى وبعد أن أبل السيد الأفغانى من مرضه الذى أصيب به وهو مبعد فى (شاه عبد العظيم) تهيأ للسياحة فى داخل جزيرة العرب وهو

المشروع الذى قام به بعده المرحوم (السيد عبد الرحمن الكواكبي) غير أن الوالى هدايت باشا منعه عن هذه الرحلة ريثما يكتب إلى المابين ويستطلع رأى أهله فيما عزم عليه جمال الدين . فجاء جواب السلطان عبد الحميد بالحيلولة بينه وبين ما عزم عليه فلم يخف سر ذلك على جمال الدين فطواه فى كشحه . ثم استأذن بالسفر إلى لندن فاستشار الوالى المابين فأذنوا له بإطلاق سراحه فعجل جمال الدين بالسفر إلى لندن وقد أصاب لأن المابين عاد فأرسل شيفرة إلى والى البصرة يمنع جمال الدين من السفر إلى لندن أيضاً . قال القاضى : ولما هم السيد جمال الدين بركوب البحر إلى لندن لم يكن فى جيبه سوى عشرة جنيهات فتعجب هدايت باشا من إقدام السيد وكبر همته . وتذاكر مع أعيان البصرة فى أمر مساعدته فاكتتبوا له : الوالى بخمسين جنيهاً ، ونقيب الأشراف (عبد الرحمن أفندى النقيب والد طالب باشا) بمائة وخمسين جنيهاً . وهكذا إلى أن جمعوا له خمسمائة جنيه . فسر السيد بما كان من صنيع الوالى وشكر له عليه وقال له : أرجو أن أكافئك خيراً جزاء ما صنعت بى . فأجابه الوالى : كيف تكافئنى وقد بلغت من الكبر عتيًّا . أقول : وقول جمال الدين هذا يشعر بما كان قد وقر فى نفسه من حب هذا الوالى الصالح واحترامه الشديد له . ولولا ذلك ما قبل منه

الخمسمائة جنيه التى جمعها له من أعيان البصرة : إذ أن المعروف من أخلاق جمال الدين وكبر نفسه الاستنكاف عن قبول أمثال هذه العطايا والمنح وفى مثلها قال كلمته المأثورة : « الأسد أينما ذهب لا يعدم فريسته » . قالها لما أراد قنصل إنكلترا فى السويس وبعض إخوانه أن يعطوه نفقة سفر إبعاده .

ووصل السيد جمال الدين إلى لندن ولبث فيها يخطب ويكتب طاعناً فى الشاه وحكومته حتى أثر طعنه فى العلائق بين الحكومتين الإيرانية والإنكليزية . وأكثر ما كان يكتب فى جريدة (ضياء الخافقين) بتوقيع (السيد) وكانت هذه الجريدة تنشر باللسانين العربى والإنكليزى . وكانت تصدرها شركة إنكليزية وقد جعلت غرضها (حصول التواصل والتعارف بين الغربيين والشرقيين) . وقرأت فى (ضياء الخافقين) مقالا للسيد فى وصف ما كانت عليه بلاد إيران من الانحطاط وسوء الحال ختمها بقوله : « أسفاً على هذه الأمة كيف أبادها الجور . وبددها الظلم . حتى سقطت من عداد الأمم العظيمة . وكاد أن يندرس رسمها . وينطمس اسمها. أين العلماء ؟ وأين حملة القرآن ؟ وأين حفاظ الشرع ؟ والقائمون بأمر الأمة ؟ وأين نصراء الحق والعدل إلخ . . » بمثل هذا القول الثائر والمحرض أحرج الشاه وضاق صدره فالتجأ إلى السلطان فكتب السلطان إلى سفيره فى لندن رستم باشا فلم يفلح

السفير ، وأخيراً أفلح الشيخ أبو الهدى منذ كتب إلى السيد الأفغانى ضروباً من الرقى . وأفانين من المنى . وكان السيد طيب القلب سليم الصدر سهل الانخداع فوفد إلى الأستانة . وإذا القاضى عبد الحميد أفندى الرافعى كان قد انقضت مدة نيابته فى البصرة فجاء الأستانة يطالب بغيرها . قال القاضى : زرت صديقى السيد الأفغانى فكان أول ما سألنى عنه (هدايت باشا) وكيف حاله ؟ فأخبرته بوفاته فترحم عليه وكلفنى أن أبحث عن مقر عائلته وما هى حاجاتها حتى يقضيها لها . فبحثت عنها . وسألتها عن حالها . وإذا هى فى أشد الضيق يومئذ : أرملة الباشا وابنته كانتا تسعيان لدى نظارة الحربية فى تقييد ابن ابنة الباشا فى سجل (الزاده كان) أى مع أبناء الأشراف والبيوتات القديمة لكى يخصص له راتب فلم تنجح شفاعتهما . ولما بلغ الخبر السيد جمال الدين شفع فى الولد فقيد اسمه فى (الزاده كان) وعين له معاش دائم ثلاثون جنيهاً . كما وظف للأرملة وابنتها خمسون جنيهاً . ووجهت رتبة عالية على صهرها .

وبمثل هذه الأخلاق الفاضلة والمزايا العالية كان جمال الدين جمال الدين لا بالانتساب إلى الأفغانيين أو الإيرانيين . هذا ما كان من أمر السيد وخبره الذى استقيناه من فم قاضى البصرة مذ كانا فى البصرة .

٥

ونرجع إلى مجالسنا إلى السيد مذ كنا معاً فى الأستانة سنة (١٣١٠ هـ) : للسيد الأفغانى كتاب فى تاريخ الأفغان سماه (البيان فى تاريخ الأفغان) وقد مر ذكره . إذا تصفحته وجدت فيه مقاطع كثيرة يستأنس بها على أن السيد كان أفغانياً سنياً . لا إيرانياً شيعياً . من ذلك قوله : « وجميع الأفغانيين سنيون متمذهبون بمذهب أبى حنيفة لا يتساهلون رجالا ونساء وحضريين وبدويين فى الصلاة والصوم . سوى طائفة (نورى) فإنهم متوغلون فى التشيع ولهم محاربات شديدة مع جيرانهم السنيين . ولا يبالون بالصلاة والصوم . وإنما يهتمون بأمر مأتم الحسين (رضى الله عنه) فى العشر الأول من محرم ويضربون ظهورهم وأكتافهم مكشوفة بالسلاسل » ا هـ .

ولو كان الأفغانى إيرانياً لكانت لهجته فى التحدث عن سنية الأفغانيين وتشيع بعض طوائفهم غير هذه اللهجة . ولكان أفرغ كلامه فى أسلوب آخر يعرفه كل من قرأ كتابات الفريقين السنة والشيعة إذا تكلموا عن حوادثهم وسردوا من أخبار تاريخهم ونشوء فرقهم ونحلهم . وألذ ما يجده القارئ فى تاريخ الأفغانى وصف



السيد الأفغانى فيه لقبائل الأفغان وعاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم فى أفراحهم وأتراحهم . مما يدل على لطافة طبع السيد وحبه للمزاح والدعابة مثلما رووا عن جده سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه . من ذلك قوله : وقلما يوجد البصل عند بعض القبائل كقبيلة (يوسف زائى) وقبيلة (أجيك زائى) فتجدهم إذا رأوا أجنبياً يتملقون إليه . ويتذللون بين يديه . قائلين (عندنا مريض فنرجو منك أن تتفضل عليه ببصلة عسى أن يكون شفاؤه فيها) .وإن قبيلة (أجيك زائى) كثيراً ما يتعرضون للقوافل إرادة السلب والنهب . يسدون طريقها . ويقابلونها بالأسلحة النارية . والآلات الحادة . فإذا لم يمكنهم أن يتغلبوا عليها صالحوها على أقة أو أقتين من البصل . واتفق أن ملك الأفغان (محمد أعظم خان) بعد ما ترك البلاد الهندية وفد على قبيلة (يوسف سزائى) ونزل فى خيمة خانها . فقام الخان مسرعاً وعلى وجهه لوائح الفرح وإذا به يقدم للأمير بصلة .

ومن لطيف ما جاء فى مقدمة تاريخ الأفغان، وفيه دلالة على تشاؤم السيد الأفغانى بالإنكليز ونفرته منهم ومن جشعهم فى سلب الممالك والاستيلاء على الشعوب ، قوله يصف عزة الأمة الأفغانية وحبها للحرية والاستقلال : « ولم ترض الدخول تحت

حماية الحضجر[١] المبتلى بجوع البقر والاستسقاء ، الذى لم يشبعه ابتلاع مائتى مليون من الناس ، ولم تروه مياه التيمس والكنج بل فغر فاه ليبتلع بقية العالم ويكرع مياه النيل وجيحون » لاجرم أن للإنكليز الحق فى أن يبغضوا جمال الدين ويجعجعوا[٢] به : فقد كان يهيج الهنود عليهم ويثير حفائظهم ويوقد نار حميتهم بمثل قوله لهم : « أما والله لو كنتم سلاحف وأنتم بهذه الكثرة وسبحتم إلى الجزر البريطانية ورفستموها بأرجلكم لأغرقتموها إلى قاع البحر » . ويذكر هذا بما كان يقوله (عبد الله نديم) ثورتهم ويهول به وهو يستثير همم العرابيين ويحضهم على الثبات فى ضد الإنكليز — يقول : « لا تخشوا صولة الأسطول الإنكليزى الراسى فى جزيرة كريد . فإنه تحت رحمة مدافع طابياتنا فى الإسكندرية . ومدافع طابيات الأتراك فى جناق قلعة » . وما كانت حجج جمال الدين فى مناظراته ترتكز على الغلو والتهويل فقط بل كان أحياناً يعمد إلى الحجة البليغة من أقرب طرقها ويفجأ بها الخصم فيفحمه ويقطع عليه حجته . جرى يوماً جدال بينه وبين بعض كبار الأوربيين فى موضوع المفاضلة بين الشرق

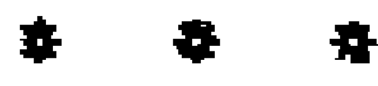
---

(١) الحضجر على وزن قمطر العظيم البطن الواسعه . ومن أجل ذلك سميت الضبع حضجرا .

(٢) أى لايدعونه يستقر فى مكان بل يطاردونه إلى حيث يأمنون شره .

والغرب فاقتحم السيد خصمه بنبرة حادة قائلا : « كفى الشرق شرفاً أن قام منه رجل ما زالت تعبده أمم أوربا إلى اليوم » . وقد عنى بالرجل السيد المسيح .

وكان السيد جمال الدين رحمه الله يزيدنا على ما تقدم كثيراً من وقائعه وشؤوناته الخاصة ومن تاريخ الأفغان وطباع أهلها . ولما تساءلنا فى المجلس السابق عن كلمة (الحضجر) التى وصف بها الإنكليز قلت له : لعل بلاد البلوجستان الواقعة فى جنوب الأفغان سلمت من ابتلاع الحضجر لها فضحك وقال : تكاد أن تسلم . ثم سألناه عن تلك البلاد وعما إذا كانت جزءا طبيعياً من بلاد الأفغان وإننا لنراها مخططة فى المصورات الجغرافية ولكنا لا نسمع لها ذكراً . ولا فى مداولات العالم السياسى ركزا. حتى كأنها خرجت من الدنيا وهى فيها ؟ فأجاب السيد : « إن البلوجستان بلاد قاحلة . وسهوب مرملة . وإن أهلها فى حالة بداوة وخشونة زائدة . وهذا ما ساعدها على الاحتفاظ باستقلالها فى الجملة . اللهم إلا بعض مناطق منها تابعة لبلاد الأفغان . وبعضها الآخر خاضع لإيران . وللإنكليز فيها بعض المراكز . وقد مدوا منها سكة حديدية إلى بلاد الهند . والذى زهدهم فيها قلة الاستفادة منها . وذلك لرداءة هوائها . وقحول أرضها » وما قاله السيد الأفغانى عن البلوجستان إنما كان فى سنة ١٨٩٢



وأفاض السيد يوماً فى وصف رحلته إلى أوروبا وما شاهده فى عواصمها الكبرى . وجعل يفاضل بين هذه العواصم فقال : إن عاصمتى الروسيا والنمسا (بطرسبرج وفينا) كباريس فى رونق الحضارة . وتزايين العمران . وقال إن فينا أكبر من الأستانة . فانتهزت قوله هذا . وجررته إلى الحديث عن العالم الإسلامى . وما يرجى له من ارتقاء ونهوض . وقلت له : إن الأستانة اليوم ليست كما كانت منذ ثلاثين سنة . كانت متأخرة فى عمرانها من عدة وجوه . ثم ما زالت تتدرج فى الحضارة واصطناع وسائل العمران حتى قطعت شوطاً بعيداً فى ذلك . فالمسلمون إذن دخلوا فى دور الانتباه واليقظة وضرورة الأخذ بمدنية أوربا . ومقومات حضارتها المساعدة على القوة . وبدأوا ذلك فى عاصمة خلافتهم كما هو الحال فى كل قوم انتبهوا وأرادوا النهوض من نومهم الطويل . وأرى أنه لا يمضى عليهم زمن حتى يبلغوا فى تقدمهم ما بلغته أمم أوروبا .

فلم يعجب السيد هذا التفاؤل المرح الذى آنسه فى كلامى وقال : إننا معشر المسلمين إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلاخير فيه . ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق . فقلت له ولكن ألا ترى

أيها السيد فرقاً بين حالتنا اليوم وحالتنا منذ ثلاثين سنة من حيث الرقى والأخذ بأسباب العمران مما يصحح لنا القول بأننا قد تقدمنا تقدماً ملموساً .

فقال إن ما نراه اليوم من حالة حسنة فينا هو عين التقهقر والانحطاط .

ـ ولم ؟

ـ لأننا فى تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية . وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب . والاستكانة لهم . والرضى بسلطتهم علينا . وبذلك تتحول صبغة الإسلام التى من شأنها رفع راية السلطة والتغلب إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبى . فقلت : وما هى الطريقة القويمة التى ترى أن نسلكها لنتوصل إلى التمدن الصحيح حسب اعتقادك ؟

ـ لا بد من حركة دينية .

ـ زدنى إيضاحاً فى معنى الحركة الدينية .

ـ إننا لو تأملنا فى سبب انقلاب حالة عالم أوربا من الهمجية إلى المدنية نراه لا يتعدى الحركة الدينية التى قام بها (لوثير) وتمت على يده : فإن هذا الرجل الكبير لما رأى شعوب أوربا زلت وفقدت شهامتها من طول ما خضعت لرؤساء الدين ولتقاليد لا تمت بصلة إلى عقل أو يقين . قام بتلك الحركة

الدينية . ودعا إليها أمم أوربا بصبر وعناد وإلحاح زائدين . فأصلح بذلك أخلاقهم . وقوم اعوجاجهم . وطهر عقولهم . ونبههم إلى أنهم إنما ولدوا أحراراً فلماذا استعبدهم المستعبدون ؟

ثم قال ونتج عن نشوء (البروتستانتية) فى أوربا مباراة ومسابقة بينها وبين عدوتها (الكاثوليكية) : فجعل كل فريق يرقب الفريق الآخر ويرصد أعماله ويحصى عليه حركاته وسكناته مخافة أن يسبقه إلى القوة والعزة والغلبة والارتقاء فى معارج المدنية . فكان كل منهما يسعى ويجد ويبذل مبلغ طاقته فى استجماع وسائل الرقى والتفوق على نده ومناظره . ومن هذه المنافسة بين الفريقين تولدت المدنية الحديثة التى نراها ونعجب بها . أقول : هذا رأى شيخنا الأفغانى فى أن المدنية الأوربية إنما هى وليدة المنافسة بين الكثلكة والإصلاح البروتستانتى . وكان ظهور الإصلاح على يد عميده المبشر به (لوثيروس) سنة ١٥١٩ م. وبعده بنحو خمسين سنة حدثت ملحمة (برثلماوس) فى باريس فكانت منشطة لما بدأ به (لوثيروس) وأقنعت الرأى العام الأوربى بلزوم الإصلاح واعتناقه . وهناك عوامل أخرى ذات بال سبقت الإصلاح ومهدت الطريق إليه وهى :

(١) الطباعة وكان ظهورها سنة ١٤٥٠م . وجعلها بعضهم

أهم العوامل حتى قال : إن الطباعة قلبت وجه الأرض وغيرت أحوال من عليها .

(٢) فتح القسطنطينية (سنة ١٤٥٣ م) من قبل الأتراك العثمانيين . وهجرة المثقفين من أبنائها البيزنطيين . وانتشارهم فى أوربا وخاصة إيطاليا حيث ظهرت النهضة التى يعبرون عنها باسم (Renaissance) .

(٣) اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٦ م وبذلك اتصل الغرب بالشرق . وتهيأت للظهور نهضة اقتصادية عالية

(٤) اكتشاف أمريكا من قبل (كريستوف كولومب) عام ١٤٩٢ م . فالعوامل الخمسة بما فيها الإصلاح البروتستانتى هى المؤثر المباشر فى ظهور مدنية أوربا . وقد وقعت هذه العوامل خلال سبعين سنة (١٤٥٠ — ١٥٢٠ م) يعنى أن قلق الأوربيين وعدم رضائهم عن حالتهم التى كانوا عليها ووثوبهم لالتماس أسباب الرقى والمدنية — كل ذلك كان فى القرن الخامس عشر . أى بعد انتهاء الحروب الصليبية بنحو مائتى سنة . فهل يعقل أن لا يكون لهذه الحروب علاقة بنشوء تلك العوامل الخمسة. لا جرم أن مخالطة الأوربيين للمسلمين فى عقر دارهم (سورية) أكثر من قرن ونصف ، عدا مخالطتهم لهم فى الأندلس مئات من السنين . هذا كله نبههم إلى سوء حالتهم فهبوا إلى تغييرها

بمختلف الوسائل التى منها العوامل الخمسة . (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) « قرآن كريم ».وشيخنا الأفغانى كان همه الملح أن يغير المسلمون ما بأنفسهم من رثاثة تقاليد، وغثاثة أخلاق بالرجوع إلى القرآن وتعاليمه . وجعله (أى جعل القرآن) روحاً للحركة الدينية التى دعا المسلمين إليها وجعل معوله فى تقدمهم ورقيهم عليها .

ثم رأيت أن أستزيد شيخنا الأفغانى تحديثاً عن الحركة الدينية التى ذهب إلى أن نهوض الأمة الإسلامية متوقف عليها فقلت له : إن ما قلته أيها السيد عن الحركة الدينية الأوربية وما كان من حاجة أهلها إليها لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نعرف نحن معشر المسلمين ما إذا كان مثل هذه الحركة مما نحتاج إليه فى نهضتنا . وإصلاح ما تشعث من أحوالنا . إذ أن هنالك فرقاً بيننا وبين الفريقين من حيث الحاجة إليها . إن سوء الحالة الروحية فى قارة أوربا وضغط التقاليد عليهم . وأخذ رجالها بأكظامهم — كل ذلك ساق (لوثيروس) إلى الصخب . وإثارة الشعب . ورفع الصوت بالدعوة إلى الإصلاح الدينى الذى ترجمت عنه أنت بالحركة الدينية . أما المسلمون فدينهم ما فى القرآن . وهو محفوظ من التغيير والتبديل . وليس من شأنه أن يضغط على نفوسنا . ولا أن يعطل حريتنا . وهو جدير بأن

يكون سبباً لسعادتنا . وجمع كلمتنا فى هذه الأزمنة الحاضرة . كما كان سبباً لسعادة أسلافنا وجمع كلمتهم الغابرة . ومن ثم لم أفهم معنى الحاجة إلى (الحركة الدينية) التى تدعو إليها فأجاب : إن حركتنا الدينية هى كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها : مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم أن لا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل . ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه فهماً يثبط هممهم عن السعى وراء الإصلاح والنجاح فى نظير ذلك مما لا عهد للسلف الصالح به . فلا بد إذن من بعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور . وشرحها لهم على وجهها الثابت . من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى . قال : ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا . وتنقيح مكتبتنا . ووضع مصنفات فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم . فنستعين بتلك الكتب والعلوم التى تضمنتها على الوصول إلى الرقى والنجاح . ومن الخطأ أن نجعل هذه العلوم مقصودة لذاتها : كعلم النحو والبلاغة مثلا . وهى إنما وضعت لتكون وسائل لغيرها . فالطالب ينفق معظم سنى حياته فى الاشتغال بالنحو والبلاغة وحفظ مسائلهما ثم نراه بعد

هذا كله لا يقدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم فى نفسه من الأفكار والآراء . وهنا أفاض السيد فى نقد طريقة اشتغالنا فى العلوم الموروثة والإطالة فيها على غير طائل حتى اهتدى الأجانب عنا إلى لباب تلك العلوم . وترتيب فصولها وأبحاثها . ثم استعانوا بها على تقويم اعوجاجهم ولم شعثهم وتركونا وراءهم نتخبط فى مهامه الحيرة . وفيافى الجهالة . ونحن فى غفلة عنهم . غير مبالين بما تجره غفلتنا علينا من الضعف وفقد العزة القومية . فلا بد إذن من (الحركة الدينية) . اهـ ما قاله السيد الأفغانى فى تفسير معنى حركته الدينية أو الاصلاح الدينى . وروح هذا الاصلاح الرجوع إلى القرآن وحده . كما قال أولا ثم فهمه فهماً صحيحاً حراً : وذلك يكون بتهذيب علومنا الموصلة إليه . وتمهيد الطريق إليها . وتقريبها من أذهان متناوليها من أبنائنا . وطلاب العلوم فينا .

٦

ومن ملح أخبار السيد الأفغانى بعد جيئته الثانية إلى الأستانة أن سمو خديو مصر عباس حلمى كان فيها . فمر يوماً وهو يتنزه بالكاغدخانة وهى أشهر مفترجات الأستانة ومتنزهاتها . فقيل له هذا السيد جمال الدين الأفغانى فى المتنزه . وحوله أصدقاؤه وخلص إخوانه . وكان الخديو يحب أن يرى الأفغانى ويجتمع به . غير أن اجتماع مثليهما لعهد عبد الحميد كان من الصعوبة بمكان . فاكتفى الخديو برفع يده مشيراً بالسلام إلى السيد جمال الدين ومن حوله . فوقفوا له وحيوه من بعد . واستمر الخديو آخذاً طريقه . فلم يلبث الجواسيس أن رفعوا تقاريرهم إلى السلطان يصفون فيها ما يتوقع من الضرر للملة فى هذه المقابلة بين الخديوى والأفغانى . ولم يقفوا عند حدود الحق والواقع بل تخطوها كما هى شنشنتهم إلى القول بأن الخديو خلا بالسيد الأفغانى ثَمَّ (أى فى الكاغدخانة) وتحادثا طويلا فى شؤون الخلافة. وما يجب أن يكون مستقبلها إلى غير ذلك من الأكاذيب فلم يكن بأسرع من أن استدعى السلطان السيد جمال الدين إلى قصره . وأطلعه على تلك التقارير فقرأها السيد وتبسم وقال له

بأنه لم يجتمع بالخديو ولا كلمه . وإنما أشار إليه الخديو وإلى من حوله وهو فى عربته بالسلام . ثم قال السيد للسلطان إن نبينا (ص) كان له من صحابته جماعة يخبرونه بما ينبغى أن يعرفه من أخبار الناس . وما يجرى بينهم من شؤون وحوادث . لكنه (صلى الله عليه وسلم) ما كان ليأتمن على هذا العمل إلا من توفرت فيه الخلال الحسنة كالصدق والإخلاص وسلامة الوجدان وحسن القصد لا أمثال جواسيسك الذين حولك . فضحك السلطان ووافقه على ما قال ومزق التقرير بين يديه .

وكان للسيد جمال الدين جرأة ودالة على السلطان لم تعهد لغيره. وحدثنى صديق صادق من أدباء دمشق أنه سمع من المرحوم (مصطفى باشا القنواتى) أنه كان للسيد جمال الدين صديق يعز عليه من المصريين فالتمس السيد من السلطان رتبة وزيادة فى الراتب لهذا الصديق فوعده السلطان بذلك . ومضت أيام على هذا الوعد . فكتب إليه يستنجزه وعده . فلم يأت الكتاب بنتيجة أيضاً . فاحتد جمال الدين . وكان حديد المزاج حتى قال فيه الشيخ محمد عبده (وطالما هدمت الحدة ما بنته الفطنة) واستأذن السيد على السلطان فأذن له . فدخل عليه ووقف أمامه منتصباً على رجليه وقد بدت عليه آثار الانفعال . وقال بصوت متهدج : أمير المؤمنين كسر قلبي . أمير المؤمنين كسر قلبي .

فلاطفه السلطان وهدأ خاطره وسأله عن الأمر الذى أزعج باله فلما أخبره به قال : إن هذا أمر طفيف ما كان ينبغى أن تغتاظ من أجله إلى هذا الحد ثم أمر بالرتبة وزيادة الراتب للمصرى حسب طلب السيد . ولما خرج جمال الدين من هذه المقابلة ناوله الحاجب كيساً فيه خمسمائة ليرة عثمانية ذهباً . وقد ذكر هذه الحادثة بعض من ترجم للسيد جمال الدين وقال إن السلطان لما رأى انفعال جمال الدين وسأله عن سببه أجابه السيد قائلا : « إنما أتيتك لأستميح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك لأنى رجعت عنها » . وقد استبعد محدثى بالحديث هذه الرواية كل البعد وأن يكون جمال الدين ممن تبلغ به الحدة إلى هذا الحد وإنما الخبر الحق ما قاله القنواتى باشا الذى ربما كان سمعه من لفظ عزت باشا العابد فى الأستانة وكان لايفارق مجلسه . كما كان عزت باشا لا يفارق مجلس السلطان .

ولما كان السيد فى روسية أحب القيصر أن يراه فاستدعاه إليه فكان مما سأله عنه كرهه لشاه إيران والسبب فى هذا الشقاق الناشب بينهما . وقياصرة الروسية وحكوماتها يهمهم جداً أن يعرفوا أسرار سياسة إيران وخفايا أحوالها الداخلية فشرح السيد للقيصر بسذاجة الطفل سوء حالة إيران . وخرق ملكها واستبداده برعيته . وأنه نصح له بأن يدخل الأنظمة الدستورية . والتراتيب

الشوروية إلى مملكته . فأبى الشاه عليه ذلك وامتعض من جمال الدين وعمل على إخراجه من بلاده . قال وهذا هو سبب الشقاق .

ولما سمع القيصر هذا من جمال الدين تمعّر وجهه وكلح . وقال له الحق مع الشاه . وأى ملك يرضى أن يتحكم فلاحو مملكته فى ملكه ؟ فسكت السيد وكان لا يعدم جواباً على ما قاله القيصر لو فسح له المجال . لأن القيصر أعرض عنه . وتقدم إلى شحنة مملكته بأن يعملوا على إخراج جمال الدين من بلاده من فورهم .

وحدثنى صديق آخر من أعيان دمشق بلطيفة من لطائف السيد الأفغانى مع جواسيس السلطان قال : إن سيادة شريف مكة غضب على أحد المكيين المقيمين فى الأستانة وخشى هذا المكى على نفسه من تعقب الشريف له . فالتجأ إلى منزل السيد جمال الدين . معتصما به . فطمأنه السيد وهدأ روعه . غير أن اعتصامه هذا خلق للجواسس شغلا يستغلونه ويشتغلون به . فجعلوا يطوفون بمنزل السيد ويراقبون اللاجئ المذعور . فكان السيد يرق له ويصحبه فى عربته أحياناً إلى مفترج (الكاغدخانه) الذى ذكرنا أنه كان يلم بها للنزهة .

فقيل له يوماً : أبعد عنك هذا الرجل (يعنون المكى اللاجئ

إليه) وأرح نفسك من مضايقة الجواسيس لك بسببه . فأجابهم متعجباً مالى وللجواسيس . هؤلاء سفراء الدول إذا لجأ إليهم لاجئ حموه من كل أحد حتى من هؤلاء الجواسيس . وأنا (سفير الله) فى هذا البلد أفلا ينبغى أن يطرد هؤلاء الجواسيس عنى كما طردوا عن سفراء البشر ؟ !

وسأل بعض المتحذلقين من طلاب العلوم الدينية السيد الأفغانى عن الإيمان : هل يزيد وينقص أولا ؟ فقال : « أما الإيمان فى القرى فلا يزيد ولا ينقص . وأما فى العاصمة فيزيد وينقص فى كل ساعة كإيمان السلطان عبد الحميد الذى يحيط به هؤلاء الجواسيس » . وكأن السيد فى مقاله هذا يريد أن يقول إن حالة السلطان الروحية تبقى مضطربة غير مستقرة على حال ما دام هؤلاء الجواسيس حوله يخبرونه بما يقوى ثقته تارة ويضعفها تارة أخرى . فإذا صدقهم نقص إيمانه وإذا لم يصدقهم زاد .

ومن أمتع ما روى من لطائف السيد الأفغانى وهو فى مصر أنه كان واقفاً فى ناحية من ميدان باب الخلق مع طائفة من أصدقائه ينتظرون مرور جنازة لأحد أمراء العائلة الخديوية . وكان على مقربة منهم سرب من النساء فجعلن ينظرن إلى السيد مستغربات هيأته وقيافته . وزاد فى انتباههن إليه ما رأينه من حفاوة رفاقه به . والتفافهم حوله . ومسارعتهم إلى خدمته . وهو

يضاحك هذا ويطارح ذاك . وأخذت النسوة يلتفتن إليه من وقت إلى آخر ويتغتغن* ضاحكات أحياناً ويتبادلن كلاما حسبه رفاق السيد استخفافاً بالسيد فقال له بعضهم : يا أستاذ اخفض من صوتك وأقلل من مزاحك . فإني أحسب هؤلاء النسوة ينبطن عليك . فمضى السيد فى حديثه وقال : دعهن فإنى لا أبالى بتنبيطهن . فكان جوابه مثاراً للضحك وتطارح النكتة فى الجانبين . وقوله (ينبطن) عليك معناه فى اللهجة المصرية يتندرن عليك أى يجعلنك موضوعاً للنادرة والنكتة .

ولعل التنبيط مأخوذ من اسم (النبط) وهو جيل معروف . ومعظمهم يشتغلون بالفلاحة . فيكون فى طباعهم خشونة وجفاء . فمعنى نبط عليه كلمه كلاماً خارجاً عن اللياقة يشبه كلام الأنباط .

وقد عرف من رأى السيد الأفغانى أنه يجوز استعمال الدخيل واللفظ الأعجمى فى الكلام العربى حتى روى عنه أنه قال : إذا أردتم استعمال كلمة غير عربية فما عليكم إلا أن تلبسوها كوفية وعقالا فتصبح عربية . وقد كنى بالكوفية والعقال عن التعريب. فكما أن الرجل الأعجمى إذا ألبسته لبوس العرب يصبح عربياً فى ظاهره كذلك الكلمة الأعجمية إذا عربتها أى ألبستها صيغ الكلمات العربية تصبح عربية جائزة الاستعمال . وهذا من

* التغتغة صوت ضحك النساء إذا أردن إخفاءه وغلبهن يغالبهن .

السيد توسع بعيد فى استعمال الكلمات الأعجمية . يقبله بعضهم ويرده آخرون . وروى صديقنا الأمير شكيب أرسلان (رحمه الله) أن السيد جمال الدين قال فى قول الله عز وجل (وإنه تعالى جد ربنا) أن (جد) معرب (كد) ومعناه العرش بالفارسية أو الهندية .

ومن أشهر آراء السيد جمال الدين التى تتعلق بأبحاث اللغة ما رواه الأستاذ اللغوى المرحوم الشيخ عبد الله البستانى من أن السيد قال فى هجو بعض البلداء: هذا رجل من نسل البقروت . قال فعابوا عليه استعمال كلمة (البقروت) فأجابهم ألا تقولون : جبروت ورهبوت وملكوت؟ فلماذا تمنعون عنى قول (بقروت) ؟ فاعترضوا عليه بأن البقروت لم ترد فى كلام العرب . فقال وهل تريدون منى أن أنكر نفسى اهـ . وقد علق الأستاذ البستانى على ما قاله الأفغانى مستحسناً . وعلق الأب أنستاس الكرملى على قوليهما مفنداً مستهجناً وعلقت أنا على أقوال الثلاثة فى مقال نشر فى مجلة مجمعنا العلمى العربى (جزء ٨ صفحة ٦٢٦) موافقاً فى شىء ومخالفاً فى شىء . ومما لاحظته على شيخنا الأفغانى أنه جعل بقروت مصدراً بدليل حمله لها على (جبروت) و (رهبوت) و (ملكوت) وهى مصادر . ولا يصح أن تكون (بقروت) مصدراً فى العبارة التى قالها إذ لا يقال فلان من

نسل البقرية . وإنما يقال فلان من نسل البقر والبقروت ليست بمعنى البقر . حتى قرأت أخيراً للمرحوم المخزومى باشا أن عبارة جمال الدين هى (سياسة بقروتية فى مملكة فرعونية) ولما اعترضوا عليه أجاب : كيف يصح قولهم ملكوت وجبروت هكذا يصح عندى بقروت والسلام . ا هـ

إذن لا غبار على ما قاله السيد فى عبارته المذكورة فإنه إنما استعمل (البقروت) فيها مصدراً لا جمعاً كأنه قال سياسة بقرية . وكأن من روى الخبر للأستاذ البستانى إنما رواه من حفظه لا نقلا عن المخزومى باشا فى كتابه (خاطرات جمال الدين) .

٧

مر فى صدر الكتاب أنى كنت أنا والأستاذ رشيد رضا شريكين فى التعلق بالسيد الأفغانى وتتبع أخباره . وتدوين آثاره . ولما ودعت الشيخ رشيداً ميمماً شطر الأستانة سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) كان أول ما أوصانى به أن أقصد إلى السيد الأفغانى وأبلغه تحيته وإخلاصه فى حبه وأن أكتب إليه بكل ما أرى وأسمع من أحواله وأطواره . واتفق أن تأخر لقياى السيد بعد وصولى إلى الأستانة لأسباب عرضت يومئذ وكتبت بذلك إلى الصديق (الشيخ رشيد) فجاءنى أول كتاب منه مؤرخ فى ٩ جمادى الثانية من تلك السنة (أى سنة ١٣١٠ هـ) قال فيه بعد أن أسهب فى وصف رحلة قام بها من بلده (القلمون) على مقربة من طرابلس الشام إلى بيروت وهى أولى سفراته إليها . ولم يكن قبل شاهد ذلك السِّيف الجميل سيف البحر الممتد بين طرابلس وبيروت . وما انتثر عليه من قرى ومزارع وخمائل ومناظر خلابة . وصف الشيخ رشيد ذلك كله فى كتابه إلى بأبلغ قول . وأمتع أسلوب . وقال فى خلال الوصف ما نصه :

« إذا أسعدكم البخت أو أكسبكم السعى التشرف بلقاء حكيم

الوقت السيد جمال الدين فإنه ربما يسألكم عن سورية ولبنان لا عن أوربا أو بلاد الروم . وإذا سأل فهو يسأل عن الفتيل والنقير والقطمير » . كأن الصديق رحمه الله يريد أن يدل على فى وصف هذا المسير إلى جبل لبنان وأن ما قاله سيكون لى مادة أتحف بها السيد جمال الدين حين اجتماعى به . أو أن أقرأ عليه كتابه بجملته . وما كان أشد إعجاب الشيخ رشيد بكتابه هذا . ومعه الحق فى ذلك : فإن الكتاب طرفة أدبية تاريخية تهم لبنانا وساكنيه أكثر من غيرهم . ولعلنا ننشره برمته فى بعض المجلات .

ثم قال الشيخ رشيد فى آخر كتابه : « اعتذرتم عن تأخير المكاتيب بانتظار الاجتماع بهذا الرجل العظيم (يريد السيد الأفغانى) لتخبرونا عما تشاهدونه منه . وما تقفون عليه من شأنه . لما تعلمون له عندنا من المكانة التى لم يحاها من الناس أحد سواه . فنعم الاعتذار وحبذا الشفيع . ونرجو الآن أن تكونوا اجتمعتم به . وصرتم من المحسوبين عليه . وأنكم توافونا قريباً بما يشرح الصدر من أخباره . ويقر العين من آثاره . ولا نشك بأنكم إذا صار لكم مع سيادته لسان ينطق تخبرونه عن أخيكم بأنه مستغرق فى حبه . راج للسعادة بقربه . له لسان لا ينفك يهتف بالثناء عليه . ويتمنى أن يتمثل للخدمة بين يديه . حيث تعرفون ذلك منا حق المعرفة . ولا أراك تذهل عن إفادتى : هل

يمكن لأمثالنا ملازمته إن جئنا الأستانة أم لا ؟ » ا هـ .

وكنت قبل وصول هذا الكتاب من الشيخ رشيد اجتمعت بالسيد الأفغانى وعرفته من خبرى وخبر الصديق ومبلغ تعلقنا به . وبالعمل على بث مباديه وتعاليمه ما جعله يدعو لنا . ويعطف علينا . ويأمل الخير فينا . وكتبت إلى الأخ الرشيد بذلك . فلم ألبث أن جاوبنى على كتابى بكتاب آخر مؤرخ فى ٢١ رمضان من السنة المذكورة . وقد قال فيه ما نصه : « لقد ألقى إلى كتابكم الكريم وأول ما أجيب عليه هو أداء واجب الشكر والثناء على ما أتحفتمونى به من الرغيبة العظمى ألا وهى البشارة بنوالكم شرف الاجتماع بحكيم العصر . ونادرة الدهر . أستاذنا السيد جمال الدين حفظه الله تعالى وزاده رفعة وجلالا. وفوزكم من لطفه ومكارمه بالالتفات والرعاية الخصوصية . وإفصاحكم بأن هذا كان نتيجة درسنا سيرته الحسنة بالإمعان والإنعام . مع ما انضم إلى ذلك من قيامكم بحقوق الإخاء بإجابة ما رغبت به إليكم من إجراء ذكرى لديه . وشرح بعض شأنى عليه . وعرض أكبر مقاصدى على مسامعه الشريفة . ألا وهو الحصول على صحبته بصفة تلميذ ملازم . أو مريد خادم . وبعبارة أخرى أننى أكون (أبا تراب* الثانى) أدور معه حيث يدور .

* مرأن (أباتراب) واسمه (عارف) كان الخادم الخاص للسيد جمال الدين.

لكنكم أديتم هذا على غير وجهه : إذ أنكم أبدلتم لفظ (الملازمة له) بلفظ (التردد عليه) ولا ريب أنكم فهمتم ذلك من عبارتى السابقة : إما لقصورها عن بيان ما شرحته الآن . وإما لذهول منكم . كما هو شأن الإنسان . وعلى كل حال نقول جعل الله سعيكم مشكوراً . وعملكم مبرورا . وحظكم من الكمال موفورا. ونرجو أن تؤدوا الأمانة فى الكرة الثانية على وجهها :

وتلطف واجر ذكرى عندهم علهم أن ينظروا عطفاً إلى

وفى نفسى أن أكاتب حضرة السيد . وأطلب منه ما كلفتكم بعرضه عليه أيضاً (أى ملازمته) فإن أجاب بالقبول فإننى أجتهد كل الاجتهاد فى الحضور لطرفكم . وأن أبى (السيد) على فإننى أجتهد بعض الاجتهاد فى المجىء للتشرف بزيارته . والتيمن بمشاهدة غرته المباركة : هذا إذا بقيتم فى الأستانة . وإن حضرتم إلى طرابلس قريباً فإننا نتذاكر فى الإيجاب . وأقل ما يناجينى به ضميرى من الفائدة فى الكتابة إلى (السيد جمال الدين) قول الشاعر :

عسى يذكر المشتاق فى طى رقعة فحسب الأمانى أن ترينى رقاعه

أظنكم لم تسألوا حضرة (السيد) عما وعد به فى رسالة إبطال مذهب الدهريين : من تأليف رسالتين وافيتين إحداهما فى الرد عليهم (أى على الدهريين) والأخرى فى مدنية الإسلام » .

انهى ما بعث به الشيخ رشيد إلينا . وقد عتب فيه علينا . مذ أبدلنا كلمة التّرد دبالملازمة . ولعلنا تصرفنا فى الكلمتين تصرفاً مقصوداً اقتضاه الحال فى ذلك الوقت .

ولما جاءنى هذا الكتاب الثانى من الشيخ رشيد زرت السيد جمال الدين وأطلعته على الكتاب أو ذكرت له خلاصته . لا أدرى أى ذلك كان . فعاد السيد إلى الثناء على الشيخ رشيد وشدة اهتمامه بأمر الإسلام والمسلمين . وقال لى : إن الشيخ رشيداً أرسل إليه أيضاً كتاباً خاصاً . فرجوت من السيد إذ ذاك أن يكتب إليه جواباً بخطه ويسلمنى إياه لأرسله إليه . فاعتذر بعدم وجود ورق وأقلام لديه . أقول : وعدم وجود الورق إما لأن السلطان عبد الحميد لايريد ذلك كما قيل لى . وأما لأن السيد لا يعنى بالكتابة ولا يألفها وكل ما اعتاده أن ينثر كلامه على من حوله نثراً . فيلتقطوه مرجانا ودرا . لكننى خوفاً من عتب الشيخ رشيد ألححت على السيد الأفغانى بأن يكتب إليه جواباً مختصراً بقلمه البليغ . وكنا إذ ذاك وقوفاً وكأنى الساعة أتمثل السيد منتصباً فى بهو المسافرخانة ويداه على كتفى وهو يبتسم ويعتذر عن الكتابة إلى الشيخ رشيد ويقول لى : أنت القلم الأعلى والكاتب البليغ . ولك أنت أن تنوب عنى بإبلاغ سلامى وتحياتى إليه .

لا جرم أنى لا أستحق أن يقول فى السيد الأفغانى ما قال، غير أن الرجل هكذا خلقه الله متودداً مؤانساً . ولم يخاتمه (جعظرياً(١) جواظاً) ولا (مدلساً موالساً)(٢) .

ثم انصرفت من مجلس السيد وكتبت إلى الشيخ رشيد رحمه الله بما قلته له وبما قاله لى . وباعتذاره عن الكتابة إليه . واثقاً بأنى أنوب عنه فى الجواب حينما نلتقى فى طرابلس وهكذا وقع .

(١) فى الحديث : أهل النار كل جعظرى جواظ . الجعظرى : الفظ الغليظ المتكبر . وقيل هو الذى ينتفخ بما ليس عنده وفيه قصر . والجواظ الجموع المنوع . وقيل الكثير اللحم المختال فى مشيته . وقيل القصير البطين . اهـ (نهاية) .

(٢) الموالس : المداهن المخادع .

٨

هذا ولنختم الكلام عن شيخنا الأفغانى ببحث من أوصافه أرجو أن يستطرفه القراء وأن يجدوا فيه متعة وفائدة ذلك أننى كنت أعملت المقارنة بين المؤرخ ابن خلدون وبين السيد جمال الدين بمناسبة ما كتبه الكثيرون من الكتاب المعاصرين حول المقارنة أو المشابهة بين ابن خلدون وغيره من فحول الكتاب والفلاسفة الأقدمين : مثل أرسطو وأبى العلاء المعرى ومونتسكيو وأوغست كونت وميكيافلى . وسبنسر . وتفصيل هذه المقارنة وبيان وجه الشبه فيها بين ابن خلدون وبين هؤلاء العظماء مبسوط فى المدونات المعاصرة التى خصها كتابنا بترجمة المؤرخ العربى الكبير . ولكن ألا يخطر بالبال أن يكون ابن خلدون مشابهاً لواحد من فلاسفتنا الشرقيين المعاصرين ؟

نعم إن ابن خلدون يشبه ولا ريب فيلسوفاً مسلماً سياسيًّا ثائراً عصريًّا ألا وهو أبو الثورات السيد جمال الدين الأفغانى — لا من وجه واحد بل من عدة وجوه :

درس كل منهما العلوم الإسلامية . ثم تفوق على شيوخ زمانه بمهارته فى الحكمة والفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع وترغيب المسلمين

فى دراستها والاستفادة من حقائقها .

كان كل من الرجلين يشتغل بالسياسة ويحرص على الرئاسة . كان كل منهما سليم الصدر . سهل الاستمالة . طاهر القلب . ظاهره وباطنه سواء : كما كان كل منهما متسرعاً حديد المزاج ؛ فابن خلدون وصفه صديقه وزير الأندلس (لسان الدين بن الخطيب) بأنه بعيد عن التأنى . وقال : إن هذا الخلق هو السبب فى نكباته . وتحامل رجال الدول عليه .

وبمثل ذلك وصف الشيخ محمد عبده جمال الدين : فقد كانا معاً فى باريس ينشئان جريدة (العروة الوثقى) ويسعيان فى تحقيق التعاون والتفاهم مع أقطاب السياسة الأوربية من أجل الوصول إلى بعض أمانى الشرقيين . لكن جمال الدين كان يحتد أحياناً أثناء المناقشة مع رجال السياسة كغلادستون مثلا . وينتج عن حدته وتسرعه انهيار ما كانا أسساه حتى قال الشيخ عبده فى وصف حدة جمال الدين : «وطالما هدمت الحدة ما بنته الفطنة».

كان كل من ابن خلدون وجمال الدين يُعمل عقله فى فهم تعاليم الإسلام مستقلا مجتهداً . لا متابعاً مقلداً . وكان كل منهما يعنى فى توفير مصالح المسلمين العامة . ويحرص على إصلاح الجماعات الإسلامية من طريق التوفيق بين أصول الإسلام الصحيحة وبين قواعد علم الاجتماع التى ظهرت فائدتها فى

إصلاح شؤون البشر . وانتظام أحوال الجماعات . وإن حرص الفيلسوفين (ابن خلدون وجمال الدين) على تطبيق فكرتهما هذه فى العالم الإسلامى من دون تقيّة ولا جمجمة وكذا مقاومتهما للخرافات والتقاليد الملصقة بالدين — كل ذلك أثار فى وجههما الخصوم . وأوجد لهما حساداً منافسين فى كل بلد نزلا فيه . أو بلاط ملكى استدعاهما صاحبه إليه .

فما أشبه حالة ابن خلدون فى بلاط غرناطة وفاس وتونس والقاهرة منذ خمسة قرون بحالة جمال الدين فى بلاط كابل وطهران والقاهرة والأستانة فى عصرنا الحاضر .

وإن كان السيد الأفغانى قد ابتلاه الله من الشيوخ الجامدين بالشيخ عليش الذى كان يحمل عكازته ويروغ بها على السيد وتلاميذه وهم يدرسون الفلسفة فى زوايا الأزهر — فإن ابن خلدون ابتلاه الله وهو فى تونس بشيخ جامد أيضاً وهو (ابن عرفة) الذى كان يحسد ابن خلدون على إعجاب الناس به . وإقبال الطلاب على حلقة درسه . حتّى قال ابن خلدون نفسه : إن ابن عرفة هذا كان يسعى به لدى حكام تونس ويغريهم بتغريبه والبطش به .

عرض (بترو) ملك الإسبانيول على ابن خلدون أن يريح نفسه من العناء . ويقيم عنده . وهو فى مقابل ذلك يغدق عليه

من زهرة الحياة الدنيا ما تقر به عينه وينعم عيشه فأبى . وكذلك السلطان عبد الحميد عرض على جمال الدين أن يريح نفسه من عناء السياسة ومقاومة خصومه وهو فى مقابل ذلك يفرد له قصراً مجهزاً بأثاثه ورياشه وخدمه . ويزوجه إحدى وصيفات يلدز . فأبى عليه ذلك . وقال : إنه لو فعل لأستغرب منه كما يستغرب من الشيخ عليش المغربى إذا جلس مع تلاميذه فى أحد مشارب الأزبكية.

مات ابن خلدون غريباً فى مصر ودفن فى مقابر الصوفية . خارج باب النصر . وقبره غير معروف شأن من يموت غريباً عن وطنه . وهكذا جمال الدين الأفغانى : فإنه مات فى الأستانة غريباً . ودفن فى تربة (شيخلر مزارلغى) فى نشانطاش وكاد قبره يندرس لو لم يتداركه المستر (كراين) الأميركى فبنى له ضريحاً فخماً بلغت نفقاته عشرة آلاف دولار كما قيل* .

---

* ثم نقل رفات السيد من الأستانة إلى بغداد فبلاد الأفغان كما مر فى صدر الكتاب . وكانت وفاته بعلة السرطان الناشب فى فكه الأسفل . وقد أشار الشيخ إبرهيم اليازجي إلى هذا فى رثائه مذ قال: «قضى بعلة السرطان . وقد نشبت منه بين الفك والنحر. ودب فى مجرى الفصاحة منه.ولا عجب أن يدب السرطان فى البحر» . وزعم بعض الأطباء أن علة السرطان نتجت عن كثرة شرب السيد للشاى وتدخينه بالسيكار الإفرنجى واستكثاره من الملح فى طعامه . وسمع هذا بعض أصدقاء جمال الدين فقال :

الملح والشاى مع الدخان أودت بروح شيخنا الأفغانى

كان ابن خلدون آخر نجم سطع فى سماء التفكير الإسلامى الحر . كما قال عنه كاتب ترجمته العلامة الألمانى الأستاذ (فون فيزدندونك) :

عاش ابن خلدون فى أشد أزمان العالم الإسلامى إظلاماً من الوجهة الاستقلالية والسياسية ؛ فكان كنجم أنار تلك الظلمات ثم أفل .

كان حنيفاً مسلماً شديد الغيرة على دينه ، وملك قومه . وقد رأى هذا الملك مفكك العرى مضمحل القوى . استولت عليه الأعاجم من أواسط آسيا إلى شمال أفريقيا إلى غرب أوربا : دويلات مغولية وتركية وبربرية . قامت فى كل مكان على أنقاض الدول العربية الصريحة . ساح بنفسه فى تلك الممالك : من أشبيلية فى الغرب إلى الحجاز والشام فى الشرق . رأى بعينى رأسه (تيمور) المغولى فى الشرق يجتاح بلاد الشام . كما رأى بعينى رأسه (بترو) الإسبانى فى الغرب يَجْرَمِّز ويجمع نفسه للوثوب على غرناطة آخر مملكة عربية فى الأندلس . كان ابن خلدون يرى ذلك فتتقيطع نفسه حسرات على ذلك الملك الضائع والبناء المتقوض .

كان يسيح فى العالم الإسلامى فاحصاً منقباً : فيدرس . ويكتب . ويؤلف . ويهز النفوس الجامدة . ويتلتل الهمم الخامدة .



كان كلما صرخ لم يجب إلا برجع الصدى . وكلما حذر وأنذر لم يقابل إلا بالإعراض والجفا .

أنطفأت تلك الشعلة وأغمض (ابن خلدون) عينيه فى ذلك الظلام الدامس وبعد خمسة قرون من موته عاد فعاش ونشر من قبره ممثلا فى جسم جمال الدين الأفغانى .

فتح جمال الدين عينيه . ورأرأ بتوأمتيه . وأدارهما يمنة ويسرة فى جنبات العالم الإسلامى .

فماذا رأى ؟

رأى ما كان رآه (ابن خلدون) منذ خمسة قرون . رأى الظلام ظلاماً . والقوم نياماً . رأى تيمورلنك المغولى ممثلا فى السلطان عبد الحميد التركى .. وبترو الإسبانى متقمصاً فيكتوريا ملكة الإنكليز .

قام جمال الدين من قبر (ابن خلدون) فكان همُّه همَّه . وغرضه من هذا النشور غرضه .

هلموا حقيبة السفر . وعصا السياحة . ساح جمال الدين فى العالم الشرقى والغربى : إلى مكة ومصر وطهران والإستانة . إلى بطرسبرج وفينا ولندن وباريس . رأى موتاً فى جانب . وحياة فى آخر . رأى اتكالا وقناعة فى قوم . وكدحاً وطمعاً فى آخرين . رأى جهلا وبطالة وكسلا هنا . وعلماً وعملا ونشاطاً هناك .

هذا (الشيخ عليش) فى مصر و (حسن فهمى أفندى) فى الأستانة يقاومان جمال الدين كما قاومه (ابن عرفة) فى تونس و (القاضى البساطى) فى القاهرة منذ خمسة قرون . وهو فى شكل ابن خلدون . والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون . أيها المنشور من تحت رجام القبور. عد إلى الخطابة والكتابة . وارفع صوتك بالحض والإنذار . وهز المسلمين بترك الخلافات . ونبذ الأوهام والخرافات . هات أسمعنا التوجع والأنين وآهات (أرميا الحزين) :

« بكائى* على السالفين . ونحيبى على السابقين . أين أنتم يا عصبة الرحمة . وأولياء الشفقة . أين أنتم يا أعلام المروءة . وشوامخ القوة . أين أنتم يا آل النجدة وغوث المضيم يوم الشدة . أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . أين أنتم يا أيها الأمجاد الأنجاد . القوامون بالقسط . الآخذون بالعدل . الناطقون بالحكمة . المؤسسون لبناء الأمة . ألا تنظرون من خلال قبوركم . إلى ما فعله خلفكم من بعدكم وما أصاب أبناءكم . ومن ينتحل نحلتكم . انحرفوا عن سنتكم . وحادوا عن طريقتكم . فضلوا عن سبيلكم . وتفرقوا فرقاً وأشياعا حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً

---

* كلمة الندب هذه مقتبسة من جريدة (العروة الوثقى) لسان حال السيد جمال الدين الأفغانى قالها متوجعا متفجعاً منذ ست وستين سنة .

وتحترق الأكباد حزناً . أضحوا فريسة للأمم الأجنبية . لا يستطيعون ذوداً عن حياضهم ولا دفاعاً عن حوزتهم . ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل . ويوقظ النائم . ويهدى الضال إلى سواء السبيل » .

ولكن هل يئس (جمال الدين) من يقظة الشرق وسعى الشرقيين فى الإصلاح ؟

كلا لم ييأس : نعم رأى شجرة العالم الإسلامى أصبحت أعواداً يابسة . غير أنه تراءى له من خلال تلك الأعواد والأشواك وريقات خضر فتهلل وجهه بعد العبوس وانتعشت نفسه بعد القنوط وساءل نفسه قائلا :

أهذه الأوراق الخضر المتفرقة هنا وهناك من الشجرة ــ أهى أوراق قديمة باقية من الحياة الأولى ياترى ؟ أم هى أوراق جديدة حييت بحياة جديدة ؟

ومهما يكن فإن فى الشجرة اخضراراً . وفى المريض رمقاً . وفى الجسم ذماءً .

فلنجتهد إذن ولنعمل على إحياء مجموع الشجرة . عمل (جمال الدين) واجتهد حتى كل وتعب . ولقى من حلو الحياة ومرها ما لقيه (ابن خلدون) الأول . كلا الخلدونين لم يخلف ولداً . وفرقٌ بينهما : ابن خلدون المغربى خلف مقدمته الاجتماعية

لمشهورة . أما ابن خلدون الأفغانى فإنه لم يخلف كتباً ولا مقدمة .
إنما خلف الأمة التى أيقظها فاستيقظت . ونصح لها فانتصحت
أخذت تخوض عباب الحياة . بجد وثبات . فهى لا تلبث
ن تصل إلى ساحل النجاة إن شاء الله .

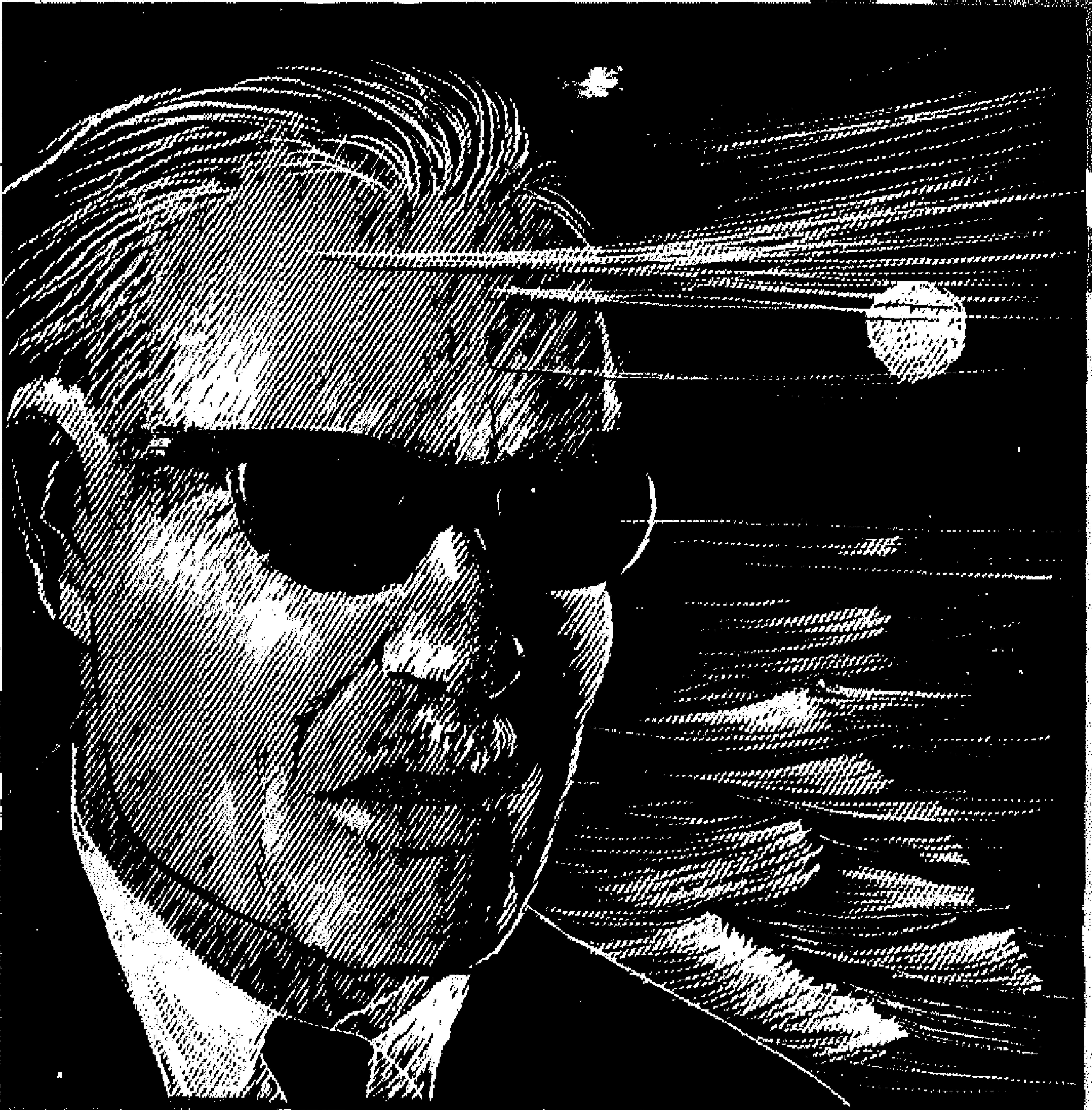
روى الشيخ عبد الرشيد إبرهيم (الرحالة الروسى المشهور)
ال : دخلت على الشيخ جمال الدين فى أخريات أيام مرضه .
أشار إلى بيده أن أدن . فدنوت منه . وكان لا يستطيع الكلام .
أخذ قلماً وورقة وكتب فيها : « تشهد يا ألله أن كلام النبى
ص) قبيل وفاته : أمتى أمتى . وأنا أقول : ملتى ملتى » قال :
بعد نحو ساعتين رجعت إليه وإذا بهم يقولون توفاه الله ا هـ .

تم طبع هذا الكتاب على
مطابع دار المعارف بمصر

الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

إقرأ

رحلة الربيع



طه حسين

رحلة الرّبيع

طه حسين

رحلة الربيع

اقرأ ٦٩
دار المعارف بمصر

اقرأ ٦٩ — الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

رحلة الربيع

وقفت السيارة عند أصل القلعة ، وفى الوقت نفسه أقلعت السماء ، وسكت الغيث ، وأقبلت أشعة هادئة فاترة تنبئ السحاب فى رفق عذب بأن الشمس تريد أن تزور مشرق الحكمة ، فينقشع السحاب خفيفاً رشيقاً ، وتقبل الشمس فى أناة ووقار وجلال فتغمر القلعة بنورها كأنما تضمها إليها فى حب وحنان . ونصعد نحن فى أثناء ذلك وقد استحضرنا عقلنا كله وحسنا كله وشعورنا كله فقطعنا كل ما كان بيننا وبين العالم من صلة وأخلصنا نفوسنا للقلعة نريد أن نلتهمها حبًّا لها وإعجاباً بها وفناء فيها .

وقضينا فى القلعة ساعتين عشنا فيهما ثلاثة قرون كاملة ، فاعجب إن شئت لثلاث مائة سنة تختصر فى ساعتين ؛ فهذه خصلة خص بها الإنسان تتيح له أن يختصر الزمان إن شاء أن يختصره ، وأن يتجاوز الزمان إن أراد أن يتجاوزه ، وأن

يخلص للماضى أو لقطعة من الماضى إن أحب أن يخلص لها، وأن يمضى فى المستقبل إلى غير غاية وعلى غير هدى ، وأن يقف فى الحاضر لا يعدوه إلى أمام ولا إلى وراء، وأن يجمع إن شاء بين هذا كله فيفرق نفسه تفريقا. وقد تركنا المستقبل لمن بيده المستقبل . وتركنا الحاضر للذين يشغلون بالحاضر ، وألغينا من الماضى ثلاثة وعشرين قرناً، وأهملنا من الماضى قروناً أخرى لا تحصى سبقت هذا العصر الذى اخترناه ووقفنا عليه هاتين الساعتين . وألغينا من آماد المكان مثل ما ألغينا من آماد الزمان، فتركنا الأرض القريبة والبعيدة، وتركنا البحر والمحيط ، وتركنا الجو الذى يغمر البر والبحر ، ووقفنا عقلنا وشعورنا وحسنا على هذه القطعة الصغيرة من الأرض فى هذه القطعة الصغيرة من الدهر . وجعلنا نسعى مبطئين مترفهين ، ونقف متأملين متفكرين بين هذه الأطلال اليونانية لا نعرف غيرها ولا تكاد هى تعرف غيرنا؛ فقد سبقنا إليها أهل السفينة جميعاً وبلغناها قبل أن يبلغها أحد فخلونا إليها وخلت إلينا ، وقلنا لها وقالت لنا ، وملأنا منها قلوبنا وانصرفنا عنها وقد ملأت علينا آفاق الأرض والسماء؛ فذكرناها وسنذكرها ما امتدت لنا أسباب الحياة، ونسيتنا هى

وستنسانا كما نسيت أجيالا كثيرة وكما ستنسى أجيالا كثيرة ما امتدت لها أسباب البقاء . وكان الذين يكتنفونى من الأهل والرفاق يسعون من حولى ، وقدأخذت أبصارهم وسحرت عقولهم واستهويت قلوبهم ، وجعلت أفواههم وألسنتهم تنقل إلىّ بعض ما يجدون بهذه الآهات الطويلة المتصلة وهذه الألفاظ القليلة المتقطعة التى ينطق بها المبهورون المسحورون حين يأخذ الإعجاب عليهم طريق الإ بانة والإفصاح . وكنت أسمع لهم بإحدى أذنى أو بجزء يسير من إحدى أذنى ، أعرض عنهم بعقلى كله وقلبى كله وضميرى كله . أتركهم لما يرون وأفرغ لما أجد ، وما أكثر ما كنت أجد! وما أشد اختلاف ما كنت أجد ! فليس بالقليل على الإنسان المحدود أن يعيش فى هذه القرون الثلاثة ، فيشهد نشأة العقل ونمو الفن وحياة الشعور ويقظة الضمير . ويرى طريق الحضارة والرقى ترسم للأجيال وتقام فيها الأعلام تدفع إليها الإنسانية دفعاً، ويقال لها هذه هى الطريق التى ستسلكينها راضية أو كارهة راغبة أو راهبة لا تخرجين منها ولا تتحولين عنها مهما تلقى فيها من الخير والشر ومهما يعترضك فيها من النعيم والبؤس ؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وحتى تطوى

السماء كطى السجل للكتاب .

فى هذه القرون الثلاثة وفى هذه القطعة الضيقة من الأرض التى يحيط بها الطرف فى أيسر الجهد ويطوف بها الإنسان فى أقصر الوقت ، عرف الإنسان أن له عقلا وشعوراً وضميراً وأن له من أجل ذلك حقا فى أن يكون حرًّا كريماً ، وأن عليه من أجل ذلك واجباً أن يرعى لنظرائه حقهم فى الحرية والكرامة والامتناع على الضيم .

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نشأت الديمقراطية ، فعرف الإنسان أن سلطان الحاكم لا يتنزل من السماء وإنما يخرج من الأرض ، وأن بين الحاكم والمحكوم عقداً اجتماعيًّا تصدره القوانين المكتوبة والدساتير التى تنقش فى القلوب أولاً ثم تكتب فى الصحف بعد ذلك .

وعرفت الإنسانية أن الناس سواء أمام القانون لا يمتاز منهم فرد من فرد ولا تتفوق منهم طبقة على طبقة ، ولا يتفاوتون فيما بينهم إلا بالعمل الصالح والبلاء الحسن ، واستطاع سولون أن يتغنى فى شعره الرائع بأنه حرر الأرض فلم تصبح وقفاً على فريق من الناس دون فريق .

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض نظمت القوانين ما يكون من الصلات بين الحاكمين والمحكومين، وردت القوانين إلى الشعب أمور الشعب . وجعلت القوانين حكام الشعب خداماً للشعب ، وفرضت القوانين على حكام الشعب أن يؤدوا إلى الشعب حساباً دقيقاً عما نهضوا به من المناصب ، وما استقلوا به من الأعباء ، وما قاموا به من الأعمال .

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نما الفن الرائع ، وزها الشعر البارع ، وأزهر الأدب الرفيع ، وطوف سقراط بفلسفته فى الشوارع والأزقة ، يعلم الناس وهو يحاورهم أن عليهم أن يعرفوا أنفسهم وأن يثقفوها وأن يهذبوها وأن يرفعوها من الصفو والعفو إلى حيث تطهر من دنس المنافع الوضيعة وتبرأ من أوضار الحياة الخسيسة وتعيش فى جو من الفضيلة لا تجد الرذيلة إليه سبيلا . ويعلم الناس وهو يحاورهم أن للإنسان ضميراً حراً ليس لأحد سلطان عليه ولا ينبغى أن يكون موضوعاً للمساومة ولا سلعة تعرض للتجارة ، وأن حرية الضمير وحرية التفكير وحرية التعبير هى التى تجعل

الإنسان إنساناً ، فلما امتحن سقراط فى فلسفته هذه صبر للمحنة وثبت للفتنة ، وعلم تلاميذه وهو يحاورهم كيف يستقبل الإنسان الحر إلمام الخطب حين يلم ، وزيارة الموت حين يزور مبتسما للخطب لأنه زائل ، وساخراً من الموت لأنه عارض من ورائه الخلود . وفى هذا الوقت نفسه كان سوفوكل ينطق أنتيجونا فى ملعب التمثيل بأن هناك قوانين خالدة وجدت قبل الإنسان وستوجد بعد الإنسان وهى قوام الخلق وملاك العقل ؛ فليس لأحد عليها سلطان وليس للمخلوق على الناس طاعة إن خالف عن هذه القوانين .

نعم ! فى هذه القرون الثلاثة من الدهر وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، عرف الإنسان عقله وقلبه وضميره ، ورسمت له فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس مناهج التفكير والشعور والسيرة ، وشقت له طريق الرقى ، وعلمته الطموح إلى الكمال والارتفاع عن النقص والتنزه عما يشين .

فى هذا كله وفى أكثر من هذا كله كنت أفكر ونحن نسعى فى هذه الأطلال اليونانية مستحضراً تلك الحقبة من الدهر متمثلا ما كان فيها من خير كثير وشر كثير ، وما كان فيها من صراع

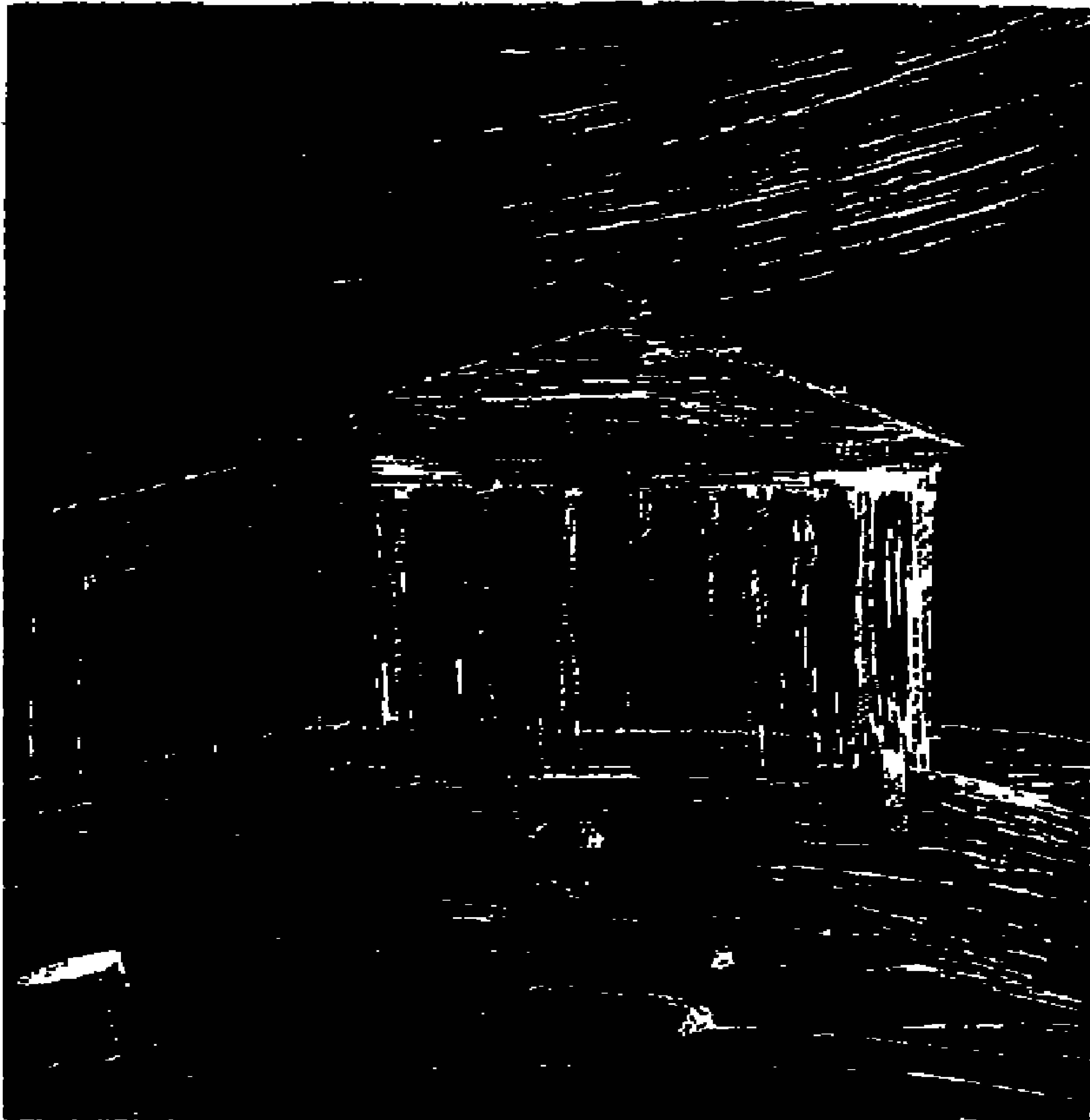
بين الحق والباطل ، وما كان فيها من اختصام بين العدل والجور ، وما كان فيها من جهاد بين الرفعة والضعة ، وما كان فيها من ثورة على باطل الحياة وزخرفها ومن سمو إلى المثل العليا . وكنت أسمع خطباء الأتينيين ينافح بعضهم عن الحق ناصحاً ويموه بعضهم على الجماهير مضللا . وكنت أشهد ملاعب التمثيل وأرى أصحاب المأساة يرفعون الإنسان إلى صف الآلهة وأصحاب الملهاة يضعون الإنسان إلى منزلة الحيوان . وكنت أسمع حوار سقراط وأرقى مع أفلاطون إلى مثله الأعلى ، وأعود مع أرسطاطاليس إلى بحثه المتواضع الرفيع ، وأشهد الأحداث الكبرى تحدث بعيداً عن أتينا وتحدث قريباً من أتينا وتحدث فى قلب أتينا ، وأرى جماعة الشعب تحاور فى هذا كله وتقضى فى هذا كله تصيب حيناً وتخطىء أحياناً ، ولكنها مستمسكة دائماً بحقها فى السيادة والسلطان والاستئثار بتدبير أمرها من دون الطغاة . وكنت قد تركت فى مصر شراً ونكراً وإثما ، وخرجت وفى نفسى شىء من شرها ونكرها وإثمها ، فلما بلغت أصل القلعة وجعلت أرقى فيها قليلا قليلا ، وأتنفس من هوائها ذلك العذب ، وأتنسم من عبيرها ذلك الأرج وأعيش فى تاريخها ذلك الرائع ، أحسست

كأن ما علق بنفسى من الشر والنكر والإثم قد جعل يزول عنها شيئاً فشيئاً ، وكأن نفسى قد جعلت تتخفف من عبء باهظ وثقل ثقيل ، حتى إذا بلغت البارتنون وجدتنى خفيف النفس نظيف القلب صحيح العقل نقى الضمير ، وإذا أنا أدعو إلىّ شعراء المأساة والملهاة ، وأدعو إلىّ رواة القصص وكتاب التاريخ ، وأدعو إلىّ سقراط ومحاوريه وأفلاطون ومناظريه وأرسطاطاليس وتلاميذه ، وأبرأ إليهم جميعاً من الشر والنكر والإثم وأشهدهم جميعاً على أنى قد وفيت لمثلهم العليا فلم أنقض عهداً. ولم أضع وداًّ. ولم أخن صديقاً. ولم أغدر خليلا ، ولم أشتر الراحة والدعة واللين بثمن بخس دراهم ودنانير تعد أو لا تعد . وإذا أنا أعاهدهم على أنى سأنفق ما بقى لى من الحياة كما أنفقت ما مضى عنى من الحياة وفياًّ للحق حفياًّ بالفضيلة مترفعاً عما يخس الرجل ويزرى بالمروءة ، متبرئا من خيانة الأصدقاء والغدر بالأخلاء وبيع الضمير بالمال القليل أو الكثير .

وأنا فى ذلك وإذا زوجى تهتف بى : أين أنت ! ألا تسمع لما يقال من حولك ؟ فأعود إليها مترفقاً مبتسما ، وأعتذر إليها فى سذاجة بأنى كنت أعيش فى القرن الخامس والرابع قبل المسيح .

١٣

قالت وتضاحكت وتضاحك من حولنا : فعد إلى القرن العشرين بعد المسيح ، واهبط معنا إلى حيث يعيش الناس فى المدينة الحية ؛ فقد يخيل إلىّ أنك أنسيت قهوة الضحى .



٢

ونهبط متمهلين مترفقين نسعى قليلا لنقف كثيراً ، والرفاق من حولى يمدون أبصارهم إلى هذه الناحية أو تلك ليروا هذا المشهد أو ذاك من مشاهد الحكمة والفلسفة والأدب والفن والتاريخ . يمدون أبصارهم فى هذه الناحية ليروا قمة البارناس ، ويمدون أبصارهم فى تلك الناحية ليروا صخرة سلاميس . فعلى قلمة البارناس تجلت روعة أبولون فملأت الأرض جمالا ونورا . وعند صخرة سلاميس تحطم أسطول الملك الأعظم فانتصرت قوة العقل على قوة الملك وسعة السلطان . ولا يكاد الرفاق يردون أبصارهم بعد أن مدوها حتى تقف بها الطريق فتتعلق بهذا الأثر أو ذاك من هذه الآثار القريبة التى وقفوا عندها فأطالوا الوقوف ولكنهم لايستطيعون أن ينصرفوا عنها ، قد علقت بها نفوسهم فلا يستطيعون لها استخلاصاً إلا فى كثير من الجهد الشاق العنيف كأنها قطع الحرير قد علقت بالشوك، فلا بد

من الحيلة الدقيقة الرفيقة لاستخلاصها منه دون أن يلحقها البلى . وربما انحنى الرفاق فجاءة إلى الأرض لا يحاولون ركوعاً ولا سجوداً . وإنما دعتهم هذه الزهرات النضرات من زهر العشب الذى ينبت فى أعقاب الغيث بين ما تشقق من الصخور . وأنا بين الرفاق ساهم واجم أسعى متعثراً وأقف حيران وجلا أود لو طال الوقوف فأتزود من عبير عرار نجد ، فما بعد هذا الضحى من عرار . وأتغنى فى نفسى سينية البحترى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى
وترفعت عن جدا كل جبس

ولكنى أضع « يونان » مكان « ساسان » وتتغنى نفسى الكئيب بيت البحترى على هذا النحو :

أتسلى عن الخطوب وآسى   لمحل من آل يونان درس

وقد ارتفع الضحى وأوشك النهار أن ينتصف حين هبطنا من المدينة العليا مدينة الموتى والآلهة ، إلى المدينة السفلى مدينة الأحياء والمنافع وما تجر المنافع على الناس من الأرزاء والكوارث والخطوب . وهؤلاء رفاقى قد ردوا نفوسهم العاقلة الشاعرة إلى

أماكنها الخفية القصية من أعماق الضمائر ، واستردوا نفوسهم المفكرة المدبرة ، واستقبلوا الحياة اليومية كما يستقبلها غيرهم من الناس ، فجعلوا ينظرون إلى دور التجارة وما يعرض فيها للبيع والشراء . وجعلوا ينظرون إلى الذاهبين والآيبين يتوسمون فى وجوههم وفى أشكالهم وصورهم ، ليتبينوا مظاهر النعيم عند قوم ومظاهر البؤس عند قوم آخرين ، ويستخلصوا لأنفسهم رأياً عن حياة اليونان المحدثين فى مدينتهم الخالدة . فما أكثر ما قرءوا وما أكثر ما سمعوا عن حياة اليونان فى بلادهم ! قوم يقولون إنها بلغت من البؤس أقصاه . وقوم يقولون إنها بلغت من النعيم أقصاه ، وقوم يقولون إن اليونان كغيرهم من الناس قد لعبت بهم تلك الإلهة العمياء التى تسمى المصادفة ، فأعطت بغير حساب وحرمت بغير حساب ، وأمسكت بعض الناس فى نعيم ناعم ، وأمسكت بعضهم الآخر فى بؤس بائس ، وتركت فريقاً ثالثاً يترددون بين السعادة والشقاء . يدعون فلا يسمع لدعائهم أحد ، ويمدون أكفهم إلى المصادفة فتلقى فيها الشىء بعد الشىء وتردها أصفاراً فى أكثر الأحيان ؛ فهم ينفقون حياتهم فى أمل متصل وانتظار خائب ، لا يستيئسون فيريحهم اليأس ، ولا يظفرون

فيريحهم الظفر ، ولكنهم معلقون بين اليأس والرجاء ، تعبث بهم ريح الحياة الهوجاء عبثاً مضنياً ملحًّا لا يريح منه إلا الموت .

وقد بلغنا قهوة من قهوات أتينا فنقبل عليها مكدودين ، ويتلقانا خادمها باسم الثغر مشرق الوجه يعرض علينا ما عنده فى يونانية فصيحة ، فإذا لم نفهم عنه عرض علينا ما عنده فى فرنسية متعثرة ، وإذا هو يعرض علينا خير ما تعرض القهوات على الناس فى بلاد الترف والرخاء . وما نكاد نجلس إلى قهوتنا ونقبل على قليل من طعام حتى ننظر فإذا المعوزون والمعدمون يسّاقطون علينا من كل وجه ويأخذوننا من كل نحو ، كلهم جائع يريد أن يطعم ، وكلهم محروم يريد أن يعطى ، وكلهم قد ظهر فى وجهه البؤس وألح عليه الضر ، وإذا قهوتنا منغصة وطعامنا إلينا بغيض ، وإذا نحن ننهض متثاقلين نريد أن نفر بأنفسنا من هذه المدينة التى اختلط فيها البؤس والنعيم وامتزجت فيها الضراء والسراء ، وسعد بعض أهلها حتى ضاقوا بالسعادة ، وشقى بعض أهلها حتى ضاق بهم الشقاء .

وقد فاجأتنا فى هذه المدينة بل فاجأتنا قبل أن نهبط من السفينة ظاهرة كنا نسمع عنها ولا نحققها . فالدرهم اليونانى

قد أصبح وهماً من الأوهام ، لا يكاد عقل يحقق منه صورة واضحة . ويكفى أن تعلم أن المليم المصرى يعدل ثمانية وعشرين درهماً يونانيا، وأن القرش المصرى يعدل ثمانين ومائتى درهم يونانى وأن الجنيه المصرى يعدل ثمانية وعشرين ألف درهم يونانى ، وأننا لم نقم عن قهوتنا حتى طلب إلينا الخادم سبعة عشر ألف درهم ، ولم ننزل من سيارتنا حتى طلب الينا السائق سبعين ألف درهم ، واشترينا صحيفة ضئيلة نحيلة تصدر بالفرنسية فدفعنا ثمنها خمسمائة درهم ، وعدنا إلى أماكننا من السفينة وقد أنفقنا فى صباحنا بين هذه الألوف المؤلفة أقل من ثلاثة جنيهات . فانظر إلى هذه الأرقام التى تملأ الأفواه والآذان وتروع العقل والخيال ، حتى إذا أحصيت وحققت لم تتكشف إلا عن أيسير اليسير وأقل القليل . وكذلك حياة اليونان فى أيسر ما ظهر لنا أثناء هذه الساعات القصار ألفاظ ضخمة تملأ الأفواه والآذان وتروق العقل والخيال ، ثم تتكشف آخر الأمر عن غير طائل ولا غناء . وإنما هو الجو الذى عاش اليونان فيه دائماً ، جو البغض الكثير والحب القليل ، والصراع المهلك بين الإخوة لا يحفل بشىء ولا يبقى على شىء ولا يتحرج من شىء ولا يكره الاستعانة

بالأجنبي على الأخ الشقيق والخليل الصديق .

كذلك عاش اليونان فى عصورهم القديمة ، فانقسم أهل أتينا بين المتعصبين لإسبرتا والمتعصبين للفرس وبين المتعصبين لإسبرتا والمتعصبين لمقدونيا . وهم الآن ينقسمون بين المتعصبين للشيوعية الروسية والمتعصبين لرأس المال الأمريكى البريطانى . وأولئك وهؤلاء يتنابزون بالألقاب ويتقاذفون التهم ويتداعون بالإثم والإجرام ويهدر بعضهم دم بعض ، حتى إذا جد الجد وأقبلت الكوارث الجسام رأيت الشعب اليونانى قد ثاب إلى وحدة موقوتة ولكنها رائعة تفعل الأفاعيل وتأتى بالأعاجيب . وهو حين يتفق وحين يفترق وحين يأتلف وحين يختلف وحين يتظاهر وحين يتآمر موطن مخصب العقل والقلب والضمير ، قد امتلأت نفسه خيراً حتى أفاضت الخير من حولها ، وامتلأت نفسه شراً حتى أفاضت الشر من حولها ، وأتاحت للحكماء والفلاسفة أن يتفكروا ويتدبروا ويملئوا الأرض حكمة وعلماً ونوراً .

وقد صعدنا إلى السفينة بعد أن انتصف النهار وقد غنيت قلوبنا بما شهدت من روعة القديم اليونانى وعبرة الحديث اليونانى . ونحن ننفق فى السفينة ساعات نضطرب فى أمورنا كما تعودنا

أن نفعل وكما تعود السفر أن يفعلوا، وأنا أريد أن أسترد نفسي فلا أجد إلى ذلك سبيلا . وقد أخذ صاحبي كتابه وجعل يقرأ فيه وجعلت أسمع له بأذني وأعرض عنه بعقلي وقلبي . ولكن ماذا ؟ إن شيئاً يحدث فإذا أنا أعود إلى نفسي فجاءة لا لأبقى معها بل لأشغل عنها بعد قليل . فهذا الجو قد امتلأ من حولي نغماً كأروع ما يكون النغم يحمله «الراديو» من أتينا ليملأ به السفينة ويسعى معها في البحر . وأنا أعرف هذا النغم وآلفه وتصبو إليه نفسي، وأخلو إليه في القاهرة بين حين وحين ، فيضع عن نفسي ما يثقلها من الإصر وما يكون عليها من الأغلال ، ويردها إلى ما أحب لها من النقاء والصفاء ، والترفع عن الصغائر والدنيات . إنه لحن بيتهوفن الذي يسمى لحن الإمبراطور . لقد أقبل عليّ فأقبلت عليه، ولقد غمر نفسي بنور لا يشبهه إلا النور الذي غمرها في الضحى حين كنت في القلعة الآتينية الخالدة . جمال الآثار اليونانية يملأ النفس إشراقاً مع الصبح ، وجمال الموسيقى يملأ النفس إشراقاً مع المساء . إني لظالم للحق ولنفسي حين أحفل بهذه الضفادع البائسة التي تملأ جو مصر نقيقاً . وما الذي يمنعني حين تثقل عليّ عشرة الضفادع أن

أنسل من بينها كما تنسل الشعرة من العجين ، فأخلو إلى روائع القديم وأخلو إلى روائع الحديث ، وأتعزى بجمال الأدب والفن والموسيقى عن قبح السياسة والمنافع وغدر الغادرين ومكر الماكرين وخيانة الخائنين !

أفق أيها القلب الذى شفه الحزن وبرح به الألم وتركت فيه عشرة الناس ندوباً بغيضة . أفق أيها القلب ؛ فإن عشرة الناس لم تفرض عليك ما دمت تستطيع أن تفر منها إلى عالم كله صفاء ووفاء وطهر ونقاء ورفعة وإباء . لقد كنت كلما ألحت عليك الخطوب تتمدح بأنك قد اتخذت لنفسك شعاراً من قول أبى نواس :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كل سلطان علىّ أمير

فما لك قد أدركك الضعف وسعى إليك الوهن ، وكدت تشك فى نفسك وكدت تنكر من أمرك ما لم تتعود له إنكاراً ؟ ! لتثب إلى نفسك ولتثب إليك نفسك ، ولتضف إلى هذا البيت الذى تحبه من شعر أبى نواس بيتاً آخر طالما أحببته من شعر بشار :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى علىّ سواد

وقد أنكرتك مصر أو أنكرت مصر ، فخرجت منها ذات يوم

مع الصبح ، ولم تكد تنأى عنها حتى غمرك جمال القديم اليونانى فى الضحى ، وجمال موسيقى بيتهوفن مع المساء ، فنسيت مصر وأهلها ، ونسيت مكر الماكرين ، ولهوت عن غدر الصديق وعن جحود الجاحدين . والنغم من حولى يملأ الجو قد أخذ نفسى من جميع أقطارها ، وغمر قلبى من جميع وجوهه ، وإذا أنا فى هذه الساعة القصيرة الحلوة أحس كأنى أعيش مع ابنتى التى تركتها فى القاهرة ومع ابنى الذى أسعى إليه فى باريس . وقد أخذت زوجى بيدى وهى تقول لى فى همس رفيق : ألا تظن أن حياة الناس ما زالت بخير ما داموا يستطيعون أن يصعدوا إلى الأكروبوليس حين يقبل الصبح ، وأن يستمعوا إلى بيتهوفن حين يقبل الليل ؟!

٣

ذكرته منذ أشرق الصبح إلى أن أقبل الليل؛ فلم تكد السفينة تدنو من الساحل وتستقبل ثغر جنوا حتى ملأت ذكراه قلبي وعقلي وضميري. ولم أكد أهبط من السفينة وأمس بقدمي أرض هذه المدينة حتى أحسست كأنه يسعى معي قد أخذ ذراعي اليسرى بذراعه اليمنى ومضى معي في أناة وتؤدة ووقار، يتحدث إلى في صوته الممتلئ الذي يستحب الهمس على الجهر، ويطرق معي في حديثه موضوعات مختلفة كثير منها يتصل بالدعابة والعبث الحلو أو المر، وقليل منها يتصل بالجد الصارم.

ذلك أني صحبته على هذا النحو منذ بضعة عشر عاماً حين شهدنا معاً مؤتمر المستشرقين الذي اجتمع في روما سنة ١٩٣٥ وقد قضينا أيام المؤتمر نسكن داراً واحدة نغدو منها مع الصبح إلى الجامعة القديمة لنشهد جلسات المؤتمر، ونعود إليها متلكئين حين يريد النهار أن ينتصف نسعى سعياً رفيقاً وقد نعرج على

هذه القهوة الكبيرة أو تلك القهوة الصغيرة فنلم بها إلمامة قصيرة، ثم نتكلف الإسراع إلى الدار حتى لا يطول انتظار الذين سيشاركوننا فى الغداء. ثم لا ننصرف عن طعامنا حتى نرجع إلى الجامعة مسرعين، فنقيم فيها ما أمسكنا المؤتمرون بأحاديثهم ومحاضراتهم، ثم نروح منها وقد تخففنا من ثقل ثقيل وفرغنا من العلم والعلماء لأحاديثنا العابثة الجادة التى لم تكن تحب أن تنتهى قبل أن ينتصف الليل. فلما تقضت أيام المؤتمر وزرنا من معاهد روما ومعالمها ما شاء الله أن نزور، مضينا معاً إلى فلورنسا فأقمنا فيها يوماً وبعض يوم، نريد أن نزور معالمها ومعاهدها ومتاحفها فى شىء من الجد، ويأبى علينا الكسل وحب الحديث إلا أن نمضى فى شوارعها متباطئين، ونجلس فى قهواتها كلما أتيح لنا الجلوس، ونشترى من طرفها ما كانت تسمح لنا بشرائه ثمالة من المال بقيت لنا من سفر طويل تنقلنا فيه بين باريس وروما وغيرهما من المدن الفرنسية والإيطالية. ثم نبلغ جنوا ذات يوم حين مضى أكثر النهار، وإذا المدينة قائمة قاعدة تشارك إيطاليا كلها فى قيامها وقعودها؛ لأنها كانت تنتظر كما كانت إيطاليا تنتظر وكما كان العالم كله ينتظر نبأ خطيراً

وحديثاً أجل منه خطراً . فى ذلك اليوم كانت إيطاليا تنتظر أن تدعى كلها فى الأصيل إلى تعبئة تجريبية وإلى الاستماع لخطبة كان موسولينى يريد أن يلقيها على الشعب الإيطالى كله بل على العالم كله. وما هى إلا أن ينطلق ذلك الصفير المزعج ، فتمتلىء به أرجاء المدينة، وتفرغ له الدور والمتاجر والمصانع ، ويهرع له الناس كلهم شيوخهم وكهولهم وشبابهم وصبيانهم إلى الميادين العامة ليسمعوا حديث موسولينى عن غزو الحبشة وتجديد الإمبراطورية الرومانية التى يجب أن يكون لها مجد طريف يشبه مجدها التليد . ولم أحس الغربة قط كما أحسستها فى ذلك المساء؛ فقد كان الايطاليون جميعاً مبتهجين تملأ قلوبهم الثقة ويغمر نفوسهم الأمل وتطمئن ضمائرهم إلى أنهم قد ملكوا الدنيا وقهروا أهل الأرض وأصبحوا للناس جميعاً سادة وقادة وعليهم جميعاً ملوكاً وحكاماً . ونجلس إلى مائدتنا حين يقبل الليل ، وإذا الخادم يسعى علينا بصحافه وأكوابه وفى نفسه كثير من الازدراء لنا والعطف علينا ؛ فقد علم أننا مصريون وقدر فى نفسه أن سنكون له فى يوم من الأيام أتباعاً وخدماً ، وأن سيكون منا من يسعى لخدمته بالصحاف والأكواب كما يسعى

هو لخدمتنا ، وهو يعنف بنفسه ويشق عليها حتى لا يتحدث إلينا بما يداعب ضميره من الأمل ، ولكنه آخر الأمر لا يملك أن يقول فى ضحك ساخر: أسمعتم دعاء النفير؟ إنه إيذان بسقوط الإمبراطورية البريطانية ؛ فلن تشرق شمس الغد حتى تزلزل الأرض بهذه الإمبراطورية التى أذلت الناس ؛ والأيام دول ، فسيدال من بريطانيا العظمى لإيطاليا منذ اليوم .

ونسمع نحن فنخفى الغيظ ونكتم السخرية وتستخف نفوسنا بايطاليا وبريطانيا جميعاً . ولكننا نذكر مصر فنرثى لها ونشفق عليها ، ونسأل أنفسنا عما تضمر لها الأيام وعما سيصيبها من هذا الصراع ، ثم لا نلبث أن نعود إلى حديثنا الذى يعبث كثيراً ويجد قليلا . حتى إذا فرغنا من طعامنا خرجنا نساير ساحل البحر وفى يد كل منا سيجار ضخم يرفعه إلى فمه بين حين وحين ، والحديث متصل لا يريد أن ينقضى ، وقد بلغ السيجار آخره وتبعته السجائر الصغار ، حتى إذا أوشك الليل أن ينتصف عدنا إلى فندقنا وأوينا إلى مضاجعنا ، وغدونا مع الضحى إلى السفينة فأبحرنا عائدين إلى مصر ، وقضينا أيام السفينة فرحين مرحين ، نطرد الجد إذا ألم بنا الجد ، ونذود حديث العلم إذا خطر لنا

حديث العلم ، ولكننا لا نكاد نستقبل ثغر الإسكندرية حتى نفترق ساعة أو بعض ساعة ثم نلتقى ، وإذا هو قد دخل فى زيه القديم واسترد وقاره الذى يعرفه مواطنوه وجلس والتف حوله نفر من المصريين يتحدثون إليه ويسمعون منه فى إكبار واجلال . وأدنو فيلقانى كما تعوّد أن يلقانى فى مصر ملقياً إلىّ تحيته الحلوة بصوته العذب الذى يملؤه الجد وتستخفى فيه مع ذلك دعابة يستسيغها هو وأسيغها أنا ، ولا يحس الحاضرون منها شيئاً .

كل هذا ذكرته حين وطئت قدماى أرض جنوا ، وكل هذا استحضرته وأنا أطوف فى المدينة ألمّ بهذه القهوه وأقف عند هذا المتجر وأدخل هذا المطعم ، ولا أترك المدينة حتى أمر بالمطعم الذى أصبنا فيه عشاءنا فى يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩٣٥ .

وأشهد لقد كنت فى ذلك اليوم شخصين مختلفين كل الاختلاف : أحدهما يظهر الفرح والمرح ، ويظهر الكآبة والحزن يفرح بزيارة إيطاليا التى لم يرها منذ أعلنت الحرب ، ويحزن لما أصاب المعالم والمعاهد فيها من الدمار ، ولما شاع فى نفوس أهلها وعلى وجوههم من البؤس ، ولهذه الصور التى تعرض فى بعض الشوارع تمثل بعض الذين فتكت بهم الحرب فتكا مروعاً

بشعاً، ولهذه الأزهار الرخصة التى صفت عند هذه الصور والتى يتعهدها الناس فيغيرونها قبل أن يدركها الذبول .

والآخر حزن كله وكآبة كله، ووفاء كله لا يعرف الفرح إليه سبيلا ، ولا يسمع لحديث الذين يسعون من حوله ، ولا يحس أن أحداً يسعى من حوله، وإنما يسمع لحديث واحد متصل يعبث كثيراً ويجد قليلا ، ولكنه يأتى من مكان بعيد يخترق إلىّ حجب الموت وينفذ إلىّ من طرق الحياة .

وأبلغ السفينة كاذب الفرح صادق الحزن منافقاً فيما بينى وبين الناس من صلة، فأضطرب مع السَّفْر فيما يضطربون فيه . حتى إذا أبحرت السفينة وأقبل الليل ثم تقدم فبلغ نصفه أو كاد وهدأت الحركة من حولى ونام الأهل والزمان ، برئت من الفرح الكاذب وتخلصت من هذه الصلات المنافقة، وخلوت لا إلى نفسى ولكن إلى هذا الصديق العزيز أسمع حديثه يخترق إلىّ حجب الموت وينفذ إلىّ من طرق الحياة، وقد فنيت فى هذا الحديث حتى لم أحس شيئاً ولا خاطراً ولا فكرة ولا شعوراً . ولكنى أهبّ فجاءة وقد ملكنى الذعر وملأنى الخوف لأنى أسمع صوته، أسمعه بأذنى لا بضميرى. أسمعه كما يسمع الناس أصواتهم

حين يتحدث بعضهم إلى بعض . أسمعه وأمد يدى كأنى أريد أن أصافح يده، ولكن يدى لا تلقى شيئاً وإنما هى ممتدة فى الهواء، والصوت الحلو الجاد الذى تشيع فيه السخرية الخفية متصل يقول :

يا مؤثر السهد على النوم   عداك ما تخشى من اللوم
قد أقبل الناس على لهوهم   وماز الجد من القوم
أحافظ أنت لذكراى أم   شغلت عن أمسك باليوم

ولولا أنى وجدت فى صوته إيناساً رد إلىّ نفسى لخفت أن أصيح فأروع النائمين . ولكنى أنست إلى هذا الصوت كما تعودت دائماً أن آنس إليه، وإذا أنا أسأله من تكون ؟ وإذا أنا أسمعه يقول إنك لتعلم من أكون، سلنى إن شئت بضميرك ولا تجهر بسؤالك ولا تخافت به؛ فإن للموتى آذاناً تسمع نجوى الضمير .

وقد جعلت ألتمس نفسى وأحقق ما حولى لعلى أن أكون مغرقاً فى نوم أو هائماً فى حلم. ولكنه يردنى إلى الثقة ويؤكد لى فى صوته العذب الحلو أننى لست نائماً ولا حالماً ولا هائماً، وإنما أنا يقظ كأقوى ما تكون اليقظة، حاضر الذهن كأحسن ما يكون حضور الذهن . وكل ما فى الأمر أنى أنكر مكانه

منى فى هذه السفينة التى تسعى بين إيطاليا وفرنسا متابعة عن بعد ساحل الريفييرا ، على حين أنه قد ترك دنيانا هذه منذ عام وبعض عام . وأكاد أجيبه بأن هذا هو الشعور الذى أجده والخاطر الذى أديره فى نفسى . ولكنه ليس فى حاجة إلى أن أرد عليه رجع حديثه ؛ فهو يختطف الشعور الذى أجده قبل أن أحققه فى نفسى ، ويختطف الفكرة التى تخطر لى قبل أن أستتمها فى ذهنى . وكأنه أحس أن هذا الحديث الخاطف يشق علىّ ويكلفنى من الجهد والمشقة ما يجاوز طوق الأحياء ، فيعتذر إلىّ متلطفاً وهو يقول : لا بأس عليك ! فقد تحدثت إلى الموتى منذ عام وبعض عام حتى ألفت أحاديثهم الخاطفة ، وأنسيت حديث الأحياء ذلك المستأنى البطىء . وأهم أن أسأله عن مكانه منى ، فينبئنى بما يملأ نفسى وجلا ورعباً ، وبما أحب أن يستحضره الأحياء دائماً حين يعملون وحين يقولون وحين يفكرون وحين تتصل أعمالهم وأقوالهم وخواطرهم بما كان بينهم وبين الموتى من صلة قبل أن يقطع الموت بينهم أسباب الحياة . ينبئنى بأن الموتى لا يفارقون الأرض إذا خرجوا من أجسامهم إلا بعد وقت طويل لا يعد بالأشهر ولا بالأعوام . فهم فى هذه

المهلة التى تتاح لهم قبل أن يخرجوا من الأرض موكلون بمثل ما كانوا موكلين به قبل أن يموتوا : يرون ويسمعون ويعرفون وينكرون، ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً أو أن يحدثوا شيئاً . وهذه المهلة هى التى يشار إليها فى أحاديث الديانات والسير والأساطير بما يسمى الأعراف ، وقت يمتحن الناس فيه بعد أن يموتوا وقبل أن يتلقوا ما قضى لهم من مثوبة أو عقوبة يرون فيه أعمالهم وأقوالهم وآثارهم، فيشقون كثيراً ويسعدون قليلا ويمحصون بما يجدون من السعادة والشقاء . ولا يبلغون آخر هذه المهلة حتى يكونوا قد خلصوا لما سيستقبلون من حياة راضية أو قاسية إلى آخر الأبد إن كان للأبد آخر .

وهم فى هذه المهلة مدفوعون إلى أن يستعيدوا حياتهم الأولى كما أنفقوها؛ فهم يلمون بكل مكان ألموا به حين كانوا يحيون فى حياتهم الدنيا ، وهم يعرضون على ما قدموا من خير وشر ويعرض عليهم ما قدموا من خير وشر ، وهم يمثلون سيرتهم كلها تمثيلا ، فيعملون الخير عالمين بأنه الخير ويجدون لذلك راحة وروحاً ، ويقارفون الشر عالمين بأنه الشر فيجدون لذلك شقاء وبؤساً وعذاباً أليماً .

قال صاحبي : وثق بأننا لا نمثل حياتنا مرة أو مرتين أو مرات قليلة ، وإنما نمثلها ونمثلها مراراً لا تحصى، حتى يشق علينا ذلك ويضيق بنا أو نضيق به ، وحتى يود كل واحد منا لو صرف عن حياته صرفاً فلم يخرج إليها ولم يخرج منها ، وحتى يقول كل واحد منا فى نفسه ألف مرة ومرة فى كل يوم بل فى كل ساعة: يا ليتنى كنت ترابا .

قال صاحبي : وأنت ترانى الآن فى هذه السفينة أتحدث إليك وأسمع منك ؛ فأصْلُ ذلك أن حياتى التى أنفقتها فى إيطاليا وفى فرنسا وفى أوربا كلها تعرض علىّ وأنا أعرض عليها ؛ فقد كنت فى روما قبل أن ألقاك وأقبلت على چنوا فلقيتك، وما أدرى أأدفع إلى فرنسا فألقاك أم أرد إلى مصر أم أدفع إلى وجه آخر غير فرنسا ومصر من الوجوه التى دفعت إليها فى حياتى الأولى . بل ما أدرى ! لعلى أن أدفع إلى فرنسا وأن أدفع إلى باريس، وأن ألمّ بالأماكن التى ألممت بها وحدى أو مع غيرك من أصحابى ، وأن ألم بالأماكن التى ألممت بها معك، ثم لا يتاح لى مع ذلك أن ألقاك كما ألقاك الآن، وأنا أقول لك وأسمع منك كما أقول لك وأسمع منك الآن ؛ فإن أمورنا فى هذه المهلة

التى أتيحت لنا تجرى على قوانين لا نعقلها ولا نحققها ولا نحيط بها ، كما كانت أمورنا فى حياتنا الأولى على قوانين ليس لنا عليها سلطان . قلت لصاحبى : وتظن أن أمورنا تجرى فى حياتنا الدنيا على قوانين لا سلطان لنا عليها؟ قال : لا أظن ذلك وإنما أقطع به ، ولو قد جرت أمورنا على قوانين نعرفها ونألفها لقدمنا من الأعمال غير ما قدمنا ، ولتجنبنا من السيرة ما أقبلنا عليه راغبين فيه عاكفين عليه محبين له أشد الحب . أتذكر أنك أنكرت علىّ ذات يوم بعض أمرى دون أن تحدثنى بإنكارك أو تظهرنى على ذات نفسك ، وإنما وجدت علىّ وأضمرت الموجدة وأحسست أنا ذلك إحساساً قويا ، ولمت نفسى فيه بعض اللوم ولكنى مضيت لشأنى غير مثقل على نفسى بالعتب ولا ملح عليها فى اللوم .

أتذكر ذلك ؟ قلت : نعم ! قال : وتذكر أنك لم تتحدث بموجدتك إلى أحد من الناس؟ وإنما تحدثت بها إلى ما حفظت فى نفسك من ذكرى إخوتى الذين سبقونى إلى الموت ؟ قلت : نعم ! قال : فهل تعلم أن موجدتك تلك تعذبنى عذاباً لا قبل لى به ؟ ! قلت : فإنى قد أنسيت هذه الموجدة قبل أن تفارقنا . ألا تذكر

أننا التقينا وتصافينا واستعدنا ودنا القديم غضا نضراً كأحسن ما عرفناه؟ قال: بلى! إنك قد أنسيت هذه الموجدة و إن ما استأنفنا من الصفو والعفو قد أراحنى من وخز الضمير ، ولكن إخوتى لم ينسوا هذه الموجدة، ولكن الكتاب الذى يسجل علينا أعمالنا ولا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها قد سجل إساءتى إليك فيما سجل . فهل تريد أن تعرف كيف أعذب بإساءتى إليك ووجدك علىّ ؟ لا يكاد يمضى وقت طويل حتى أرانى أحدث الإساءة إليك بمحضر من إخوتى كلهم، وأراك تأسى لذلك أشد الأسى ، وأرى إخوتى ينظرون إلىّ شزراً ثم يتحولون عنى معرضين عائفين ، ثم يكرهون لقائى وحديثى وقتاً لا أحصيه. وأجد أنا من موجدتك ومن إعراضهم ومن هذه الصورة البشعة التى تعرض علىّ ألماً لا أستطيع أن أصوره ولا أستطيع أن أصبر نفسى عليه. وكذلك أعذب بسيرتى كلها منذ استجبت لظروف الحياة، فآثرت المنفعة العاجلة على المودة القديمة، وأرضيت السياسة على حساب الصداقة والإخاء . قلت : وقد أثر ذلك فى نفسى أبلغ الأثر : فهل أملك لك من هذه العاقبة المؤلمة شيئاً ؟ قال : نعم ! تملك أن تغفر لى وقد فعلت ، وأن تستغفر لى لعل الله أن

يتجاوز لى عما قدمت ، ولعل إخوتى أن يلقونى بغير ما جعلوا يلقوننى به من النبو والإعراض . قلت : لأفعلن ولأدعون أصدقاءك جميعاً أن يفعلوا مثل ما أفعل وأن يستغفروا لك مصبحين وممسين وهذا أيسر مالك عليهم من الحق ؛ فقد بررتهم ورفقت بهم وأحسنت إليهم ، والحسنات يذهبن السيئات ، والمكرمات يمحون الخطايا . قال : وأخرى أحب أن أدعوك إليها وهى ألا تشكو الأحياء حين يسيئون إليك إلى الموتى ؛ فإن للموتى قسوة لا تكاد تحققها ، فهم لا يعرفون رحمة ولا رأفة ولا إشفاقاً . فهما يسىء الأحياء إليك ، فلا تكلهم إلى الموتى ولا تستعدى عليهم أحداً ، ولكن كلهم إلى عفوك وصفحك ، وكلهم بعد ذلك إلى أنفسهم ؛ فإن لهم ضمائر إن لم تعذبهم الآن فستعذبهم بعد أن يفارقوا الحياة

وارحمتاه للأحياء من عذاب الضمائر حين يموتون !

واهاً لإخوانى قد أفطروا ولم أزل أمعن فى الصوم

قلت فإنى لم أفهم عنك هذا البيت .

قال : ولن تفهمه حتى تصوم كما أصوم ؛ فإن للموتى أحاديث لا يستطيع الأحياء لها تأويلا .

وأريد أن أرد عليه رجع حديثه ، ولكنى أسمع صوتاً عذباً يدعونى

قائلا : واها للذين ينامون . وقد استقبلت السفينة ثغر مارسيليا، فأفيق متكفاً وأنهض متثاقلا وأريد أن أقص على زوجي بعض ما كنت فيه، ولكنها تسخر مني قائلة : لو انصرفت عن بعض السخف الذي تغرق فيه نفسك أثناء اليقظة لما عرضت لك هذه الأحلام المروعة . يجب أن تكون قد فكرت قبل أن تنام في تلك القصة التي أثقلت عليّ وعلى الناس بالحديث عنها والتي أجراها صاحبك چان پول سارتر بين الموتى، كأنه قد فرغ من الأحياء فلم يبق له إلا أن يشغل نفسه بالموتى . أسرع إلى ثيابك؛ فإني لم أعدد أمتعتنا بعد، وما أحب أن نبلغ المرسى ونحن في غرفتنا هذه . وأسرعت إلى ثيابي طائعاً وأنا أقسم بيني وبين نفسي ما فكرت في قصة چان پول سارتر منذ ركبت في السفينة بل منذ أكثر من شهرين .

٤

فالت وفى صوتها حنـــان ينم عن كامن التياع
لا يلبث الأصدقاء حتى يدعـــوهم للفراق داع

ثم ألقت إليهن نظرة طويلة حزينة وإن كان قلبها ليملؤه الفرح والمرح والغبطة لبلوغها أرض وطنها ولأنها ستلقى ابنها بعد يوم وبعض يوم . قالت لى وهى تتنهد تنهداً لم يستطع أن يخلص للحزن : « وددت لو استصحبتهن إلى باريس . ولكن ماذا أصنع بهن أثناء هذا النهار الطويل الذى سننفقه فى مارسيليا متنقلين من قهوة إلى مطعم ومن مطعم إلى قهوة وهن صاديات إلى الماء ؟! قلت متضاحكاً وفى نفسى حزن لا يكاد يبين : نعم ! وماذا تصنعين بهن فى هذا النهار الطويل الذى ستقضينه فى مارسيليا متنقلة بين المتاجر ، لا تلمين بواحد منها إلا لتتركيه إلى غيره ، محبة لذلك مشغوفة به ، لا تشترين وإنما تنظرين وتقدرين لعلك أن تشترى ذات يوم ؟

وكذلك تحول الحديث من جد إلى لعب ، ومن حزن إلى فكاهة ودعابة ، وأضمرت القلوب ما أضمرت لتلك الزهرات النضرات من حب وود وحنان . وكانت تلك الزهرات قد لقيتنا فى محطة القاهرة أرسلها للقائنا ووداعنا ومرافقتنا أثناء السفر صديق كريم علينا حبيب إلينا ، وحملها من مودته وإخائه ووفائه ما لا تستطيع الكلمات أن تؤديه ولا أن تحمله ، وما يحسن الزهر أن يحمله ويؤديه فى بلاغة قصد لا يزينها الإطناب ولا يحسنها الإيجاز ولا تستقيم لها المساواة ، وأين هى من ذلك وهى بلاغة لا تؤدى إلى القلوب بالأصوات والكلمات وإنما تؤدى إليها بالجمال النضر البارع والأرج الرائع النفاذ ! ولم تكد هذه الزهرات تلقانا وتسمع فى شىء من السخرية حديث من حملها إلينا وهو يبلغنا تحية مرسله ، وحديثنا نحن ونحن نتقبل التحية شاكرين ونتلقى الزهر كلفين به مرتاحين إليه — أقول لم تكد هذه الزهرات تلقانا ساخرة من كلامنا ومن إعجابنا ومن عبارات التأثر تلك التى يتبادلها الناس ، حتى طوت عنا أسرارها طياً وأخفت علينا أخبارها إخفاء . كانت تعلم فى أكبر الظن أن القطار لا يصلح لنجوى الزهر ، لكثرة ما يملأ به

الأنفس والأسماع من الضجيج والعجيج ، ولكثرة ما يعرض للسَّفْر فيه مما يشغل عن النجوى والحديث .

والزهر لا يحسن النجوى إلا حين يهدأ من حوله كل شيء ، وحين يخلو إليك وتخلو إليه ، وحين يفرغ لك وتفرغ له . فلم تحفل بنا إذن تلك الزهرات وإنما انطوت على نفسها انطواء ، والتوت عنا التواء ، وأسرعنا إلى صاحب « البولمان » نلتمس عنده شيئاً من ماء ، فانتظرتنا راضية أو كارهة وصحبتنا بين القطار والسفينة ناعمة أو بائسة واحتملت عبث الأيدى بها حين بلغنا مستقرنا من السفينة ، وأوت إلى الآنية التى صففت فيها تصفيفاً ، ولم تكد تفرغ من الناس ويفرغ الناس منها حتى تحدثت فأحسنت الحديث .

تحدثت إلى قلوبنا وأذواقنا وعواطفنا ، فزينت الود الخالص الذى لا يصدر عن طمع ولا عن خوف ، والذى لا يشوبه رهب أو رغب ، والذى لا تفسده مخادعة أو مصانعة . والذى لا يعرب عن آمال تريد أن تحقق وتخشى أن تخيب ، والذى لا يصور يأساً من غيرك ورجاء فيك ، والذى لا يبتغى عندك نفعاً ولا يتقى منك ضرا ، والذى لا يكدره ما يكدر صلات الناس من

هذا الشر المنكر الذى تخفيه الضمائر وتكتمه القلوب ، وإنما هو الود الصفو العفو الذى يصدر من النفس إلى النفس، ويصل القلب بالقلب ، ويبلغ الضمير رسالة الضمير .

وتحدثت عن هذا الإخاء الذى لا يأتى من قرابة النسب ولا من اشتراك المصالح ولا من تضامن الناس وتعاونهم ليكيد بعضهم لبعض ويمكر بعضهم ببعض ، وإنما يأتى من الأدب حين يتصل بين الناس شعور صفو بالجمال الصفو وطموح رفيع إلى الحق الرفيع .

وتحدثت عن هذه الصلات الحلوة التى تنشأ بين الناس بريئة إلا من حب المعرفة ، نقية إلا من الترفع عن الصغائر والتنزه عما يشين الرجل الكريم . وكانت أحاديثها رقيقة رشيقة لا تؤذى السمع ولا تشق على النفس ولا تشغل عما يعرض للناس وما يعرض الناس له من المنافع والمآرب والحاجات ، وإنما تسعى عبيراً أرجا دقيقا فتبلغ أعماق الضمير فى غير جهد ولا تكلف ، أو تتمثل جمالا رائعاً بارعاً فيه نضرة الندى ورقة النسيم وابتسامة الشمس المشرقة وهدوء الليل المطمئن وخصب الأرض الغنية وغناء الطير الفرح المرح ، فتملأ العيون بهجة وتفعم النفوس غبطة ، وتشيع فى القلوب رضا وأمناً واطمئناناً ، وتقر فى العقول

أن الحياة ليست كلها غدراً ومكراً وكذباً وميناً وخداعاً ونفاقاً وكدراً ورنقاً ، وإنما هي شيء أرق وأنقى وأجمل وأكمل من هذا كله ، وهي خليقة أن تحياها ما دامت الطبيعة تستطيع أن تهدى إلى الناس زهرا نضراً يحمل ابتسامة الشمس ورقة النسيم وعذوبة الندى وهدوء الليل وخصب الأرض ، وربما تحدثت إلى النفوس ألواناً من الحديث لا تستطيع لغات الناس أن تصورها لأنها غامضة أغمض من أن تسعها الألفاظ . ولأنها واضحة أوضح من أن تنكرها النفوس ، ولأنها تصور من نجوى الشجر والزهر حين تشملهما ظلمة الليل أو يغمرهما ضوء النهار ، وما يكون من مرح الغصون حين يداعبها النسيم ومن جزعها وفزعها حين تعصف بها الريح ، وتصور مرح الطير حين يسفر الصبح واكتئابها حين يدنو الأصيل ، وتصور ما يكون بين أمواج الأنهار والجداول من مداعبة وملاعبة ومعاتبة ومغاضبة ، وتصور ما تحمل الشمس المشرقة إلى الأرض من تحية وما تضمر الشمس المحرقة على الأرض من موجدة ، وتصور هذه الرسائل الجلية الخفية التي تحملها أشعة الكواكب والنجوم بين الكواكب والنجوم .

تصور هذا كله وأكثر من هذا كله، وتحمله إلى النفس في أناة مستأنية ورفق رفيق، لا تشق عليك ولا على أنفسها بذلك. وإنما تسعى أحاديثها من قبلها إليك عفواً في غير مشقة ولا جهد وفي غير تكلف ولا تصنع. وأنت تسمع لها إن شئت وتعرض عنها ان أحببت، وأنت تعقل من أحاديثها ما تتفتح له نفسك وينشرح له صدرك، ثم لا تشقى بما لم تسمع منها أو تفهم عنها من الحديث؛ لأنها لا تدعوك إلى أن تسمع لها ولا تلح عليك في أن تفهم عنها، وإنما هي قائمة باسمة، تؤدي رسالتها وتلقي أحاديثها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فهي تحمل إلى الإنسان رسالة الإنسان، وهي تحمل إلى الإنسان رسالة الطبيعة، وهي لا تشق على الإنسان حين تبلغه هذه الرسالة أو تلك، وهي تنتظر ناعمة مشيعة النعمة من حولها، حتى إذا سعى إليها الذبول ومشى فيها الذواء استقبلت الفناء راضية كما استقبلت الحياة راضية، وودعتك بآخر ما ترسل من أرجها وآخر ما تنشر من جمالها، فتركت في نفسك أثراً كالذي تركته في نفس زوجي وفي نفسي، فيه كثير من حب وكثير من رفق وكثير من حنان، وفيه شيء من اكتئاب وشحوب.

وقد فارقنا زهراتنا فى السفينة وفيها شىء من حياة. صحبتنا أثناء السفر فأحسنت الصحبة ، ولولا الحياء لأ وصينا بها أصحاب السفينة خيراً . وكانت إلمامتنا قصيرة ، وكان سفرنا إلى باريس ميسراً ، وإن عرضت لى فيه خطوب سأعود إليها بعد حين .

وأقمنا فى باريس ما شاء الله أن نقيم ، وعرضنا فيها لما شاء الله أن نعرض له ، وعرض لنا فيها ما شاء الله أن يعرض لنا من الأمر . ثم أزف الترحل عن باريس ، ولم يبق بيننا وبين ركوب القطار إلا ساعات قليلة ، وقد ودعنا فتانا وأبينا عليه أن يصحبنا إلى المحطة ، وألححنا عليه فى أن يفرغ لشأنه ويتزود من الراحة قبل أن يستقبل إمتحانه الشاق العسير .

وينصرف الفتى عنا شجاعاً جلداً ، ولا يكاد يغلق الباب من ورائه حتى تنهل دموع وتشرق حلوق وتتقطع أصوات فى الصدور . ثم يقبل الزائرون يتبع بعضهم بعضاً وقد كدنا نتسلى عن لوعة الوداع ، ولكن طارقاً يطرق الباب فى رفق ، فإذا فتح له سبق العبير صوته ، فنحس بأن الفتى قد أبى أن نفترق على هذا الوداع الأليم ، فاختار زهرات ، وألقى إليها بذات نفسه وأسر إليها

أن تحمل حبه وبره إلى أبويه .

وقد عادت الدموع إلى انهلالها وعادت الحلوق إلى شرقها، وعادت الأصوات إلى تقطعها فى الصدور. ولكن جمال الزهرات رد إلى النفوس شيئاً من هدوء ، ولكن عبير الزهرات رد إلى الضمائر كثيراً من أمل ، ولكن نضرة الزهرات ملأت القلوب حبًّا وحناناً .

وكانت هذه الزهرات فصاحاً كل الفصاحة مسمعات كل الإسماع عجلات إلى إلقاء أحاديثها وأداء رسالتها والكشف عن أسرارها . فهى تتحدث إلينا فى غرفة الفندق، وهى تتحدث الينا فى السيارة بين الفندق والقطار، وهى تتحدث إلينا فى القطار ما أمسكتنا اليقظة ، وهى تتحدث إلى أحلامنا حين يستأثر بنا النوم . وهى تتحدث إلينا فى چنوا أيقاظاً ونياماً، وهى تتحدث إلينا فى السفينة بين چنوا ونابولى أيقاظاً ونياماً كذلك . وهى الآن وأنا أملى هذا الحديث تنتظرنا فى غرفتنا بما بقى فيها من حياة تبث أحاديثها إلى جو الغرفة وما فيها من أداة، حتى إذا اشتملها الذواء تركت من روحها ما يمضى فى التحدث إلينا عن فتاتنا حتى نبلغ مصر إن شاء الله .

وأشهد إنى لأنحنى عليهن بين حين وحين ، فأشمهن وألثمهن وأنشدهن قول أبى العلاء لحمائمه :

إيه لله دركن فأنتـ ـنّ اللواتى يحسنّ حفظ الوداد

٥

لم نكد نرقى إلى السفينة بعد أن طوفنا فى چنوا ساعات حتى ذكرنا أننا لم نرسل البرقية التى كنا نزمع إرسالها إلى القنصلية المصرية فى مارسيليا . فقد كنا قدرنا أننا سنصل إلى مارسيليا حين يوشك النهار أن ينتصف ، واستكثرنا أن ننفق فيها سائر النهار وعامة الليل ، ثم ننفق النهار كله بعد ذلك فى القطار ونصل إلى باريس حين يتقدم الليل فنقضى فى فرنسا يومين كاملين لا نرى فيهما الفتى ، وما أشد شوقنا إلى لقائه ! وما أشد حرصنا على ألا نزعجه عما هو فيه من استعداد لامتحانه العسير .

وكنا قد أصدرنا إليه الأمر من القاهرة ألا يخف للقائنا ولا يسعى إلينا إلا حين ندعوه بالتليفون ؛ فليس من شك فى أنه سيسمع ويطيع . وقد تنازعه نفسه إلى لقاء أبويه ، فلنخف عليه مقدمنا إذن ، ولننبئه بمكاننا بعد أن نستقر فى فندقنا . من أجل

ذلك أزمعنا أن نخالف عن عادتنا المألوفة فنسافر إلى باريس فى قطار الليل لا فى قطار النهار كما نحب دائماً أن نفعل .

فليس بد إذن من أن نبرق إلى قنصلنا فى مارسيليا ليتفضل فيحجز لنا أماكننا فى قطار الليل . وقد أنسينا هذه البرقية لكثرة ما عرض لنا من الأمر فى چنوا ، وما ألمّ بنفوسنا وقلوبنا من الخواطر والذكريات . فلما ذكرنا هذه البرقية بعد صعودنا إلى السفينة تقدمنا إلى «فريد» أن يحتال فى إرسالها . فما أسرع ما هبط إلى الأرض ، وما أسرع ما عاد إلينا ينبئنا بأن البرقية ستصل إلى القنصل بعد دقائق لن تبلغ العشرين !

كذلك قدرنا ، ولكن السفينة وظروف السفر قدرت شيئاً آخر ؛ فلم نبلغ الساعة التاسعة من صباح الغد حتى كانت سيارة قد انتهت بنا إلى محطة مارسيليا وفيها عرفنا أن قطاراً سيسافر منها إلى باريس إذا انتصف النهار . فنرسل فريداً إلى القنصل ليعلم لنا علمه ونحن نتمنى فيما بيننا وبين أنفسنا ألا يكون حجز الأماكن فى قطار الليل قد يسر له . ونجلس إلى قهوتنا ننتظر عودة فريد ، وما هى إلا ساعة حتى يعود ومعه القنصل يقسم جهد أيمانه أن الرسالة لم تصل إليه إلا بعد أن

لقيه فريد . وهو يعتذر ما وسعه الاعتذار ، ولا يقدر أن تأخر هذه الرسالة ووصولها بعد مرسليها قد صادف هوى فى نفوسنا وحقق لنا أملا عزيزاً علينا . وما أقل ما تحقق الآمال فى هذه الحياة !

ونحن نجتهد فى أن نحتجز الأماكن فى قطار الظهر ، ندفع إلى المحطة وتد فعنا المحطة إلى كوك . وقد شكرنا للقنصل جهده ورددناه إلى عمله الكثير ومواعيده الخطيرة سالماً موفوراً لم يلق كيداً ولم يكلم كلما .

ثم لا ينتصف النهار حتى نكون قد أخذنا أماكننا فى عربة من عربات «البولمان» من الدرجة الثانية بعد أن ضاقت بنا عربة البولمان فى الدرجة الأولى .

وقد أخذنا من الأماكن ما أتيح لنا ؛ ففرقت مصادفة القطار بينى وبين فريد ، وجلست إلى زوجى نتحدث حيناً ونسكت حيناً ولا تتاح لنا القراءة ، ثم حمل إلينا غداؤنا ولما فرغنا منه أوينا إلى شىء من راحة. ولكنى لا أكاد أخلو إلى نفسى حتى أذكر ما لقيت من ليلتى وما كان بينى وبين صديقى ذلك العزيز من حديث غريب ، وأحاول أن ألتمس لذلك الحديث تأويلا ولكنى أصرف عن ذلك

صرفاً رفيقاً عنيفاً فى وقت واحد . فهذا صوت صديقى يبلغ أذنى عذباً رقيقاً يشيع فيه الحنان ، وهأنذا أفزع لذلك أشد الفزع ، وأكاد أتحدث بما أجد إلى زوجى . ولكن يداً رفيقة رقيقة تمس كتفى وصوتاً حلواً نفاذا يقول لى : «لا بأس عليك ما الذى يروعك وأنت حديث عهد بى ! ألم أكن أتحدث إليك منذ ساعات قصار؟» . قلت «بلى ! ولكنه الحلم فيما قدرت ولست الآن نائماً» . قال : «بل هو الحلم فيما قدرت زوجك لا فيما قدرت أنت. ولولا أنك تحدثت إلى زوجك بما تحدثت إليك وأنها قالت لك ما قالت ، لأنفقت ما شاء الله من الدهر فى هذه الدنيا لا تشك فى أنى لقيتك وتحدثت إليك وسمعت منك وأنت يقظان ، ولأخفيت ذلك على الناس مخافة أن يتهموك بالتكذب أو أن يظنوا بعقلك الظنون . فالآن فسل نفسك أنائم أنت أم يقظ ؟ وتحدث إلى زوجك واسمع منها رجع الحديث ، وضع يدك فى جيبك فداعب بها سبحتك تلك التى أهداها إليك صديقنا فلان . . وأخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة . ولو قد أتيح للموتى أن يدخنوا لأخذت منك إحدى سجائرك هذه ولشاركتك فى التدخين ولكن أنى للموتى أن يدخنوا ! وإنما هم

ظلال ليست لهم أيد ولا شفاه ولا حلوق . » وأسرعت بيدى إلى جيبى فداعبت سبحتى وأخرجت علبتى وأشعلت سيجارتى وتحدثت إلى زوجى . ولكن يدا رفيقة تمس كتفى وصوتاً حلوا يبلغ أذنى وهو يقول : « أنت إذن يقظ لا نائم، فاسمع منى وافهم عنى ، واعلم أنى أتحدث إلى قلبك وعقلك جميعاً .

أتذكر أثراً طالما تحدثت إليك به ؛ لأنى كثيراً ما سمعته من الشيوخ ؟ قلت : « الأولاد مبخلة مجبنة ؟» . قال : « هو ذاك ! وقد عرفتنى قبل أن أرزق الولد وأحتمل من أعباء الحياة ما يحتمل الآباء، فهل رأيت منى بخلا وجبناً ؟» . قلت : « اللهم كلا !» . قال : « فإنك لم تنس أنى غاضبت الحكومة فى مستهل الشباب ، وغاضبت السلطان غير مرة بعد ذلك ، ولقيت فى ذلك من لوم الأسرة ما لقيت ، فلم أحفل بلوم ولم ألتفت إلى عتب ، وإنما أديت الواجب كما كنت أعتقد أنه ينبغى أن يؤدى » . قلت : «هذا حق» . قال : «وقد رأيتنى بعد أن رزقت الولد واحتملت من الأعباء ما يحتمل الآباء، فهل رأيت منى بخلاء؟» قلت : « اللهم لا ! » . قال : « فالحمد لله على أن الولد لم يكن لى مبخلة. ولكنك رأيت منى كما رأيت من نفسى جبناً فى غير

موطن من المواطن» . قلت : «لم أر جبناً وإنما رأيت تحفظاً واحتياطاً» قال : «فإن الموتى يحبون أن نسمي الأشياء بأسمائها ؛ فقد رأيت منى ورأيت أنا من نفسي جبناً فى غير موطن من المواطن وقد عبرت عنه بهاتين الكلمتين : التحفظ والاحتياط معتذراً عن نفسي إلى نفسي ومخادعا لها عن الحق ، فلم يغن هذا عنى شيئاً وإنما استحييت من نفسي ومن الناس . ولو قد أظهرتك أسرتى على ما كتبت من المذكرات لرأيت من ذلك ما يرضيك . وإذن فقد كان الولد مجبنة لى ؛ فأنا أستغفر الله وأرجو أن تستغفر الله لى من هذا الجبن» . قلت : « فقد غفر الله لك لأنك تبت من هذا الضعف توبة صادقة نصوحا» . قال : «لو غفر الله لى لما وجدت ما أجد إلى الآن من ألم وندم وعذاب يمزق الضمير» . قلت وقد أسرعت إلى شفتى ابتسامة حاولت أن أخفيها : «يعجبنى هذا التعبير لتمزيق الضمير » . قال : « ألم أقل لك إن الموتى يحبون أن تسمي الأشياء بأسمائها ! إنك ترى فى هذا التعبير مجازاً رائعاً ولكننا نحن نرى فيه حقيقة واقعة . فضمائرنا يمزقها الندم تمزيقاً ويفرقها الألم اللاذع تفريقاً . والآن وقد تحدثت إليك عن نفسي أحب أن أتحدث إليك عن نفسك أنت » .

قلت : « وماذا تعلم من أمر نفسي؟» قال : « أعلم أنها كئيب ، وأعلم أنها بائسة ، وأعلم أن ألماً لاذعاً يقضها ويمضها ، وأعلم أنك تظهر ما تظهر من إشراق الوجه وابتسام الثغر ورشاقة الحديث ، ثم تنشد إذا خلوت إلى نفسك بيتاً طالما اشتركنا فى الإعجاب به :

وتجلــدى للشامتين أريهمُ أنى لريب الدهر لا أتضعضع »

قلت : « فإنى لا أحب أن يقرأ الناس ما فى نفسى » . قال : «هيهات ! تستطيع أن تخفى ذات نفسك على الأحياء ، فأما الذين يعرفونك ويألفونك من الموتى فليس يخفى عليهم من ذات نفسك شىء » .

وهممت أن أتكلم أو بعبارة أدق هممت أن أرد عليه بعقلى لا بلسانى ، ولكنه مس كتفى مسًّا رفيقاً وقال فى صوت حلو يشيع فيه الأسى : «لو عرف الأحياء أنهم يؤذون الموتى حين يجزعون أو يفزعون أو يراعون لملكوا أنفسهم ولسخروا من آلام الحياة فإنها أهون من أن تؤذى النفوس ، أو تحزن القلوب . ولكنا نراكم جزعين فزعين مروعين لليسير من الأمر ، فنرثى لكم ونشفق عليكم ، ويؤذينا شقاؤكم فى ذوات أنفسكم . ليتكم تعلمون أن للموتى

حسًا دقيقاً وشعوراً رقيقاً وذوقاً مرهفاً وأن الموت لا يقطع ما بينهم وبينكم من الصلات إلا بعد وقت لا نعرف أقصير هو أم طويل . ألم تقرأ فى الآثار والأخبار أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه؟» . قلت : « بلى » قال : « فانما يعذب الموتى بحزن أهلهم عليهم لكثرة مايرثون لهم ، ويأسون لما يجدون من حزن. و إن رثاءنا لكم وإشفاقنا عليكم حين تحزنون علينا ليعذبنا أضعاف مايعذبكم ما تجدون من ألم الفراق . ليت الأحياء يعلمون أن الموتى إنما يتركونهم لخير مما هم فيه ، فلا يشيعوهم بهذا الحزن الممض والألم الذى يقض المضاجع وينغص الحياة» . قلت: «فإن الأحياء لا يحزنون على الموتى حين يموتون بمقدار ما يحزنون على أنفسهم لما يجدون من افتراق الشمل وانقطاع الأسباب بينهم وبين من أحبوا » . قال : « ما زلت كما عهدتك مستقصياً متعمقاً غالياً فى التحليل والتعليل ، والأمر مع ذلك أيسر مما تظن . فليكن حزنكم علينا أو على أنفسكم ، فإن هذا الحزن يؤذينا دائماً أشد الإيذاء وأوجعه . ولقد شهدت أسرتى ثم شهدت أصدقائى بعد أن فارقت داركم الدنيا ، ثم رأيت بكاء الباكين ونحيب المنتحبين ، ثم رأيت اللوعة التى تكتم فى الصدور والحسرة التى تضمر فى القلوب

والدموع التى تمسك فى الجفون ، فما أعرف أنى لقيت قط من الألم أثناء حياتى كلها مثل ما لقيت فى تلك الليلة ثم فى ذلك اليوم من بعدها». قلت : «ولن يؤلمك الحزن المنافق واللوعة الكاذبة والحسرة التى تظهر فى الوجوه دون أن يكون وراءها شيء» . قال : « هيهات ! إن الموتى ليصفحون عن كثير . ولقد تعلمت فى الحياة من الصفح عن المنافقين والإغضاء عما يتكلفون من الرياء والكذب ما أنت فى حاجة إلى أن تتعلمه . ولو قد تعلمته لأرحت نفسك من عناء كثير . إن المنافق إنما يؤذى نفسه أكثر مما يؤذيك . فلو أنصفته لرحمته وأشفقت عليه . أتظن أنه من الهين أن يكذب الإنسان على نفسه فى كل قول يقوله ، وفى كل عمل يعمله ، وفى كل خفقة من خفقات قلبه ، وفى كل خلجة من خلجات نفسه ، يفرح قلبه ووجهه كئيب ، ويحزن قلبه ووجهه مبتهج . يقول ونفسه تنكر ما يقول ويعتقد ولسانه ينكر ما يعتقد . وكل ذلك يكتب له ويحصى عليه ، حتى إذا خلا إلى نفسه مزقه الندم إن كان له ضمير ، فإن لم يكن له ضمير فخلوته إلى نفسه نفاق كما أن لقاءه لغيره نفاق ؛ فهو منافق مع نفسه ، منافق مع الناس ؛ حتى إذا فارق الدنيا عرضت

عليه من نفاقه صور يا لها من صور ! لا تستطيع عقول الأحياء أن تتصورها ، ولا تستطيع قلوبهم أن تصبر لها، ولا تستطيع لغاتهم أن تصفها . وإنى لأرى بعض الأشقياء من الذين أسعدهم النفاق فى حياتهم الأولى فأتمنى لهم عطفاً عليهم وبراً بهم أنهم لم يخلقوا .

لاتبتئس إذن لنفاق المنافقين ، ولكن ارحمهم وارث لهم وتمنّ أن يتوب الله عليهم فى حياتهم قبل أن يموتوا فيصبح أملهم فى التوبة أوهن من نسج العنكبوت . ولنعد إليك وإلى هذا البيت الذى تنشده كلما خلوت إلى نفسك حين يلم بك بعض ما تكره من الأمر ، فتظهر الرضا وتضمر السخط وتعلن الابتهاج وتسر الاكتئاب. فهل علمت أن أشمت الناس بالإنسان إنما هى نفسه الخفية التى لا يظهر عليها أحد ، وأن الإنسان خليق أن يتجلد فيما بينه وبين نفسه قبل أن يتجلد فيما بينه وبين الناس؟ وما يعنيك أن يظن الناس بك الظنون ويقولوا فيك الأقاويل إذا عرفت نفسك وعرفتك نفسك ، فلم تنكرها إذا خلوت إليها، ولم تنكرك إذا خلت إليك ! . إن شماتة نفس المرء به هى أصل الشر ومصدر الداء والطريق إلى كل موبقة من الأمر . إن المكروه يلم بك

فتجزع له وتضيق به وتتكلف للناس صبراً وجلداً ، ولكنك قد ضعفت فى دخيلة ضميرك فلم تخف الجزع على نفسك، وإذا هى تنظر إليك ساخرة ، ثم تنظر إليك مشفقة ، ثم تنظر إليك مضللة ، ثم تنظر إليك محاولة أن تسليك وتلهيك، وإذا هى تلتمس لك المعاذير الكاذبة والتعلات الباطلة لتسليك عما تجد من الحزن ، وتحط عنك ما يثقلك من الإصر . ثم لا تلبث أن تغريك بالتماس التسلية والتلهية لتنسى ألمك وتتخفف من همك ، فتفتح لك أبواباً من الشر وتمهد لك طرقاً إلى الإثم . ثم ما تزال تدفعك من باب إلى باب ومن طريق إلى طريق حتى تنسيك ما كان يثقلك من الحزن والألم ولكن بعد أن تكون ورطتك فى آلام وآثام أشد ثقلا وأعظم نكراً مما كنت فيه . ولو قد لقيت المكروه شجاعاً جلداً أمام نفسك ، غير حافل بما يظن الناس وما يقولون وغير خارج عن طورك ولا مغير لسيرتك فيما بينك وبين ضميرك ، لاحتفظت بمروءتك كاملة برجولة موفورة ، ولجنبت ضميرك كثيراً من هذا الدنس الذى لا يليق بكرام الناس » .

قلت : « لقد أصبحت بعدى فيلسوفاً » . قال وهو يبتسم :

« إن الموت يعلم الفلسفة لكثير من الأحياء فما له لا يعلم الفلسفة لقليل من الموتى ! » .

وأقبل فريد ينبئني بأن في العربة مكانين خاليين ساعة وبعض ساعة ، وأنه يستطيع أن يقرأ لي بعض ما حمل من الصحف والمجلات ، فأتثاقل . ولكن صديقي يقول لي : « لا بأس ! استمع لما سيقرأ عليك فريد أو لا تستمع له ولكن لا ترده خائباً ؛ فانه يلتمس هذه الفرصة منذ ركبتم القطار . إنه يعرف حرصك على القراءة ، ويريد أن يمنحك منها أكثر ما يستطيع أو أكثر مما تطيق . »

فأنتقل مع فريد وإذا هو ينشر صحفه ومجلاته ويقرأ ما شاء الله أن يقرأ متنقلا بين الأدب والسياسة والفن ، وأنا أمنحه أذني وأصرف عنه نفسي ؛ فقد مضيت في أحاديثي مع صديقي لا أكل أنا ولا يمل هو ، وفريد يقرأ ويقرأ . حتى إذا دنا القطار من ليون عدت إلى مكاني . ويسألني فريد عن بعض ما قرأ لي ، فأبتسم وأقول له في صوت يكسره الحياء : لقد نمت عنك وعما قرأت أكثر هذا الوقت . وصديقي يشهد ما نمت عن فريد ولا عما قرأ ، وإنما شغلت بحديثه عن فريد وعما قرأ .

وقد اتصل الحديث بيني وبين صديقي فنوناً وألواناً، قليل منها يمكن أن يقال، وأكثرها ينبغي أن ينطوي عليه الضمير .

وأقبل الخادم يحمل إلينا عشاءنا، وأقبلت على طعامي وعلى حديث زوجي غير منصرف مع ذلك عن هذا الصديق العزيز لحظة، وإنما هي الحياة المزدوجة التي أحياها في كثير من الأحيان، أمنح جلسائي نصف نفسي وأمنح نصفها الآخر لجلساء آخرين أعرفهم أنا ولا يعرفهم الناس ، أقول لهم وأسمع منهم وأبادلهم ضروب الحوار والناس يحسبونني معهم قد منحتهم عنايتي كلها كما منحوني عنايتهم كلها . وهل في الحق أن أحداً من الناس يمنح أحداً من الناس عنايته كلها إلا في أقل الأوقات وأشدها ندرة وأقلها تجدداً !

ويبلغ القطار باريس آخر الأمر ، وقد هم الليل أن ينتصف وننهض لنهبط إلى الأرض ، وإذا صديقي يقول لي مداعباً : «أتذكر صديقنا ذاك الذي عاد إلى باريس لأول مرة بعد أن أتم الدرس فيها وقضى في مصر عاماً أو عامين ، فلما بلغ هذه المحطة لم يكد يطأ أرضها بقدميه حتى انكب عليها فقبلها بشفتيه ؟!» قلت : «يرحمه الله ويرحمك!» . قال : «فإني سألقاه في باريس.

فالأسباب لم تقطع بينه وبين الحياة الدنيا بعد ، وهو يؤثر باريس ميتاً كما كان يؤثرها حيا » .

وزوجى تلح علىّ فى أن أسرع فى الخطو حتى لا نعوق من وراءنا من الناس . ولكن صديقى يقول لى فى صوته الهادئ الحلو : « لا تعجل فليس فى العجلة خير ، انتظر حتى نضرب للقاء موعداً . أتذكر الكلوزيرى دى ليلا ؟ » . قلت : وكيف لا أذكرها ! قال : «أسنلتقى فيها أثناء زيارتك المقبلة لباريس إن شاء الله ، وسيشهدنا الخادم الذى كان يتلقانا معنيا بنا . أتعرف أنه قد مات؟ » قالت زوجى : قد بلغنا السلم ، فاستأن حتى أبلغ الأرض وأمنحك يدى . قال صديقى : « موفقاً إن شاء الله فى سفرك وإقامتك » .

وأبلغ الأرض أسعى مع زوجى متثاقلا أقول لها : أليس غريباً أن نكون فى باريس والفتى لا يعلم أين نحن ؟ وتهم أن تجيب ، ولكنا نسمع صوت الفتى مرتعشاً يقول : يا حبيبى . ثم يلقى بنفسه بين أذرع أربع ثم تكون قبل تؤدى كثيراً من المعانى والألسنة معقودة والقلوب واجفة. ثم أقول للفتى ونحن نسعى : كيف عرفت أننا فى هذا القطار ؟ قال سألت عنكما

فى الفندق فأنبئت بمقدمكما ، لا شوقاً إليكما بل رفقاً بكما .
فليس لكما فى الفندق مكان ، وقد احتجز لكما أصحابه غرفة فى
فندق آخر تقضيان فيه الليل ، فاتبعانى أصحبكما إليه .



٦

سنستجيب لهذه الدعوة ما فى ذلك شك . قلت ذلك وأنا أعجب فيما بينى وبين نفسى لهذه الدعوة التى كانت تنتظر فى باريس دون أن يعلم الذين أرسلوها إلينا أننا قادمون إلى باريس . أعجب لذلك بعد أن أنفقت يومين متحدثاً إلى صديقى ذاك الذى فارق الحياة . فلا أكاد أودعه عند سلم القطار حتى أعلم بعد قليل أن جماعة أصدقاء چان زى قد أرسلت إلى الفتى دعوة للأسرة كلها ترجو فيها أن نشهد الحفل الذى سيقام فى السوربون لوداع چان زى . وقد كان چان زى وزيراً للتربية الوطنية فى فرنسا أعواماً متصلة قبل الحرب ، وزار مصر سنة ١٩٣٨ وعرفته فى القاهرة واستقبلته فى الجامعة وكنت عميداً لكلية الآداب . ثم اتصلت بينه وبينى أسباب من المعرفة لا تبلغ الصداقة ، ولكنها على ذلك ليست بتلك المعرفة العابرة التى لا يكترث لها المتعارفون . وقد لقيته فى فرنسا سنة ١٩٣٩

لقاء قصيراً أحسست فيه إلحاحاً فى العناية بى قلما يظهره الساسة الفرنسيون لأجنبى زائر لباريس . ثم كانت الحرب وعدت إلى مصر وشغلت عن چان زى ، وإن كنت قد أعجبت به حين قرأت فى الصحف أنه استقال من الوزارة ليؤدى واجبه الوطنى فى ميدان القتال . وألمت الكارثة بفرنسا وكان الانقلاب السياسى ، فشرد أنصار الجمهورية وقبض على زعمائهم ، وكان من الذين قبض عليهم هذا الوزير الشاب .

ثم انجلت الغمرة عن فرنسا، وعلم الناس أن چان زى قد شقى فى سجنه حتى أوشكت الحرب أن تنتهى . ثم أقبل الجند عليه ذات يوم فأخرجوه من السجن وأنبأوه أن الحرية سترد عليه وأركبوه سيارة ومضوا به ، حتى إذا كانوا فى بعض الطريق قتلوه ومضوا لوجههم لا يلوون على شىء .

ثم أذهب إلى فرنسا سنة ١٩٤٦ فألقى بعض الأصدقاء من الفرنسيين وأعرف منهم أن صلاة ستقام فى معبد من معابد البروتستنت فى باريس احتفالا بذكرى چان زى ، وأن الأسرة والأصدقاء سيقع من أنفسهم موقعاً حسناً أن يرونى فى هذا الحفل ، فقد كان الفقيد يضمر لى مودة وتقديراً . فنشهد

الحفل لا عن مجاملة فحسب ، ولكن عن وفاء فيه كثير من الإعجاب .

ولا يكاد الصيف ينتهى فى ذلك العام حتى تهدى إلى جماعة اصدقاء چان زى كتابه الذى أنشأه فى السجن . فأقرأ كتابا من أروع ما يكتب الكتاب ويقرأ القراء ، فيه مراجعة للنفس ومحاسبة للضمير واستحضار للماضى وأمل فى المستقبل وإيمان بمصير الوطن . وفيه صبر على المكروه واحتمال للخطب وشجاعة على النوائب وثبات على الرأى وإباء للضيم ورفض للترغيب والترهيب واستخفاف بظلم الظالمين واستبداد المستبدين وسخر من غرور المتسلطين وطغيان المتجبرين . وفيه مع هذا كله وفاء للزوج أى وفاء ورحمة للولد أى رحمة وحب للأصدقاء أى حب . وفيه تحليل كأدق ما يكون التحليل لعواطف القلب وخواطر العقل وخلجات النفس وعكوف الضمير على نفسه واتصال الضمير بالضمير . وفيه استعراض لآماله قبل أن يكون وزيراً ولأعماله ، وما أكثر أعماله وأقومها حين كان وزيراً ؛ ونقد لأعمال الذين جاءوا بعده من أعوان العدو وأنصار الاحتلال والدعاة إلى التعاون مع المحتلين ؛ وأحلام عذاب بما سيستأنف من النشاط

حين يوضع عنه الإصر وتحط عنه الأغلال وترد عليه الحرية ويعود إلى أهله ووطنه سالماً موفورا . وفيه وصف أى وصف لظلمة السجن التى تتصل فى الليل والنهار ، والتى لا تحد آفاق الأبصار وحدها ، وإنما تحد آفاق الضمائر والعقول أيضاً ؛ ووصف لما كان ضميره يبذل من حيلة وجهد ليرسل من أعماقه نوراً ضئيلا يبدد هذه الظلمة بعض التبديد . فمن مداعبة للأمل إلى ملاعبة للحلم ، إلى مخادعة للنفس : إلى محاسنة لحراس السجن ، إلى مخاشنة لمدير السجن وممثلى السلطان ، إلى رياضة فى الغرفة الضيقة حين تغلق عليه أبوابها ، إلى رياضة فى الفناء الواسع حين يتاح له السعى فيه ، إلى استثمار لقطعة صغيرة ضيقة من الأرض ينفق الجهد كل الجهد فى حملها على أن تخرج من النبات والبقل ما يتيح لعينه بهجة ولنفسه رضا ويرفه عليه فى حياته المادية بعض الترفيه . وفيه بعد هذا كله ذكر لتطوافه فى الأرض وسياحته فى البلاد. وقد ذكر مصر بين البلاد التى ذكرها ، وذكر بالخير نفراً من المصريين كنت من بينهم ؛ فعرفت أن ما كان بينى وبينه من الصلة لم يكن عابراً ، وأن عنايته بى لم تكن صادرة عن عفو الخاطر . وأثر فى نفسى أشد التأثير أن

يكون لحياتى الضئيلة فى نفسه الكبيرة بعض الأصداء .

وأعود إلى فرنسا من قابل فأدعى إلى حفل يقام فى السوربون لذكراه الثانية ، فأشهد هذا الحفل وأسمع ما شاء الله أن أسمع فيه من أحاديث الساسة والأدباء الفرنسيين وغير الفرنسيين . وقد تعجلت السفر إلى فرنسا هذا العام ولم يكن يخطر لى أن سأكون منه على ميعاد فى هذه الإلمامة القصيرة التى ألممتها بباريس. ولكنى لا أكاد أبلغ باريس حتى أجد هذه الدعوة وحتى أشعر بأن لى مع الأصدقاء الموتى شأناً فى هذا العام . فأسعى إلى الحفل مصبحاً ، وأرى صحن السوربون قد اكتظ بالساسة والأدباء من الفرنسيين ، وأعلم أن جثة چان زى قد أنفقت الليل مع شهداء الجامعة فى مقبرة الكنيسة التى تجاور السوربون . فلما أصبحت أخرجت إلى الأصدقاء والمحبين والمؤمنين بالحرية ومقاومة الظلم والمنكرين لبغى البغاة وطغيان الطغاة تسمع منهم وتقول لهم . وقد سمعت منهم كثيراً وقالت لهم أكثر مما سمعت . تحدث إليها وزير الحربية الوطنية كما يتحدث الناس إلى الناس ، وتحدثت إليها فرنسا كلها بقلوب ممثليها وبالموسيقى كما تتحدث الأم العطوف الرءوم إلى ابنها البر الوفى .

وقد استمع الناس للناس وهم يتحدثون، واستمع الناس لقلوبهم وهى تتحدث ، واستمع الناس لهذا الرفات الضئيل وهو يتحدث إلى القلوب والعقول أبلغ الحديث وأعمقه أثراً . وكان الناس يحتفظون فى أثناء هذا كله بما ينبغى لهم من الوقار والتجمل والاحتشام . ولكن قوماً أقبلوا يحملون النعش ولا يكادون يلمسونه بأيديهم حتى تندفع موسيقى الحرس الجمهورى فتعزف نشيد المقاومة :

« أيها الصديق أتسمع للغربان تطير طيرانها الأسود فوق سهولنا ! أيها الصديق أتسمع هذه الصيحة المكظومة التى يدفعها الوطن وهو يسلك فى الأغلال . . . »

هنالك تخرج النفوس عن أطوارها ، وتتخفف من التجلد والتجمل والاحتشام، وتطلق للدموع حريتها فتنسجم على الوجوه فى غير تردد ولا توقف ، ولا يبقى أحد من شهود الحفل إلا اندست يده فى جيبه ثم خرجت وفيها منديل يكفكف به دموعاً لا تريد أن تكف . وكذلك خرج چان زى من السوربون تودعه القلوب وتشيعه الدموع ، وتختصر موسيقى الحرس الجمهورى أروع اختصار وأبلغه ما يكون من الحديث بين الأموات والأحياء، وما

يكون من الحديث بين الأوطان والمواطنين مهما تختلف العصور والظروف والأطوار .

وأعود إلى الفندق وقد رضيت عن هذا الحزن الذى أغنى قلبى ونقى نفسى ، وعن هذه الدموع التى غسلت ضميرى مما تعلق به من صلاته بالأحياء . وأشعر أنى سأستقبل ما زرت باريس من أجله من العمل « جـَذَعَ البصيرة قارح الإقدام » ، كما يقول الشاعر العربى القديم .

٧

ولكن الحياة فى باريس عناء وغناء، لا ينقطع ما تفرض عليك من الجهد ، ولا ما تثير فى نفسك من المتاع . ولست أتحدث عما فى باريس من مشقة مادية أو لهو مادى ؛ فلى والحمد لله صدوف عن هذا اللهو ، ولى والحمد لله من بريحنى من مشقة الحياة المادية . وإنما أتحدث عن العناء والغناء اللذين يتصلان بالقلب والعقل والذوق ، فهما لا ينقطعان منذ تصل إلى باريس إلى أن تفارقها . وأكبر الظن أنهما يصحبانك بعد فراقها؛ لأنك لا تتركها إلا وقد تزودت بالشىء الكثير مما يثير الألم ويذكى اللوعة، ومما تعلق به الآمال وتحيا به القلوب . لا تكاد تنظر فى الصحف إذا أصبحت حتى ترى فيها ما يدعوك إلى المعرفة ويغريك بالعلم ويحثك على الاستقصاء . ودع السياسة لأصحاب السياسة أو ألمم بالسياسة إلماماً رفيقاً لتعرف ما يحدث فى فرنسا وما يحدث فى أقطار الأرض؛ فليس للرجل المثقف عن ذلك غنى .

ولكنك سترى فى الصحيفة التى تنظر فيها ما يدعوك ويغريك ويلح عليك : فهذا نقد لكتاب لا تكاد تنظر فيه حتى تشعر بالحاجة الملحة إلى قراءة هذا الكتاب . وهذا نقد لقصة تمثيلية لا تكاد تنظر فيه حتى تشعر بالحاجة الملحة إلى شهود هذه القصة . وهذا دعاء إلى حفل موسيقى ، وهذا دعاء إلى معرض من معارض الفن ، وهذا عرض لنظرية من نظريات العلم أو لمسألة من مسائل الأدب أو لخصومة من خصومات الفن . وأنت لا تفرغ من صحيفة أو صحيفتين إذا أصبحت حتى ترى نفسك طائراً بين ما ينبغى أن تقرأ وما ينبغى أن تشهد وما ينبغى أن تسمع وما ينبغى أن ترى . وأنت تستشير وقتك فاذا هو يضيق أشد الضيق بكل ما تحب . فلا بد لك إذن من أن تختار وما أعسر الاختيار ! ولا بد لك من أن تلغى وما أشق الالغاء ! وأنت تستشير جيبك فيما ينبغى أن تشترى من الكتب وفيما ينبغى أن تشهد من التمثيل وتسمع من الموسيقى ؛ فإذا هو يقصر عن إسعافك لبلوغ كل ما تحب . فلا بد من أن تختار ولا بد من أن تلغى ، وما أشق الاختيار والإلغاء جميعاً ! . وقد تخادع نفسك فتسجل كل ما تحب فى دفتر من دفاترك تعجل بعضه وتؤجل بعضه

الآخر إلى أن يتاح لك الوقت ويسعفك المال ؛ وتعلق أملك بأن الوقت سيتيح لك ما تشتهى ، وبأن تدبير المال سيبلغك ما تحب . ولكنك لا تكاد تمسي وتنظر فى صحف المساء حتى ينهار ما بنيت وتنقشع آمالك هباء كما تتبدد سحب الصيف ؛ فقد أضيفت كتب إلى كتب ، وأضيف تمثيل إلى تمثيل ، وازددت أنت حيرة إلى حيرة وعجز إلى عجز فاستسلمت للقضاء ، وأخذت من لذة المعرفة والذوق ما أتاح لك وقتك ومالك ، وجعلت تخادع نفسك بآمال تعلم حق العلم أنها كاذبة خائنة لا تغنى عنك شيئاً ، ولكنك تتمثل على رغمك قول الشاعر القديم :

* ما أضيق العيش لولا فسحة الأمـــل *

فهذا عناء لا يخلص منه الرجل المستبصر منذ يبلغ باريس إلى أن يفارقها . أمامه متاع كثير أكثر مما يطيق ، وهو مع ذلك شره يريد أن يلتهم كل شيء ، فلا يأخذ مما أمامه إلا بمقدار مهما يعظم فهو ضئيل . ولكن هذا المقدار الضئيل يشغل قلبك وعقلك وذوقك ، ويتيح لك من اللذة العليا ما يحبب إليك الحياة ويبغضها إليك فى الوقت نفسه : يحبب إليك الحياة لأنه حلو رائع . ويبغض إليك الحياة لأنه يشعرك شعوراً مرًّا

ممضا ؛ لأنك أضيق باعاً وأقصر ذراعاً من أن تبلغ نفسك حاجتها من هذا المتاع النقى الرفيع .

وأنت تقيم فى باريس ما شاء الله أن تقيم مقسّما بين هذا الفرح والحزن ، موزعاً بين هذا الإقدام الذى يبلغ التهور والإحجام الذى يبلغ الجبن . تريد أن تحيط بكل شىء وتقصر عن أن تحيط إلا بالقليل . فأنت فرح محزون ، وأنت راض ساخط ، وأنت باسم عابس ، وأنت مقبل صادف ، وأنت من هذا كله فى عناء ؛ حتى إذا تركت باريس لم تفصل عنها بقلبك كله ولا بعقلك كله ، وإنما تركت فيها من قلبك وعقلك شطراً قد تعلق بهذه اللذات المتصلة الرائعة التى فرضت عليك الحياة وظروفها أن تفارقها على كره منك . وأنت مع ذلك قد جمعت فى باريس ما أتيح لك جمعه من الكتب ، لم تستطع أن تقرأه أثناء الإقامة ، فأجلت قراءته إلى وقت السفر وإلى ما بعد السفر حين تؤوب إلى وطنك مسروراً أو محزوناً ، فتزيد بقراءته سرورك وتتسلى بها عن حزنك . وأنت تقرأ مسافراً ما وسعتك القراءة ، فتنعم وتبتئس وتبتهج وتكتئب ؛ حتى إذا بلغت أرض الوطن العزيز لم تكد تستقر حتى يسعى إليك الساعون وتسعى أنت إلى الذين

سعوا إليك، ويأخذك سخف الحياة اليومية من جميع أقطارك، وإذا أنت لا تجد الوقت للاستمتاع بما حملت من الكنوز إلا أن تسترقه استراقاً وتختلسه اختلاساً وتشق على نفسك بما تطيق وما لا تطيق.

ومع أنى أعرف هذا كله لكثرة ما ألممت بباريس وما زلت عنها ، فإنى حديث عهد بهذا كله كلما زرت باريس وكلما رجعت إلى مصر . لا أكاد أبلغ باريس حتى أستقصى ما فيها من ألوان المتاع العقلى ، فأسعد وأشقى ، وأجد فى هذا التردد بين السعادة والشقاء لذة توشك أن تكون مرذولة ؛ لأنى أقارف هذا الإثم وأنا أعلم حق العلم أنى أحاول ما لا سبيل إليه ، وأنى أجدد نشاطا قد علمت ألف مرة ومرة أنه لن يغنى عنى شيئاً ولن يعود علىّ إلا بالألم والشقاء.

كل هذا وقد ألغيت أعباء الحياة الاجتماعية فى باريس إلغاء ، فلم أذكر زيارة من يجب أن أزوره ولا استقبال من يجب أن أستقبله، ولا ضيقى بالزيارة والاستقبال لكثرة ما يفرضان علىّ من الحرمان . وأنا مع ذلك رجل من الناس يجب أن أعيش كما يعيش الناس : يجب أن أزور وأن أزار ، وأن أقول للمزورين والزائرين وأسمع منهم ، وأشاركهم مخلصاً أو غير مخلص فيما

يضطربون فيه من الأمور وفيما يخوضون فيه من الأحاديث .
وقد أعمل الحيلة وأبذل الجهد وأتكلف فنوناً من الخداع حتى أظفر بالساعات أختلسها من الحياة الاجتماعية اختلاساً ، فأترك زوجي تقوم عني بما تستطيع أن تقوم به ، وأتقدم إلى الفندق في أن يكف عني الزائرين والسائلين ، وأخلو إلى صاحبي أو إلى هذا الكتاب أو ذاك وهذه المجلة أو تلك فأنسى الدنيا وأهلها وأريح الناس وأستريح منهم ، وأحيا هذه الحياة الممتازة التي أخلص فيها للمعرفة . ولكني لا ألبث أن أرى هذه الساعات تنقضي مسرعة وقد أصبت فيها بعض ما كنت أتمنى ، وحيل بيني وبين خير ما كنت أتمنى ، وإذا أنا أشبه بمن نعم أثناء النوم بحلم لذيذ ثم انقطع عليه حلمه فجاءة ، فأفاق وفي نفسه على هذا الحلم حسرات . ولم تتح لي هذه الساعات الحلوة في هذه الرحلة القصيرة إلا مرة واحدة : كان ذلك في يوم من أيام الأحد بذلت في صباحه ما شاء الله أن أبذل من سعة الحيلة وبراعة التصرف حتى استخلصت لنفسي نصف النهار .
ثم أسأل صاحبي أفارغ هو لي فيما استخلصت من الوقت ؟ فإذا هو قد رتب أمره على أن يفرغ لنفسه ولبعض أصحابه ، وقد

قدر أنى سأشغل فى هذا اليوم كما تعودت أن أشغل فى أيام الآحاد. ولكنى أتكلف الحيلة حتى على صاحبى ، فأظهر له شيئاً من يسر وأغريه بأن يستمتع بحريته كاملة ، وألقى إليه فى شيء من الاستخفاء واللباقة أنى لا أكره أن أخلو إلى نفسى ساعات . ولكنه قد فهم عنى وأظهر الغباء ، وهو يتكلف كما أتكلف ويتخفف من مشاغله كما تخففت من مشاغلى، يكره أن أخلو إلى نفسى كما أكره أنا أخلو إلى نفسى : وماذا عسى أن تصنع وحيداً إن أقبل زائر أو سأل سائل أو تحدث متحدث فى التليفون ؟ فإذا زعمت له أنى سأتقدم إلى الفندق فى إراحتى من الزائرين والسائلين والمتحدثين قال : وماذا تصنع ان عرض لك ما لا تقدر أن يعرض لك أو احتجت إلى بعض الأمر؟ ثم ينتهى هذا الحوار إلى أن يعرض علىّ صاحبى أن يبقى منى غير بعيد يخلو إلى نفسه كما أخلو إلى نفسى ، فإذا احتجت إليه دعوته . وهنالك يستبين له ولى كل شيء ، يفهم عنى وأفهم عنه فى هذه الصراحة الصامتة التى لا تحب أن تعلن نفسها باللفظ . ولا نكاد نفرغ من الغداء حتى أرانا قد خلونا إلى أنفسنا : صاحبى وكتابه أو مجلته وأنا .

وكذلك رأيتنا فى ذلك اليوم وقد خلونا إلى مجلة من المجلات منذ انتصفت الساعة الثالثة إلى أن تقضت الساعة الثامنة ، لم نتركها حتى كدنا نأتى على كل ما فيها. ولكن الحياة الاجتماعية أقبلت علينا مع تمام الساعة الثامنة ، فانصرفنا عن هذه المجلة ولم نعد إليها على كثرة ما فكرنا فى العودة إليها . وأكبر الظن أننا لن نعود إليها ؛ فقد ظهرت مجلات أخرى ليست أقل منها خصباً ولا إمتاعاً ، وسيشغلنا ما يقبل عما يمضى . وكذلك الحياة : ساعات تقبل بما فيها من الأحداث فتشغل عن ساعات تمضى بما فيها من الأحداث ، وتبقى فى النفس من هذه وتلك أطراف تثير فيها كثيراً من حزن وقليلا من سرور .

٨

ولم ألمم بباريس فى هذه المرة مستمتعاً بها أو ملتمساً لما يلتمس فيها من الراحة واللذة والفراغ ، وانما أقبلت عليها لبعض العمل . وكان هذا العمل متصلا شاقا يستغرق كثيراً من الوقت فى الصباح والمساء ، كما كان الغدو إليه والرواح عنه يستغرقان كثيراً من الوقت . فكنت على هذه السن المتقدمة أشبه بالتلميذ الذى يغدو على مدرسته مصبحاً وينصرف عنها بعد أن ينتصف النهار ، ثم يعود إليها بعد الغداء لينصرف عنها إذا أقبل الليل . وكان رئيس اللجنة التى كنت أعمل فيها دقيقاً متحرجاً ، يدبر أمر زملائه وعملهم كما يدبر الأستاذ أمر تلاميذه وعملهم . فكان يحرص على أن يبدأ العمل فى الموعد المضروب لبدئه وعلى أن ينتهى فى الموعد المضروب لانتهائه . ولو كان فى مصر لاتخذ لبدء العمل وانتهائه جرسا ينبه إلى البدء والانتهاء . وقد أضيف هذا العمل المعقد المتصل إلى أعباء الحياة الاجتماعية فى باريس

وإلى مشقة الانتقال وعسر الظفر بالسيارات حين نحتاج إليها، فلم يترك لى من الفراغ ما يتيح لى قراءة الصحف واستقصاء ما فيها من الدراسات والبحوث ، ولكنى مع ذلك لم أفقد الوسيلة إلى العلم ببعض ما يصدر من الكتب والتقدم إلى صاحبى فى شرائه لعلنا نستطيع أن نقرأه فى يوم من الأيام . ولم أعدم الوسيلة إلى شهود بعض التمثيل أستريح إليه من جهد النهار .

وشهود التمثيل فى باريس ظاهرة من الظواهر الخاصة التى لا تكاد تلاحظ فى غيرها من المدن الكبرى ؛ فليس يكفى أن تشتاق إلى أن تشهد هذه القصة أو تلك فى هذا الملعب أو ذاك لتظفر بما تريد. وإنما أنت مضطر إلى أن تحتال وتحتاط وتحسن السعى حتى تشهد ما تريد أن تشهد من القصص . فالملاعب فى باريس كثيرة جدا مختلفة جدا متمايزة فى مذاهبها وأغراضها وألوان ما تعرض على النظارة من القصص ، ولكنها على ذلك كله مكتظة دائماً ، يستبق الناس إلى احتجاز أماكنهم فيها كما يستبقون إلى احتجاز أماكنهم فى القطارات والسفن والطائرات . ولعلهم أن يجدوا من المشقة فى استباقهم إلى شهود التمثيل أكثر مما يجدون من المشقة فى استباقهم إلى وسائل الانتقال .

وأعرف جماعة من المقيمين فى باريس من الأجانب والفرنسيين كانوا يحسدوننا أشد الحسد ؛ لأننا شهدنا قصة تمثيلية من قصص موليير ، وحاولوا هم أن يشهدوها فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا . فأما نحن فقد شهدناها فى مصر ؛ لأن فرقة چوڤيه حملتها إلينا وعرضتها علينا فيما عرضت من مسرحياتها فى الأوبرا والباريسيون نظارة كلهم ، قد أصبح شهود التمثيل جزءاً مقوماً لطبيعتهم ، حتى أصبحوا وكأنهم يرون الحياة كلها مسرحية تعرض عليهم حين يصبحون وحين يمسون وحين يغدون وحين يروحون . وأيسر شىء يحدث فى شارع من الشوارع أو زقاق من الأزقة يدعوهم إلى التجمع والتطلع والاستشراف ، ثم إلى تبادل الرأى وتجاذب الأحاديث وإرسال النكت كأنهم فى ملعب من ملاعب التمثيل . وقد أصبح من طبيعة الفرنسيين والباريسيين منهم خاصة إذا التقوا وفرغوا من الحديث عن الجو ، أن يستأنفوا الحديث عما شهدوا فى ملاعب التمثيل أو دور السينما ، وأن ينقدوا اللاعبين واللاعبات نقداً مفصلا لا آخر له ، يتناول فنهم وسنهم وأشكالهم وأزياءهم إلى آخر هذه الأحاديث التى لا تنقضى .

على أن هناك قصصا تمثيلية تثير ألواناً من النقد لها خطرها، بعضها يتصل بالسياسة فيختصم فيه الناس كما يختصمون فى السياسة، وبعضها يتصل بالأدب فيختصم فيه الأدباء دون غيرهم من الناس، وبعضها يتصل بالأدب والسياسة جميعاً. وقد شهدت قصتين مثيرتين للخصومة السياسية : إحداهما تعرض فى بيت موليير وقد أنشئت حين تقدم القرن الماضى قليلا بعد أن انهزمت الثورة وانهارت الإمبراطورية وعاد إلى فرنسا نظامها الملكى مع شيء من التطور، وعنوانها «الإسبانيون فى الدانمرك». وهى قصة متقنة للكاتب الفرنسى الكبير ميريمه، يعرض فيها مقاومة الإسبانيين خارج وطنهم لنابليون. وتمثيلها رائع ما فى ذلك شك. ولذلك يعجب به الناس على اختلاف ألوانهم السياسية، ولكنهم بعد ذلك يختصمون اختصاماً شديداً فى هذه القصة التى عمرت قرناً وربع قرن : يرى بعضهم وهم المعتدلون أن بيت موليير قد أخطأه الذوق أو قد أخطأ هو الذوق حين عرض هذه القصة؛ لأنها تصور انهزام الفرنسيين وشماتة الأوربيين بفرنسا. ويرى الشيوعيون ومن لف لفهم من المتطرفين أن بيت موليير قد وفق التوفيق كله حين عرض هذه القصة فى هذه الأيام؛ لأنها تصور

انهزام الاستبداد وإخفاق العدوان وانتصار الحرية . وهم فيما يقولون يكرهون الظلم والاستبداد وإن كانت فرنسا هى الظالمة المستبدة ، ويحبون الحرية والاستقلال وان كانت هذه الحرية وهذا الاستقلال خصما لفرنسا ؛ فهم يؤثرون الحرية على الوطن . وربما احتاط بعض كتابهم فلم يتردد فى أن يعلن أن فرنسا بريئة من الظالمين والمستبدين ، وأنها لم تستجب لنابليون راضية وإنما أذعنت له كارهة ، وأنها ابتهجت بسقوط نابليون ولكنها لم ترض عما كان بعد سقوطه من استبداد ، وهى على كل حال لم تحالف قط مترلنك وشركاءه فى الحلف المقدس من أصحاب الرجعية . يغمزون بذلك حكومتهم التى تشارك فى حلف مقدس جديد قوامه الإنجليز والأمريكيون . وأنت تقرأ هذه الخصومة فى الصحف وتسمعها فى الأندية والمجالس الخاصة ، وتعجب لهذه الحياة العقلية التى يتصل فيها الفن بحياة الناس فى كل يوم .

أما القصة الثانية فالخصومة فيها أدنى إلى الصراحة وأشد إمعاناً فى العنف ؛ لأنها تتصل بالحياة التى يحياها الفرنسيون فى هذه الأيام ، وهى قصة «الأيدى القذرة» للكاتب الفرنسى المعروف چان پول سارتر . وكل ما يكتبه چان پول سارتر موضوع

للخصومة منذ وضعت الحرب أوزارها . كان الناس يختصمون في فلسفته الوجودية، ثم اختصموا في آرائه الأدبية، ثم هم الآن يختصمون في آرائه السياسية منذ أعلن حربه الصريحة على فلسفة الشيوعيين وسياستهم . وهذه القصة نفسها ليست إلا مظهراً من مظاهر هذه الحرب ؛ فهي تصور فتى من أبناء الأغنياء قد ضاق بالغنى ومايفرضه على أصحابه من هذه الحياة الفارغة التي لا تغني عن أصحابها شيئاً، فانضم إلى الحزب الشيوعي ، وهجر أسرته وثروته وبيئته، واندفع في تحمسه للحزب حتى شارك في نشاطه كله، وأصبح فدائيا مستعدا لتنفيذ ما يصدر إليه الحزب من أمر ، لا يجادل في ذلك ولا يفكر في الجدال ؛ لأنه وهب حريته وحياته للحزب لا ينتظر على ذلك أجراً ولا يريد جزاء . والحزب يأمره باقتراف جريمة القتل على رئيس من رؤسائه؛ لأنه يصانع الظروف ويجري مع ما تقتضيه السياسة فيحاول الائتلاف مع أحزاب المعتدلين . والفتى يتردد في اقتراف الإثم ويطيل التردد حتى يوشك الحزب أن يشك فيه ، ولكنه يرى من الرئيس الذي قضى عليه الموت ما يريبه مع زوجته الفتاة، فيقترف الإثم ويرسل إلى السجن. ويشك الحزب في أنه قتله سياسة أو غيرة . ثم يطلق

سراح الفتى ويعود إلى حزبه، فإذا الحزب يريد أن يتخلص منه، وإذا فتاة من أعضاء الحزب تحاول الإبقاء عليه لعله أن ينفع الحزب فى بعض أمره . ولكن الفتى يستكشف تغيراً فى سياسة الحزب فهو يستجيب للظروف ويجارى ما تقتضيه السياسة ويحاول أن يأتلف مع أحزاب المعتدلين كما كان الرئيس المقتول يريد أن يفعل ، وإذن ففيم قضى الموت على هذا الرئيس ؟ وقد استيأس الفتى فهو لا يستطيع أن يعود إلى بيئته الأولى ، وهو لا يستطيع أن يجارى الحزب فى سياسته المرنة، وهو لا يعلم لماذا اقترف الإثم، وهو لا يفهم للحياة معنى . وهو من أجل ذلك يعرض نفسه لما يدبر له من الموت .

والقصة بعد ذلك تفصل المشكلات السياسية تفصيلا وتعرض كثيراً من ألوان الخصومة بين المتطرفين والمعتدلين . فليس غريباً أن يختلف حكم الفرنسيين عليها اختلافاً شديداً . فالشيوعيون وأنصارهم ينكرونها، والمعتدلون وأشياعهم يعرفونها، ولكن أولئك وهؤلاء يشهدونها على كل حال . فريق يشهدها معجباً بها، وفريق يشهدها ساخطاً عليها . والفريقان يختصمان فى الصحف ويختصمان فى الأحاديث . والأجنبي يرى هذا كله فيحمد الحرية

ويطمح إليها ويسأل نفسه : أيمكن أن يمثل مثل هذه القصة فى بلد خاضع للنظام الشيوعى ؟ أيمكن أن تمثل قصة تخاصم الفاشية والنازية فى بلد خاضع للنظام الدكتاتورى؟ ثم يحمد الديمقراطية الصحيحة التى تكفل للأفراد والجماعات من الحرية ما يتيح لهم أن يعتقدوا ويعلنوا ما يعتقدون فى غير مضارّة ولا تعرض لتحكم السلطان ، ويود لو أتيح لهذه الديمقراطية السمحة الحرة من سعة الأفق وإيثار الخير ما يمكنها من تحقيق العدل الاجتماعى إلى جانب الحرية . فالمشكلة التى شقيت بها الإنسانية وما زالت تشقى بها وستشقى بها فيما يظهر زمناً طويلا ، هى تحقيق التوفيق بين الحرية والمساواة دون أن يضحى بإحداهما فى سبيل الأخرى . والشيء المهم هو أن إقبال الفرنسيين والباريسيين منهم خاصة على شهود التمثيل والسينما وما يعرض فى الملاهى من أنواع الرقص والغناء والموسيقى ، ينشىء لهم جوًّا حرا سمحاً طلقاً يتيح لهم أن يرتفعوا عن كثير من الصغائر ، وأن يتنزهوا عن كثير من النقائص ، وأن يستمتعوا بمزاج معتدل يعصمهم من الشطط فى تقدير الأشياء والحكم عليها ، ويحول بينهم وبين هذا الفراغ الذى يورث الأثرة ويدفع إلى الغرور ويورط فى كثير من

الرذائل والآثام . فالرجل الذى يعمل وجه النهار ليرضى حاجته إلى العمل ، ويقرأ آخر النهار وكلما يسرت له القراءة ليرضى حاجته إلى المعرفة ، ويشهد التمثيل ومعارض الفن ويسمع للغناء والموسيقى ليرفه على نفسه ويرضى ذوقه — هذا الرجل خليق ألا يفرغ لنفسه هذا الفراغ المنكر ، وألا يؤثر نفسه هذا الإيثار البغيض وألا يهدر حق غيره كما لا يحب أن يهدر أحد حقه ، وأن يكون رأيه فى الناس وفى الحياة معتدلا مستقيما غير ذى عوج ولا التواء . وكل ذلك ينشىء بيئة سمحة قوامها الأدب والمجاملة وحسن العشرة وكرم المخالطة .

وقد تثار الخصومات الكثيرة فى هذه الحياة . فالناس يختصمون دائماً تفرض منافعهم عليهم هذا الاختصام، ولكنه اختصام لا يفسد الحياة، ولا ينغص العيش ولا يدفع إلى المكر ، ولا يغرى بالكيد، ولا يغير صداقة الأصدقاء ، ولا يجعل بعض المواطنين لبعض عدواً . وما أكثر ما يختصم المختصمون فى مثل هذه البيئة أشد الاختصام وأعنفه فى الصحف أو فى البرلمان أوفى غير الصحف والبرلمان من وجوه النشاط ! ولكنهم على ذلك يلتقون وقد ألقوا عن أنفسهم ثقل الخصومة حين ألقوا عن أنفسهم

ثقل العمل ، وخلصت قلوبهم وعقولهم وضمائرهم لما يكون بين المثقفين حين يستقبلون مشهداً من مشاهد الفن أو موضوعاً من موضوعات الأدب أو خاطراً من خواطر الفلسفة . والشيء الذى لم أفهمه قط ولم أسغه قط ، هو أن الذين ينهضون بالأمور العامة عندنا قد ذهب أكثرهم إلى أوربا وعرفوا من حياتها ما أعرف ؛ فليست هذه الحياة مقصورة على فرنسا وإنما هى شيء شائع فى البلاد المتحضرة الراقية ، وهم يعجبون بهذا الذى أعجب به ويتحدثون عنه فيطيلون الحديث ، ولكنهم حين يفرغون لما يفرغون له من الأعمال العامة ينسون ما رأوا وينسون ما يجدون من الإعجاب والرضا ، ويستقبلون نشاطهم بشخصيات أخرى حظها من الحضارة المترفة المثقفة قليل ضئيل ؛ فهم يختصمون كما كان الناس يختصمون فى بعض البيئات القديمة ، لا يرعون فى خصومتهم رفقاً ولا أناة ولا ذوقاً ولا وقاراً ، وإنما هو العنف والإمعان فى العنف حتى يصلوا إلى أبعد غاياته مهما تكن النتائج ، يخلطون أنفسهم بأعمالهم وأعبائهم ، ويسرفون فى الإيمان بأنفسهم حتى يقدروا أنهم إذا نهضوا بالسياسة وأعبائها فإنما ينهضون بأمورهم الخاصة لا بأمور غيرهم من الناس .

ولست أعرف أشد غروراً ولا أعظم إمعاناً فى الحمق من رجل يعيش فى العصر الحديث ويمارس الأعمال العامة على النحو الحديث ثم لا يفرق بين شخصه وبين أعماله العامة، ولا يقدر أنه حين ينهض بالمنصب أو يمارس السياسة ليس إلا وكيلا للشعب ينوب عنه فى تدبير بعض أمره نيابة موقوتة قد تقصر وقد تطول ولكنها موقوتة على كل حال . ولو قد فكر الناهضون بالأعمال العامة هذا النحو من التفكير لأراحوا أنفسهم ولأراحوا الناس من شر كثير وعناء ثقيل . ولكن يظهر أن الحضارة لا تكتسب بالاختلاف إلى الجامعات والحصول على الدرجات والألقاب، وإنما هى ثقافة يجب أن تتثقف بها النفوس وأن تتغلغل فى أعماق الضمائر، وأن تؤثر أشد الأثر فيما يعمل الناس وما يقولون . وأكاد أعتقد أن الحضارة والثقافة فى بيئتنا الحديثة ما زالتا أشبه شىء بالطلاء الذى لا يستطيع أن يثبت لحر الشمس وتقلب الجو، ولا يكاد يمتحن حتى يذوب ويتكشف عما وراءه من هذه النفوس القديمة التى لم تهذب تهذيباً أصيلا، وإنما هذبت تهذيباً متكلفاً طارئاً لا يقدر على مقاومة المنافع والآراب والأحداث .

ولم أشهد فى باريس هذا اللون من جد التمثيل وحده ، وإنما شهدت لوناً آخر من هزل التمثيل ، فضحكت مع الناس حين كنت فى الملعب ، وضحكت وحدى حين خلوت إلى نفسى ، وما زلت أضحك بين حين وحين كلما ذكرت هذه القصة ، وكثيراً ما أذكرها فى مصر .

وما أريد أن ألخص القصة ، فلست أملى فصلا فى النقد ، وإنما أريد أن أعود إلى ما كنت فيه من الحديث عن هذه الحياة السمحة التى يحياها المتحضرون الذين هذبت عقولهم وقلوبهم تهذيباً أصيلا ، فنظروا إلى الحياة وأحداثها نظرة فيها كثير من الرفق والإسماح والبراءة من التحرج والتزمت والتضييق على النفس وعلى الناس . فالقصة التى شهدتها تعرض على النظارة مجلساً من مجالس القضاء يحاكم فيه برىء قد اتهم بأنه قتل زوجه ليخلص لحب خليلته. وخليلته متهمة بأنها قد شاركته فى بعض هذا الإثم. وقد جلس القضاة وجلس المحلفون وجلست النيابة والمحاماة ، وجعل رئيس المحكمة يدعو الشهود ويسألهم ويحاورهم ويخلى بينهم وبين حوار الاتهام والدفاع . وليس لصاحب القصة من هذا كله أرب إلا أن يرفه على النظارة بإضحاكهم من بعض المظاهر الفكاهية

التى لا يخلو منها مجلس من مجالس القضاء . فالرئيس الشيخ ذكى لبق ماكر ماهر ، ولكن الشيخوخة قد اشتطت عليه ، وظهر أثر ذلك فى كلامه حين ينطق وفى ملاحظاته حين يلاحظ على الاتهام والدفاع ، وفى حواره للشهود فى شىء من السأم والاستخفاف من ورائه الجد كل الجد . والنيابة مندفعة فى تكديس التهم بعضها فوق بعض. والمحاماة مندفعة فى تزييف هذه التهم بما يساغ وما لا يساغ . والشهود مختلطون فيهم كثير من الخوف وكثير من الجهل وكثير من الدعابة مع ذلك . والنظارة يضحكون من هذا كله ومن هؤلاء جميعاً . حتى إذا أقبلت أم المتهمة وزعمت للمحكمة أن خليل ابنتها ليس وفيا لخليلته ، وأنها رأته يداعب فتاة أخرى ، ثارت الغيرة بين العاشقين ، وحاول الرئيس أن يرد الأمر إلى الهدوء فلم يزده إلا اضطرابا واختلاطا ، حتى صار من العسير أن تمضى المحكمة فى المحاكمة ، وصار من العسير أن يمضى الممثلون فى التمثيل ؛ فقد اختلط الأمر على المحكمة ، وأغرق النظارة فى الضحك ، حتى لم يبق بد من رفع الجلسة وإرخاء الستار.

فهذا فصل من فصول هذه القصة يضحك النظارة فيه من

القضاء دون أن يكون فى ذلك غض من قدر القضاء أو استخفاف به ، ودون أن يجد القضاء فى ذلك حرجاً أو جناحاً . وليس من شك فى أن كثيراً من القضاة على اختلاف درجاتهم ومنازلهم قد شهدوا وما زالوا يشهدون هذه القصة التى لا تزال تمثل فيما أعتقد ، ويضحكون كما يضحك غيرهم من الناس ، لا يجدون بذلك بأساً ، ولا ينكرون على الكاتب والممثلين أنهم يسخرون من القضاء على هذا النحو البرىء .

فأين نحن من هذه الحرية السمحة ؟ وكيف لو عرض كاتب ومثلت فرقة مجلساً من مجالس القضاء غالياً فى الدعابة والفكاهة كما يقتضى الفن وكما تقتضى حاجة النظارة إلى التسلية عن أنفسهم ؟ ألا تزلزل الأرض بالكاتب والممثلين جميعاً ؟ ! ومع ذلك فهذا أيسر ما يشهد الناس من الأمر فى باريس . فرجال السلطات الثلاث عرضة للفكاهة المتصلة والتندر الذى لا ينقضى ، لا يسلم من ذلك شيخ ولا نائب ولا وزير ، بل لا يسلم من ذلك رؤساء الجمهورية أنفسهم . فأما أساتذة الجامعات وكبار رجال التعليم فالتندر بهم مألوف . ولم لا وهم يتندرون بأنفسهم وطلابهم ، وتلاميذهم يتندرون بهم فى الغيب والشهادة ، لا يجدون

فى ذلك بأساً ، ولا يضيق بذلك منهم صدر أستاذ أو مدير . فأين نحن من هذا كله ؟ وكيف لو تندر أصحاب المزاح بوزرائنا وساستنا وأساتذتنا؟ ! والغريب من الأمر ، بل الطبيعى من الأمر ، أن تندر المتندرين وتفكه المتفكهين وعبث الناس بالذين ينهضون بالأعباء العامة ، لا يغض من هيبة السلطان ولا يعرض الساسة والقادة والزعماء إلا للحب والتقدير ما استحقوا الحب والتقدير . والأصل فى هذا كله أن لكل لون من ألوان العمل الإنسانى ناحيته الجادة وناحيته الهازلة ، وأن الشعب فى البلاد الحرة يرى أن الحياة العامة ملك له هو لا للساسة ولا للقادة. وما دام الواجب الوطنى المدنى يقضى عليه أن يحتمل جد الحياة العامة ويشقى بهذا الجد أحياناً فى نفسه وماله ، فإن الحق الوطنى المدنى يبيح له أن ينعم بما فى حياته العامة من خير ، ويلهو بما فى هذه الحياة العامة من فكاهة أو دعابة أو مزاح . والمهم هو أن حياة الشعب ملك للشعب ، يبتئس بها حين تفرض عليه الابتئاس ، ويبتهج بها حين تتيح له الابتهاج ، ويضحك منها حين تثير فى نفسه الضحك . وليس للناهضين بأعباء هذه الحياة أن ينكروا ذلك أو يضيقوا به ؛ فهم حين يقبلون النهوض بأعبائهم

لا يشترطون على الشعب ألا يضحك منهم حين تدعو سيرتهم للضحك ، وألا يتندر بهم حين تدعو سيرتهم للتندر . وكما أن الكاتب والشاعر والفيلسوف والعالم لا يشترطون على قرائهم قبل أن يقدموا إليهم آثارهم أن يعفوهم من النقد ، فالساسة والقادة والموظفون لا يشترطون على الناس قبل النهوض بأعمالهم أن يعفوهم من النقد سواء كان هذا النقد مرا أم حلواً وجداً أم مزاحاً . كذلك يحيا الناس فى البيئات التى استقرت فيها الحضارة حتى ثبتت أصولها فى أعماق النفوس . فأما البيئات التى تجتلب الحضارة اجتلاباً وتشتريها بالدراهم والدنانير وتتزين بها فى الشوارع لتتخفف منها فى الدور ، فهى بيئات لا تحتمل دعابة ولا فكاهة ولا مزاحاً ، وإنما هى متحفظة متحرجة متزمتة ، لا تفرق من شىء كما تفرق من النقد ، ولا تفزع من شىء كما تفزع من الدعابة ، وهى تكلف القوانين من حمايتها ما تطيق وما لا تطيق ، فإن لم تسعفها القوانين التمست حمايتها فى التحكم والظلم والاستبداد .

٩

سيدى العزيز :

فرغت الآن من قراءة كتابك الذى حمل إلىّ مع طعام الإفطار والذى قطع الطريق بين القاهرة وباريس فى أقل من يومين ؛ فقد يظهر أنك أسلمته إلى البريد قبل أن تطير الطائرة بوقت قصير جدا . وقد طارت الطائرة أثناء الليل ووصلت مصبحة ، ولم يستأن سعاة البريد بكتابك ، فأقبل يسعى نشيطاً مرحاً كأنما يباهى بهذه السرعة التى جاب بها آفاق السماء . وقد تلقيته لا مرحاً ولا نشيطاً ، فلم يبعد عهدى بمصر بعد ، ولم أحس الشوق إلى ما ترسل إلىّ من الكتب و الرسائل . وأكاد أقول إنى ما زلت مثقلا بما كنت أحمل فيها من الأعباء لم أتخفف منه إلى الآن . وكيف أتخفف منه فى هذه الأيام القليلة التى أنفقتها منذ تركت الإسكندرية ، وأنت تعلم أن حياة يوم واحد فى مصر تعدل حياة أيام كثيرة فى فرنسا ؛ لا لأننا نعمل فى مصر

ونغنى أكثر مما نعمل ونغنى فى فرنسا ، بل لأننا لا نعمل شيئاً شيئاً أو لا نكاد نعمل شيئاً، وأن ما يصدر عنا من الحركة والنشاط ليس بذى غناء . وليس شىء أثقل من الحياة الفارغة، وليس شىء أخف من الحياة المليئة . والحياة الفارغة عندى هى التى يستقبل فيها الإنسان الصبح المشرق والليل المظلم دون أن يضيف إلى علمه علماً وإلى معرفته معرفة، ودون أن يحدث من الآثار ما ينفعه وينفع الناس . فإذا أضفت إلى هذا الفراغ الذى يملأ حياتنا فى مصر — إن صح أن يملأ الفراغ شيئاً — هذا السخف الكثير المختلف المختلط الذى يملأ يومنا وليلنا أيقاظاً ونياماً. عرفت أنى لست غالياً ولا متكلفاً حين أقول إنى لم أتخفف بعد من ثقل الحياة المصرية ، ولم أشتق بعد إلى رسائلكم وكتبكم. وصفنى بما شئت من الغلظة والجفوة ، وقل فىّ ما أحببت من قسوة القلب والنبو عن الذوق ؛ فإنى أحدثك بذات نفسى ؛ لأنى تعودت أن أحدثك بذات نفسى لا ألتوى عنك بما أجد فى أعماق الضمير . فقد تلقيت كتابك إذن معرضاً عنه ، وقرأته لا أقول ضيقاً به ، ولكنى أقول إنى قرأته فى فتور . ثم سألت نفسى أأكتب إليك أم أطوى عن الكتابة كشحاً ، كما يقول الجاحظ . ثم أقبلت على الكتابة

إليك فاتراً كما أقبلت على قراءة كتابك غير نشيط . وأنت تعتب عليّ بأنى لم أوذنك بيوم السفر وساعته لتسعى إلى لقائى وتخف لوداعى ، وتسألنى لماذا طويت عنك موعد السفر . يا عجبا كل العجب ! فهل تذكر أنى أنبأتك قط بإزماع السفر حين كنت أزمع السفر ؟ وهل تذكر أنى أنبأتك قط بيوم السفر وساعته ؟ أما أنا فأذكر أنى كنت ألقاك فيما مضى مصبحاً وممسياً وأسمع حديثك فى التليفون بين ذلك ، لا تثقل عليّ زيارتك ولا يثقل عليك لقائى ، ولا يضيق أحد منا بحديث صاحبه مهما يتصل ، ولا يحتمل أحد منا سكوت صاحبه مهما يقصر . وكنت تعلم من أمرى كله مثل ما أعلم ، وكنت تعلم من بعض أمرى أكثر مما أعلم ؛ فأنت متصل بالناس تسمع ما يقولون عنى وما يقولون فىّ ، وأنا منقطع عن الناس لا أكاد أعرف من أمرهم إلا ما يحمل إلىّ فى دارى التى لا أتركها إلا قليلا . وكنت أنت صلة بينى وبين الناس تحمل إلىّ أنباءهم ، وتحمل إلى بعضهم أنبائى .

ثم أقبلت أيام أسفر فيها الصبح وغشى فيها الليل و لم ألقك فى ليل ولا فى نهار . وقد أنكرت منك ذلك أول الأمر فسألت عنك لأنى خشيت أن يكون بعض المكروه قد أقعدك عنى ، فعلمت

منك أنك موفور لا بأس بك ولا بأس عليك، وإنما شغلت ببعض ما يشغل به الناس . وانتظرت أن تنجلى عنك هذه الغمرة الطارئة ، ولكنها لم تنجل ، وإنما تكاثفت وتتابعت وركب بعضها بعضاً ، وإذا اليوم يمضى وفى أثره اليوم وفى أثرهما الأيام لا ألقاك ولا ألقى من يلقاك ، ولا أعرف من أمرك ولا أسمع من نبئك شيئاً . هنالك علمت أنها القطيعة ، ثم علمت أنه الانحراف الذى تدفع إليه ظروف الحياة بعض الناس أحياناً . فصبرت نفسى على ما تعودت أن أصبرها عليه من قطيعة الأصدقاء وانحراف الأخلاء ونضوب الود فى قلوب الإخوان . ثم مضيت فى أمرى أصعد فى نجاد الحياة وأصوب فى وهادها ، وأنت عنى لاه ساه وأنا عنك لاه ساه ، لا يسأل أحد منا عن صاحبه ، ولا يبتغى أحد منا إلى صاحبه وسيلة أو سبباً . ثم أقبلت على هذا السفر كما أقبلت على كثير غيره من الأمر ، لم أوذنك بشىء لأنى لم أتعود أن أوذنك بشىء . وها أنت هذا تكتب إلىَّ تتجاوز فى كتابك العتاب إلى اللوم . فماذا حدث فى مصر من الأحداث ؟ ما زالت أمور مصر تجرى على النحو الذى تركتها تجرى عليه ، لم يتغير منها شىء ، ولم يبد للمنافع فيها والآراب وجه

جديد . ما سؤالك عني بعد نسيانك لي ؟ ! وما تجنيك عليّ بعد هذاالإغضاء الطويل؟! أتريد أن أفسر لك غامض قلبك وخفي نفسك وما التوى عليك من ذات ضميرك لعلك تجد في هذا التفسير شفاء لبعض ما يؤذيك من هذا الداء الدخيل منذ أيام ؟ أتريد أن أتحدث إليك بأني عاتب عليك لأنك أغضيت عني وقطعت من أسبابي ما كان حقه أن يوصل ، وأن أفصل لك أعراض هذه القطيعة ومظاهر هذا الإغضاء،وأن أحصى عليك بعض ما أتيت مما لا تحب ولا أحب ، فأكون أشبه بالطبيب حين يستكشف الداء ويشق على المريض بعلاجه ولكنه يبرئه آخر الأمر ، أو أشبه شيء بالجراح حين يفتح الدمل فينقيه مما جمع من الصديد؟ أرح نفسك يا سيدى ، لست طبيباً ولا جراحاً ، ولست أحسن علاج النفوس المريضة ولا شفاء القلوب المدخولة ، ولست أكره شيئاً كما أكره التنقيب في ضمائر الناس . لن أعتب عليك؛ فإنك لم تدع إلى العتاب سبيلا . ولن ألومك فإني لا ألوم إلا من أعتد به . وقد كنت أعتد بك حين كنت تمنحني ودك . فأما وقد استرددت هذا الود وآثرت به قوماً رأيتهم أحق به وأجدر ، فإني أهنئك بأصدقائك الجدد ، وأهنىء بك أصدقاءك

الجدد ، وأرجو ألا يعرض بينك وبينهم من الأحداث ما يصرفك عنهم أو يصرفهم عنك ، ومن يحولك إلى غيرهم أو يحولهم إلى غيرك كالذى عرض بينك وبينى من الأحداث . ومن يدرى هل مما يلائم نفسك أن تحدث صداقة جديدة بين حين وحين ؟ ففى كثير من الناس ملل ، وفى كثير من القلوب سأم . والناس يبدلون ثياب أجسامهم ويغيرون ألوان ما يأكلون ويشربون ، فما عليهم أن يبدلوا ثياب قلوبهم ! وقد قال الراجز العربى منذ قرون طوال :

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

فالبس يا سيدى للحال التى نحن فيها لبوسها. ولبوسها يسير جدا قريب جدا رقيق جدا ، هو أن نوادّ الأخلاء ما نفعتنا مودّتهم ، وأن نحتملهم إذا لم يجلب علينا احتمالهم مضرة أو لم يضيع علينا منفعة ، وأن ننسل من ودهم كما تنسل الشعرة من العجين إن آنسنا من هذا الود جلب مضرة أو تضييع منفعة أو إغضاب من لا ينبغى أن نتعرض لغضبه من الناس . وأى شىء أيسر من أن تصفو لى اليوم وتكدر لى غداً ، ثم تعود إلى مثل ما كنت فيه من الصفو ، ثم ترتد إلى مثلِ ما كنت فيه من الكدر ، وتجعل نفسك على هذا النحو كرة تقذفها من الصلة إلى القطيعة ومن القطيعة

إلى الصلة ، وترجحها بين القرب والبعد ، وبين الوصل والصد ، وبين الرضا والسخط . كل ذلك يسير قريب ملائم للحال التى نحن فيها ، ولكنه لا يلائمنى ، وإنما يخالف طبعى كل المخالفة . وما أكثر ما كنت أغيظك بترديد هذا البيت :

حىِّ الحمول بجانب الرمل إذ لا يلائم شكلها شكلى

فاسمعه منى للمرة الأخيرة ، واعلم أن شكلك لا يلائم شكلى ، وجنبنى ما تعلم أنى أكرهه أشد الكره من الرياء والتكلف والنفاق ، واقبل أو لا تقبل تحية خالصة يحملنى الأدب على أن أضعها فى آخر هذا الكتاب . . .

ولكنى لم أكد أفرغ من إملاء هذه الرسالة حتى رأيتها ثقيلة ممضة قاسية ، فتقدمت إلى صاحبى أن يطويها فيما يطوى . وما أكثر ما يطوى من الأوراق !

١٠

هون عليك ياسيدى ، وثق بأنى لست لائما لك ولا واجداً عليك ؛ فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وأكرم ما ينبغى للرجل ذى المروءة من المنازل أن يتأدب بهذا الأدب الكريم الرفيع فلا يكلف الناس ما لا يطيقون ، ولا يشق عليهم بما لا يستطيعون أن يتحملوا من الجهد . ونحن فى أيام تفرض على الذين يريدون الحياة اليسيرة السهلة أن يؤثروا العافية ويتجنبوا المصاعب ويتخففوا من الأثقال . والحياة التى نحياها فى هذه الأيام أشبه شىء بالبحر المضطرب الذى تعصف به الريح ، ويصطخب فيه الموج اصطخاباً يوشك أن يكون هديراً ، ويتعرض من يعبره للهول كل الهول إذا لم يكن خفيفاً رشيقاً يميل مع الريح كل مميل وينحرف مع الموج كل منحرف ، فإن لم يفعل ذلك هوى إلى القاع أو أوشك أن يهوى إلى القاع .

فلا تلم نفسك ، ولا تحسبنى ألومك على أنك قد تخففت من

بعض الثقل، وتحررت من بعض القيد، وأعفيت نفسك من بعض هذا الواجب الذى يفرضه على الناس ذلك الشيء القديم العتيق البالى الذى نسميه الأخلاق . الأخلاق شيء رث حقا قد أكل الدهر عليه وشرب، وأبلاه تصرف الأيام وتقلب الأحداث وتتابع الخطوب ، حتى أصبح تعلة العاجزين وتكأة الخاملين الخامدين الذين لا يبغون فى الأرض تقدماً ولا علواً ، والذين لا يحسنون مجاراة الأيام وملاينة الحوادث الهوج .

هون عليك يا سيدى! لقد كان ابن الزيات يقول إن الرحمة خور فى الطبيعة ، فلنقل مع ابن الزيات إن الوفاء قصور فى الهمة وفتور فى العزيمة وفساد للمزاج . ولنقل مع ابن الزيات وأمثاله إن إخاء الإخوان وصداقة الأصدقاء وود الأخلاء كل ذلك حسن إن أدى إلى منفعة أو ذاد مضرة أو وقى من مكروه، فأما إن ضيع المنفعة وجلب المضرة وورط فى المكروه فهو الحمق الأحمق، وهو العجز العاجز ، وهو الخصلة التى تدل على أن صاحبها لا يصلح لشيء ولا يرجى لشيء ولا ينتظر منه شيء . وضع نفسك حيث تريد لك الأخلاق أن تكون، ووازن بين حالك إن فعلت وبين حالك بعد أن لم تفعل . إن صديقك

الذى كنت تعرفه وتألفه وتركن إليه مجفو قد نبت به الدار وتنكر له الذين يملكون النفع العاجل والضر القريب . فلو قد وفيت له وأصفيته مودتك وصدق إخائك ، لجفاك من يجفوه ولتنكر لك من يتنكر له ، ولنبت بك الدار التى نبت به ، ولانصرفت عنك المنافع التى انصرفت عنه ، ولأقبلت عليك المحن التى أقبلت عليه ، ولأقمت بين قومك فى دار قلى لا تجد فيها من يعرفك ولا من يألفك ولا من يتقرب إليك ولا من يبتغى إليك الوسائل ويصل بك الأسباب . إذن لخلوت إلى نفسك فى أكثر الوقت ، ولالتمست ما تحب فلا تجد منه شيئاً ، ولفررت مما تكره فلم تجد إلى الفرار منه سبيلا . وأنت رجل تحب الدعة وتؤثر السعة وتطمع فى خفض العيش وبسطة الرزق وامتداد الجاه واتساع السلطان ، لا تستطيع أن تصبر نفسك على الضيق ولا أن تروضها على التواضع ، ولا أن تقنعها بما قسم لها ؛ فهى دائماً طامعة طامحة ، وأنت دائماً شقى بطمعها وطموحها تتكلف فى سبيلهما من الجهد ما يطاق وما لا يطاق ، وتأتى فى سبيلهما من الأمر ما يباح وما لا يباح ، وترضى فى سبيلهما بالمنزلة التى لا يرضاها من كرمت عليه نفسه فأبى أن يخضعها للضيم ويذلها لتحكم المتسلطين .

هون عليك يا سيدى ! لقد عرفتك حق معرفتك وبلوتك أحسن ما يبلو الإنسان الإنسان . وعرفت فيك هذا الطمع الذى لا حد له ، وهذا الطموح الذى لا ينتهى إلى غاية ، وعرفت فيك الضعف عن مقاومة الشهوة حين تعصف بك ، وعن الامتناع على المنفعة حين تلح عليك . وأنت رجل قد نشأت محروماً مأزوماً مكلوماً هيناً على الناس ، وقد آذاك هذا كله فى نفسك أشد الإيذاء ، فنشأت وفى نفسك نزوع إلى الانتقام وجشع إلى الظفر بالثأر . شقيت ورأيت قوماً حولك يسعدون ، فرأيت فى سعادتهم إهانة لشقائك ، وأضمرت لهم فى نفسك حقداً دفيناً وبغضاً كميناً وعداء مبيناً ، وأزمعت أن تجاهد فى الحياة حتى تنعم كما نعموا وتسعد كما سعدوا وتصبح لهم ضريباً . فلما بلغت من ذلك ما أردت لم تفتر همتك لأنها لا تعرف الفتور ، ولم تقعد عزيمتك لأنها لا تألف القعود ، ولم تضق آمالك لأنها لا تحب الضيق ، وإنما أزمعت أن تفوت القوم بعد أن أدركتهم ، وأن تستعلى عليهم كما استعلوا عليك ، وما زلت تجد وتكد حتى ظفرت من ذلك بالشىء الكثير ، تظهر للناس وداً وتضمر لهم عداء وحقداً . لم تخلص نفسك قط لصديق ولم يصف قلبك قط لخليل ، وإنما أنت رجل متكلف

دائماً تتودد لمن خفت وتتودد لمن أكبرت وتتودد لمن رجوت ، حتى إذا أمنت من تخاف ، وناظرت من تكبر وأدركت ما ترجو ، تنكرت وتنمرت واستكبرت ثم بغيت وطغيت واستعليت ، ثم آمنت بنفسك وحدها ولم تؤمن بغيرها إلا أن تكون لك عنده حاجة أو تكون فى نفسك له مهابة .

وكذلك أنت دائماً متكلف فى الصداقة ، متكلف فى الإخاء ، متكلف فى المجاملة ، متكلف فى المصانعة . فالأخلاق عندك وسيلة لا غاية ، والوفاء عندك أداة لتحقيق المنافع وقضاء المآرب وإدراك الآمال . كذلك عرفتك منذ اتصلت بينك وبينى أسباب الحياة . كنت شديد الحاجة إلىّ فكنت شديد الوفاء لى ، وكنت شديد الخوف منى فكنت شديد التحبب إلىّ ، وكنت تظن أنى قد خدعت عنك وآمنت لك وصدقت أحاديثك الكاذبة وأمانيك الخائبة واطمأننت إليك كما يطمئن الأخ الصديق إلى الأخ الصديق ؛ فكان ذلك يزيد مكرك بى وكيدك لى وخداعك إياى . ولم أكن شهد الله إلا مشفقاً عليك راحماً لك . والحر يخدع أحياناً فينخدع ، كما أنه يظلم أحياناً فيظّلم ، على علم منه بأنه منخدع ، وعلى ثقة منه بأنه مظّلم ، يدفعه إلى ذلك رفقه

بالضعفاء وعطفه على البائسين . وأى الناس أشد ضعفاً وأبأس بؤساً وأحق بالرحمة والعطف من هؤلاء الذين تصغر نفوسهم وتكبر آمالهم !

كنت إذن شفيقاً عليك رءوفاً بك منخدعاً لك ، لا تتقدم إلا دفعتك إلى أمام ، ولا تبلغ منزلة إلا رقيت بك إلى منزلة أعلى منها ، وأنت تقول فى نفسك يا له من أحمق ! وأنا أقول فى نفسى يا له من بائس ! حتى إذا دارت الأيام وخيل إليك أنك قد بلغت الغاية وأدركت الأمد واستأثرت بالأمر تصرفه كما تحب وتهوى ، أرسلت نفسك على سجيتها وأجريتها على طبيعتها ، وألقيت تلك الحجب التى كنت تتصنعها ، وألغيت تلك الكلف التى كنت تتكلفها ، وأقبلت على الخيانة والغدر والجحود ، لا تتحفظ ولا تتحرج ولا تحتاط . خيل إليك أن الحياة قد استقامت لك ، وأن الدنيا قد لاذت بك ، وأن السلطان كله قد انتهى إليك ، فاستخففت حتى بأيسر المجاملة ، واستهترت حتى بأنكر النكر . ثم لا أدرى كيف ثابت إليك نفسك القديمة أو كيف ثبت إليها ، وما هذا الطائف الذى طاف بك فعلمك فى لحظة من لحظات الحياة أن لبعض العهد القديم حقوقاً يجب أن تحفظ

وحرمات يجب أن ترعَى ، وإذا أنت تكتب إلىّ كتابك هذا الغريب تذكرنى فيه بأيامنا تلك ، وتريد أن نعود إلى عهدنا ذاك .

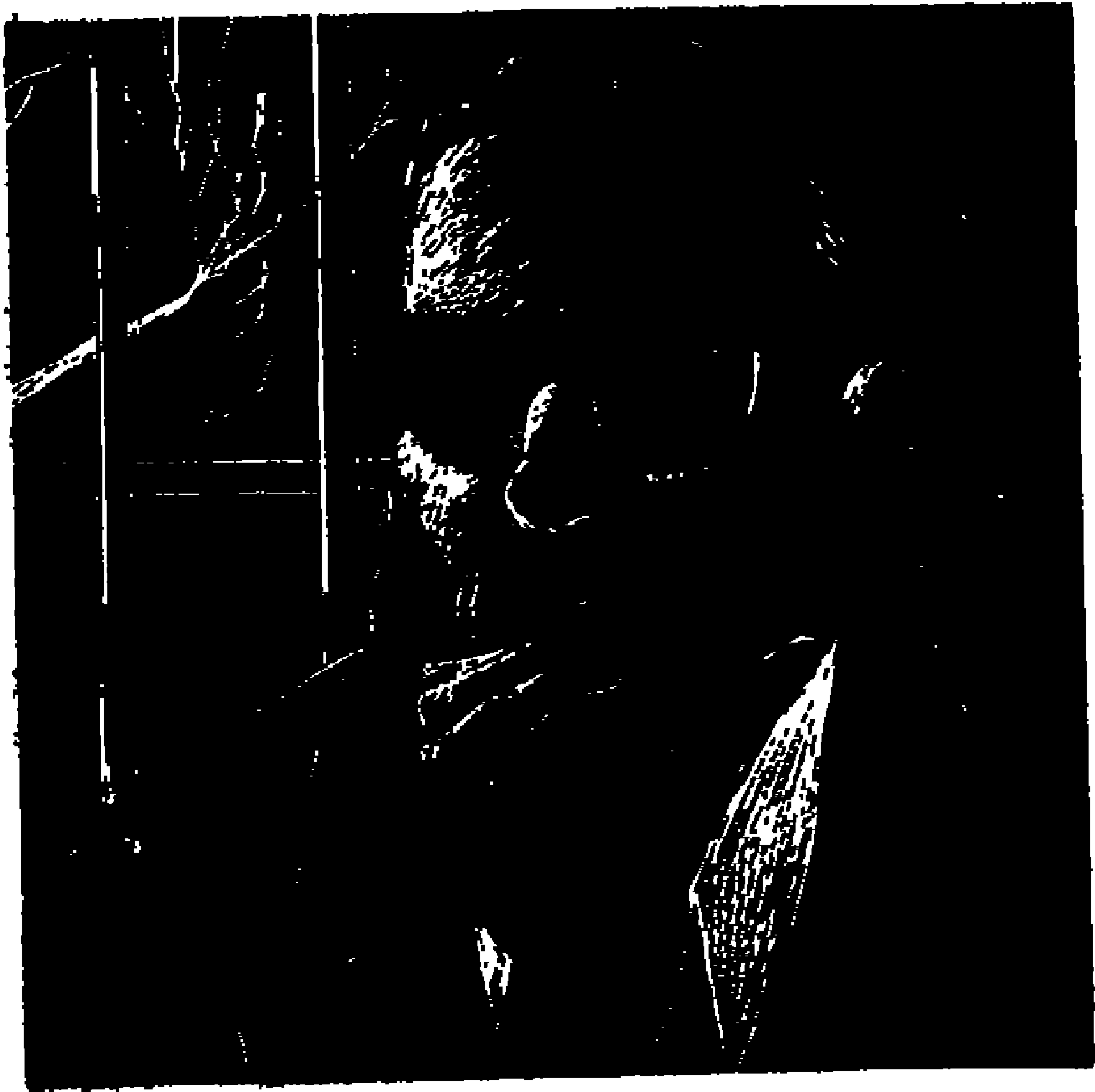
هيهات يا سيدى هيهات ! قد صرح الشرّ وظهر النكر واستبانت خفيات النفوس . وأقسم لقد خدعت نفسك أو خدعت عنها حين كتبت إلىّ هذا الكتاب ، ولكنك لم تخدعنى الآن ولن تخدعنى غداً ، كما أنك لم تخدعنى قط ؛ فأنا مشفق عليك الآن وغداً ، كما أشفقت عليك أمس وأول من أمس وأول من أول من أمس . ورب إشفاق خير منه الاحتقار . ورب رحمة خير منها النقمة ورب عطف خير منه الازدراء . ولكنك لا تبلغ من نفسى أن أحتقرك أو أزدريك أو أنقم منك . فانعم بما أنت فيه من دعة كاذبة وسعة باطلة وجاه موقوت . وثق بأن الأيام التى دارت لن تقف ولكنها ستمضى فى دورانها ، وستبدى لك صفحتها ، وستلقاك بالقليل أو الكثير مما تكره . وثقّ بعد ذلك أو مع ذلك بأنك ستجدنى كما وجدتنى دائماً معيناً لك دافعاً إياك محققاً لك المنافع قاضياً لك الآراب ، لا عن رحمة ولا عن عطف ولا عن إشفاق ، ولكن عن ازدراء واستخفاف . وأنا مطمئن إلى أن ذلك سيرضيك ويسليك

ويسرِّى عنك الهم ، ويفتح لك أبواب الأمل ؛ لأنك لا تكره شيئاً كما تكره التحليل والتعليل والتأويل ، ولا تفر من شيء كما تفر من التعمق والفهم ولأنك تأخذ المنافع كما تجيء وكما تكون ، لا تسأل من أين تأتى ، ولا تسأل كيف تأتى ، ولا يعنيك أن تعرف من أين تأتى أو كيف تأتى ، وإنما يعنيك أن تتلقاها متى عرضت لك .

فانعم بحياتك هذه الجاهلة الغافلة ، وأرحنى من جهلك وغفلتك ؛ فإنى لا أحب أن أستقبل الأمر إلا عالماً بمصادره وموارده . وبعد فأنا مستيقن أنك لم ترسل كتابك هذا الغريب حتى أنكرته ولمت يدك على أن خطته ، ولمت نفسك على أن أسلمته إلى البريد ، وجعلت تسائل حين تخلو إلى نفسك وحين تلقى أصحابك الذين يشاركونك فى هذه الضعة الوضيعة : كيف يكون لقائى لهذا الكتاب ، وكيف يكون ردى عليه ، وكيف يكون تأثرك بهذا الرد ؟ فاطمئن ياسيدى ؛ فلن تعرف من هذا كله شيئاً ؛ لأنى سأتقدم إلى صاحبى فى أن يطوى هذا الكتاب فيما يطوى من الأوراق. وما أكثر ما يطوى من الأوراق ! .

لن تقرأه إذن ، ولن تعلم كيف تلقيت كتابك وكيف كان

ردى ، عليه ولن تتكلف الجهد اليسير أو العسير لتلائم بين سيرتك التى تحبها وبين ما أحب أنا أن يكون عليه الأصدقاء .



١١

لا تشق على نفسك يا سيدى ولا تكلفها ما لا تريد أن تتكلف من المودة بعد أن انقطعت أسبابها، ومن الوفاء بعد أن عصفت به الريح . لست أدرى ما هذه الظاهرة الجديدة التى أخذت تظهر منذ وصلت باريس . فهذا الكتاب الذى تلقيته منك هو الكتاب الثالث من هذه الكتب التى تتكلف الود وتتصنع الحرص على الوفاء . أيمكن أن يكون الندم قد وجد إلى نفوسكم سبيلا ، أم هو الإمعان فى المكر والغدر والخداع يدفعكم إلى هذه الكتب التى تقطر وفاء وسخاء وإخاء بعد أن قدمتم بين أيديكم من الأعمال ما يقطر رياء ونفاقاً وكيداً ؟ !

تبارك الله ! كنت تريد أن تلقانى قبل أن أبرح الأرض، فاحمد الله على أنك لم تلقنى ؛ لأنى عرفت غدرتك الشهباء، وتمنيت أن يجنبك الله لقائى حتى لا تتورط فى الخزى حين ترى صديقاً لم يقدم إليك إلا خيراً ، ثم لم تقدم إليه إلا مكراً وغدراً .

احمد الله إذن على أنك لم تلقنى. قبل أن أبرح الأرض . واجتهد فى ألا تلقانى بعد أن أعود إلى الأرض ؛ فإنى لا أحب للناس أن يستخذوا من أنفسهم أمام أنفسهم ، فأولى ألا أحب للناس أن يستخذوا من أنفسهم أمام الناس . ولو استطعت أن أستر سيئاتك عن نفسك لأجنبك الاستخذاء أمامها لفعلت . ولكن الأيام ستقوم عنى بهذا الأمر ، فستنسيك غدرك ومكرك ، وستصور لك أنك الأخ النقى الوفى الأبى ، وستنسينى أنا أيضاً مكرك وغدرك وجحودك ؛ وستخيل إلىّ أنك ما زلت كما كنت رجلا يظهر الخير ويخفى الشر ولا يجاهر بالخيانة ولا يصرح بالإثم تصريحاً . ولكن دع الأيام تفعل فعلها ، أتح لها أن تنسيك نفسك ، وأتح لها أن تنسينى غدرتك الشهباء . والقنى إن شاء الله بعد شهور ؛ فلن تجد عندى إلا ما تحب . ومن يدرى ! لعلى لا أنتظر بك أن تسعى إلىّ ، ولعلى أن أسبق إلى دعائك أو السعى إليك ؛ فإنى قد أخذت نفسى منذ دهر طويل بقول بشار :

وصاحب كالدمّل المُمِدِّ   حملته فى رقعة من جلدى

وأخذت نفسى بقوله أيضاً :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وإن كنت لا أشرب على القذى إلا ود هؤلاء الأصدقاء الذين يتكلفون الودّ وليسوا منه فى شىء .

وبعد، فقد أهملت كتاب صاحبيك فلان وفلان، لم أرد عليهما أو لم أرسل ردى عليهما ، فما لى لا أهمل كتابك أنت كما أهملت كتابى صاحبيك ! أرحنى إذن من نفسك وأرح نفسك منى ، وانتظر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . لن تقرأ هذا الكتاب ؛ لأنى سأتقدم إلى صاحبى فى أن يطويه بين ما يطوى من الأوراق . وما أكثر ما يطوى من الأوراق !

وقد يسأل القارئ ما بالى خرجت بهذه الكتب من السر بعد أن استودعته إياها؟ وما بالى أقرئ هؤلاء الكاتبين ردى على كتبهم منشوراً فى كتاب مع أنى أبيت أن أقرئهم هذا الرد فيما بينهم وبين أنفسهم ؟ وجوابى على هذا السؤال يسير جدا، وهو أنى لم أتلق فى باريس كتباً ولم أرد عليها . وإنما أنفقت فى باريس وفى الطريق بين القاهرة وباريس ساعات كثيرة، أفكر فى أفراد من الناس منهم من أعرف ومنهم من لا أعرف ، ولكنهم جميعاً قد أذعنوا

للمنفعة واستسلموا للمآرب ، وأذلوا أنفسهم للحاجات ، وأهدروا من الأخلاق وقوانين الود ما تواضع الناس على أن يكبروه ، ومسنى من بعضهم شر قليل أو كثير ؛ فذكرتهم فيما كنت أذكر ، وتحدثت إليهم فيما كنت أتحدث . وأخص ما يمتاز به السفر بالقياس إلى أنه يردنى إلى نفسى ويذكرنى أشياء تصرفنى عنها شؤون الحياة وخطوبها أثناء الإقامة . فقل إن شئت إنى نائم حين أقيم ويقظ حين أظعن ، وإنى أستحضر أثناء الظعن ما يعرض لى وما يعرض من حولى أثناء الإقامة ، كما يستحضر المستيقظ ما يستطيع أن يستحضر مما عرض له أو عرض من حوله فى الأحلام التى يسوقها النوم إليه أو يسوقه إليها . وأنت ترى أن يقظتى ليست باسمة دائماً ؛ لأن أحلامى ليست باسمة دائماً . وأنت ترى أنى لست فى ذلك بدعاً من الناس ؛ فالرجل الذى تبسم أحلامه دائماً وتبسم يقظته دائماً لم يخلق بعد. والإنسانية تبذل ما تبذل من الجهد وتلقى ما تلقى من العناء وتحتمل ما تحتمل من المشقة لعلها أن تتيح لهذا الإنسان الذى يبسم حلمه وتبسم يقظته أن يوجد فى يوم من الأيام .

١٢

صديقى العزيز . . .

أعلم أنك لم تكد تعود إلى باريس أثناء الشتاء حتى قعدت فى دارك وأغلقت بابك ، وآذنت أصدقاءك ومحبيك أنك لا تريد أن يشقوا عليك ولا على أنفسهم بالسعى إليك؛ لأنك لن تلقى منهم أحداً . تحرص على أن تخلد إلى الراحة وتفرغ لما تريد أن تفرغ له من العمل . ولكننا نلمّ بباريس إلمامة قصيرة ولا نستطيع أن نسلو عن أن نهدى إليك تحية ملؤها الود والوفاء ، وسنكون أسعد الناس إن أتاحت لك صحتك وأتاح لك وقتك أن تلقانا ساعة حول مائدة الغداء فى اليوم الذى تختاره قبل يوم السفر الذى سيكون فى اليوم الخامس من هذا الأسبوع . وقد فرغنا من قراءة كتابك الأخير ، فزادتنا هذه القراءة إكباراً لك وإعجاباً بك إن كان من الممكن أن يكون فى إكبارنا لك وإعجابنا بك مزيد .

وقد تلقى هذا الكتاب فى الضحى ، ولم يتجاوز النهار نصفه حتى تحدث إلىّ فى التليفون كأحسن ما يكون الحديث ، وأنبأنى بأنه سيتغدى معنا إذا كان الغد . ولست أدرى كيف تلقيت حديثه ، ولكن الذين كانوا حولى رأوا نوراً يغمر وجهى فجاءة كأنما أشرق عليه من أداة التليفون . ولست أدرى كيف انتظرت هذا اللقاء الموعود ، ولكن الذين كانوا حولى شهدوا بأنهم لم يرونى قط بحيث رأونى من سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن الخلق ورقة الحديث . ولست أدرى كيف استقبلته حين أقبل ، ولا كيف قضيت معه تلك الساعة القصيرة نصيب من الطعام قليلا ونخوض من حديث الأدب والأدباء فى بحر لا ساحل له ، وإنما أعلم أن هذه الساعة القصيرة كانت وما زالت وستظل تعدل عاماً كاملا من الأعوام التى أقضيها مقيما فى مصر أو متنقلا خارج مصر . وأعلم كذلك أنى صحبته إلى داره وودعته عند باب الدار ، واستبقيت سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن الخلق وعذوبة الحديث والابتسام للحياة والأمل فى الأيام يوماً وبعض يوم . ثم أخذنا نتهيأ للعودة إلى القاهرة ، فنزور ونزار ، ونحزم الأمتعة كما يقال ، ونسعى إلى القطار ونقضى فيه الليل كله

ثم نقضى فيه أكثر النهار نستقبل إيطاليا مع الشمس المشرقة ونبلغ چنوا حين ينشر الأصيل حزنه الشاحب على الأحياء والأشياء ، ثم ننفق الليل فى الفندق وننفق النهار فى مدينة چنوا متنقلين بين أحيائها فى يوم مطير بارد ، ثم نأوى إلى السفينة مع الليل وأنا فى أثناء هذا كله أبحث عن نفسى فلا أجدها ، وألتمس صديقى ذاك الذى فارق الحياة منذ قليل والذى لقيته فى سفرى إلى باريس ونعمت بصحبته فى چنوا ، وسعدت بحديثه فى السفينة والقطار فلا أجده . وأريد أن أستحضر تلك الساعة الحلوة القصيرة التى قضيتها مع صديقى ذلك الكريم العظيم فلا أجد إلى استحضارها سبيلا ، وإنما هى الحياة الفارغة التى يملؤها السخف : زيارات تؤدى وزيارات تتلقى ، واضطراب فى هذه الشؤون التى يضطرب فيها المسافرون ، وجلوس إلى مائدة الطعام قبل أن نركب القطار ، وإقبال على طعام الإفطار الذى تحمله إلينا فى الحدود فتيات مشرقات النفوس والوجوه والأصوات ، ثم محاولة للتفكير فى غير نفع ، ومحاولة للحلم فى غير طائل ، وإغراق فى التدخين ، وتجاذب للحديث الذى لا يغنى عن أصحابه شيئاً . وقد خرجت السفينة من الثغر أثناء الليل ، وأصبحنا وقد أذهلنا

البحر عن أنفسنا : ريح عاصفة قاصفة ، وموج مضطرب مصطخب ، وسفينة تريد أن ترقص فلا يتاح لها الرقص ، وإنما هى حركة عنيفة مختلطة تميل بها إلى هذا الجانب ثم إلى ذاك ، وتميل بها إلى أمام ثم إلى وراء ، وآنية تساقط هنا وهناك ، ودوار يلزم أكثر السفر مضاجعهم ، وخوف يعبث ببعض النفوس ، والشمس مع هذا كله مشرقة بنور ربها تسخر فى هدوء من السفينة والسفر والبحر ، كأن الريح من حولها لا تعصف ولا تقصف ، وكأن أمواج البحر لا تضطرب ولا تصطخب ، وكأن حركة السفينة لا تختلط ، وكأن ألواح السفينة لا تبعث هذا الأنين الذى يؤذى النفوس .

ونحن ننفق أكثر النهار بين غضب الريح واضطراب البحر وسخرية الشمس الهادئة التى تملؤها الكبرياء : حتى إذا دنا الأصيل سكنت الريح وسكت البحر واستيقظ الناس سكارى وما هم بسكارى ، وأقبلوا على طعام العشاء فى فتور فاتر خير منه الاستقرار فى المضاجع والمخادع . ثم يرد الليل الهادئ إلى السفر شيئاً من قوة وفضلا من نشاط ، فيستقبلون يومهم الثانى فرحين مرحين كأنهم لم يمتحنوا فى أنفسهم وأجسامهم امتحاناً عسيراً منذ وقت قصير . وهذه فتاة من فتيات الفن الرخيص ترقص

للشمس المشرقة الساخرة ، وللبحر الهادئ المطمئن ، وللسفر الذين لا يعنيهم من الرقص إلا جسم غض بض يعرض عليهم من محاسنه ما ظهر وما خفى .

وهذا رجل فى الطرف الآخر من السفينة قد استحضر دباًّ صغيراً فى قفص ضيق ضئيل ؛ فهو يخرج الدب من قفصه بين حين وحين ، ويعلمه ألوان الرقص وفنون اللعب ، يأخذه بالرفق قليلا وبالعنف كثيراً . والناس من حوله ينعمون ويبتهجون : فريق من السفر يستمتعون برقص الدب ، وفريق آخرون من السفر يستمتعون برقص الفتاة الحسناء . والبحر الساكن المستقر والشمس الهادئة المشرقة يسخران من أولئك وهؤلاء . وتبلغ السفينة ثغراً من الثغور ، فلا تكاد تستقر فيه حتى يصعد إليها المجون والفجور يستهويان من يستجيب للهوى ويغويان من يستجيب للغواية . وينبئني صاحبي ببعض ذلك ، فأعرف سخرية الوجود بالناس ، واستعلاء الله عز وجل عن أن يؤاخذ الناس بما يكسبون . فلو قد فعل لما أبقى على ظهر الأرض ولا على متن البحر من دابة .

وأنا أفزع مع صاحبي من هذا كله إلى القراءة والإملاء ، ولكنى أحاول على ذلك أن أصل إلى نفسى فلا أجدها ، وأدعو

مع ذلك صديقى ذاك فلا أسمع له جواباً ، وأحاول أن أستحضر حياتى تلك فى باريس فلا أجد إلى استحضارها سبيلا . وأنا ضيق بالسفينة ، ضيق بالبحر ، ضيق بالسفر ، ضيق باعتدال الجو وصحو السماء ورقة النسيم . أفزع من هذا كله إلى القراءة والإملاء ، فلا أجد فى القراءة والإملاء غناء .

وأصبح ذات يوم وقد هدأ سعى السفينة حتى أصبح حركة لا تكاد تحس ، وإذا جندى مصرى فى زيه وأداته قد أقبل فاحتل السفينة ، وكان احتلاله رفيقاً رشيقاً ، اختار له مكاناً ألقى نفسه فيه إلقاء ، وأسند سلاحه فيه إسناداً ، وجعل يتفكه بنظره إلى فريق من السفر ، ويتلهى بالتحدث إلى فريق ، ويقول لى صاحبى مبتسما : « ها نحن أولاء نشرف على أرض الوطن العزيز » .

فتقع فى نفسى هذه الكلمة موقعاً غريباً ؛ لأنها تشعرنى بأنى خرجت من اليقظة فدخلت فى النوم منذ فارقت صديقى ذاك الكريم العظيم .

ثم نهبط من السفينة فنرى ما تعودنا أن نرى ، ونسمع ما تعودنا أن نسمع ، ونقرأ ما تعودنا أن نقرأ ، ونضطرب ما تعودنا أن نضطرب

فيه من الأمر : نوم عميق ثقيل ، وحلم متصل طويل . فمتى يتاح لى أن أستأنف السفر لعلى أن أستيقظ ، فألقى صديقى ذاك الذى فارق الحياة ، وألقى صديقى هذا الكريم العظيم ، وأجد نفسى فى منعطف من منعطفات السفينة فأقول لها وأسمع منها وأجاذبها أطراف حديث إن لم يكن حلواً كله فإن فى مرارته راحة ومتاعا .

السفينة كيرينيا ٨ مايو سنة ١٩٤٨ .

القاهرة ١٥ يونيو سنة ١٩٤٨ .

تم طبع هذا الكتاب على
مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تقدم للفتيان والفتيات ، والشبان والشابات

مجموعة (شبابنا)

توخت هذه المجموعة بأن تكون أنيس القراء عامة ، وجليس الشباب ومن يدلفون إلى مرحلة الشباب خاصة ، فعنيت بأن تطبعهم على سمو النفس ، وتنهلهم من معين الثقافة ، وتوفر لهم ديباجة مشرقة وأسلوباً جزلاً يكشفان لهم عن كنوز اللغة وأسرار البلاغة فيها .

صدر منها :

١ ـ اللورد الصغير	الثمن ٢٠ قرشاً
٢ ـ ملك الجبال	الثمن ٢٠ قرشاً
٣ ـ صخرة النجاة	الثمن ٢٠ قرشاً
٤ ـ ماروسيا	الثمن ٢٥ قرشاً



الطبع والنشر : دار المعارف بمصر ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ج.ع.م.

اقرأ

خليل شيبوب

عبد الرحمن الجبرتي

عبد الرحمن الجبرتي

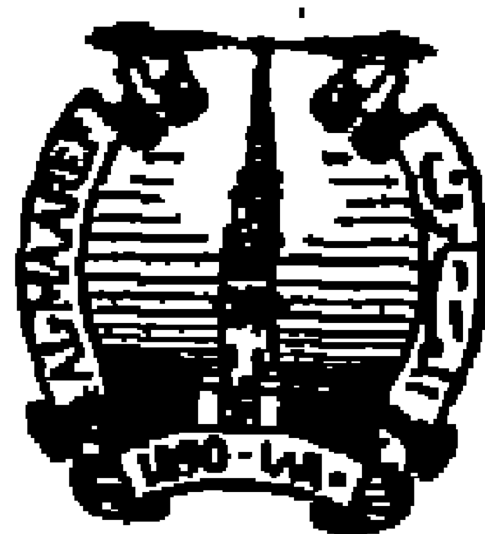
خليل شيبوب

عبد الرحمن الجبرتي

اقرأ ٧٠

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٧٠ — سبتمبر سنة ١٩٤٨



١

كان للشيخ نور الدين حسن الجبرتى — والد المترجم له — وكنيته أبو التدانى ثلاثة منازل بالقاهرة أحدها بالأبزارية على شاطئ النيل والثانى تجاه جامع مرزه جوربجى ببولاق والثالث فى خطة الصنادقية شمال الجامع الأزهر .

وله فى كل واحد من هذه المنازل زوج وسرارى وخدم ومماليك وعبيد وجوار بيض وسود فهو ينتقل إلى هذا وذاك يحف به أصحابه وتلاميذه ومريدوه فيعقد لهم حلقات التدريس ويملى عليهم ما شاء من العلوم الدينية والوضعية والعقلية والنقلية حتى إذا فرغ من إملائه انفض البعض عنه وانتشر البعض الآخر فى الحجرات أو خزانة الكتب . وقد يبقى منهم من يحضر الطعام معه أو يبيت عنده . وكان منزل خطة الصنادقية أحبها إليه لقربه من الأزهر فلا يتكلف المجاورون مؤونة الذهاب إلى بولاق والمسافة ثلاثة أميال أو تزيد وأغلبهم يخاف أن يبرى المشى نعليه ولأن أقرانه من الشيوخ يعوجون عليه فى انصرافهم من الجامع وربما تناولوا وجبة العشاء معه وسهروا إلى ساعة متأخرة من الليل .

إلا أن هذا المنزل قد ضاقت أسافله واتسعت أعاليه فتعددت

مدارجه وتشعبت مساربه ، وكلما علت السن بساكنه أعنته الصعود والنزول وكم ساومه فيه الأمير إبراهيم بلك كتخدا ومناه ببناء دار رحبة أو شراء قصر فخم له فأبى أن يستبدل به أى قصر أو أية دار . وكان ابرهيم بلك يقول له : إن خطة الصنادقية قصيرة ضيقة متعرجة وظاهر منزلك لا يدل على داخله وأنت فيه تصعد درجات كثيرة . ثم إن الرحبة المحيطة بالأقبية السفلى ضيقة والليوان فى الصدر عند مدارج الرحبة قائم على بائكة واحدة والحجرات لا تتسع لطلابك وضيوفك مع أن خزانة كتبك مشحونة بالمجلدات النفيسة والآلات الهندسية والاصطرلابات وأدوات الصناعات وهى جميعها مركومة هنا وهناك مبعثرة على الأخونة وفى الزوايا فكيف تستهين بثروتك هذه وما ضرك لو قبلت ما أعرضه عليك . . .

لكن الشيخ كان يعتذر دائماً ولم يجسر الأمير مع جبروته وغطرسته على تهديده أو تعنيفه لحظوته لدى الولاة والأمراء وعزته بين الأشياخ أقرانه .

وفى أصيل يوم من أيام الخريف سنة ١١٦٧ للهجرة (١٧٥٤ ميلادية) كان الشيخ حسن الجبرتى يلقى درسه على الطلبة الملتفين حوله فى منزله بالصنادقية إلا أنه خلافاً لعادته كان يسرع فى الإلقاء ويقتضب المسائل التى يعرضها اقتضاباً

ولا يسهب فى بيان أو تبيين ولما فرغ من درسه انفتل عن الحلقة إلى باب فى جانب البهو صعد منه إلى الطابق العلوى وتسلل الطلبة واحداً واحداً واثنين اثنين وثلاثة ثلاثة ولم يبق منهم إلا من له قضية يحققها فى كتاب من كتب الشيخ المبذولة لهم فى خزانته يتناولون منها ما يشاؤون ودخل البهو بعض الأشياخ من أصدقاء صاحب المنزل كانوا فى الحجرة المجاورة ينتظرون انقضاء الدرس حتى يقابلوه ولما رأوه انصرف جلسوا يتحدثون .

وكان أحدهم الشيخ يوسف عبد الوهاب الدلجى ابن خال الشيخ حسن الجبرتى رجلا وضىء الطلعة باسم الوجه تظهر عليه أمارات الذكاء والفطنة وحب النادرة والملحة وإلى جانبه رجل كهل عصبى المزاج هو الشيخ محمد عبد ربه العزيزى المالكى من خاصة الشيخ حسن ولعل ضيق ذات يده كان يلزمه الاقامة ببيت الشيخ أياماً وثالثهم رجل نحيل الجسم براق العينين ناتىء الجبهة يلبس لباس العامة وعلى رأسه قاووق مطرز بالحرير الأصفر هو الشيخ أحمد الراشدى الشافعى ورابعهم شيخ مهيب حسن الهندام هو الشاعر الطبيب الشريف قاسم التونسى وقد أخذوا جميعاً فى الحديث عن أمراء ذلك العصر الذين يسمونهم المماليك وأظهرهم فى تلك الآونة الأمير إبرهيم كتخدا الذى سبقت الإشارة إليه وقسيمه فى إمارته رضوان

كتخدا الجلفى الذى ترك له آلة الحكم يديرها كيف شاء وانصرف إلى لذاته وخلاعاته .

وإذا كان إبرهيم قد أخفق فى مسعاه لدى الشيخ حسن فى الاستيلاء على منزله بالصنادقية فإن رضوان هذا نجح فى مسعاه لدى آل الشرايبى المشهورين فى الاستيلاء على دارهم المطلة على بركة الأزبكية وهى التى على بابها العمودان الملتفان المعروفة عند أولاد البلد « بثلاثة ولية » فأصلحها حتى كأنه أنشأها إنشاء وعقد على مجالسها العالية قباباً منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون وبنى قصراً مطلا عليها وعلى الخليج الناصرى من الجهة الأخرى وأنشأ فى صدر البركة مجلساً خارجاً بعضه على عدة قناطر وداخلا بعضه الآخر فى غيط المعدية . وبنى كذلك قصراً داخل البستان مطلا على الخليج . وهو اليوم ينتقل فى هذه القصور مع محظيته « سلن » ويجهر بالمعاصى والراح ، ومواصلة الملاح . وقد قصده الشعراء ومدحوه بالقصائد والمقامات فوصلهم وأجزل صلاتهم وكان ممن مدحوه أديب عصره الشيخ عبدالله الإدكاوى فأطنب فى مديحه أيما أطناب ثم جمع ما نظمه هو وغيره من الشعراء فى كتاب سماه « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية » وقد حوى هذا الكتاب عدة قصائد من نظم الشريف قاسم التونسى

أهمها قصيدة طويلة مخمسة جاء فيها :

دع علة التعليـــل بالأماني   واقصد حمى الموصوف بالأمان
وانف لباس البؤس والأحزان   واسأل عن النعيم من رضوان
قل ما تريد لا تخف من رد

قال الشيخ يوسف الدلجي : يا سيد قاسم ألا ترى أنك وأمثالك من الشـــعراء مسؤولون عن المظالم التي يجترسها الأمير رضوان لأنكم بامتداحكم له تشجعونه على التمادي في هذا البذخ ، والتغالي في هذا المجون ؟ وهو إنما يسد نفقاته الباهظة من المظالم والمصادرات ولا بد أن يصيبكم شيء من دعاء الناس عليه لأنكم شركاؤه في مسلكه وليتكم تأملتم في أصل الرجل ولم تقصروا نظركم على ماله وجاهه . .

فضحك السيد قاسم وقال : والله يا أخي إنك على حق ولو لم أنظم قصيدتي المخمسة فيه لأرسل لي من يبطش بي في عطفة طريق أو في عقر داري وهو يعرف أني أنظم الشعر فمدحي له دفع السوء عن نفسي لا ابتغاء جاه أو نوال ، ولا بد أنك تنبهت إلى أن عهده هذا خير من عهد أسلافه ، ومنذ سبع سنين قد استتب الأمن بعض الشيء في البلاد ، ولا أقول هذا تبرئة لنفسي واعتذاراً عنها في مديحي له ولكنه عندي أفضل من غيره إذا جاز التفاضل بين الظالمين . أما مقاذعه ومفاحشه

فشر لا أزعم لنفسى أن أنهاه عنه ولست متصدراً للوعظ والإرشاد لأن هذه مهمة سادتنا العلماء أما أنا فمهمتى تدريس الطب فى مدرسة السيوفيين .

قال الشيخ يوسف : إن الأمر على ما ذكرت ولكن هذا البذخ والاستهتار والفسوق والمجون مؤذنة ببوار هذه الدولة .

قال الشيخ العزيزى : وأى دولة هى يا مولانا ؟ أهى القاسمية أم الفقارية أم القازدغلية ؟

قال الشيخ يوسف : إنك خفيف الظل يا شيخ محمد . وإنما أعنى دولة هؤلاء المماليك كيفما سميتهم .

قال العزيزى : إن حكامنا قوم لا أصل ولا فصل ، ألم يبلغك نبأ الحاج صالح الفلاح أستاذ الأمراء المشهورين بجماعة الفلاح ؟ فاستضحك الشيخ يوسف وقال : نعم الحاج الحاج صالح صاحب مصنع المماليك فتعالت الضحكات وطالت فقال العزيزى : هو هو ذلك الفلاح الساذج الذى نزح من قرية الراهب بالمنوفية إلى هذه القاهرة المنكوبة بهم وأعمل ذكاءه وفطن إلى أن ينشىء المماليك إنشاء كما يستفرخ الدجاج والحمام فصار يكد ويجد حتى اقتنى شيئاً من المال لستغله فى شراء المماليك والعبيد والجوارى وراح يزوج هؤلاء وأولئك ولما تناسلوا وكثروا فرش لهم الدور ، وتأنق لهم فى اللباس ليظهرهم بمظهر

الجاه والجمال . ثم تلطف فى إدخالهم فى الوجاقات والبلوكات تارة بالرشى وطوراً بالمصانعات حتى أحرزوا مراتب جليلة وأصبح الكثيرون منهم أمراء وكتخداآت واختيارية وأمراء طبلخانات وجاويشية وأوده باشيه وأربى عددهم على المائة وصارت لهم بيوت وأتباع واشتهروا شهرة واسعة ونسبوا إليه فقيل عنهم جماعة الفلاح . وقد أثرى الحاج صالح من هذه التجارة بل الصناعة ثراء عظيماً وأصبح يقرض الأمراء بالربا وقد شاب وشاخ — وهو اليوم فى السبعين — ومع ذلك فهو هو متواضع مصانع يركب حماراً ويعتم بعمامة صغيرة على طربوشه والخادم وراء الحمار فى عطفات القاهرة . . . هذا هو صاحب مصنع المماليك ، بل مستفرخ المماليك . قال الراشدى : كيف ترجون بقاء الدولة وهؤلاء هم قادتها وذوو الرأى فيها . ولا هم لمثل هؤلاء إلا الإثراء والتنعم باللذات والتفاخر بالقصور يشيدونها ، والنساء والغلمان يحشدونهم فيها . وإذا رضى الله عن أحدهم بعض الرضى ألهمه أن ينشىء سبيلا أو يبنى مسجداً وقد يبنى مدرسة أو كتّاباً . والديار المصرية كلها فى نظرهم هى هذه القاهرة التى يعيشون فيها بل يعيثون فيها فساداً أما القرى والحواضر الريفية فلا ولا . . إنها البقرة الحلوب التى يعتصرون درها وخلية النحل التى يشتارون عسلها ولا يؤودهم

أن تموت البقرة جوعاً أو يتطاير النحل عن الخلية لفقد المرعى .

قال الشيخ يوسف الدلجى : هذه المآسى لا دواء لها إلا أن يجرد مولانا السلطان جيوشه ويقضى بها على هؤلاء الطغام الذين يتزايد عددهم كلما تزايدوا فى إفناء بعضهم البعض كأن هناك مصانع خفية تخرجهم كمصنع أخينا الحاج صالح . قال العزيزى : لقد وعيت حروب الأوجاقات(١) وفتنها وقيام الينكجرية على التفكجية والمتفرقة على الجراكسة والجمليان على العزب ، وبطش الفقاربة بالقاسمية ونصف سعد ونصف حرام وقيام الفرقة القازدغلية اليوم وغدر الأمراء ببعضهم البعض وحوادث التقتيل والتشريد وعزل الولاة والسخرية بالمراسيم السلطانية ولكنه لا يزال يحز فى صدرى أن كل فرقة من هؤلاء كانت تأخذ فتوى على جواز قتال الأخرى .

---

(١) الاوجاقات جمع أوجاق ومعناه موقد النار ويطلق على الفرقة من العسكر . والاوجاقات التركية فى مصر لذلك العهد سبعة هى أوجاق المتفرقة ومعناها أصحاب إقطاعات . وأوجاق الجاويشية ولفظة جاويش تدل على رتبة بين الاونباشى والملازم وأوجاق كولويان أو جمليان أى المقطوعة. وأوجاق تفنكجيان أي حملة البنادق . وأوجاق الجراكسه وهم المماليك وأوجاق الانكشارية ومعناه العسكر الجديد . وأوجاق العزب أى رجال البحرية ، ولكل واحدة من هذه الفرق اختصاص يصعب تحديده وليس هنا موضوع الكلام عليها .

فأجاب الشيخ أحمد الراشدى وهو يبتسم : « كلما جاءت أمة لعنت أختها » ثم إن هذه من أبسط الأمور اليوم ولكن . . . هذا أخونا الشيخ حسن الجبرتى قادم .

ودخل شيخ قصير القامة عبل الجسم ينظر عن عينين سوداوين يأتلق بريقهما ويعلوهما حاجبان غليظان وتسترسل على صدره لحية عريضة تمازج فيها البياض بالسواد فنهض الجميع إجلالا ولكنه أقرأهم السلام ولم يصافح أحداً بل سارع إلى أقرب مكان فى جنب الشريف قاسم وقعد وهو يقول :

ـ لا عليكم واصلوا ما كنتم فيه .

وكان الشيخ منفعل النفس تدل أسارير وجهه على انقباض وحصر

فقال الشيخ يوسف : إننا كنا فى حديث معاد نعرض لهذا الكابوس الجاثم على البلاد ولا نرى منه مخلصاً . . . إنها حالة مؤلمة . . . الأمراء قد أفحشوا فى الظلم . . .

فقاطعه الشيخ قائلا : « ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . » فقال الشريف قاسم : أرى سيدى الشيخ مشغول البال أرجو الله أن لا يكون شاكياً ضراً .

فقال الشيخ : بل أحمد الله على نعمه . الحمد لله رب العالمين . لقد من الله على بولد سميته باسم جدى الأعلى عبد الرحمن .

فقال الجميع : بارك الله لك فيه . يعيش فى ظلك وعزك يا مولانا وينبته الله نباتاً حسناً .

قال الشيخ : إنه الولد الثاني الذى يمن الله على به فى هذا العام فلقد رزقت علياً منذ شهر ولكن مولود اليوم وضعته إحدى السرارى وعلى كل حال لا أرانى مسروراً . . . ثم وجه حديثه إلى الشريف قائلاً :

لقد رزقنى الله إلى اليوم خمسة وثلاثين مولوداً من الذكور والاناث ماتوا جميعاً وهم دون البلوغ . . . فهل لهذا تعليل طبى يا سيد قاسم .

قال السيد : لما كنت أدرس الطب فى البيمارستان المنصورى عالجت هذه المسألة طويلا ولم أجد لها تعليلا ولعل للوراثة شأناً فى هذا الأمر الغريب .

قال الشيخ حسن : إن أجدادى الأعلين عمروا جميعاً ولم يمت شاباً إلا والدى إبرهيم رحمه الله. ولكنه بلغ رشده وتزوج وأعقب أما هؤلاء الصبية الأبرياء فإنهم يتناثرون كحبات العقد . ولقد والله بلغت روحى التراقى مما أدفن بيدى من الأطفال وأقف على هذه القبور الصغيرة أوارى فيها قطع أحشائى . . .

وكادت العبرة تخنقه فبادره الشيخ محمد العزيزى وكان يكنى « بابن الست » لأن أمه كانت سرية وقال : إنى أبشر

مولانا ببشارة أرجو أن يذكرنى بها بالخير فإنى أرى أنه قد ولد لى اليوم ابن خالة . . . فابتسم الشيخ حسن على حرج صدره ولكن العزيزى استطرد قائلا : نعم أبشر نفسى بأنه ولد لى ابن خالة ما دامت أمه سرية مثل أمى . ألم يولد لأبى من حرائر نسائه ثمانون بنتاً . . . والله يا مولانا الشيخ يوسف ثمانون بنتاً ولدن لأبى رحمه الله حتى كربت روحه تزهق من هذه الذرية المؤنثة . . . ثم اشترى سرية رومية ولدتنى له ولم تلد له غيرى لأجل هذا دعيت « ابن الست » .

فأجاب الشيخ يوسف مبتسما : كما يقال للأسود يا أبيض ويدعى اللديغ سليما .

قال العزيزى : كما تريد . . . ولكن اليوم . . . يكون عبد الرحمن الجبرتى ابن ابن خالك . . . ابن خالتى . . .

فضحك الشيخ يوسف والشيخ الراشدى وسأل السيد قاسم : وأين البشارة يا شيخ محمد ؟

قال العزيزى : البشارة أنه سيعيش هذا الطفل السعيد ببركة دعائى له . . . ثم وقف الشيخ محمد العزيزى رافعاً يديه إلى السماء يقول :

اللهم احفظ ابن خالتى عبد الرحمن من كل سوء وأطل

عمره وثبته فى طاعتك واكتب له السعادة فى الدارين يا أرحم الراحمين .

فقال الجميع آمين .

والتفت إليه الراشدى وكان شافعياً وسأله : إن أباك يا شيخ محمد كان شافعياً فما بالك نشأت مالكياً .

أجابه : يا سيدى الشيخ إن والدى أقرأنى القرآن على مولانا الشيخ على العدوى والعدويون مالكيون كما تعلم فهذا سبب التصاقى بالمالكية على أنى أردت الانتقال إلى الشافعية ولكننى رأيت فى المنام الإمام الشافعى رضى الله عنه فنهانى عن ذلك فهل أخالف صاحب المذهب لأرضى أتباعه .

فابتسم الراشدى وقال : كلا . . . ثم قام منصرفاً وقام معه السيد قاسم قائلا : لست منصرفاً بل أود أن أحقق بعض المسائل فى خزانة الكتب . فقال الشيخ حسن : على رسلك حتى يحضر الطعام .

وانصرف الراشدى ودخل السيد قاسم حجرة الكتب وأخذ يتفحص بعض الآلات والأدوات والكرات وتبعه الشيخ العزيزى يسأله عن الكتب التى يريد أن يقدمها له . وكأنما كان حديثه ذاك قد حل عقداً من لسانه فاندفع يقول للسيد قاسم : إن مولانا حسن الجبرتى عالم لا يضاهيه فى علمه أحد .

سلنى عنه فإنى عايشته فى منزله وخبرت إخلاصه لله وللدين وللعلم هذا رجل ينام أول الليل ويقوم آخره يصلى ما تيسر من النوافل والوتر وإذا لم يشتغل بالذكر انصرف إلى مسألة فقهية أو رياضية أو فلكية . لقد طار صيته فى الآفاق وراسله ملوك الدنيا حتى مولانا السلطان أهدى إليه نسخاً من خزائنه : انظر هذه الكتب المذهبة العجيبة : هذا كتاب القهستانى الكبير . وهذا فتاوى الأنقروى . وهذا نور العين فى إصلاح جامع الفصولين . إنها كتب سلطانية بالتركية والشيخ يتقن هذه اللغة وهو يخاطب بها الأمراء حتى كأنه منهم وقد قصده منذ سنوات جماعة من الإفرنج أخذوا عنه علم الهندسة وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم وأخرجوه من القوة إلى الفعل .

وكان السيد قاسم يصغى إلى الشيخ العزيزى مبتسماً وقد تناول كتاباً صغيراً ملقى على الخوان عنوانه « وسيلة الطلاب لاستخراج الأعمال بالحساب » للعلامة المارديني فنظر العزيزى إلى الكتاب وقال : أرأيت هذا الكتاب ؟ . . . إنه أنقذ سمعة البلاد من الجهل .

فنظر إليه السيد قاسم متعجباً . فقال الشيخ محمد : ألم يحدثك عنه مولانا الشيخ عبدالله الشبراوى وهو عديلك فى نظم الشعر وإن كان شيخ الأزهر .

قال السيد قاسم : وما معنى هذا الكلام .

قال الشيخ محمد : لما حضر الوالى أحمد باشا الملقب كور وزير باحث الشيخ عبدالله فى العلوم الرياضية فأحجم الشيخ فعجب الوالى من جهله وقال له إن المسموع عندنا فى الديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . . . ثم قال له : إن غاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل واضطرحتم المقاصد .

فقال له مولانا الشيخ عبدالله : إن معرفة غير هذه من فروضى الكفاية إذا قام بها البعض سقط عن الآخرين . ثم دله على أستاذنا الشيخ حسن الجبرتى فلاقى عنده بغيته ، ونال أمنيته . وأقرأه أستاذنا هذا الكتاب الذى بيدك الآن وحل له أعوص المسائل ، وأعضل المشاكل ، حتى طار به فرحاً وألبسه فروة سمور علامة التفخيم والتعظيم ليظهر له إعجابه به وما زال يكرمه كل الإكرام حتى رحل عن هذه البلاد فراح ينشر فضله فى دار السلطنة . . . وظل مولانا الشيخ عبدالله الشبراوى يقول بعد ذلك لأستاذنا الشيخ حسن : سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا فإنه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً . . .

فضحك السيد قاسم وقال : ألهذا تقول لى أنه عديلى . . .

فوجم الشيخ العزيزى وقال : معاذ الله ! معاذ الله !

٢

كانت الدنيا مقبلة إقبالا عظيماً على الشيخ حسن الجبرتى بما آل إليه من وقف جدة والده زينب الجوينية وبما وقفته عليه جدته لأبيه الحاجة مريم بنت الشيخ محمد المنزلى الأنصارى من عقارات أهمها وكالة الصنادقية والحوانيت المجاورة لها وأملاك أخرى بالغورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الأقبغاوية . وكانت هذه الجدة كفلته صغيراً بعد وفاة أبيه سنة ١١١٠ وعمره شهر واحد وأقيم وصياً عليه الشيخ محمد النشرتى المالكى شيخ الأزهر لذلك العهد . ولا شك فى أن هذه الجدة كانت شابة حينئذ فتزوجها الأمير على أغاباش متفرقة المعروف بالطورى نسبة إلى قلعة الطور التى كان له حكمها مضافاً إليها قلعتا السويس والمويلح وفطن الشيخ حسن بثاقب بصيرته حين بلغ مبلغ الرجال إلى أن فى هذا الزواج تبعيداً بينه وبين جدته الثرية فتزوج بنت هذا الأمير ليزيد علاقته توثيقاً به .

وثرى الشيخ تزوج من جهة أخرى ابنة رمضان جلبى المعروف بالخشاب . وكانت أسرة هذه الزوج تملك عقارات عديدة فى بولاق منها وكالة الكتان وربع وحوانيت تجاه جامع

الزردكاش وبيت كبير بساحل النيل ومنزل تجاه جامع مرزه الشوربجى ولا بد أن حصة زوجه هذه كانت ذات بال حتى شاركها فى قسم كبير من هذه العقارات .

ولم يقتصر الشيخ حسن على استغلال أوقافه وممتلكات زوجته بل تاجر وضارب وشارك وقايض وباع واشترى ومارس أمر الدنيا إلى جانب ممارسته أمور الدين . ولما توفى الأمير على الطورى آل إلى الشيخ حكم القلاع المشار إليها ولا نعرف كيف كان ذلك وهو لم يكن من الأمراء . إلا أنه قتل له هناك خادم يدعى سليمان فاغتم لمقتله وتخلى عنها واقتصر على الاشتغال بما يشتغل به العلماء .

ومن كانت هذه غلاته ومرافقه كانت عيشة البذخ ميسرة له . وبعد فالشيخ لا يعول أزواجه وولده وحاشيته بل يعول كثيراً من الأشياخ الناشئين والمهاجرين فيسرف فى الإنفاق عليهم .إذا جاز أن يدعى الانفاق عليهم إسرافاً .

من ذلك أن الشيخ إسماعيل النفراوى لما اعتبر أن ابنه الشيخ محمد إسماعيل قد بلغ المنتهى من العلوم الفقهية أحضره إلى الشيخ حسن سنة ١١٧١ وسنه إذ ذاك عشرون سنة ورجا منه أن يلقنه العلوم الحكمية والرياضية التى ابتدع الشيخ إلقاءها فى الأزهر وفى منزله فألحقه الشيخ بمنزله وأفرد له خزانة لكتبه

وعروضه واشترى له حماراً ورتب له كسوة ومصروفاً .

وكان الشيخ مرة على بغلته عائداً إلى بيته فاذا الأمير أحمد البارودى ماراً بموكبه فتحاير الشيخ عن الطريق ولكن سرعان ما نزل الأمير عن فرسه وخف إلى الشيخ يقبل يده فاستحيا الشيخ منه وأراد أن يقابل عطفه هذا بمأثرة يقدمها إليه فالتمس منه أن يقيد به أحد الطلبة ليقرئه الفقه فقيد به الشيخ عبد الرحمن العريشى شيخ رواق الشوام وشيخ الأزهر فيما بعد .

وهذان المثلان بعض من كل . فهنالك طائفة من الأشياخ لا يكادون يبرحون منزل الشيخ حسن . فمن المشايخ محمود الكردى وعبد الرحمن البشبيشى ومحمد الفرماوى والعزيزى والهلباوى ومن غير المشايخ محمود النيشى والتونسى وغيرهما ومن المهاجرين ابن السويدى البغدادى وإبرهيم الصيحانى وعدد وفير من المريدين بعضهم متقيد بخزانة الكتب وبعضهم بالنسخ وبعضهم بالتجليد وإلى جانب هؤلاء جميعاً يفد لزيارة الشيخ فى كل أسبوع عدد جم من الأمراء والأعيان والتجار إما للتبرك وإما للاستئناس وبيت الشيخ مفتوحة رحابه للجميع مبذول خيره لهم على السواء .

وكان الشيخ حسن إلى جانب الواجب الخاص يقدر الواجب العام فإنه لما اختلت الموازين والقبابين بالقاهرة سنة ١١٧٢ انبرى

لتصحيحها فاستدعى السباكين والحدادين وحرر لهم المثاقيل والصنج وأرشدهم إلى ضبطها ووضع فى ذلك كتاباً سماه « العقد الثمين فيما يتعلق بالموازين » واستحضر على خليل شيخ القبان والشيخ حسن ربيع البولاقى وأملاه عليهما وأنفق على هذا الواجب العام من حر ماله مبالغ طائلة ابتغاء وجه الله وحده .

فلا عجب إذا رأينا الشيخ يبيع فروة السمور التى خلعها عليه الوالى أحمد باشا كور بثمانمائة دينار كان فى حاجة إليها بلا ريب .

* * *

فى مثل هذه البيئة العلمية والثقافية نشأ عبد الرحمن الجبرتى وأى شيخ صادف فى المنزل كان يرى لزاماً عليه مذاكرته فى شىء من المعرفة فهذا البشبيشى يلقنه حروف الهجاء وآيات من القرآن وهذا الشيخ عبد ربه ابن الست يضمه إليه ويقول للبشبيشى : لا ترهق ابن خالتى بالحفظ . أما الشيخ محمد موسى الجناجى فهو أظرف الأشياخ فى نظر الطفل بما يهمل من بزته وهندامه . فثيابه طويلة أو قصيرة . خشنة أو ناعمة . وكان عبد الرحمن يركض إليه حين يراه عائداً من الفرن وعلى رأسه طبق الخبز ليأخذ منه رغيفاً ساخناً . أو هو يرقب عودته من بولاق حتى يراه راكباً على حماره فوق حزم البرسيم التى

ذهب ليشتريها لبغلة الشيخ الكبير فيسارع إليه حتى إذا حط البرسيم عن ظهر الحمار رفع عليه عبد الرحمن ليقوده إلى مربطه . ولا يلاقى الجناجى بعد ذلك كبير عناء فى تلقين الطفل شيئاً من القرآن وبهذه الوسيلة أمكنه أن يحفظ من سورة الشورى إلى سورة مريم .

ولا ندرى إذا كان عبد الرحمن يلازم فى البيت أخاه علياً ، ولا إذا عاشا معاً فى بيت واحد وهو لم يذكر لنا شيئاً عن ذلك ولعل كلا منهما كان محضوناً فى حجر أمه ناشئاً نشأة مستقلة عن أخيه ولعل علياً ابن إحدى الحرائر وعبد الرحمن ابن سرية فلا بد من التفرقة فى معاملة كل منهما حتما .

وقرأ الشيخ حسن فى وجه ابنه عبد الرحمن مخايل النجابة فلم يجد بأساً من اختلاف الطفل إلى أحد الكتاتيب المنبثة فى حى الأزهر حتى إذا يفع صار يختلف إلى مدرسة السنانية الواقعة فى رأس خطة الصنادقية وكلما انصرف من المدرسة إلى المنزل وجب عليه أن يعيد على أبيه أو على أحد الأشياخ ما تعلمه فى يومه ذاك .

ورزق الشيخ حسن الجبرتى سنة ١١٧٤ ابنين عرفنا اسم أحدهما حسنين فقط وقد هنأه بولادتهما تلميذه الشيخ محمد

الصبان فقويت نفسه وضمن بأولاده هؤلاء اتصال الذرية على الزمان .

وفى هذه السنة كان عبد الرحمن فى السابعة من عمره يقظ الذهن يستوعب كل صغيرة وكبيرة تجرى حوله بمقدار ما يمكن أن يستوعبها حدث غر مثله . وكان ميدان لهوه يمتد من خان الصاغة إلى بيت القاضى فالمشهد الحسينى فباب زويلة وما يتفرع من الغورية من خطط وحارات وعطفات كالحمزاوى والقشاشين والكعكيين وخشقدم وحارة الروم ولا شك فى أنه كان يصحب أباه إلى المساجد التى تؤدى فيها فريضة الصلاة أيام الجمعات والأعياد ولا شك أنه أيضاً كان يذهب مع أمه أو أحد أقاربه إلى مصر القديمة أو إلى بولاق للتنزه والتريض حيث كانت لهم رياض وغياض .

ويغلب على الظن أن الشيخ حسن كان يسكن أيام القيظ فى بولاق وقد تطول أيام القيظ فى القاهرة فيظل فى بولاق إشفاقاً على أولاده من غبار الحى الأزهرى وتحاشر الناس فيه لأن منزله فى الإبزارية على ساحل النيل يرتفع عشرين درجة عن مستوى الماء فلا غبار ولا تحاشر هناك بل النسمات العذاب تهب على النيل وتلطف من حرارة الجو .

وصحب عبد الرحمن أباه فى ليلة المولد النبوى الشريف لسنة

١١٧٧ إلى منزل السادة الوفائية فتكرم الشيخ أبو الإمداد إسماعيل سبط بنى الوفا فكنى عبد الرحمن أبا العزم ولعله فى نفس تلك الليلة كنى أخاه علياً أبا الإتقان ودون كاتب الكنى سيد أبو مفلح العجمى الشيشينى هاتين الكنيتين فى السجل الخاص.

وبلغ عبد الرحمن إذ ذاك سن التمييز وأخذت تنجلى الدنيا أمام عينيه لأنه ذكر فى تاريخه أنه أدرك سن التمييز فى العاشرة يريد بذلك انتباه العقل إلى ما يحيط به وانطباع الصور فى المخيلة وتنسيقها فى الذاكرة ومن المحال أن يقصد نضوج الفكر والإحاطة بالمدركات والصور. ومهما يكن من الأمر فقد اشتهر عنه أنه حفظ القرآن الكريم وهو فى الحادية عشرة.

ولم يتم فرح الشيخ بأولاده فهذا حسنين وصنوه يموتان وعلى مريض وعاودت الشيخ البلابل والأشجان وأصبح قلقاً مضطرباً موزع النفس بين على وعبد الرحمن وبينما هو فى مثل هذه الوساوس إذا الشيخ عبد الرحمن العريشى يستحثه لإلحاق عبد الرحمن برواق الشوام لتلقينه مذهب الحنفية. فاتكل الشيخ حسن على الله وأسلم ولده إلى العريشى يجاور فى رواقه ولم ينتقل فى تلك السنة ولا فى السنة التالية إلى الصنادقية بل بقى فى بولاق وحينما ظن علياً قد عوفى مما به جرى عليه القدر سنة ١١٧٩ وهو فى الثانية عشرة.

فاسودت الدنيا فى وجه الشيخ وحزن حزناً عظيماً وانحرف مزاجه وتوالت عليه النوازل وأوجاع المفاصل . فترك الذهاب إلى بولاق وغيرها ونقل العيال إلى الصنادقية ولازم منزله وصار يشغل نفسه بإملاء الدروس وتحرير الفتاوى .

وفى سنة ١١٨٢ رأى أن يسارع إلى تزويج عبد الرحمن وهو إذ ذاك فى الرابعة عشرة ولم يذكر لنا المؤرخ شيئاً عن زوجته هذه ولا عن أصلها وأهلها . ولا شك أن مسارعة أبيه إلى تزويجه دليل على خوفه الشديد من انقراض ذريته . وقد أرخ الشيخ عبدالله الإدكاوى هذا الزواج بأبيات بعث بها إلى الشيخ حسن وبيت التاريخ قوله

والحال إذا أرختـــه   شمس البها زفت لبدرك

(١١٨٢)

ولا شك أن عبد الرحمن قطع المجاورة فى الأزهر وسكن فى الصنادقية لكنه لم ينقطع عن الأزهر فهو يحضر الدروس فى الحلقات ويحضر دروس والده فى المنزل فهناك يأخذ الفقه واللغة وهنا يأخذ العلوم الرياضية والحكمية والفلكية .

وكان أبوه يحس أن ابنه هذا إذا مد الله فى عمره سوف يكون له شأن فى الدنيا فكان يذاكره الدروس منفردين فى غير ساعات الدروس وكان يحدثه عن آبائه وأجداده وأنهم ينتسبون

إلى مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضى الله عنه وجدهم الأعلى زين الدين عبد الرحمن الجبرتى نزح من بلاد الجبرت بالحبشة إلى الحجاز وجاور فى مكة مدة ثم جاز بحر القلزم إلى مصر ودخل الجامع الأزهر واجتهد حتى تولى مشيخة رواق الجبرتية وأعقب ولده شمس الدين محمداً الذى تولى أيضاً مشيخة الرواق وكانت له كرامات مذكورة وقد خلف ابنه الشيخ نور الدين على الذى أعقب ولدين هما حسن وعبد الرحمن ومات عبد الرحمن فى حياة أخيه ولم يعقب وكان الشيخ حسن مفتى المسلمين وأعقب برهان الدين إبرهيم جد عبد الرحمن .

وأشهر كرامات سلفهما شمس الدين محمد أنه فى إحدى ليالى الشتاء بينما كان مكباً على القراءة فى الأزهر انطفأ السراج فجأة فأيقظ النقيب ليسرج له لكن النقيب تثاقل فى القيام وتباطأ فى المشى ذهاباً وإياباً وفى أوبته والسراج بيده دهش إذ رأى الشيخ يواصل القراءة ممسكاً بيده اليسرى الكتاب رافعاً سبابته اليمنى مضيئة له كالشمعة المشعلة .

وكان الشيخ حسن يرى لذة فى إصغاء ابنه إلى أحاديثه ومحاولته تفهم ما يسمعه واستيعابه فصار يقص عليه أحداث العصر وأخبار الولاة والأمراء والأشياخ الذين عرفهم وعرفوه من محمد بك جركس وإسماعيل بك إيواظ الملقب قشطة بك

وذى الفقار قانصوه إلى عثمان كتخدا ومحمد بلك قطامش إلى صديقه الحميم عثمان بك ذى الفقار الذى خرج من مصر سنة ١١٥٦ واستئثار إبرهيم كتخدا بلك ورضوان بلك الجلفى بالحكم بعده ثم ظهور على بلك الكبير فى أيامهما .

وكان عبد الرحمن يستزيد والده من أمثال هذه الأحاديث وتضحكه ألقاب بعض الأمراء كإسماعيل بك بارم ذيله . ويوسف بك القرد وأبو مناخير فضه . وتطوف برأسه أسماء هؤلاء الأمراء الأعاجم الذين يحكمون البلاد فى حين أن السادة العلماء لا يمتد سلطانهم إلى أبعد من مريديهم وحاشيتهم فيشرح الشيخ حسن لابنه مهمة العلماء وأنهم ورثة الأنبياء وأحباب الله وآحاد الأكوان وأفراد الزمان . بل هم « خلاصة خاصة الله فى خلقه » فيستفز هذا الكلام قلب الغلام ويصغى بكل جوارحه إلى أبيه الذى يفيض فى الحديث عن فضائلهم وكراماتهم وخصائصهم مبتدئاً من شيوخ الأزهر كالنشرتى ومحمد شنن والفيومى من المالكية ثم انتقال مشيخة الأزهر إلى الشافعية بالشيخ عبدالله الشبراوى وهناك إلى جانب هؤلاء أشياخ أجلاء كتبوا وشرحوا وعلقوا وأفادوا وهم طبقات ، فالعليا أمثال الشرنبلالى والزرقانى والملوى والبابلى والشربينى ، والأولى أمثاله هو وأضرابه كالنفراوى والصعيدى والدردير والعدوى والحفنى والدمنهورى

ومن الأشياخ شعراء يشار إليهم بالبنان كالشرقاوى واللقيمى والأنبوطى والسيوطى والإدكاوى وكلهم رفيع المقام. مسموع الكلمة لدى الأمراء يقصده الأعيان والتجار وكبار الناس لا لجاهه ولا لماله بل لعلمه وعقله فيحصن به دينه ويتبرك منه فى دنياه وهى نعم خصهم الله بها تميزاً لهم وإعلاء لكلمة الحق التى بها ينطقون .

وكان الشيخ حسن رجلا واسع التفكير بعيد النظر لا يقصر حديثه على الأفراد بل يتعداهم إلى الأحداث ويستنبط الصلات بينها ويستنتج لابنه كل سبب فيظهر له مثلا كيف كانت أيام الرخاء والرخص ووفرة الأغذية والأكسية تابعة لعدل الحاكم وإنصافه وتسويته بين الرعية وكيف أن الظلم مرتعه وخيم فإذا وقع شره المستطير على المظلوم كانت مغبته هلاك الظالم ونجاة المظلوم . فيقتضيه هذا الكلام عرض الأسعار والحاصلات وذكر تراخى الأسواق أو إستمساكها وغلاء المعيشة وما إلى ذلك. أما مصر وخيراتها ونيلها وصعيدها فكان الحديث عنها طويلا طويلا . وأما عادات أهلها فكفى الأصيلين منهم فخراً برهم بالفقراء وتعودهم مد الأسمطة لهم . بل كفاهم فخراً أن أكثر خزائن الكتب فى بيوت أغنيائهم مبذولة لطلبة العلم يتداولونها كما يشاؤون ويستعيرون منها ما يشاؤون .

وكان يحدثه عن آل الشرايبى هؤلاء الكرام الأمجاد الذين عاش فى كنفهم مئات من الأسر الفقيرة والذين كانوا لا يقبلون من فلاحيهم زيادة على المال المقرر بل هم يقرضونهم ثمن البذور ويساعدونهم على زراعاتهم ويحسبون لهم هداياهم من أصل المال المطلوب منهم فى حين كان المماليك يبتزون دم فلاحيهم ويعسفون بهم عسفاً شديداً ويستنزفون خلاصة ما يغلون من الأرضين فلا يتركون لهم قوتهم وقوت عيالهم .

ولا شك أن دروس الشيخ حسن فى منزله ومذاكراته لابنه عبد الرحمن وأحاديثه عن الماضى والحاضر كانت تجلب السرور إلى قلبه وتدخل الصفاء على نفسه وشعر رويداً رويداً أن الجو حوله قد راق والدنيا هدأت نأمتها واستقرت . إلا أن هذا الصفاء لم يطل إذ وقعت فى منزله مأساة عجيبة جددت له الأسى وبعثت الغم والحزن إلى فؤاده ذلك أن زوجه بنت رمضان جلبى كانت لما حجت معه سنة ١١٥٦ أعجبت بجارية بيضاء معروضة عليه فاشترتها من مالها وأحبتها كل الحب وأحضرتها إلى مصر وأعتقتها وزوجتها الشيخ دون مبالاة وعاشتا متحابتين إلى سنة ١١٨٢ إذ مرضت السيدة فرضت الجارية لمرضها وصارت تطلب أن تموت قبلها فماتت فعلا وسيدتها غائبة عن حسها فلما أفاقت نادتها فقيل لها إنها نائمة فقالت بل رأيت فى المنام أنها

ماتت فقالوا لها حياتك الباقية ثم غسلوها بين يديها وذهبوا بجنازتها فرجعت السيدة إلى فراشها وهى تبكى وماتت آخر النهار فخرجوا بجنازتها فى اليوم التالى .

وقد انزعج الشيخ وأهل بيته وصحبه لهذا الحدث الغريب وبقى الشيخ ملازماً بيته موسوس القلب مشلول الإرادة لا يخرج إلا لأمر ذى بال أو باستدعاء أحد الأمراء .

وكان فى هذه الحالة لما أرسل عبد الرحمن العريشى سنة ١١٨٣ إلى إسلامبول بمهمة ناطها به على بك الكبير . وكان العريشى يلقى الدر المختار فى الأزهر فالتمست الجماعة من من الشيخ حسن تكملة الكتاب فأكمله لهم فى منزله وكان ابنه عبد الرحمن يحضر على العريشى مع الشيخ الناشىء أحمد الطهطاوى فتصادق الفتيان وأصبح حسن الجبرتى يرى الطهطاوى كل يوم فى منزله متخلفاً يعيد الدرس مع ابنه عبد الرحمن ويفهمه ما صعب عليه فهمه فأحبه وصار كلما رأى ابنه وحده يسأله : أين رفيقك الصعيدى . . . ولعله إكراماً لابنه ولرفيقه الصعيدى أملى فى هذه السنة بمنزله متن نور الإيضاح بعد إتمام الدر المختار .

وكان الشيخ قد دفن من الأولاد أربعين ونيفاً ذكوراً وإناثا ولم يبق له إلا عبد الرحمن ودخلت سنة ١١٨٨ وقد بلغ

الشيخ السابعة والسبعين وفترت عزيمته ولانت شكيمته وفى ١٨ محرم أصيب بالهيضة الصفراوية ولم يلبث إلا اثنى عشر يوماً حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى غرة صفر من هذه السنة ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء بجوار الشمس البابلى والخطيب الشربينى رحمهم الله جميعاً فطويت بموته عبقرية لم تعرف المائة الثانية عشرة أحفل منها علماً ولا أوسع أفقاً .

٣

ترك الشيخ حسن الجبرتى لابنه عبد الرحمن أموالا طائلة وخزائن حافلة . وترك له من الصداقات المؤثلة فى صدور أقرانه من الأشياخ ومريديه من الطلبة وأصدقائه من الأمراء والكبراء ما هو أغلى من الثابت والمنقول . بل ترك له من العلم الذى عمر به صدره ما هو أبقى له على الدهر وأنفس على العمر . وقد صرف عبد الرحمن همه بادئ ذى بدء إلى لم شعثه ، وانتظام أمره . لكنه متشائم من بيت الصنادقية لضيق أسافله واتساع أعاليه . وكانت صورة القاضى المولى حفيد أفندى لا تزال ماثلة فى ذهنه وقد زار والده فى يوم قائظ وهو رجل طاعن فى السن فما صدر إلى أعلى الدرج حتى استلقى على ظهره من الإعياء . ثم إن هذا المنزل خرجت منه جنازات كثيرة فهو يهجره حيناً حتى يرى رأيه فيه .

وانتقل عبد الرحمن إلى بولاق ولم يمنعه هذا الانتقال من المثابرة على الحضور فى الأزهر والاختلاف إلى الحلقات ، ذلك إلى جانب ضبط العقارات والأملاك التى خلفها أبوه فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة . وقد خلف أبوه أيضاً أملاكاً أخرى فى

جهات أخرى لعلها تجب زيارتها للإشراف عليها بل يجب على عبد الرحمن أن يطوف بلاد مصر ليعرف مواقعها ويتعرف على علمائها وكبرائها ويزور مساجدها ومشاهدها ويرى مرافقها ومصانعها ويشهد الفلاح فى قريته ، والزارع فى مزرعته . فما انتهت السنة التى توفى فيها والده حتى قام برحلة إلى الوجه البحرى على التخصيص .

وكان النيل أهم سبل المواصلات فى تلك الأيام لاضطراب الأمن واستفحال أمر الأعراب من قطاع الطرق . فلا يأمن المسافر فى البر إذا لم يكن مخفوراً أن يعتدى عليه ويسلب متاعه . ولكن لا بد من سلوك طريق البر للتنقل بين القرى التى لا تقع على شاطئ النيل . ولا شك أن الجبرتى برح القاهرة فى الأيام الأولى من سنة ١١٨٩ لأننا نشهده حاضراً المولد الأحمدى بطنطا وهو يبتدئ فى اليوم الثامن من المحرم ولا شك أنه ركب النيل من بولاق إلى كفر الزيات والمسافة لا تعدو سبعين ميلا يقطعها المركب فى ثلاثة أو أربعة أيام إذا أسعفته الريح وقد أسعفت الريح المركب الذى سافر فيه لأن تلك السنة الهجرية بدأت فى أواخر شتاء سنة ١٧٧٥م . ومن كفر الزيات سلك الجبرتى طريق البر إلى طنطا حيث أعجب بالمسجد الجامع الذى بناه على بك الكبير حول مقام سيدى أحمد البدوى

رضى الله عنه وراقته فخامة البناء والقبة والمكاتب والميضأة الكبيرة والمنارتان العظيمتان والسبيل والقيسارية النافذة من الجهتين وما بها من حوانيت التجار وتعرف في طنطا بالشيخ أحمد السماليجى الشافعى . وأخص ما يذكر عن هذا الشيخ أنه تزوج امرأه بارعة الحسن من بلدة الفرعونية ولدت له ابناً أسماه أحمد « كأنما أفرغ فى قالب الجمال . وأودع بعينيه السحر الحلال » . وقد مال إليه الجبرتى إعجاباً به فقال : إنه « حضر إلى ، وسلم على ، وآنسني بحسن ألفاظه . وجذبني بسحر ألحاظه » ولا بد أن هذا الفتى كان يقدر ما وهب من جمال حتى طلب من الجبرتى تميمة تقيه العين إلا أن الجبرتى بعد أن غادر طنطا نسيه ولم يرسل إليه التميمة ثم حضر السماليجى بعد ذلك إلى القاهرة مراراً وكان يزور الجبرتى بمنزله .

ولا بد أن الجبرتى زار أبيار وهى بلدة قريبة من كفر الزيات ذكر المؤرخون أنه كان لأسرته فيها أرضون ومزارع ثم سلك طريق النيل إلى فوه حيث صلى فى مسجد ابن نصرالله وقرأ على جدار هذا المسجد بيتين من الشعر بخط الشيخ عبدالله الإدكاوى تاريخهما سنة ١١٤٥ لم يذكرهما ثم حمله النيل إلى رشيد حيث زار الشيخ أحمد على الخضرى وأطلع على مؤلفين لوالده هما شرح لقطة العجلان وحاشية على شرح الأربعين

النووية للشبشيرى وشهد بأن المؤلف أجاد فيهما كل الاجادة ثم سافر براً من رشيد إلى إدكو حيث تفقد أوقاف الجبرتية وهى مسجد عظيم على البحيرة محبوسة عليه عدة أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين نخيل كثيرة كان أبوه ناظراً عليها ثم انتقلت نظارتها إليه بعد وفاة أبيه . ولا بد أن يكون استكمل هذه الرحلة بزيارة أبو قير والإسكندرية حيث اجتمع بالشيخ المسيرى المالكى عالم الإسكندرية وشيخها الأكبر لذلك العهـــد .

ورأينا الجبرتى فى هذه السنة عينها يرحل إلى دمياط ولا نعرف شيئاً عن هذه الرحلة فلعله عاد فى النيل من رشيد ثم انتقل إلى فرع دمياط من جهة قريبة منه . ومر بالمنصورة حيث زار جامعها الكبير ودخل إلى الزاوية التى بناها فى مؤخر الجامع الشيخ الموافى الكبير ودفن فيها وهى التى اتخذها ابن أخيه الشيخ عبدالله الموافى مقاماً له يحيى فيها الليالى بالذكر والتلاوة وكان هذا الشيخ لا يقوم لأحد ولا يدخل دار أحد وهو يجلس فى الزاوية على فراش عال بجانب ضريح عمه وقد فرح بمقدم الجبرتى وقدم له « طبقاً فيه قراقيش وكعك وشريك وخبز يابس ولبن وبوسطه دقه وجبن » ثم سقاه « قهوة فى فنجان كبير » .

وعلى ذكر أسفار الجبرتى نقول إنه لم يذكر عن نفسه أنه حج إلى البيت الحرام إلا أن حجه ثابت بدليل أنه لما ترجم للشيخ حسن العجمى المالكى صاحب الفنون ذكر أنه « ولد سنة ١٠٤٩ كما وجدته بخط والده بمكة » وليس فى تاريخه ما يزيد على هذا للدلالة على حجه صريحاً ولعله سافر إلى الحجاز بصحبة الأمير رضوان كتخدا إبرهيم بك الكبير لأنه فى ترجمة هذا الأمير قال عنه : « لقد بلوته سفراً وحضراً يافعاً وكهلا فلم أر ما يشينه فى دينه » ولم يقل عن غيره قط أنه بلاه سفراً وحضراً وقد سمى الجبرتى رضوان هذا أميراً من باب التجوز إذ قال عنه فيما بعد إنهم عرضوا عليه الإمارة فأبى . فهو لم يكن أيضاً أميراً للحج حتى نعرف متى خرج إلى الحجاز وليس هذا عسيراً بل يسهل استقراؤه من أخبار شهر شوال من كل سنة لأن المحمل يسافر عادة بين ١٧ و ٢٠ من هذا الشهر .

ولا شك أن الجبرتى زار الصعيد وجول فيه لأنه لا يذكر بلداً إلا حدد موقعه تحديداً صحيحاً يدل على معرفة تامة بجغرافية البلاد .

وعاد الجبرتى إلى القاهرة وعاد سيرته الأولى من الاختلاف إلى الأزهر وحضور حلقات التدريس وقد جاز العشرين من عمره واستكمل هيأته شاباً وسيم الصورة ، جعد الشعر ، أسود

العينين ، أسمر الوجه ، سبط القامة ، عذب الابتسامة ، حلو الحديث والمفاكهة ، متأدباً في السؤال والمبادهة ، مستملحاً فى المجاذبة ، رحيماً فى المغالبة ، مقتصداً فى المجاوبة ، كثير الاستبصار والتفكير ، طويل التأمل والتفرس ، لا يخوض فى لغو ولا يعرض عن ملحة ، نافذ البصر والبصيرة ، طيب السيرة والسريرة . يحبه أصدقاؤه من الأشياخ وغيرهم لحسن صفاته ، وكرم خلاله ، ويحفظ الكبار منهم عهد والده . وكان أكثرهم زيارة له الجناجي والصبان والطائى والكردى ومحمد الأمير ورفيقه الصعيدى أحمد الطهطاوى وبخاصة شيخه المحبوب عبد ربه العزيزى المعروف بابن الست الذى ما فتىء يدعوه بابن خالتى وفى سنة ١١٩٠ أجازه بمسموعاته ومرزوياته وألقى عليه دائرة الشاذلى وأجازه بوضعها ورسمها ونقط مركزها كل ذلك فى مجلس واحد بمنزله ببولاق على شاطىء النيل .

وأجازه أيضاً أكثر الأشياخ فى شتى علوم الفقه واللغة وأكب هو على خزانة والده يستتم علوم الفلك والحساب والهندسة وغيرها وما عتم أن صار يعقد حلقات التدريس مثل أشياخه فأصبح دارساً ومدرساً وهو منتهى ما يصبو إليه شيخ فاضل فى ذلك العصر .

وكانت هذه الحلقات تنعقد فى الأزهر على الخصوص وفى

أشهر مساجد القاهرة وبعض بيوت المشايخ على العموم .

* * *

في ذلك العهد كان قد استقر بالقاهرة عالم ولا كالعلماء وشيخ ولا كالشيوخ هو السيد أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي نزح من اليمن وهبط مصر سنة ١١٦٧ وسكن بخان الصاغة ثم راح يحضر دروس شيوخ وقته كالشهابين الملوي والجوهري والشمس الحفني وغيرهم كالبليدي والصعيدي والمدابغي وحسن الجبرتي وأخذ عنهم جميعاً وأجازوه وسافر ثلاث مرات إلى الصعيد ووضع رسالة في رحلاته هذه ثم تزوج واتخذ سكناً آخر بعطفة الغسال وانصرف إلى التأليف والتدريس وكان التأليف في تلك الأيام لا يعدو حاشية على متن أو تعليقاً على حاشية تدور موضوعاتها على بعض المسائل الفقهية المتعارفه . فشذ السيد مرتضى عن أهل زمانه ووضع معجمه الشهير المعروف بتاج العروس وسلخ في وضعه سنين ولم يشأ أن يخرجه للناس كما تخرج التواليف العادية بل أدب يوم إخراجه مأدبة عظيمة في غيط المعدية بالقرب من الأزبكية دعا إليها المشايخ والطلاب وأبرز لهم تلك العروس محلاة بتاجها . وطلب منهم أن يذكروا محاسنها ومباهجها . فتهافتوا عليها جميعاً يقرظونها نظماً ونثراً . فكانت هذه الدعوة مذيعة

للكتاب حتى أن محمدا أبا الذهب لما فرغ من بناء مسجده المعروف باسمه أمام الأزهر وأضاف إليه خزانة كتب كبيرة أفهموه أنها لا تستكمل نفاستها إلا إذا ازدانت بهذا المعجم فاشتراه بمائة ألف درهم . .

هذا السيد كان قبلة الجبرتى ومطمح نظره ومثله الأعلى يلازمه أينما سار ويحضر عليه دروسه حيثما انتقل فمن خان الصاغة إلى سويقة اللالا إلى مسجد الحنفى بل هو يدعوه إلى بيته ويصحبه إلى بيوت الناس حيث يدعى الشيخ للقراءة .

أما طريقته فى التدريس .فغير طريقة المدرسين المصريين لأنه كان يسرد أسماء رواة سنده عن ظهر قلبه ويتبع ذلك بأبيات من الشعر فيعجب السامعون من هذا ولم يشأ أن يساير المصريين فى شكل عمامته ويقول الجبرتى إنه كان « يعتم مثل أهل مكة عمامة منحرفة بشاش أبيض ولها عذبة مرخية على قفاه ولها حبكة وشراريب حرير طولها قريب من فتر وطرفها الآخر داخل طى العمامة وبعض أطرافه ظاهر » .

ويغلب على الظن أن هذه المفارقات المجتمعة جعلت الناس يميزونه وينضوون إليه فسما قدره وتتلمذ عليه بعض الأمراء مثل أيوب بك الدفتردار ومصطفى بك الإسكندرانى وتهافت الطلبة عليه من كل حدب وصوب حتى كبار المشايخ أمثال

السجاعى والأكراشي والطائى ممن لهم حلقات مشهورة لا يستنكفون إذا فرغوا من الإلقاء أن يحضروا دروسه .

وكان لعبد الرحمن الجبرتى بين هؤلاء الطلبة كباراً وصغاراً أصدقاء أوفياء مثل حسين الدرب شمسى وسيدى إبراهيم جلبى ومحمد سليمان جمليان والشيخ أحمد يوسف الشنوانى ومصطفى صادق اللازجى والسيد على العلوى سبط آل عمر وإسماعيل وهبى المعروف بالخشاب والشيخ يوسف الدياربكرلى الواعظ وعلى عبدالله درويش الرومى وقد أخذوا جميعاً عن الشيخ فصيح ثعلب وفقه اللغة للثعالبى وأدب الكاتب لابن قتيبة وسمعوا كثيراً من شرحه على القاموس وكتبوا عليه الصحيح فى مجلدات وسمعوا فى الأمالى والشمائل وما كانوا كلهم شباناً بل منهم من علت به السن كالشيخ يوسف الدياربكرلى الذى توفى سنة ١١٩٣ وهو فى حدود المائة ومع ذلك كان يحضر على السيد مرتضى بجامع شيخون إلى سنة ١١٩٠ ولعل أنفذهم عبقرية كان السيد على العلوى فإنه من مواليد سنة ١١٧٣ فهو أصغر من الجبرتى سناً ومع حداثته فقد ألف كثيراً ونظم كثيراً وارتقى فى الصوفية مرتبة عالية ثم رأى كما يرى كبار الزهاد أنه لا نفع من كل هذا فأحرق كتبه كلها إلا كراساً نسيه عند الجبرتى الذى فقده وعثر عليه بعد وفاة صديقه سنة ١١٩٩ . والجبرتى

يسميه مع هذا « مرشدنا » .

وكان على عبدالله درويش وهو أيضاً طاعن فى السن أثيراً عند الجبرتى مرموقاً بالخير والصلاح يلازمه ملازمة الابن لأبيه ولا شك أنه كان يزوره فى بيته ويطلع على أحواله وشؤونه ويعرف أنه ضيق ذات اليد لكنه موفور الكرامة مصون المقام .

أما إسماعيل الخشاب فشاب عرفه الجبرتى يجلس بدكان أبيه سعد النجار بالقرب من باب زويلة وهو نحيف الجسم حاد الذهن كثير الحفظ يروى دواوين من الشعر وله نظم رائق وطالما زارا معاً بيت السادة الوفائية وحضرا الأذكار وسمرا مع كبيرهم لذلك العهد الشيخ شمس الدين أبى الأنوار الذى كان يخص إسماعيل هذا بالتفاته وعطفه وقد مدحه إسماعيل ببعض القصائد ونال بها حظوة لديه وإن لامه عليها الجبرتى لوماً عنيفاً .

ويطول نفس الكلام إذا رحنا نتحدث عن كل واحد من مريدى الشيخ مرتضى والحقيقة أنه كان يخصهم جميعاً بابتساماته الحلوة وألفاظه المعسولة فيزيدهم تعلقاً به وإخلاصاً له ويصحب الكثيرين منهم فى غدواته وروحاته ، إلى أصدقائه ونزهاته . كاصطحاب الجبرتى إياه فى الذهاب إلى الجمالية للسلام على الشريف الرحالة على عمر القناوى الحسينى لما استقر بالقاهرة

سنة ١١٩٤ وتعريفه به وعقد آصرة الود بينهما حتى صار الشريف يختلف إلى الجبرتى فى بولاق باستدعاء وبغير استدعاء .

* * *

تلك هى البيئة التى انخرط فيها عبد الرحمن الجبرتى بعد وفاة أبيه وقد عاد من رحلته التى ذكرناها وأقام ببولاق وهى لذلك العهد حافلة بمساكن الكثيرين من الأشراف والإعيان تفصلها عن القاهرة أرض فضاء طولها ميل واحد ومع قصر هذه المسافة كان الذهاب إليها والأوبة منها على بغلة أو حمار مشقة وجهداً لذلك ارتأى سنة ١١٩١ أن يهدم دار خطة الصنادقية التى بقى حانقاً عليها ويبنيها من جديد على غير الطراز الذى كانت عليه أيام والده . وتقع هذه الدار إلى يمين السالك فى الخطة من جهة الأزهر على بعد خطوات من مدرسة السنانية قبل خان الجلابة . فرسم لها الجبرتى بابا شارعاً على الخطة ينفذ إلى مدخل قصير تقوم إلى يمينه مصطبة من الحجر النحيت ثم ينفذ منه باب يفتح على رحبة مربعة واسعة غرس فيه وسطها حديقة صغيرة تبسم فيها بعض الأزهار وشاد إلى يمين الرحبة أقبية منها إصطبل للدواب وهرى للغلال ومطبخ كبير به فاصل تركم فيه الأحطاب والفحم وحفر بئراً بجانبه وبنى بصدر الرحبة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها لسكن الخدم

والعبيد وبعضها للضيوف والاستراحة وواحدة منها بالغة الإتساع للطلبةوانعقاد حلقة التدريس وبجانب باب هذه الحجرة سلم قليل الدرج يصعد إلى الطبقة العليا مفضياً إلى ممشى يدور بالطبقة كلها مشرفاً على الرحبة عقوداً تنتظمها أعمدة من الرخام الملون . ونسق حول الممشى غرفاً شتى وجعل العقد الداخل ليواناً يرتفع درجتين ، ويقوم على بائكتين بدلا من واحدة . وتأنق فى تنظيمه فزين سماءه وجدرانه بالخشب المحفور والمنجور وأنواع القيشانى الملون وأقام حوله خزانتين فيهما الآنية الفاخرة ورفع فيه أرائك ثمينة وكسا أرضه بالسجاجيد ناثراً عليها الطراريح الحريرية وسماه « مجلس العقد الداخل » وجعل له بابين ملبسين بالأصداف والنحاس البراق أحدهما يفضى إلى القاعة الكبرى التى يجلس فيها كبار الزائرين . وقد عقد روشناً فى سمائها تموج حوله ألوان زاهية صافية ونوع فيها السجاجيد والمقاعد والأرائك وحشد فيها التحف المنثورة فى الزوايا والمعلقة على الجدران وأضاءها بأنواع الثريات المغصنة بالبلور والشماعذ الوهاجة وافتن فى زخرفتها وفرشها وأما الباب الآخر فيفضى إلى خزانة الكتب وغرف النساء والعيال . وعلق فى عقود الدار وأفنيتها المصابيح المبلورة والقناديل الفضية المختلفة الأشكال والأنواع . وكسا جميع الزوايا والأركان والرحاب بصنوف الرياش الغالى والأثاث

الثمين. وأنفق عليها مالا جما حتى استتمها قرة العين وبهجة الخاطر ولما فرغ من بنائها سنة ١١٩٢ هنأه الشيخ مصطفى أحمد الصاوى بأبيات من الشعر جاء فيها قوله يصف مجلس العقد الداخل :

مكان على التقوى تأسس مجده ومن سور التوفيق والهدى سوره
ومجلس أنس كل مافيه مشرق ومقعد صدق قد تسامى حبوره
بناء يروق العين حسن جماله ورونقه يشفى الصدور صدوره
ومن مجد بانيه تزايد بهجة وقلد من در المعالى نحوره

وبيت التاريخ قوله :

ودام به سعد السعود مؤرخاً حمى العز بالمولى الجبرتى نوره
(١١٩٢)

وقد طرز الجبرتى هذا الشعر على قطعة من الحرير علقها بصدر المجلس وضمن بهذه الدار تعدد زيارات شيخه وأستاذه السيد مرتضى وإخوانه الأشياخ والطلبة وانتظام حلقته فى بيته إذا لم يتمكن من الالقاء فى الأزهر وسار سيرة أبيه فجعل مصيفه ببولاق ومشتاه بالصنادقية .

ولعله لم يفكر فى الزواج ثانية عند فراغه من بناء الدار ونحن كما قلنا لا نعرف شيئاً عن زوجه الأولى لكننا نعرف أنه بعد بناء الدار بثلاث سنين تزوج ربيبة صديقه وخليطه على عبد الله درويش الرومى وقد تحدث عن هذا حيث قال : « فتزوجت

بربيته فى أواخر سنه ١١٩٥ برغبة منه وهى أم الولد خليل فتح الله عليه . ولما حصلت النسابة والمصاهرة حولته بعياله إلى منزلى لتعب الوقت وتعطيل أسباب المعاش » . ولم يذكر الجبرتى غير هذا عن أزواجه وأولاده وقد كتب ما كتبه سنة ١٢٢٠ بعد أن مات على عبدالله سنة ١١٩٩ وقد أثنى ثناء عاطراً على ورعه وتقواه ويظهر من ترجمته أنه كان رجلا مثقف العقل غزير الاطلاع يجيد الخط العربى إجادة فائقة . وقد أفاد الجبرتى كثيراً من معلوماته عن رجالات العصر الذين ترجم لهم وتوفى على درويش عن تسعين سنة ونيفاً . « لم تهن قواه ولم يسقط له سن ويكسر اللوزة بأسنانه » .

٤

استهل القرن الثالث عشر الهجري والسيد أبو الفيض محمد مرتضى قد بلغ الذروة من الشهرة والصيت ولم يكن ذلك لخلو مصر من العلماء بل لأن كبارهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى فى الربع الأخير من المائة المنصرمة بل مات لفيف من أعاظمهم فى العقد الأخير منها كأنما كانوا على موعد معها . فتوفى الشيخ أحمد السجاعى والشيخ على الشنويهى سنة ١١٩٠ وتوفى شيخ مشايخ الأزهر أحمد الدمنهورى سنة ١١٩٢ وفى هذه السنة عينها توفى الشيخ مصطفى الطائى والقطب أبو المراحم عبد الرحمن العيدروس الصوفى العظيم وفى سنة ١١٩٣ مات الشيخ عبد الرحمن العريشى والسيد قاسم التونسى الشاعر الطبيب وهما من أخصاء الجبرتى وسنة ١١٩٥ مات شيخه الصوفى صاحب الكرامات الخارقة محمود الكردى وسنة ١١٩٩ فجع الجبرتى بوالد زوجته على درويش و « بابن خالته » الشيخ محمد عبد ربه العزيزى المعروف بابن الست كما فجع بصديقيه الفرماوى والقلعى وسنة ١٢٠١ توفى أبو البركات الشيخ أحمد الدردير المشهور كما توفى كثيرون غيرهم وكانوا جميعاً زينة مصر فى ذلك

العصر. ولم يظهر بعد فى رأس المائة الجديدة من يخلفهم فى علمهم وورعهم وشجاعتهم لأن الموجودين الآن كالسادات والشرقاوى والأمير والمهدى والفيومى لا يزالون فى سن الشباب لم تنضج مواهبهم وملكاتهم بعد ولم تصهرهم الحوادث والأيام. لذلك خلا الجو للسيد مرتضى وتجاوز صيته حدود مصر إلى البلاد الإسلامية جمعاء فراسله سلاطينها وملوكها وأمراؤها وصار بيته محط الرحال وقبلة الزوار يؤمه أمراء مصر وأعيانها وكبار الحجاج العابرين بالقاهرة فى طريقهم إلى الحجاز.

ولقد بلغ الاستكبار والغرور بالسيد مرتضى حداً جعله يكتب إلى أحمد باشا الجزار أمير عكا «أنه المهدى المنتظر وسيكون له شأن عظيم» فلا عجب بعد هذا إذا كان لا ينهى بعض زواره من المغاربة عن تقبيل الأرض بين يديه والسجود له ولا عجب أيضاً إذا صار الكثيرون يعتقدون فيه القطبانية العظمى.

ــ وفى يوم من أيام جمادى الثانية سنة ١٢٠٣ بعد أن ألقى السيد مرتضى درسه المعتاد فى منزله بعطفة الغسال انتحى بالشيخ عبد الرحمن الجبرتى جانباً وقال له: «يا حبيبنا أنت تعلم أن همنا لا يعدو خدمة العلم والعلماء ولما كان المرء قليلا بنفسه كثيراً بإخوانه، رأيت أنه ليس أوكد صلة بى منك لتكون لى عوناً على تحقيق أمر ذى بال».

قال عبد الرحمن : المولى يأمر والعبد يأتمر .

قال السيد : عفواً فإنى منهمك فى الترجمة لأعلام المائة المنصرمة من مصريين وحجازيين ولا أعرف خيراً من ابنى وحبيبى عبد الرحمن الجبرتى مسعفاً لى على هذا العمل لنشأته فى بيت علم وصلاح وأدب واتصاله برجالات مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان ولذلك رأيت أن أعتمده لهذا الأمر ويقينى أنى أعطى القوس باريها .

فدهش عبد الرحمن من هذا الطلب الغريب وعجب كيف يلجأ إليه الشيخ مرتضى فى هذا وهو من هو علماً واطلاعاً وقدرة على الكتابة والتأليف . وشعر بكثير من الزهو يمازجه كثير من التهيب لأنه سوف يقترن اسمه باسم أستاذه وسوف يشاطره الفخر والفضل مع أنه لم يسبق له الاشتغال بالكتابة ولم يبحث فى غير الكتب العلمية المتداولة . وعجب لذكاء الشيخ وبعد نظره فى التفكير بالترجمة لأعلام المائة التى انقضت وغاظه أنه لم يفكر هو ولا أحد من أقرانه فى مثل هذا .

وكأنما قرأ الشيخ مرتضى فى وجه عبد الرحمن كل هذه المشاعر وغلبت عليه أستاذيته فأراد أن يملى درساً على تلميذه فقال له : لا تتعجل الأمر ، ولا تتباطأ فيه ، فى التأنى السلامة ، وفى العجلة الندامة ، وأوصيك بالالتفات إلى الأعلام المشهورين

« واذكر من أحبك فى الله وأحببته ، واستفدت منه شيئاً أو أنشدك شيئاً أو كاتبك أو كاتبته أو بلوت منه معروفاً وكرماً »

وفطن الشيخ مرتضى إلى هذا التضييق فى التوصية فقال للجبرتى : وعليك بالتخير والتحرز ، واعلم أنه ليس كل من نبه ذكره ، عظم فضله . وقد ينبت الفضل فى الصدور الوضيعة ، وتغمر الدنيا أصحابه فيجب التنقيب عنه والتنقير عليه . وذوو الفضل أقران فيه : لكنهم يتفاوتون فى درجاته ومراميه . فإياك والإسراف . وعليك القصد . والله المستعان .

وانصرف عبد الرحمن ثم أمسى وأصبح وهذا الأمر شغله الشاغل يدير وجوهه ويقلب جوانبه . وتزاحمت فى رأسه أسماء الذين ماتوا ممن سمع عنهم وممن عرفهم وتذكر أحاديث والده عن أسلافه وأشياخه وعن الأمراء والكبراء فاختلطت الوجوه فى مخيلته ، واصطفقت الصور فى رأسه ، ونهضت أمام عينيه المبانى الفخمة التى تحمل أسماء بناتها والمساجد العظيمة المنسوبة إلى العظماء الذين شادوها ابتغاء مرضاة الله ، والحوادث الجسام التى تروى عن ولاة الحكم من العادلين والظالمين . فأعوزته التواريخ لمعرفة السنين وتنسيق الأحداث وتنظيم الأسماء حتى يعرف من أين يبتدئ وإلى أين ينتهى ومن يقدم ومن يؤخر .

وعثر فى خزانته على كتاب فى التاريخ لمؤلف مجهول اسمه

أحمد جلبي عبد الغنى ثم كتاب الخلاصة للأمينى ثم رسالة شرح الصدر فى غزوة بدر التى ألفها الشيخ عبدالله الشبراوى بإشارة من الوالى على باشا الحكيم وفى آخرها نبذة فى تاريخ ولاة مصر إلى أيام هذا الباشا . ولكن هذه الكتب لم تشف غليله فهو يريد أن يعرف تاريخ ميلاد كل واحد من الذين يجب أن يترجم لهم وتاريخ وفاته كما يجب أن يعرف خصائصه وأخلاقه ومقومات شخصيته ويطلع على كتاباته ويحيط بجلائل أعماله فالحاكم وحكمه . والعالم وعلمه والأديب وأدبه . وهذا المطلب شاق عسير بل هو خضم شاسع الأفق ، بعيد الغور . فطفق يدون الأسماء وكان طبيعياً أن يبدأ بالمشايخ وبمن كان منهم شيخاً للأزهر ثم أشياخ الأروقة وأرباب الحلقات والذين كان أبوه يسميهم الطبقة العليا ثم الطبقة التي تليها والتى تليها ممن مات أو لم يمت واشتهر بالعلوم الفقهية والعقلية والنقلية والشعر والأدب والخطابة . وكانت الترجمة لهؤلاء سهلة لامشقة فيها لأن أكثرهم عرف أباه وسمع عنه أو زاره فى بيته . ولكن من له بالأمراء والعظماء وكبار الأعيان والولاة وهم من أعلام المائة بلا منازع . وشرع يدون أسماء أمراء الوجاقات والصناجق ومن بلغ منهم مشيخة البلد ومن شاركه فى الحكم من فقارية وقاسمية وآل سعد وآل حرام والجلفية والقازدغلية وجماعة الفلاح

والعلوية والمحمدية . فطال الشرح ، واتسع الخرق ، وراح يتخبط في متاهة لا يعرف لنفسه منها مخرجاً .

* * *

لم يوفق الجبرتي إلى صديق يستعين به على هذا العمل لأنه فجع منذ سنوات بصفوة أشياخه وإخوانه فقد مات صديقه العبقري السيد على العلوى سبط آل عمر سنة ١١٩٩ ومات الشيخ موسى الجناجي سنة ١٢٠٠ ولا يمكنه أن يتكل إلا على من يخلص له الود فذكر رفيقه الصعيدى ولكن الشيخ أحمد منقطع للتدريس بالمدرسة الشيخونية والصرغتمشية وهو يسكن بعيداً منه بجهة الصليبة أما حسين الدرب شمسى فلا يصلح لها وحار الجبرتي في أمره ورأى أنه لم يبق له إلا أن يولى وجهه شطر إسماعيل الخشاب وإن كان إسماعيل مبتلى ببلية كبيرة فهو منذ بضع سنوات كان له صديق بباب الفتوح يدعى أحمد العطار توفى عن زوج نصف وطفل صغير فتزوج إسماعيل الأرملة وتبنى الطفل ورباه وبر به ومنذ سنة أو تزيد كان الطفل قد يفع وبلغ فاحتفل إسماعيل له وأدب لأصدقائه وأهل زوجته ولم تمض أشهر ثلاثة حتى مات الغلام فجزع عليه جزعاً شديداً واختارت أمه دفنه بجامع الكردى بالحسينية واتخذت مسكناً ملاصقاً لقبره فهى اليوم تقيم به وتطبخ الأطعمة للمقرئين

والزائرين من أهلها ومن غير أهلها وإسماعيل يجلب لها النفقة بالحل والحرام وقد التحق شاهداً بالمحكمة وهو فى عسر شديد .

قال له إسماعيل : إن ما ندبك له السيد مرتضى عمل جليل وليت شعرى لا أعرف وجهاً يمكننى أن أفيدك منه .

قال الجبرتى : أنت من عدول المحكمة وفى المحكمة صكوك وحجج تدون فيها أسماء الناس ومناسبهم وأعمارهم فهل لك أن تنسخ لى شيئاً منها وإليك جدول ببعض الأسماء .

فأعجبت الفكرة إسماعيل وقال له : وهب أن العين الذى الذى تريد أن تترجم له لم يدخل المحكمة يوماً ولا ثبت له رزق ولا وقف ولا عقار فمن أين تحصل على معلوماتك .

قال الجبرتى : وأنت أيضاً تختلف إلى الديوان حيث دفاتر الكتبة والمباشرين ويمكنك أن تحصل لى منها على هذه المعلومات .

— حسن جداً ولكنك لم تعد الدفاتر .

— إنها تستبهم عليّ المائة الماضية إلى السنة السبعين وأما ما بعدها فأمور شاهدتها وأناس عرفتهم على أنى سوف أطوف بالقرافات وأقرأ المنقوش على القبور وأحاول جهدى أن أتصل بأقرباء الذين ماتوا فأطلع على إجازات الأشياخ عند ورثتهم وأراجع أوراقهم إن كانت لهم أوراق وأسأل المعمرين ماذا

يعرفون عمن عايشوهم ولا أرى بعد ذلك مرجعاً أعتمده غير ما طلبت منك .

* * *

وقد تعجل الجبرتى الترجمة لأشهر أعلام المائة الماضية وبذل جهداً عنيفاً فى تحرى الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة وتقصى آثار المترجم لهم لدى أهلهم وأصدقائهم وقد فعل هذا لئلا يستبطئه السيد مرتضى ويظن به الضعف والعجز . وقد جمع هذه التراجم فى كراريس عديدة كما جمع إلى جانبها كثيراً من الحوادث والوقائع فى أوراق متناثرة يسميها « طيارات » تستقل كل ورقة منها بحادث معين ينوى تحقيق صحتها فيما بعد ثم إنه حمل كراريس التراجم وذهب بها إلى السيد وفى هذا يقول الجبرتى : وكان عنده « بعض الشآميين فأطلعته عليها فسر بذلك كثيراً وطارحنى وطارحته فى نحو ذلك بمسمع من المجالس » ولعل هذه المطارحة كانت تصويباً وتبصيراً والسيد مرتضى رجل وافر الكياسة بالغ اللين والنعومة لا يسوئ على الجبرتى عمله . ولكنه لا يحسنه له كل التحسين . وقد أخذ السيد ما أخذ مما جمعه الجبرتى واستعان به على كتابة ما أراد كتابته وعاد عبدالرحمن نشيطاً فرحاًمستشعراً إصابته للهدف فخوراً برضى الشيخ عنه عازماً على التوسع فى الكتابة والتزيدمن المعلومات .

وانقضت سنة ١٢٠٤ ومرت أشهر من سنة ١٢٠٥ والجبرتى جاد فى عمله مكب على الكتابة يسود ويبيض ويحرر ويحرر . ويطلع السيد مرتضى على كتاباته . ويقدم له ما عنده من معلومات وشواهد . ولكن ما بالهم ينعون إليه فى كل يوم أميراً خطيراً . وصديقاً كبيراً أو صغيراً . وقد أجفل الجبرتى مع المجفلين حين تأكدوا أن الطاعون الأسود قد انتشر فى البلاد وأخذ يجرف الناس إلى القبور فداخلهم منه وهم عظيم ووقع الرعب فى القلوب فانفضت مجالس العلم وأقفرت حلقات التدريس . وتشتت شمل الإخوان ودارت الدوائر . واشتد الجزع . وأصبح كل امرئ مشغولا بنفسه عن سواه .

وقد وصف الجبرتى هذا الوباء وأفاعيله فى حوادث رجب سنة ١٢٠٥ فقال : « وزاد أمر الطاعون وقوى عمله بطول شهر رجب وشعبان وخرج عن حد الكثرة ومات به ما لا يحصى من الأطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد والكشاف والأمراء . . . حتى كانوا يحفرون حفراً لمن بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها وكان يخرج من بيت الأمير فى المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة وازدحموا على الحوانيت فى طلب العدد والمغسلين والحمالين . ويقف فى انتظار المغسل أو المغسلة الخمسة والعشرة ويتضاربون على ذلك ولم يبق

للناس شغل إلا الموت وأسبابه فلا تجد إلا مريضــاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولاً فى تجهيز ميت أو باكياً على نفسه موهوماً ولا تبطل صلاة الجنائز من المساجد والمصليات ولا يصلى إلا على أربعة أو خمسة أو ثلاثة وندر جداً من يشتكى ولا يموت وندر أيضاً ظهور الطعن ولم يكن بحمى بل يكون الإنسان جالساً فيرتعش من البرد فيدثر فلا يفيق إلا مخلطاً أو يموت من نهاره أو ثانى يوم وربما زاد أو نقص أو كان بخلاف ذلك . . واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى جمعة واحدة » .
ولا ريب فى أن الجبرتى قبع فى داره ببولاق مدة اشتداد الوباء لأنه لا يعقل أن يموت أستاذه وشيخه السيد محمد مرتضى مطعوناً فى شعبان ١٢٠٥ فلا يمشى وراء جنازته ولا يصلى عليه بل لعله لم يبلغه نعيه إلا بعد حين وقد فجع الجبرتى فيمن عدا السيد مرتضى بالكثيرين من إخوانه الأصفياء . ودام وقوع هذا الطاعون من جمادى الأولى إلى أوائل رمضان ثم ارتفع .

وفى أواخر هذه السنة كان اندهاش الجبرتى عظيماً حين وصل إليه على يد السيد محمد التاجر القباقيبى كتاب وهدية من السيد أبى المودة محمد خليل المرادى الحسينى مفتى دمشق يسأله إرسال ما جمعه السيد مرتضى وما جمعه هو من تراجم

الأعيان ويقول في كتابه : « وهذا ما حررنا بخصوصه لأحد من العلماء ولا من التجار واعتمدنا على الجناب بذلك اعتماداً على المحبة الموروثة ولعلمنا أن جنابكم أولى بذلك من كل أحد ولا سيما ما بلغنا أن السيد ترجمكم » . ويجب أن نفهم من إلماع السيد خليل المرادى إلى المحبة الموروثة أنه كان صديقاً للشيخ حسن الجبرتي ولعل الذى ترجم له الشيخ مرتضى هو الشيخ حسن نفسه لا ابنه عبد الرحمن وعلى أى حال فان عبد الرحمن الجبرتي فطن الآن إلى السبب الذى حدا بأستاذه الشيخ مرتضى إلى الترجمة لأعلام المائة الماضية فلم يكن ذلك وليد قريحته ابتداء بل نزولا على رغبة قاضى دمشق وإنما ندبه للتعاون معه لأنه يمنى لم تتأصل مصريته بعد ولم يستبطن دخائل الحياة المصرية وعاداتها ونزعاتها . والجبرتي وإن كان حبشي الأصل إلا أنه الحفيد السادس لعبد الرحمن جده الأعلى الذى نزح إلى مصر منذ مائتى سنة ونيف واستوطنها سلالته منذ ذلك فالجبرتي مصرى أصيل مطلع على تسلسل الأسر عليم بما بينها من أواصر ودوافع . ومصالح ومنافع . وضغائن ومنازع . والآن من أين له أوراق أستاذه وكراريسه . وهو قد انتقل إلى الرفيق الأعلى واحتلت الشحناء منزله . ونشبت المنازعات بين ورثته على تركته . وقد علم عبد الرحمن من حسن الحريرى أحد أخصاء

أستاذه المرحوم أنه توفى يوم الأحد وأن زوجته وأهلها أخفوا موته حتى نقلوا إلى دورهم كل ما ترك من نفائس وذخائر ثم أشاعوا موته يوم الإثنين وأقيمت الزوجة وصية على التركة من لدن القاضى . لذلك شعر الجبرتى بالأسف المرير على الجهد الذى بذله فى البحث والتحرير . ولم يطل أسفه لأن حسن الحريرى هذا جاءه بعد أيام يبلغه أن أرملة السيد عازمة على تزوج أحد الأجناد . وقد فتحوا التركة وأظهروا ما أظهروه منها وأعلنوا بأمر القاضى أنهم سوف يبيعونها بالمزاد .

وأكبر الظن أن الجبرتى لم يحضر المزايدة مع أنه اشترى « الكتب والدشتات » التى كانت للسيد وبلغ الثمن الذى بيعت به التركة مائة ألف درهم .

وظفر الجبرتى فى هذه الأشتات بأوراق الشيخ كلها وفيها رسائله وشعره وكل ما كتبه مما لم يخرجه للناس أما التراجم فكانت مدونة فى عشرة كراريس مرتبة على حروف الهجاء سماها « المعجم المختص » ذكر فيها شيوخه ومن أخذ عنه أو ساجله أو جالسه من رفيق وصاحب . ولكنها كانت ناقصة وفيها بياض كثير . وغالب من ترجم لهم آفاقيون من أهل المغرب والشام والحجاز حتى السودان . ومنهم من لم يشتهروا ولا لهم

بضاعة بين الأحياء والأموات وقد أغفل الكثيرين من كبار العلماء والأعاظم .

وعثر الجبرتى فى تلك الأشتات على الكتاب الذى أرسله مفتى دمشق إلى السيد مرتضى وتاريخه ربيع الثانى سنة ١٢٠٠ يذكر له فيه أنه كان فى بلاد الروم (يريد إسلامبول) قبل العام المذكور وهناك يقول المرادى : « جرى ذكر التاريخ وفقدانه فى ذلك الوقت وكان بالمجلس أحد الأفاضل فقال إن الأستاذ آبا الفيض مرتضى باشر تأليف تاريخ عظيم باشارة هذا وأشار إلى فقلت نعم قد كنت حرضت الأستاذ بجمع ذلك ولا أدرى كيف فعل قال بل اجتهد وأحسن . . . » ثم ذكر السيد خليل أنه وضع من التراجم « ما بلغ نحو ثلاثة مجلدات ضخام ونحوها زيادة باقية فى المسودات هذا عدا تراجم أبناء العصر وشعرائه الذين فى الأحياء . . . فتراجمهم مجموعة بمجلد آخر » .

ولا شك فى أن الجبرتى بعث إلى المفتى ردآ على كتابه وقد أيقظت حميته هذه المراسلة وقوت نفسه أوراق شيخه المرحوم فشحذ غرب عزيمته . وشرع فى جمع ما عنده وعاد إلى التدوين والتحرير والتنسيق والتنضيد وهو يرجو أن يخدم التاريخ أولا ومفتى دمشق ثانياً . وذكرى شيخه مرتضى ثالثاً . وقد

أسعفته الأقدار فى الأولى وحدها فقط لأنه لم يمض طويل زمن حتى نعى إليه الشيخ خليل المرادى الذى توفى فى حلب فى آخر سنة ١٢٠٦ ويقول الجبرتى : « لا أدرى ما فعل الدهر بتاريخه المذكور (١) » وقد فت نعى المرادى فى عضد الجبرتى ففترت همته وطرح تلك الأوراق فى زوايا الإهمال حتى كادت تتناثر وتضيع .

---

(١) نشر هذا التاريخ فى ثلاثة أجزاء باسم « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر تأليف العلامة أبى الفضل محمد أفندى خليل المرادى مفتى دمشق الشام المتوفى سنة ١٢٠٦ » وقد وهم المستشرق بروكلمان حين كتب عن الجبرتى فزعم لنا أنه نقل كتاب سلك الدرر من التركية إلى العربية وقد سايرت بروكلمان في هذا الوهم دائرة المعارف الإسلامية مع أن الكتاب لا يحتوى إلا على تراجم شيوخ وعلماء وأدباء وشعراء من أبناء اللغة العربية وكان الحامل على هذا الخطأ ما جاء فى آخر الجزء الثانى أنه « تم بحمدالله الجزء الثاني من سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر فى ٦ شعبان سنة ١٢٩١ لمحمد خليل المرادي، الذى ترجمه الجبرتى ويليه الجزء الثالث وأوله السيد عبد الرحيم وبالله التوفيق » . ففهم بروكلمان من عبارة « ترجمه الجبرتي » أنه نقله إلى العربيه وإنما أراد كاتبها ترجم له الجبرتى أى كتب تاريخ حياته فقط. وهذا الخطأ اللغوى قاد إلى ذلك الخطأ التاريخى فتأمل .

٥

إن الفكرة الصحيحة التى تصيب ذهناً صحيحاً كالحبة الطيبة التى تصيب أرضاً طيبة كلتاهما تنمو وتترعرع ولا بد أن تأتى أكلها ولو بعد حين .

أجل إن فكرة التاريخ والتراجم غرست فى عقل الجبرتى فمهد لها المغرس وشق لها طريق النمو بما جمع من هنا وهناك وهنالك من المعلومات والمراجع . وقد نهج لها المنهج الصحيح الذى تسلكه حتى تفضى إلى غايتها لا يعوقها عائق ، ولا يعتورها خطل . فإذا لم يندفع فى تحقيقها عقيب موت أستاذه السيد مرتضى والسيد خليل المرادى صاحب الفكرة فلعله استشف فيها أنها غاية يقصر دونها العمر ومطلب لا تفيد فيه العجلة والاندفاع لذلك ركدت الفكرة فى ذهنه سنوات تعد طور الحضانة لها وفترة الانفعال أو التفاعل .

وتوسط الجبرتى العقد الرابع من عمره وهو مشغول بالدراسة والتدريس ولعل ابنه خليلا كان قد ولد له فهو يتعهده كما كان أبوه يتعهده هو . وقد يكون ولد له سواه ولكنه لم يذكر لنا شيئاً عن هذا .

وكان وقته موزعاً بين البيت والأزهر فالدروس فى البيت قليلة نادرة ولكنها فى الأزهر منتظمة مستمرة وقد هدم ذكريات طفولته بهدمه بيت الصنادقية وتشييده من جديد ولكن هذه الذكريات فى الأزهر ماثلة حاضرة كيف لا وهو لا يزال يرى نفسه مجاوراً فى رواق الشوام إذا فرغ من حضور الحلقة هرع إما إلى الرحبة أو إلى القاعة الكبرى حيث ألوف الطلبة يفترش بعضهم الحصر المبسوطة أو الأرض الممهودة ويمشى البعض الآخر جيئة وذهوباً وفى أيديهم الكراريس الصفر يتذاكرون ما فيها وكان يلاحظ نودان رؤوس القاعدين المستندين إلى أعمدة القاعة الكبرى كأنما هذا النودان يحصر الذاكرة ويهيؤها لانطباع المدروس فيها وبين هؤلاء المجاورين من قطع البحار والقفار ينشد العلم فى هذا المعهد العظيم الذى ينتظم العالم الإسلامى من بحر العرب إلى بحر الظلمات ومن مجاهل الصين والهند إلى حدود بلاد الصقالبة حتى مجاهل أفريقيا وطالما امتلأت نفس الجبرتى حبوراً وكبرياء حين يتصور أنه وأسلافه خدموا الأزهر وأخلصوا له فكافأهم بأن رفعهم ومكنهم فى الأرض ثم هو يدخر لهم ثواب الآخرة وهو خير وأبقى .

وقد أحب أشياخه كلهم وكان فى صغره يتهيب كبارهم ويتحامى المثول أمامهم تعظيماً وتبجيلا أما اليوم فهو يعجب

لنفسه من ذلك الحياء ولعله سنة ١١٩٠ وقد جال فى صدره مثل هذا الخاطر أراد أن يرى شيخ الأزهر وهو يومئذ الشيخ أحمد الدمنهورى فذهب إلى زيارته ببولاق والشيخ مريض لا يبرح داره وفى هذا يقول الجبرتى : « فلما عرفنى تذكر الوالد وبكى وعصر عينيه وصار يضرب بيده على الأخرى ويقول ذهب إخواننا ورفقاؤنا ثم جعل يخاطبنى ويقول يا ابن أخى ادع لى . . . وكان آخر من أدركنا من المتقدمين » .

أجل مات المتقدمون وصار هو وأقرانه المتصدرين للتدريس والإفتاء يتهافت عليهم الطلبة ويقبلون أيديهم ويتبركون بهم وهو قد سلك مسلك أبيه من ركوب بغلة فارهة يذهب بها إلى بولاق .وإذا مر ماشياً فى الأسواق والعطفات قام له الباعة احتراماً وتبجيلا وربما وقف على الدكاكين يسأل عن السلع وأثمانها ووفرتها وقلتها ويحاول أن يستنبط أسباب ذلك كما يوحى إليه فضوله العقلى .

وأصبح صديقه إسماعيل الخشاب لا يزوره إلا مصطحباً شاباً وسيم الطلعة مديد القامة واسع الصدر بعيد ما بين المنكبين براق العينين خفيف العارضين تدل قسمات وجهه على أنه مغربى الأصل لكنه يلبس لباس المصريين ويتكلم بلهجتهم لبعد عهد ذويه بالمغرب ولم يكن هذا الفتى الناشىء سوى الشيخ

حسن العطار الذى اشتهر فيما بعد وأصبح شيخاً للأزهر وهو ابن الشيخ محمد كتن العطار . ويذكر الجبرتى أنه كان يرى الشيخ حسن حاضراً فى حلقة الشيخ محمد الصبان حين ألقى حاشيته على الأشمونى فى علم النحو كما رآه حاضراً بعض دروس الشيخ مرتضى فى فقه اللغة ، والشيخ محمد الأمير فى بعض مؤلفاته الفقهية واللغوية . إلا أن هذا الفتى كان يرهقه أبوه فى شؤون عطارته فلا يتسع وقته للمثابرة على الدراسة ، ولما كان دكان والده قريباً من باب زويلة حيث دكان سعد الخشاب سهل عليه التعرف باسماعيل ولم يكن أصلهما المتواضع وحده سبباً فى توثيق أواخى المحبة بينهما بل هو ائتلاف الأمزجة ، واتفاق الطبائع . وكل منهما أديب شاعر يشدو الجمال ويستبين الفكرة الفنية فى شعور مبهم . ولا شك فى أنهما كانا برمين بالدروس الفقهية وما فيها من خلاف ومجادلة ومعاياة ومناضلة . مع أنهما أخذا أصولها واستكفيا بها وأما الفروع وما يتشعب منها والدقائق وما ينجم عنها فقـد زهدا فيها ورغبا عنها إلى الأدب والشعر وما فيهما من رقة وعذوبة ، وعاطفة صادقة ومكذوبة . فهنالك الطلاقة التى ينشدانها ويصبوان إليها .

ومما يذكر لهما بالحمد أنهما فهما نفسية عبد الرحمن الجبرتى وميزاه عن سائر الأشياخ وفطنا إلى اتساع ذهنه ورحابة صدره،

وأخذه من علوم عصره بأوفى نصيب . بل هو يتجاوز عصره بتفكيره الفذ وثاقب نظره إلى الناس والحوادث .

قال عبد الرحمن : إن الشعر حلى وزخرف والأدب أداة للتعبير فى لفظ سهل جميل وإنما هما من متاع الدنيا فإذا جعلا أصلا كان ذلك جناية على الآخرة .

قال العطار : هذه نظرة ضيقة فإنما الشعر والأدب طبيعة فى النفس ولا تجنى الطبيعة على المرء إلا إذا وجهها إلى الشر ، وما دام يملكها ويدفعها فى السبيل السوى فعاقبتها خير وأبقى .

قال الخشاب : نحن فى عصر غطت فيه العلوم الفقهية على كل علم آخر ، ونحن نريد إحياء الأدب وتاريخه ، والشعر ومادته . ولا سبيل إلى هذا . ثم هل تظن أنه لولا الشعر والأدب كان يمكننى أن أجالس مصطفى بك المحمدى أمير الحاج وحسن أفندى العربية والشيخ السادات وغيرهم ؟

قال الجبرتى : لعل هذا هكذا ولكن الاشتغال بالعلوم الفقهية أبقى ثواباً .

قال الشيخ حسن : ولماذا ؟ ما دام الدين مصوناً متبوعاً .

قال الخشاب : عفواً فإنى تبحرت فى الصوفية وأولعت بها وأكاد أضاهيك فيها يا عبد الرحمن وأؤكد لك أن الإيغال فى أسرارها تفتق الشاعرية فيكون الشعر جزءاً منها ويكون الاشتغال

بها على هذا القياس أبقى ثواباً أيضاً .

فضحك الجبرتى وقال : لو كان ما تقوله صحيحاً لكنت شاعراً مثلك الآن .

قال الشيخ حسن : ولكنك شاعر فى نفسك لا تنظم الشعر بل تحسه .

* * *

ولعل كثرة الدرس والتدريس أثرت فى صحة الجبرتى فقد شكا كثيراً « ضعف البدن . وضيق العطن » أما صديقه الخشاب فكان نحيف البنية ضعيف الحركة كما وصفه . ولعل هذه الموافقة جعلته يكثر من المطالعة فى تذكرة داود ظناً منه أنه بها يستفيد علم الطب ويستخلص طرائق تحضير الأدوية التى ينتفع وينفع صديقه بها، وإلا فلا معنى لاشتغاله باختصار تذكرة داود فى كتاب لا يزال محفوظاً إلى الآن (١).

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية نس ا ج .ا. ن . خ ١٣٦ ن . ع ٤٤٠٤ وعدد أوراقه ٢٤٦ وهو « مختصر تذكرة الشيخ داود الأنطاكى تأليف العلامة الهمام الشيخ عبدالرحمن الجبرتى الحنفى مذهباً غفر الله لنا وله». وقد تمت « هذه النسخة المباركة يوم الخميس لأحد عشر يوماً خلت من شهر جماد آخر من شهور سنة ١٢٣٦ (أى فى حياة الجبرتى) بخط هلال ابن محمد بن هلال ... » وليس للكتاب مقدمة ولا خاتمة ولا ما يدل على نسبته إليه سوى ما ذكرناه .

وكان الجبرتى يحس بتعب شديد من معاناة الجدل الفقهى والغوص على حل المسائل الحسابية والهندسية فهو فقيه ولكنه (حيسوب) على حد تعبيره فى وصف من يتقن العلوم الرياضية . وهو الذى حرر المحراب على انحراف القبلة لجامع أبى هريرة بالجيزة الذى عمره الأمير عبد الرحمن بك عثمان . وكان يلقى فى الأزهر وفى منزله علم الفلك والهندسة والحساب والفقه واتبع طريقة تدوين دروسه فى كراريس حتى حتى لا يحتاج إلى الاستعداد لها كلما ألقاها . وقد راجع كتاب والده فى الموازين والقبابين وعلق عليه وشرح غوامضه . وكانت هذه المسائل العلمية الجافة ترهقه وتنال من صحته فهو يستريح منها إلى قراءة ألف ليلة وليلة ويتسلى بما فيها من خرافات وأخيلة عجيبة غريبة . على أنه سرعان ما تنبه إلى أن هذه الأقاصيص قد اختلف ما فيها من خيال وتباين ما فيها من أسلوب . واسترعى نظره هذا الشعر المدسوس فيها ومنه ما نظم بعد العصر الذى جرت فيه الحوادث المروية . وقد قلنا إن فكرة التاريخ والتراجم وما كتبه إرضاء لشيخه السيد مرتضى ولدت فى نفسه عادة الكتابة والبحث وهذا أيضاً يفسر ما ورد عنه أنه وضع نقداً لكتاب ألف ليلة وليلة . ولعله عثر فى خزانة والده على كتب قديمة فارسية أو تركية تمت إلى ألف ليلة وليلة بشئ من

الصلة حملته على وضع بحث جامع فيها ولا يبعد أن يكون له إلمام بالتركية أو الفارسية ما دام أبوه كان يتقنهما . وقد أكد المؤرخون أن بحثه الانتقادى فى ألف ليلة وليلة قد فقد، فاكتفينا بالإشارة إليه .

٦

هزم بونابرت المماليك فى معركة أنبابة التى يسميها الفرنسيون معركة الأهرام يوم السبت ٧ صفر سنة ١٢١٣ (٢٣ يوليو سنة ١٧٩٨ م) فهرب إبرهيم بك شرقاً ومراد بك جنوباً . وتواترت أخبار الهزيمة إلى القاهرة فانتشر فيها الهرج والهلع وظن الناس الأظانين فتطايروا إلى الريف محتملين ذخائرهم ونفائسهم وما هو إلا أن ابتعدوا عن القاهرة حتى تلقفهم الأعراب وسلبوهم أمتعتهم وأموالهم فرجعوا أدراجهم عراة محسورين . ولم ينج إلا من كانوا فى كثرة مخفورين .

وكان بونابرت قد أرسل من الإسكندرية منشوره المشهور إلى أهالى مصر وخيل إليه أن الناس صدقوا ادعاءه بأنه حضر إلى مصر ليستخلصها من ظلم المماليك لذلك لزم مكانه بعد المعركة ودهش حين لم يحضر إليه أحد . وفاته أن منشوره العجيب لم يقنع المسلمين ولا أرضى النصارى .

ولما ذهب إليه وفد على رأسه الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى علم منهما أن المشايخ الكبار هربوا « فقال لهم : لأى شىء يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوان

لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان ثم انفصلوا من معسكرهم . . . »

أين كان الجبرتى فى هذا كله . . . ؟

إنه لم يذكر عن نفسه شيئاً ولكن أهله قالوا عنه بعد موته للمسيو الكسندر كاردان آنه ذهب إلى أبيار وأن بونابرت استدعاه وعينه عضواً فى ديوانه . . .

وهذا كلام نصدق الشق الأول منه فقط وهو أن الجبرتى برح القاهرة ووصل إلى أبيار ونجا من الأعراب لأنه بلا شك كان مخفوراً أما الشق الثانى فتفسيره أن الصاوى والفيومى لما سألهما بونابرت أن يكتبا إلى المشايخ الهاربين كتبا إليه فيمن كتبا إليهم فعاد إلى القاهرة ولكن بونابرت لم يعينه عضواً بالديوان .

وأغلب الظن أن صديقيه الخشاب والعطار لم يبرحا القاهرة . ولما عاد عبد الرحمن الجبرتى من أبيار بعد غيبة لم تطل أكثر من عشرة أيام شعر أن جو القاهرة قد تغير وعهدها القديم قد تبدل فهؤلاء الغرباء قد ملكوا القلعة وانتشروا فى البلد وسكن كبيرهم بونابرت قصر الأمير محمد بك الألفى بالأزبكية بخط الساكت الذى أنفق عليه الأمير أموالا عظيمة ولم يكد يتمه ويتوافد عليه المهنئون حتى ألجأه الفرنسيون إلى الهرب وعلم

الجبرتى أن المماليك قد انتهبت بيوتهم وصودرت أموالهم ولم يبق لهم أى أثر . وما كاد يجتمع بإخوانه الشيوخ حتى عرف أن عشرة[١] منهم يؤلفون ديواناً ينظر فى مصالح العباد . وما عتم الجبرتى حتى رأى القاهره تموج بالجنود وهم يتأدبون مع الأهالى . فإذا اشترى أحدهم سلعة دفع ثمنها كاملا بلا مساومة . ورأى دكاكين عديدة فتحها الأهالى لبيع المأكولات كما فتح بعض الأروام محالّ لبيع الأشربة والخمور . ولفت نظر الجبرتى مطعم أنشأه بعض الإفرنج فيه عدة مجالس على كل منها علامته ومقدار الدراهم التى يدفعها الداخلون فيجلسون يأكلون ويشربون ويدفعون ما وجب عليهم ثم ينصرفون . ولكن شق عليه أن يرى الكثيرين من صعاليك الأقليات قد ارتفع مقامهم وأصبحوا ذوى حول وطول .

وكان بونابرت يتحبب إلى المشايخ ويكثر من أسباب اللهو للناس ليشغلهم بإقامة الحفلات والزينات فى الأزبكية والمشهد الحسينى والمقياس وأراد أن يظهر للمصريين أنه راغب فى تدريبهم على حكم أنفسهم فأنشأ ديواناً عمومياً مؤلفاً من ١٨٠ عضواً يمثلون أقاليم مصر ولكن هذا المجلس لم يجتمع إلا مرات

(١) فى رواية الجبرتى عشرة وفى رواية نقولا الترك ثمانية وفى رواية الفرنسيين سبعة .

معدودات حتى نشبت فى جمادى الأولى ثورة القاهرة وكانت هوشة طائشة اتسع نطاقها فى الأحياء المطيفة بالأزهر ولم تطل أكثر من ست وثلاثين ساعة وقد أغلظ بونابرت فى قمعها ولم يسجح ولا قبل فى المتهمين وساطة وسيط ولا شفاعة شفيع وعطل الديوان والمجلس وبعد شهرين عاد فأنشأ ديواناً عاماً جمع ستين عضواً تنتظم جلساته فى فترات معينة ويتفرع منه ديوان مؤلف من أربعة عشر عضواً هو الديوان الخصوصى أو الديمومى لأن أعضاءه يعقدون جلساته كل يوم وظل هذا الديوان قائماً والحوادث تترى . . .

وقد أراد بعض المؤرخين أن يعلل الخطأ الذى تورط فيه الذين ترجموا للجبرتى وهو تعيين بونابرت إياه عضواً فى الديوان فقالوا ربما عينه فى الديوان العمومى ولكن هذا الديوان كان يضم أعضاء انتدبتهم الأقاليم ليمثلوها فيه فهو مجلس نيابى ولم تكن للجبرتى أهلية تخوله عضويته وقالوا بل ربما ألحق كاتباً بالديوان وهذا أيضاً لا يتفق ومقام الجبرتى وثراءه بل فيه تقليل لشأنه ونزول به عن درجة أقرانه نظنه لا يرضى به .

* * *

لقد أصبح الفرنسيون عنصراً جديداً فى الحياة المصرية فاختلطوا بالناس واتصل كبراؤهم بكبراء المصريين وضعاؤهم

بوضعائهم وكان الجبرتى يذهب مع صديقيه الخشاب والعطار إلى بركة الأزبكية لمشاهدة الحفلات العامة وبخاصة الحفلة التى أقيمت فى ٢٠ جمادى الثانية وأعلنوا أنهم سيطيرون بها مركباً فى الهواء ثم أخفقت تجربتهم . وشهد الجبرتى تغيير معالم القاهرة وهدم البيوت والمصاطب وقلع الأشجار وتوسيع الطرق وأعجبه أنهم لا ينقلون الأتربة بالمقاطف على الأكتاف بل فى عربات يد يدفعونها دفعاً فيتحقق العمل بها سريعاً . وشاهد الجبرتى تدريب العساكر وكيف يقف « المعلم والمتعلمون مقابلون له صفاً بأيديهم بنادقهم فيشير إليهم بألفاظ لغتهم كأن يقول : « مردبوش » فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها ثم يقول « مرش » فيمشون صفوفاً إلى غير ذلك » وهذه الطريقة فى التدريب هى التى سماها فيما بعد « النظام الجديد » والعساكر الذين تدربوا بها دعوا جنود النظام الجديد . ولعل الجبرتى لم يحضر الاجتماع الذى دعا بونابرت إليه مشايخ الديوان ليروا التجاريب العلمية التى يقوم بها علماء الحملة وهو الاجتماع الذى وقف فيه الرياضى مونج والكيميائى برتوليه يعرضان على المشايخ كيفية استخراج المساحيق المفرقعة والمياه المجمدة . وأراد بونابرت أن يدهش المشايخ بما يحدثه التيار الكهربائى من اختلاج الجثث التى يطلق عليها كأنما ردت إليها الحياة

لكنهم لم يدهشوا ولا استفزتهم هذه التجارب بل سأل الشيخ خليل البكرى الكيميائى برتوليه إذا كان يمكنه أن يكون فى مراكش والقاهرة فى آن واحد فلم يجبه برتوليه على سؤاله فقال له الشيخ البكرى ألا ترى أنك لست ساحراً . . .

ولم يذكر الجبرتى هذا الحادث ولا شك أنه نمى إليه حتى دفعه الفضول إلى زيارتهم بصحبة الشيخ السادات بل هو زار مراراً خزائن كتبهم ومصانعهم وشهد تجاريبهم العلمية واطلع على تصاويرهم ورسومهم وآلاتهم وفى ذلك يقول « وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم . . . ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعونى على ذلك فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظراً إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين وفى الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس . . . » وذكر الجبرتى الآلات العجيبة التى رآها عند توت الفلكى ولكنه لم يذكر

اتصاله بالفلكي نوى مع أنه عرفه وسأل عنه في آخر أيامه كما سيأتى . وأعجبته فى بيت ابرهيم السنارى صور المشايخ التى رسمها أراجو وأدهشه ما يصنعه رويا فى بيت ذى الفقار كتخدا من تجاريب كيماوية ومستحضرات طبية وشهد فى بيت كاشف جركس تحضير الأعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاءة والحلالة قال الجبرتى : ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصبّ منها شيئاً فى كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الما آن وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلا جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا . . . وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء ويظهر له صوت وطقطقة فإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلا بها

ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلا به حصل ذلك له ولو كانوا ألفاً أو أكثر ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة تنتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا » ولا يغرب عن الذهن ما تنطوى عليه العبارة الأخيرة من معان . . .

وكان المستشرق مرسيل مدير المطبعة صديقاً حميماً للشيخ محمد المهدى كاتم سر الديوان يجتمع به فى دار قاسم بك مع نفر من العلماء يسمرون فى الحديقة تحت أشجار الليمون ولا بد أن يكون الجبرتى اتصل بهم وسمر معهم أما صديقه الخشاب فقد اتصل بشاب فرنسى من علماء الحملة اسمه ريج كان جميل الطلعة يروى الشعر العربى ويحفظ كثيراً من الآيات القرآنية وقد أحب الخشاب ريج هذا وتغزل به وذكره فى شعره قال :

أريج زكى المسك أنفاسك التى
أريج شذاها قد تبسم عن عطر (١)

(١) هكذا ذكرها الجبرتى وهكذا وردت فى ديوان الخشاب المطبوع بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ ولعله تنسم بالنون لا بالباء

أما حسن العطار فكان كثير الجد والتفكير فى كل ما يشهد من أفعال هؤلاء العلماء والأجانب ويقيس ما عندهم بما عند علماء مصر فيرى البون شاسعاً والفارق عظيماً .

على أنه ما كان المصريون ليرضوا عن الفرنسيين ولا صدق أحد منهم منشورات بونابرت التى كانت تنهمر عليهم كل يوم وفيها أنه يحب المسلمين ويعظم الاسلام ويسفه عقائد النصارى وقد زعموا أنه وعدهم باعتناق الإسلام وبناء مسجد يوسم باسمه ومن العجب أن بونابرت العبقرى لم يفهم أن المصريين رأوا فى مسلكه هذا حيلة مفضوحة لا تجوز على الجهلاء بله العلماء .

ولا شك فى أنه لولا اختلاف الدين لرسخت قدم الفرنسيين فى مصر كما رسخت قدم الأتراك فيها من قبل ومن بعد ثم هضمت مصر الأتراك وأنستهم أصلهم وأصبحوا أبناءها البررة الأوفياء . فاختلاف الدين كان إذن السبب الجوهرى فى عداوة المصريين للفرنسيين . وهناك أسباب أخرى نفرت منهم القلوب يمت أغلبها إلى الأخلاق والسلوك : فالفرنسى خفيف النفس يحب اللهو والمرح والخمر والنساء ويجهر بمجونه وخلاعته . والشرقى بنشأته وتربيته يحب الستر والصون والحجاب والعفة . وحسبنا فى وصف الأسرة المصرية ما قاله الجبرتى عن أسرة الشرايبى أنه « لا تخرج من بيتهم امرأة إلا للمقبرة فإذا عملوا عرساً أولموا

الولائم وأطعموا الفقراء والقراء على نسق اعتادوه وتنزل العروس من حريم أبيها إلى مكان زوجها بالنساء الخلص » .

وقد قلب الفرنسيون هذه الأوضاع كلها وتبذلوا فى سلوكهم ومعيشتهم فكثرت فى أيامهم حانات الخمر واتخذوا ركوب الحمير ملهاة لهم فى الشوارع حتى قال حسن العطار :

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم فى مصرنا بين حمار وخمار

وأطلقوا الحرية للنساء فانتشرت الخلاعة وعم المجون وسرت عدواهم إلى أولاد البلد واختبط المجتمع المصرى بهم اختباطاً عظيماً .

وقد صور الجبرتى ما كان يفعله الفرنسيون تصويراً رائعاً فى أسلوبه التقريرى حيث قال : « لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحريرية الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن . . . »

وطالما نعى الجبرتى على الفرنسيين : « شدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته

أو ضربته بتاسومتها (أى حذائها) ومما كان يزيد فى النكاية أن ضباط الاخطاط كانوا يتزوجون بالمسلمات من بنات الأعيان فتقبل المسلمات الزواج : «رغبة فى سلطانهم ونوالهم فيظهر (الزوج) حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها . وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس مثلما يمر الحاكم» . على أن هذه الحال لم تقتصر على النساء البيض بل عدتهن إلى الجوارى السود فإنهن : «لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً فرادى وأزواجاً فنططن الحيطان ، وتسلقن إليهم من الطيقان» .

* * *

اقتنع بونابرت بعد فقدان العمارة الفرنسية فى مياه أبو قير بوجوب الاستكفاء بما عنده لاستحالة ورود النجدة من فرنسا فعمل على تركيز جيشه فى مصر وجرد حملته المشهورة على الشام وارتد عنها لاستعصاء عكا عليه وثأر لنفسه فى معركة أبو قير البرية إذ دحر الإنكليز والعثمانيين ثم سافر إلى فرنسا بعد أن عهد بالقيادة العليا إلى كليبر . وكانت سياسة بونابرت مزيجاً من الشدة واللين والصدق والكذب وقد نظم الإدارة تنظيماً دقيقاً

ونظم الجيش تنظيماً أدق ووزع على كل واحد من أعوانه مهمة خاصة سواء فى البحث العلمى أو العسكرى أو الإدارى وهو بعد لم يقم فى مصر إلا سنة وشهرين .

وكان خلفه كليبر يرى وجوب الجلاء عن مصر والعودة إلى فرنسا وقد فاوض العثمانيين والإنكليز فى ذلك وعقد معهم الهدنة المعروفة بهدنة العريش ولكن الإنكليز نقضوها بعد أن دخل القاهرة عشرة آلاف من الجنود العثمانيين على رأسهم نصوح باشا ومعه إبرهيم بك الكبير ومماليكه .

وأبى كليبر التسليم وحاربهم وانتصر عليهم فى معركة هليوبوليس ثم عاد إلى القاهرة فحاصرها وبدأ ببولاق فأفحش فى التنكيل بأهلها وأحرق دورهم وسبى نساءهم وأولادهم ونهب أموالهم وكر بعد ذلك على القاهرة فأمعن فى التضييق عليها وضربها بالقنابر وأشعل النار فى شوارعها وعطفاتها حتى فتحها عنوة واسترد سلطته عليها بعد أن تهدمت أحياؤها وخربت دورها وقصورها ثم أخذ كليبر القاهريين أخذاً عنيفاً بما فرضه عليهم من المغارم الباهظة مع أنهم راحوا ضحية الفرنسيين أنفسهم الذين نشروا شروط الهدنة وسمحوا للعثمانيين بدخول القاهرة وراحوا ضحية العثمانيين الذين منوهم الأمانى وخدعوهم بالأكاذيب وأخفوا عنهم هزيمتهم وانقطاع المدد عنهم على أنه ما عتم كليبر

أن اغتاله بعد شهرين سليمان الحلبي كما هو معروف وخلفه على القيادة الجنرال جاك منو .

ولا شك فى أن الجبرتى كان أيام تدمير بولاق فى منزله بالصنادقية وقد انحاز إلى المدافعين ، انحياز الناصح الشفيق الذى يحكم العقل وينكر الطيش ولقد شفى نفسه تقريع الشيخ السادات لإبرهيم بك الكبير واتهامه بأنه جر علي الأقاليم هذا الهول والويل ومما قاله له : « كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم وآخر أمرنا معكم ملكتمونا للإفرنج . . . » وقد حمل الجبرتى على القادة حملة عنيفة لأنهم أخطأوا التدبير وغرروا بالناس فأهرقت دماء بريئة ، وزهقت أرواح طاهرة . وقد حز فى صدره سلوك رجل مغربى تصدر لقيادة العامة وصار يأمر وينهى ويهدد بنقض الصلح الذى أبرموه « وهو ليس ممن له فى مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال ، ورأيه فى الصلح افتيات وفضول ودخول فيما لا يعنيه » .

أما حسن العطار فقد هاجر إلى أسيوط حيث أقام ثمانية عشر شهراً كان يراسل الجبرتى خلالها وقد نجاه الله من الطاعون الذى اجتاح بلاد الصعيد ومات به مراد بك وكثير من الأمراء والناس وكان مراد بك قد هادن الفرنسيين فأمروه على الصعيد ولم يمالىء عليهم حتى موته .

وكان جاك منو قد أظهر الإسلام وسمى نفسه عبدالله وتزوج امرأة مسلمة من رشيد اسمها زبيدة ورزق منها غلاماً اسمه سليمان فسلك مع المصريين مسلكاً رفيقاً وأراد أن ينهج سياسة إسلامية مصرية فأنشأ ديواناً على نسق جديد ليس فيه خصوصى ولا عمومى بل هو ينتظم كما قال الجبرتى « تسعة معممين لا غير ليس فيهم قبطى ولا وجاقلى ولا شامى ولا غير ذلك . هم الشيخ عبدالله الشرقاوى رئيس الديوان والشيخ المهدى كاتب السر والشيخ الأمير والشيخ الصاوى وكاتبه والشيخ مرسى السرسى والشيخ خليل البكرى والسيد على الرشيدى نسيب سارى عسكر والشيخ الفيومى والقاضى إسماعيل الزرقانى وكاتب سلسلة التاريخ السيد إسماعيل الخشاب والشيخ على كاتب عربى وقاسم أفندى كاتب رومى وترجمان كبير القس رفائيل وترجمان صغير إلياس فخر الشامى والوكيل الكمثارى فوربيه » واختاروا لهذا الديوان بيت رشوان بك بحارة عابدين وعينوا له عشر جلسات فى كل شهر.

ولفظة كاتبه الواردة بعد اسم الشيخ الصاوى تعنى عبد الرحمن الجبرتى[1] وطالما مر بها القراء سراعاً وظنوها كاتب الشيخ الصاوى

---

(١) جاء فى الصفحة ٤٤٠ من الجزء الخامس عشر من كتاب وصف مصر أن الفرنسيين لما أصلحوا مقياس الروضة أرسل أعضاء الديوان إلى كبير المهندسين كتاب شكر تاريخه ٧ شعبان سنة ١٢١٥ وذكر فى هامش =

وقد كررها الجبرتى مرة أخرى حين عاد الإنكليز والعثمانيون واستولوا على رشيد وأبو قير وزحف يوسف باشا بعساكره على القاهرة فأخذ الفرنسيون رهائن من المشايخ وهم الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى وكان على الرشيدى قد سافر مع ابنته زوجة منو إلى الاسكندرية فأمروا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم كما يقول الجبرتى « البكرى والأمير والسرسى وكاتبه أن يكون نظرهم على البلد » .

فأصبح الجبرتى إذن من الرؤساء وصار له رأى فى القضايا وكلمة فى الدوائر العليا كما نقول اليوم وهو مركز يمكنه من الاطلاع على المكاتبات والمراسلات وتدوينها فى كراريسه بحروفها كما يطلع على محاضر الجلسات التى يحررها الخشاب ويحفظ لنفسه صورة منها لا كما كان أيام بونابرت لا تصل إليه إلا المنشورات التى تذاع على الجماهير والأخبار التى تتناقلها الألسن .

وقد تكون هناك صلة بين تعيين الجبرتى عضواً فى الديوان

= الصحيفة أن الديوان لذلك العهد كان مؤلفا من خليل البكرى وعبد الله الشرقاوى وسليمان الفيومى ومحمد الأمير ومحمد المهدى وعلى الرشيدى وعبد الرحمن الجبرتى ومصطفى الصاوى وموسى السرسى وقد ذكرت الأسماء بهذا الترتيب .

وتعيين إسماعيل الخشاب كاتباً لسلسلة التاريخ واو كان الشيخ حسن العطار فى القاهرة ما كان بعيداً أن يعين أيضاً فى وظيفة ما .

وعلى كل حال فقد أعجب الجبرتى بعناية القوم كما يقول « بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم ثم يجمعون المتفرق فى مخلص يرفع فى سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها فى جميع الجيش حتى لمن يكون فى غير مصر من قرى الأرياف فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم. فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذكرنا كان هو (أى الخشاب) المتقيد برقم كل ما يصدر فى المجلس من أمر ونهى أو خطاب أو جواب وقرروا له فى كل شهر سبعة آلاف نصف فضة فلم يزل متقيداً فى تلك الوظيفة مدة ولاية عبدالله جاك منو حتى ارتحلوا من الإقليم » .

ويستفاد من هذا الوصف أن الخشاب كان يدون محاضر الديوان فقط ولا شأن له فى تحرير جريدة بريد مصر ولا العشريات المصرية اللتين تصدران بالفرنسية ولم تكن له يد فى مشروع صحيفة يومية عنوانها التنبيه غمرتها الحوادث فلم تصدر .

وقد أسهب الجبرتى فى نقل الأحاديث التى كانت تجرى

فى ذلك الديوان ولا بد أنه كان من المتصدرين فيه وإن أبى أن يذكر ذلك عن نفسه تواضعاً منه لأن الوكيل فورييه حين قال لأعضاء الديوان كأنما يعتذر عن حوادث بولاق والقاهرة : « إن الذى أوجب الاغتصاب والعسف إنما هى الحرب ولو دامت المسالمة لما وقع شىء من هذا » أجابه بعض أهل الديوان ولا بد أنه الجبرتى وإن لم يذكر ذلك : « سنة الملوك العفو والصفح وما مضى لا يعاد فارحموا واعفوا عما سلف . . . »

وكانت تقع بين الوكيل والأشياخ مناقشات طريفة نعتقد أن الجبرتى كان من أكبر المساهمين فيها نكتفى بالإشارة إليها هنا .

ولم يطل أجل هذا الديوان إلا أشهراً استولى خلالها العثمانيون والإنكليز على رشيد وأبو قير والرحمانية وحصروا منو فى الإسكندرية وزحفوا إلى القاهرة وتحرج موقف الفرنسيين وهم مع ذلك يتجلدون ولا يستضعفون حتى انعقد الصلح وتخلوا عن القاهرة يوم الجمعة ٢١ صفر سنة ١٢١٦ وجلوا عنها يوم الأربعاء ٤ ربيع الأول من هذه السنة بعد أن تحكموا فيها ثلاث سنوات وواحداً وعشرين يوماً .

ودخل الجيش العثمانى القاهرة وعلى رأسه يوسف باشا ففرح الناس لهم فرحاً عظيماً وتجاوزوا لهم عن المظالم التى استهلوا

عهدهم بها لأن رجوعهم معناه استعادة السيادة الإسلامية على الأقاليم وهى أمنية الكافة التى جادوا بالأرواح والأموال فى سبيلها .

وكان الجبرتى قد دون فى كراريسه فظائع الحملة الفرنسية ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت إليه واطلع عليها فرأى أن يشاطر الناس فرحهم ويحتفى معهم بهؤلاء العثمانيين فوضع كتاباً اسماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » أهداه إلى الوزير يوسف باشا واستهله بقوله : « حمداً لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هى العليا . وجعل الدولة العثمانية والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا » ثم ذكر فضائل مصر وفتح العثمانيين لها وألمع إلماعة خاطفة إلى استقرار المماليك فيها وذكر أن الدولة : « استنامت إلى المماليك اتكالا على شجاعتهم فخربوا الثغور . وشادوا القصور » لذلك سهل على الفرنسيين فتح مصر « ولقد كادت تعم الرزية . وتصير القضية أندلسية » لولا عناية السلطان سليم « غياث المسلمين . ملاذ المؤمنين . مالك رقاب الأمم . . . » بتوجيه وزيره يوسف باشا لاستنقاذها فكان مثله فى هذا مثل سميه يوسف الصديق عليه السلام . ثم افاض فى سرد حوادث الحملة كما فصلها فيما بعد فى تاريخه العام ولكنه لم يذكر شيئاً عن اتصاله بالفرنسيين

وحضور حفلاتهم ومشاهدة تجاريبهم العلمية ومفاوضة علمائهم وأغفل وثائق محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر وأكثر من نعوت الخبيث واللعين والخاسر ولم يذكر عن نفسه أنه كان عضواً فى الديوان الذى أنشـأه منو بل قال « هو ديوان واحد مركب من تسـعة أشخاص وكاتبين مسلمين وكاتب فرنساوى وترجمانين كبير وصغير والوكيل المسمى فوربيه » ولم يترجم لمن مات من المشايخ بل أورد نبذا قصيرة عمن مات من الأمراء فقط ووقف بالتاريخ آخر شعبان سنة ١٢١٦ « لأنه لما كانت حوادث الأيام لا تقف على حد . واستقصاؤها لا يدخل تحت قدرة أحد . ناسب أن يجعل ختام هذا التاريخ شهر رمضان المعظم . وأن يكون عقد شهوره بواسطته متمم . . » ثم عدد فضائل شهر رمضان المبارك إلى أن قال : « وأيضاً إن شهر الصيام مقدمة شهر العيد . الذى هو موسم السرور المديد وقد كان قدوم المشار إليه (يريد الوزير يوسف باشا) نظر الله بعين الرعاية إليه ، مفتاح أبواب المسرات التى أطال انغلاقها . ومعيد بهجة مصر التى كسف بظلام الكفرة إشراقها . ثم لسدته التى هى ملثم شفاه الإقبال . ومحط رحال أفاضل الرجال . أهدى كاسد هذا التصنيف . وخامل هذا الترصيف . فإن لاحظه بعين القبول وذاك هو المتيقن والمأمول . راج فى

معالم الأدب سوقه . وبطالع السعود لاح شروقه » . وختمه بهذين البيتين :

سعد تاريخنا بإقبال صدر بمعالى ثنائة مسطور
فلهذا يقول بشرى أرخ باجتناء السرور جاد الوزير
(١٢١٦)

ولا شك أن هذين البيتين من نظم الشيخ حسن العطار الذى ضمن هذا الكتاب فصولا من إنشائه المسجوع وخاصة تعليقه على قصيدة الصيرفى التى مدح بها أحمد باشا الجزار وهى ثمانون بيتاً أو تزيد أدرجها بحروفها ونقدها لغوياً وعروضياً .

وجرى الجبرتى فى أساوبه مرسلا حيث يسرد الأحداث اليومية . ومسجوعاً حيث يصف المعارك والفتن . وقد تعمد أن يكون واقعياً مقرراً . لا إنشائياً محرراً . حتى جاء كتابه شهادة عيان . لا مقطوعة بيان . ولا بد أن الذين طالعوه أيامئذ تبينوا أنه قطعة من سلسلة سابقة لا كتاب مستقل . ولعله بادئ ذى بدء لم ينتشر إلا بين الأخصاء .

ولا شك أن الوزير يوسف باشا لحظ الكتاب بعين القبول لأنه بعد أوبته إلى دار السلطنة عرضه هناك على السلطان سليم فأمر السلطان كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى التركية

ففرغ من نقله إليها سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧ م).

ونكاد نؤكد أن يوسف باشا علم أن الجبرتى ليس مؤرخاً فحسب بل هو أيضاً عالم فلكى فأكبر علمه وعهد إليه بتحرير التقاويم والتوقيت ورتب له جعلا على ذلك .

٧

لم تعرف القاهرة أشأم من السنوات الأربع التى مرت بها منذ خروج الفرنسيين إلى ولاية ساكن الجنان محمد على باشا . فقد اختبطت الأجناد وتطاحنوا فيما بينهم وطرد الوالى محمد باشا خسرو وقتل على باشا الطرابلسى كما طرد أحمد باشا خورشيد . وبطش الأرناؤوط بالانكشارية الذين كانوا يزعمون أنهم « فخذ السلطنة » فلم يستقم أمرهم بعد ذلك ولولا الإنكليز لأباد العثمانيون طائفة المماليك الذين أخفقوا فى ارتجاع سلطانهم البائد . وكانت مصر مراحاً لعبث الأجناد وإفسادهم من عثمانية ومغاربة وإنكشارية وأرناووط ودالاتية فتفاقم الاعتداء على الناس بالضرب والسلب والنهب حتى القتل وكثر خطف العمائم عن الرؤوس وخطف الحمير والجمال والنساء والغلمان . . فالدور تغتصب . والحرمات تنتهك . والمغارم تفرض . والمظالم تزيد. والمصادرات تتعدد « وتمنى أكثر الناس وخصوصاً الفلاحين أحكام الفرنساوية » وفحش الأمر جداً قبلى وبحرى حتى وقف حال الناس ورضوا عن أحكام الفرنسيس » .

« وتمادى قبائح العسكر بما لا تحيط به الأوراق والدفاتر

بحيث إنه لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات غالب الجهات ، إما لأجل امرأة أو أمرد أو خطف شيء أو تنازع وطلب شر » « وفجروا بالنساء ... الأبكار ... بالغلمان ... وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم . واشدة قهر الخلائق منهم وقبح أفعالهم تمنوا مجيء الافرنج من أى جنس كان وزوال هذه الطوائف الخاسرة الذين ليس لهم ملة ولا شريعة ولا طريقة يمشون عليها . »

وأكبر الظن أن الجبرتى لم يعتزل الحياة العامة كما نقول اليوم ولم يقصر اشتغاله على العلم والتأليف بل خاض مع المشايخ فيما خاضوا فيه من الاهتمام بشؤون الرعية بقدر يسمح له بالالتفات إلى مشاغله الخاصة فقد كان الثناء على كتابه مظهر التقديس قوى عزمه على المضى فى كتابة التاريخ ولا بد أن يكون نمى إلى علمه رضا السلطان سليم عن كتابه . ثم إن لديه من جهة أخرى كتباً يريد أن يستكمل تأليفها منها كتاب فى الفقه الحنفى وكتاب فى الحساب والفلك وتعليق على كتاب الموازين الذى ألفه والده وهى بلا ريب مجموعة الدروس التى كان يلقيها على طلابه فهو راغب فى استيفاء أبحاثها وجمعها فى مجلدات مستقلة . كذلك فطن الجبرتى إلى قلة الكتابة فى عصره فعزم على وضع كتاب فى المراسلات يقدم به نماذج

ينهج نهجها الطالب . ويحذو حذوها الراغب . وهناك أولاده قد كبروا ووجب عليه أن يلاحظ دراستهم ويوجههم التوجيه الذى يتفق ومنشأه وبيئته وهناك أيضاً أملاكه وعقاراته وأرزاقه وأحباسه لذلك كان خوضه فى الشؤون العامة لا يكاد يتجاوز المشورة والرأى وقد علمنا منه أنه كان يزور محمد بك الألفى والأمير ذا الفقار البكرى ويحضر مجالس أحمد خورشيد باشا ويختلف إلى المشايخ والأعيان .

وأما الخشاب فألحق بديوان الوالى ولم ينفصل عن المحكمة وهو الذى أنشأ بقلمه الأوامر التى أصدرها الوزير يوسف باشا إلى الأقاليم . وقد عاد الشيخ حسن العطار من أسيوط على أثر رجوع العثمانيين . ولكنه لما رأى القاهرة تموج بالشغب وتضطرب بالفتن أجمع أمره ورحل إلى الشام .

* * *

فى سنة ١٢٢٠ هب المصريون للذود عن حقيقتهم من جور أحمد خورشيد باشا وقد أرهقهم بما فرضه عليهم من مغارم وسامهم من مظالم . فحصروه فى القلعة والتفوا حول محمد على ليكون والياً عليهم بدلا منه وكان على رأس هذه الحركة القومية السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وكبار المشايخ فبايعوا محمد على وولوه من قبلهم ثم بردوا إلى دار السلطنة بما جرى

وكتب قنصل فرنسا إلى دولته : « هذه هى المرة الأولى التى نرى فيها أحد الباشوات ينادى به الشعب . . . »

وكانت الفتنة قائمة منذ أشهر وحصار القلعة مستمراً والقنابر تنهمر على القاهرة ولكن الناس لم تنخلع قلوبهم خوفاً لأنهم تعودوها أيام الفرنساوية ولم تهدأ الفتنة إلا بعد وصول الرد من إسلامبول بعزل أحمد خورشيد وتولية محمد على ابتداء من ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٢٠ (١٢ مايو سنة ١٨٠٥) وراح بعد ذلك أعداء الباشا الجديد يدسون لدى السلطان فى الخارج ويثيرون عليه الفتن فى الداخل . وكان عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى أميرين من المماليك مختلفين إلا على محاربته . وفى إسلامبول محمد باشا خسرو وأحمد باشا خورشيد كلاهما موتور ناقم . وما جاءت سنة ١٢٢١ حتى حضر قبطان باشا إلى مصر مستصحباً والياً جديداً لها هو موسى باشا حاملا فى حقيبته أمراً سلطانياً بتولية محمد على ولاية سلانيك . ولكن محمد على كان واسع الحيلة فلجأ إلى الذين والوه وهم العلماء والرعية يستوضح رأيهم فكتب السيد عمر مكرم والمشايخ معروضاً إلى الدولة على يد قبطان باشا يعربون فيه عن تعلقهم بمحمد على ويطلبون استبقاءه فى الولاية . وكان قبطان باشا قد بحث

(١) راجع مختصر تاريخ مصر جزء ٣ صفحة ٢١٢.

فى الموقف وطاب نفساً بمكارم محمد على فنبذ صيغة هذا المعروض واقترح صيغة أخرى سرعان ما حرروها ووقعها عموم المشايخ والكبار والأعيان عن لسان الرعية وقفل قبطان باشا راجعاً ومعه موسى باشا وهو راض كل الرضا عن محمد على ورجاله .

ونعتقد أن الجبرتى وقع هذه المعاريض فهو لم يذكر شيئاً عن الأول منها الخاص بالمبايعة وعزل أحمد خورشيد باشا بل روى المعروض الثاني بحروفه وهو الذي طلب قبطان باشا تغيير صيغته أما الثالث فقد تعجلوا وضعه ولفقوه تلفيقاً ولم يتورعوا عن التزوير فى بعض توقيعاته وأختامه وفى هذا يقول الجبرتى : « هو السبب فى عدم نقلى هذه الصورة بل فهمت المضمون فقط » .

وبعد أن أحبط محمد على دسائس أعدائه فى الخارج التفت إلى أعداء الداخل فإذا بالحظ يمشى فى ركابه فيموت بعد ثلاثة أشهر عثمان بك البرديسى ويقضى نحبه بعده بشهرين محمد بك الألفى الكبير الذي يقول وهو يجود بنفسه الأخير : « قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على . . »

* * *

فى سنة ١٢٢٠ التى ذكرنا أنها سنة المبايعة لمحمد على والقاهرة مصطخبة بالثورة والأمور منتقضة والعامة مسلحة والجنود

موالية ومخالفة. والحالة معلقة مبهمة والقضية كما يقول الجبرتى : « مشكلة بين أوباش مختلفة . وطباع معوجة منحرفة » ارتأى الجبرتى أن يجمع التاريخ الذى شغل قلبه خمس عشرة سنة ولعله استشعر الكبر وهو قد تجاوز الخمسين — ولديه مؤلفات كثيرة يود التفرغ لتصحيحها وتقويمها وقد قال عن الأوراق التى كان جمعها لأستاذه الشيخ مرتضى إنى : « طرحت تلك الأوراق فى زوايا الإهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع إلى أن حصل عندى باعث من نفسى على جمعها مع ضم الوقائع والحوادث والمتجددات على هذا النسق » . ولو أردنا أن نستكنه هذا الباعث النفسى لما عدونا الحقيقة إذا قلنا إنه مزيج عوامل شتى أولها وأهمها خيبة الأمل فى هؤلاء العائدين « الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون . . . » وثانيها وأبرزها النجاح الذى لقيه كتابه مظهر التقديس واهتمام السلطان سليم الثالث به فى حين لم تشتهر الكتب الأخرى التى قدمها إلى الوزير غيره كالشيخ الشرقاوى ومن لف لفه . وثالثها وأدقها مراجعة نفسه فى اقتضاب بعض الحقائق أثناء تأليف كتاب مظهر التقديس المهدى إليه ومراعاة لبعض المعاصرين من الأصدقاء وغير الأصدقاء . . . ولقد سهلت عليه كتابته عن الحملة الفرنسية مباشرة تاريخه الكبير ولم يثبط من عزيمته

أن كتاب أحمد جلبي عبد الغني «استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم في صندوق العدم» ولا أن «الكراريس التي سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مختلة التهذيب والترتيب» بل ذهب الجبرتي يستعين بأوراقه وكراريسه، ويقتدح قريحته ، ويكد ذاكرته، فوضع تمهيداً تحدث فيه عن التاريخ وفضله وفائدته ثم أتبعه مقدمة ضافية تفلسف بها في تقسيم طبقات الناس ثم بسط النصيحة لأرباب الدول باقامة العدل وحسن السياسة وألم بعد ذلك إلمامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثماني وتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة فسرد بعض حوادثها ثم استهل تاريخه بسنة ١١٠٦ وأجمل الأحداث إجمالا إلى سنة ١١٢١ وشرع بعد ذلك يتابع السنين واحدة فواحدة يبسط حوادثها ثم يترجم لمن ماتوا فيها . وقد يرجىء ذلك إلى حين لأنه لم يكن على يقين من تاريخ الوفيات وذلك حسب قوله : «على سبيل الإجمال بحسب الإمكان فاني لم أعثر على شيء من تراجم المتقدمين من أهل هذا القرن ولم أجد شيئاً مدوناً في ذلك إلا ما حصلته من وفياتهم فقط وما وعيته في ذهني واستنبطته من بعض أسانيدهم وإجازات أشياخهم على حسب الطاقة» .وقال في مكان آخر: «لم أخترع شيئاً من تلقاء نفسي . والله مطلع على أمري وحدسي» . وقد فصل تفصيلا

دقيقاً تعادى الفرق التى تؤلف الحامية التركية وتنافس الأمراء والصناجق على الحكم ودسائسهم ومصارعهم . وأسهب فى ذكر الشعراء يستشهد بالكثير من شعرهم وقد يستشهد بشعر بعض المتقدمين ولكنه لا يشعر بتضلعه فى الأدب والشعر ثم إنه فقيه صوفى لا بد أن يولى همه مشايخ الصوفية ويشرح معمياتهم وألغازهم . وهو أيضاً عالم فلكى يجب أن يذكر الأحداث الفلكية ويحاول تفسير الحوادث على ضوئها فى بعض الأحيان ولعل علو كعبه فى العلوم الحسابية جعله يطيل الجدل فى النقود وسكها وما فيها من ذهب وفضة وهو إلى جانب هذا يدخل فى الحياة الخاصة ويسلسل الأسر ويذكر علاقات أفرادها ببعضهم البعض ويثنى ويذم حسب مقتضيات الحالة وكما يراها وعنى عناية خاصة بالسلع وأثمانها وتوفرها ونقصها وما إلى كل هذا من شؤون مختلفة ، وأمور مصطفقة . على أنه إلى سنة ١١٧٧ ما برح يكرر ويؤكد أن كل روايته : « بحسب التيسير إذ التفصيل متعذر . وجمع الشوارد فى الظلام متعسر . وذلك بحسب الإمكان وما وعاه الفكر والذهن خوان » . لأنه كان يكتب عما حفظ ووعى سواء من « لفظ الشيخ الوالد » أو غيره ولما أدرك العاشرة من عمره وهى سن التمييز انقلبت الحال من السماع إلى العيان وهو القائل : « ولما صرت فى سن التمييز رأيت الأشياء على

ما ذكر إلا قليلا » . وأصبح منذئذ يستعيد الذكريات القديمة حتى يصلها بما سبق له تدوينه أيام اشتغاله بالتراجم لشيخه السيد مرتضى فيسرد حوادث السنة متابعاً ترتيب الشهور ثم يختمه بتلخيص الحالة العامة وتراجم الذين ماتوا . ومنذ أول المائة الثالثة عشرة أخذ فى التفصيل والتطويل لأنه كان قد دون كل الحوادث والوقائع ولم يعد فى حاجة إلى اقتداح القريحة وكد الذاكرة إلا فى الجزئيات .

ولما وصل إلى عهد الحملة الفرنسية اكتفى باثبات كتابه مظهر التقديس برمته بعد أن حذف مقدمته والفصول التى كتبها صديقه العطار. وعاد إلى أمانته التاريخية من إنصاف المؤرخ لهم وقوم بعض الحوادث وصححها كما يرى. ذلك من يقارن بين الكتابين لأنه لم يبق هناك وزير يترضاه ولا أمير يهابه ولأنه يجب ضرب المثل بالفرنسيين لهؤلاء العائدين الذين خيبوا أمله فيهم... ثم والى تنسيق الحوادث على النمط الذى اختطه لنفسه فقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء وجرى بالجزء الأول إلى آخر سنة ١١٨٩ وبالثانى إلى آخر سنة ١٢١٢ وبالثالث إلى آخر سنة ١٢٢٠ وأسماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ؛ ولا بد من المسارعة إلى القول بأننا لسنا هنا فى مقام الكلام على تاريخه إلا بمقدار ما يتصل بالترجمة له لأن البحث فى هذا التاريخ

من الجهة العلمية والفنية يستغرق سفراً ضخماً مستقلا وإنما نقصر القول الآن على ملاحظات عامة . فقد امتاز الجبرتى عمن تقدمه من مؤرخى مصر بأنه عنى بالأمور الجليلة والحقيرة والرفيعة والوضيعة ولم يدع شيئاً نمى إلى علمه مهما عظم أو صغر إلا دوّنه مخلصاً فى دقة مدهشة . وكان رحمه الله عصبى المزاج سريع التأثر وهى صفة تجعل صاحبها محبًّا للاتقان حيناً عجولا متبرماً بما لديه أحياناً . لذلك نراه دقيق التحرى أميناً فى النقل نزيهاً فى الرواية يعرب عن آرائه فيما يعرض له فيتبسط ويتقبض ويسخر ويتهكم ويشتط ويغضب وهو . دقيق الملاحظة ألمعى الذكاء . نفاذ البصيرة . إلا أنه مهما ارتفع عن مستوى عصره فقد بقى مرهقاً به لا يسمو إلى النظرة الشاملة ولا يستخلص العبرة البادرة ولا الحقيقة الاجتماعية . وهو ضيق الأفق بحكم بيئته لا يعرف شيئاً عما نسميه السياسة العليا ولا عن علاقات مصر بغير تركيا سواء فى الشرق أم الغرب اقتصاديًّا أو تجاريًّا فلا يتسع نظره لبعض الأمور السياسية التى تمليها تلك العلاقات ولا يتنبه إلى كبار الأوربيين الذين زاروا مصر فى عهده . وقد أولع بالتغنى بالعدل والتشنيع على ظلم الحكام وهو يفهم أن العدل إنما هو إقامة الشريعة الغراء والرفق بالرعية وقد تأثر الجبرتى كثيراً بالصداقة والصحبة فهو

يعلن ميوله الشخصية وإيثاره هذا على ذاك. لذلك كان لوالده وأصدقاء والده وأشياخه وأصدقائهم نصيب وافر من تاريخه مع محاولة الإنصاف وإجهاد النفس على تحرى الحق أو ما يظنه حقاً وقد أتقن فن الترجمة بقدر ما أتيح له وبرع فى تصوير الشخصية وإبراز خلق المترجم لهم براعة فائقة وإننا نعد ترجمته لعثمان بك ذى الفقار ولوالده الشيخ حسن الجبرتى ولشيخه السيد مرتضى وللأمير محمد بك الألفى من أحسن كتاباته. على أن ولعه بالتراجم جعله يترجم لكل من عرفهم ومن لم يعرفهم من كبراء وأمراء ومن كل رفيع ووضيع حتى خدمة النعال فى المساجد والوقادين والمجذوبين وحتى لمن لا يعرف لهم ترجمة(١) وقد ترجم لامرأة واحدة هى الست نفيسة المرادية ولم يترجم لأحد من الحنبلية لأن أهل هذا المذهب لم يكونوا فى مصر. ولعله كان يسهو فى بعض الأحايين فيروى حادثاً رواه من قبل أو يشير إلى حادث أو أمر يعرفه هو ومعاصروه فلا يوضحه فإذا هو مستبهم علينا اليوم لبعد العهد وانقلاب البيئة. ثم إنه مع ثرثرته عن أبيه وتلامذة أبيه لم يذكر لنا شيئاً عن تلامذته هو ومريديه. ولا نعرف منهم سوى اسم الشيخ مصطفى باكير المعروف

---

(١) جاء فى تراجم المتوفين سنة ١٢٢٥. « مات الفقيه الفريد الشيخ على الحصاوى الشافعى ولا أعلم له ترجمة الخ .. »

بالساعاتى . ولعله انفرد بين المؤرخين بالتوسع فى وصف القاهرة ومساجدها وشوارعها وعطفاتها وتاريخ ما فيها من قصور وقلاع ومنازه على أنه لا يسعنا هنا مجاراته وذكر ما له وما عليه لضيق المقام .

أما أسلوبه فى الكتابة فقد ثقل عليه طابع العصر وإن كان قد درس فصيح ثعلب وفقه اللغة وأدب الكاتب كما تقدم . ولا نظلمه فنزعم أن أسلوبه عامى . . . فإن فيه الفصيح السهل والجزل المسجوع وقد يعلو ويرتفع ، وينحط ويتضع . وأحياناً يستمسك، وطوراً يتفكك، مما يدل على تباعد فترات الكتابة. إلا أنه على كل حال فيه قوة وحيوية فهو يرضى القارئ الخاص ويسليه ، ويعجب القارئ العادى ويفيده .

* * *

أنكر الجبرتى على محمد على مسلكه منذ البدء لأنه لم يفهم نياته فناصبه العداء ووقف منه موقف المعارضة العنيفة. وإذا كنا نفهم الحزن الذى تنبض به ترجمة محمد بك الألفى ولعل الجبرتى كانت له به صلة منفعة، وإذا كنا نفهم دعواه مصرية المماليك وأحقيتهم بالبلاد واعتبار محمد على ورجاله دخلاء عليهم فإننا لا نفهم أسفه على إخفاق حملة الانكليز على مصر سنة ١٢٢٢ وقوله : « وما كان إلا ما أراده المولى جل جلاله من تعسة الإنكليز

والقطر وأهله إلا أن يشاء الله » ولا نفهم كيف يؤثر الجبرتى الإنكليز على محمد على ويغطى هواه على بصره إلى آخر عمره إلا قليلا .

وراحت الحوادث تتتالى وأخذ محمد على يضع أسساً قوية تقوم عليها دولة قوية وراح يتحسس وجوه النقص فى الإدارة ويتلافى فيها ضروب الإفراط والتفريط ورأى أن خير ما يصنعه إنما هو حصر مرافق البلاد فى نفسه فأبطل ما نسميه اليوم امتيازات المشايخ وأرغمهم على دفع الضريبة وعين بعض أقاربه على دار السكة وفرض الأموال على الأراضى التى يزعمون أنها مرصدة إلى جهات البر من أيام الملك الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبى وفرض كثيراً من الضرائب على الملتزمين والتجار فضج الناس وثار عمر مكرم والمشايخ يحسبون أن الوالى الجديد يهاب سطوتهم كما كان يهابها أسلافه من قبل ولكنه لم يأبه لهم وسرعان ما تخاذلوا وفشلوا ونفى السيد عمر إلى دمياط وكان أن قال الشيخ الشرقاوى لمحمد على : « ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم. فقال : أنا لست بظالم وحدى وأنتم أظلم منى » وقال على كتخدا مرة للمشايخ : « أنتم تكذبون علينا ونحن نكذب على الناس » .

وكانت حركة الوهابيين قد اشتدت فى الحجاز حتى أقضت

مضاجع رجال الدولة فندبوا لقمعها محمد على فنهض لها وراح يجيش الجيوش ويبنى الأساطيل ولكن أنى له أن يخلى البلاد من الجيوش والمماليك حوله يحوكون الدسائس وقد اعتدى عليه فى الميدان فى وضح النهار ومع هذا بقى يكظم غيظه ويدارى ويصانع حتى ضاق ذرعاً وعيل صبره وتحين الفرصة فبطش بالمماليك يوم السبت ٦ صفر سنة ١٢٢٦ فى حادثة القلعة المشهورة .

وسافرت الحملة وأخفقت فأمدها محمد على بالمال والرجال وما هى إلا سنة حتى ضربت البشائر بالنصر فسافر محمد على إلى الحجاز ثم وقع الصلح وعاد محمد على إلى مصر وكان فى هذه المدة لا تغفل عينه عن تنفيذ منهاج الإصلاح الذى نهجه لنفسه . وهو بعد جلاء الانكليز أعاد عمارة سور الإسكندرية وأنفق مالا كثيراً على تحصينها ثم بنى ترسخانة عظيمة بساحل بولاق وأنشأ مراكب كباراً وصغاراً تسافر فى النيل وضبط المكوس على البضائع المجاوبة ولم يعف أحداً منها . ولا شك أن الغلاء الذى يشكو منه الجبرتى فى كل صفحة من تاريخه إنما معناه ارتفاع مستوى المعيشة الذى لم يفطن إليه الجبرتى ولارأى فيه إلا ظلماً مبيناً . ومما يقوم عذراً له أنه بلا شك كان يقيس محمد على بعثمان ذى الفقار أو على بك الكبير أو محمد

بك الألفى ولم يفهم الجبرتى أن هؤلاء كانوا نفعيين لا تهمهم مصر إلا بمقدار ما يفيدون منها . أما محمد على فله غرض أسمى لأنه أحب مصر واندمج بها وربط مصيره بمصيرها فعمل على إعادة مجدها الغابر والارتفاع بها إلى مستوى الأمم الحديثة . وقد كافأته مصر بما درت عليه من الخيرات وحققت أمله فيما هدف إليه . وكان لا بد من التنظيم وفيه بادئ ذى بدء عنف وقسوة لاستسلام النفوس إلى عادتها القديمة من الاستهتار والموادعة فلم ير الجبرتى إلا هذه القسوة وهذا العنف وغفل عن كل ما عداهما ، وقد راجع أحكامه مرتين فقط ولكن على مضض . أولاهما حين أعاد محمد على بناء السد الأعظم الموصل إلى الإسكندرية وكان قد تخرب وزحفت مياه البحر منه إلى الأرضين فأكبر الجبرتى هذه الهمة وقال : « فلو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرئاسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » . والمرة الثانية حين بنى حائطين فى رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تطغى الرمال وقت ضعف النيل وفى هذا يقول الجبرتى : « وهذه الفعلة من أعظم الهمم الملوكية التى لم يسبق لمثلها . . . »

أما أن محمد على كان يرسل مهندسيه للكشف على البيوت المتداعية وإنقاذ سكانها من الموت تحت الهدم أو أنه أنشأ فى

قصره بشبرا جناحاً ضم فيه النشء المصرى لتعليمهم أو أنه أرسل بعوثاً إلى الخارج لتلقى اللغات والعلوم فإن هذا وأمثاله لم يحرك حماس الجبرتى ولا أثار إعجابه وبقى على موقفه من التنديد بإدارة محمد على إلى آخر يوم من حياته .

وكان فى هذه الفترة كلها من سنة ١٢٢١ إلى ١٢٤٠ وهى سنة وفاته يدون الحوادث على الطريقة التى شرحناها ويسند الحوادث إلى مخبر ثقة أو شاهد رؤية أو شاهد سماع . أما إذا كانت الحادثة عامة ذهب بنفسه ليعاينها كما ذهب إلى جهة الحطابة تجاه باب الوزير ليشاهد النار التى كانت تنبعث من أحد التلول وكما ذهب إلى بيت قنصل الإنكليز بدرب البرابرة ليشاهد الآثار المجلوبة من مصر العليا . وكان أيضاً يحاول الاتصال بمن يأنس فيهم معرفة الحوادث ويستجوبهم ويتوسع فى سؤالهم فيما يوافق أغراضه وميوله . ولا بد أن الكثيرين منهم ممن يعرفونه وممن لا يعرفونه كانوا يزورونه للسلام عليه نظراً لاشتهار اسمه واسم أبيه بالعلم وبخاصة علم الفلك . وعلى هذا اتصل بأفراد أسرة آل حبيب وآل همام وبعض رجال الحملة الحجازية وبعض الوهابيين الذين حضروا إلى القاهرة بعد الصلح ولعل عطفه على الوهابيين لا باعث له إلا محاربة محمد على إياهم . وإذا صدقناه وجب أن نعتبر الجزء الرابع من تاريخه

مذكرات كان يمنى نفسه بتهذيبها وتنسيقها بدليل قوله فى آخر سنة ١٢٢٥ : « وانقضت السنة بحوادثها التى قصصنا بعضها إذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم فى الرواية فلا أكتب حادثة حتى أتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار . . . وربما أخرت قيد حادثة حتى أتثبتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتبها فى طيارة حتى أقيدها فى محلها إن شاء الله عند تهذيب هذه الكتابة وكل ذلك من تشويش البال ، وتكدر الحال ، وهم العيال ، وكثرة الاشتغال ، وضعف البدن وضيق العطن » . ومما لا شك فيه أن تاريخه نشر على الناس وتداولته الأيدى لأنه يقول فى ترجمة الشيخ الشرقاوى المتوفى سنة ١٢٢٧ ما نصه : « وللمترجم طبقات جمعها فى تراجم الشافعية المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن الثانى عشر نقل تراجم المتقدمين من طبقات السبكى والأسنوى وأما المتأخرون فنقلهم من تاريخنا هذا بالحرف الواحد» .

ومما تجب ملاحظته على الجزء الرابع أن فيه نظرات اجتماعية خلت منها الأجزاء السابقة وأن فصوله مسهبة وسياقه منتظم وإن بدت بعض الفصول قصيرة جداً مما يحمل على التظنن فى عبث بعض الأيدى فيها .

٨

لا شك أن الجبرتى عاش ممروراً طول المدة التى قضاها منذ تولى محمد على وكلما مرت سنة رأى دولة محمد على تزيد رسوخاً وقدمه تعلو درجة وكانت البلاد جمعاء ملتفة حواله فلا يفاد إلا منه ولا يبرم أمر أو ينقض إلا بأمره . والليالى مواتية ، والزمان رخاء . وكلما اجتمع الجبرتى بصديقيه العطار والخشاب لم يأل من الشكوى والتذمر . وكانا يقضيان فى منزله ببولاق الليالى الطويلة ويبيتان عنده لارتفاع الكلفة . والتحام الألفة . والخشاب يزيد هزالا . والعطار يزيد صحة وقوة . وقد جاب الأقطار الشرقية وعاد إلى مصر وفى عينيه آفاق جديدة . وفى فؤاده صور وعبر . فهو يحدث عن دمشق والقسطنطينية والجبال والصحراء والأودية والبحار ولكن نفسه لم تكن مستريحة إلى حال الخمول التى رأى عليها الشرق وأهله وخنوعهم إلى الحكام المستبدين وانصراف العلماء إلى المنفعة والمصلحة . وكان غير المسلمين وخاصة الأرمن فى مصر قد تنفسوا الصعداء من ظلم العصور السالفة وعاد محمد على يطبق عليهم الشريعة السمحاء تطبيقاً صحيحاً لا جور فيه ولا انحراف فلا يهانون

فى كرامتهم ولا تصادر أموالهم لأتفه الأسباب بل استخدمهم ولى الأمر فخدموه فى صدق وإخلاص ولذلك أثروا وارتفع شأنهم وصارت لهم مكانة ملحوظة فى البلاد إلا أن عقلية الجبرتى تأبى عليه التسليم بهذا كله لهم ولكن العطار كان أوسع أفقاً وأسلس قياداً فأفاد فيمن أفادوا . ولم يستنكف من التقرب من محمد على وتأليف الكتب وإهدائها إليه ولعله كان الوسيط فى توظيف الشيخ خليل الجبرتى بن عبد الرحمن فى بلاط محمد على لأنه أقنع عبد الرحمن بأنه لا تقبل الدنيا إلا على من اتصل بالوالى ولا يصبح « مرزوقاً إلا من كان فى خدمة الدولة » .

ولا شك فى أن خليلا أخذ عن والده علم الفلك كما أخذه والده عن جده لذلك كانت وظيفة التوقيت فى قصر شبرا على ساحل النيل أليق ما تكون له ولا نعلم على التحقيق سن خليل أيامئذ وإنما عرفنا أن والدته كانت ربيبة على درويش الرومى وأنه ولد قبل المائة الثالثة عشرة .

وكان التأليف والتصنيف والإملاء والتدريس شغلا شاغلا لعبد الرحمن الجبرتى ولا نظنه لبى دعوة صديقه الخشاب إلى حفلة سمر حين وجه إليه هذه الأبيات :

يا سيدى وسندى ويا عريق المحتد
ويا أخا منظره جلاء عين الأرمد
ويا ضيائى اللّذْ به فى ليل خطبى اهتدى(١)
يا راحتى وراحتى وساعدى وعضدى
أدعوك تأتى مسرعا ويا لذاك من يد
نؤم قصراً جامعاً كل المعانى الشرد
نصغى إلى مزهر من أضحى فريد البلد

بل كيف يلبى الدعوة وهو الذى أحفظه وأوغر صدره على أشياخ ذلك العهد حضورهم مثل هذه الحفلات فغمزهم غمزاً موجعاً . ولذعهم لذعاً أليماً . ولنا أن نذكر هنا أن انتشار أجزاء تاريخه فى حياته وما فى هذا التاريخ من نقد مرير تناول به بعض الناس لا بد أن يكون قد جعل منهم أعداء له . وإذا كان أقرانه من الأشياخ يتسع صدرهم لمثل هذا النقد فإن سليمان أغا السلحدار مثلاً وهو يقول عنه إنه « الداهية العظمى والمصيبة الكبرى » لا يسيغ هذا الوصف ولا بد أن يكون له أصبع فى المأساة التى ختمت بها حياة الجبرتى .

(١) بتسكين الذال أى الذى كما قال المتنبى :
وإذا الفتى طرح الكلام معرضا فى مجلس أخذ الكلام اللذ عنى
أى الذى عناه . وأبيات الخشاب واردة فى ديوانه فقط .

وكانت السنون تمر وصحة الجبرتى تضعف وإخوانه القدماء يموتون فالصاوى والفيومى والسادات والمهدى ورفيقه الصعيدى الذى دفنه بالقرافة التى كان ناظراً عليها، كل أولئك أصبحوا خبراً بل مادة لهذا التاريخ الذى ينفث فيه نقمته على الحكم ويطيل ويقصر فى سرد كلياته وجزئياته . ولكن موت الخشاب سنة ١٢٣٠ خضد عزيمته، وفت فى عضده ، وبخاصة أن العطار كان قد هجر الأدب وانصرف إلى العلوم الشرعية واختص بالشيخ حسن القويسنى الذى أصبح بعده شيخاً للأزهر وواظب على التدريس والتحصيل فلم يعد وقته يتسع لمثل مجالسهم الأولى وأسمارهم العهيدة .

* * *

فى صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٣٧ (١٩ يونيو سنة ١٨٢٢) ريع عبد الرحمن الجبرتى وأهل بيته بدخول لمة من الناس عليهم يحملون ابنه خليلا بين الموت والحياة . وقد علم أبوه أن بعض الأشقياء هاجموه ايلا فى طريق شبرا بينما كان قافلا من قصر محمد على إلى منزله وأثخنوه جراحاً ثم ارتبطوه برجل حماره ولما أصبح الصباح رآه الناس وعلموا من اصطرلابه ومن الكراريس التى يحملها أنه خليل الجبرتى .

وما عتم الجريح أن قضى نحبه بين العويل والزفرات، وكثرت

الإشاعات والأقاويل إلا أن واحدة منها فقط رسخت فى الأذهان فحواها أن محمد بك الدفتردار صهر محمد على أغرى به الأشقياء تشفياً من والده لأنه اطلع على أجزاء من تاريخه وأنكر نقده الجارح للحكم القائم ، فاستأذن محمد على فى الفتك به ولما لم يظفر بالوالد فتك بالولد .

ولكن هذه الإشاعة لا تقوم على ثبت لأن أمثال محمد بك الدفتردار لا يعوزهم الإذن للانتقام من أعدائهم ولا هذه هى الطريقة التى يسلكونها لتنفيذ أغراضهم وليس محمد على ممن يرضى عن مثل هذا التشفى من شيخ عالم فلكى ومصر إذ ذاك فى قبضته وفى غير هذا الأساوب مندوحة عنه .

وإذا اتهمنا سليمان أغا السلحدار فقط للسبب الذى قدمناه فتكون المسألة شخصية لا دخل لأحد من رجال الدولة فيها .

ومهما يكن من الأمر فقد بُلى عبد الرحمن الجبرتي بقاصمة الظهر وكان منشغلا بتاريخ الثورة اليونانية فكسر أقلامه وضرب بكراريسه عرض الحائط ولا بد أن يكون الإغراق فى القراءة والكتابة قد أضعف بصره حتى إنه لما فاض دمعه على ابنه وتمادى به الحزن ذهب بصره وقبع فى داره أعمى لا يقرأ ولا يكتب وأصبحت حياته نكرة حتى مات على فراشه سنة ١٢٤١ (١٨٢٥) رحمه الله تعالى .

هذه خاتمة حياة عبد الرحمن الجبرتى نعتقد صحتها اعتماداً على النصوص التى بين أيدينا والتى نود أن نستعرضها .

لقد بقى تاريخ الجبرتى محظوراً طبعه وتداوله إلى أن رفع هذا الحظر المغفور له الخديوى توفيق باشا فطبع الجزءان الثالث والرابع فى أيامه ثم طبع الأول والثانى أيام المغفور له عباس الثانى فى أواخر المائة الثالثة عشرة الهجرية وظهرت ترجمة فرنسية كاملة منه بين ١٨٨٨ و ١٨٩٦ فى تسعة أجزاء قام بها شفيق منصور بك (يكن) وعبد العزيز كحيل بك وجبرائيل نقولا كحيل بك وإسكندر عمون أفندى وجاء فى ترجمة الجبرتى عن وفاته فى المقدمة الفرنسية ما ترجمته « فى ليلة ٢٧ رمضان ١٢٣٧ (١٨ يونيو سنة ١٨٢٢) إذ كان الجبرتى عائداً من قصر محمد على بشبرا إلى القاهره خنق بطريق شبرا وربط بحبل إلى رجل حمارة » .

ونحن لا نحفظ من هذه الرواية إلا تاريخ الواقعة فقط . ونعرف من جهة أخرى أن المسيو ألكسندر كردان ترجمان القنصلية الفرنسـية بالاسكندرية ترجم إلى لغته كتاب مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ونشره فصولا فى الجريدة الأسيوية فى مارس سنة ١٨٣٤ ويوليو وديسمبر سنة ١٨٣٧ ثم جمعت هذه الفصول فى كتاب مستقل نشر سنة ١٨٣٨

أى بعد موت الجبرتى بثلاث عشرة سنة وترجم للجبرتى فى مقدمة كتابه معتمداً على المعلومات التى استقاها من أسرته والعهد به قريب بعد فذكر عن موته ما ترجمته : « إن أحد أولاد عبد الرحمن الذى يعمل لدى محمد على باشا هاجمه بعض القتلة فى طريقه من شبرا إلى القاهرة فى ليلة من ليالى رمضان سنة ١٨٢٣ (١٢٣٨) ومات متأثراً بجراحه فبكاه عبد الرحمن إلى أن ذهب بصره ولم يعش بعده طويلا » .

ونحن من هذه الرواية نحفظ الواقعة وذهاب بصر الجبرتى ولا نأخذ بالتاريخ لأن أحد الرحالة الإيطاليين واسمه ج . ب . بروكى زار الجبرتى يوم أول ديسمبر سنة ١٨٢٢ فى منزله ببولاق فوجده أعمى قابعاً فى بيته . فتكون هذه الزيارة سابقة للتاريخ الذى ذكره المسيو كردان ومتأخرة عن التاريخ الذى زعم فيه المترجمون الأربعة أنه مات فيه وهذا ما ذكره الرحالة الايطالى بروكى فى يومياته[1] بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٨٢٢ أى يوم الزيارة (جزء ١ صفحة ١٥١) :

« زودنى المسيو دروفتى فى الإسكندرية برسالة إلى عالم عربى يدعى عبد الرحمن الجبرتى وقال لى إنه ضليع فى علم الهيئة ، فما

(١) يوميات عن مصر وسورية والنوبة تأليف ج . ب . بروكى طبعت بعد وفاة المؤلف فى خمسة أجزاء بمدينة باسانوبى سنة ١٨٤١ و ١٨٤٣

عتمت أن زرته بصحبة الخواجة مسرة ترجمان القنصلية الفرنسية وكم كان دهشي عظيماً حين وجدت هذا الفلكي أعمى . فسألته إذا كان لدى الفلكيين في مصر آلات يرصدون بها حركات الكواكب؟ فقال إنه ليس لديهم شيء منها وإن الذين ينصرفون إلى هذا العلم قليلون وقد يكون لدى بعضهم بعض آلات مجلوبة من أوروبا. فسألته إذا كان في إمكانهم أن يعرفوا مواعيد الكسوف والخسوف؟ فأجاب نفياً فسألته أيضاً إذا كانوا يضعون التقاويم للجماهير؟ فقال إن لديه بعضاً منها ولكن ليس فيها تقويم خاص» . إلى أن قال : «على أني لم أرد اطالة الحديث مع هذا الشيخ الطيب الذي قيل لي عنه فيما بعد إنه أعلم بالتاريخ العربي المصري منه بعلم الفلك وإن له فيه كتاباً موثوقاً به . وهو سبق له التعرف بالفلكي الفرنسي نويه[1] وقد سألني عنه وقال إن هذا العالم يمكنه التبحر في علم الفلك لأنه عدا الآلات التي لديه يتقاضى من الحكومة ريالين يومياً وأما هو (أي عبد الرحمن) فكان يتقاضى بعض الأجر في وقت مضى أيام طلبوا منه عمل التقاويم ولكن الباشا الحالي لا يكافئ الذين يقبلون على مثل هذا العلم والاجتهاد ولا يدفع شيئاً إلى أحد، لذلك لن

(١) كان الفلكي الفرنسي نوى (١٧٤٠ — ١٨١١) قد توفى منذ إحدى عشرة سنة ولا يعرف ذلك لا بروكي ولا الجبرتي .

نرى اليوم فى القاهرة كلها عالماً فلكياً واحداً » .

وهذه الصفحة من يوميات الرحالة الإيطالى بروكى تلقى ضوءاً باهتاً على أواخر أيام الجبرتى .

أما أن الجبرتى مات سنة ١٨٢٥ فقد أخذنا برواية المستر لين فى كتابه : « المصريون المعاصرون » إذ ذكر فيه أن عبد الرحمن الجبرتى : « مات فى سنة ١٨٢٥ أو سنة ١٨٢٦ بعد وصولى إلى القاهرة بفترة وجيزة » .

وأما أن قتيل شبرا هو خليل الجبرتى فقد توفرت لدينا معلومات خاصة تدل على أن عبد الرحمن توفى عن ابنيه حسن ومحفوظ فلا بد أن يكون القتيل خليلا الذى ذكرناه فيما تقدم . ودلتنا هذه المعلومات على أن الشيخ حسن لم يعقب بل أعقب المرحوم الشيخ محفوظ ابنة هى المرحومة توحيدة محفوظ الجبرتى التى أعقبت محمد يوسف وزينب وكلاهما أعقبا وقد تكنى أولاد محمد يوسف بكنية الجبرتى وإن كانوا أحفاد حفيدته وأسرتا محمد يوسف وزينب (عبد العزيز) والأسرتان معروفتان اليوم فى القاهرة . وبعد موت الجبرتى احترق منزل الصنادقية وأكلت النار مكتبة الجبرتى فلم يبق لها من أثر وضاعت كراريس تاريخه بعد سنة ١٢٣٦ وهذا المنزل اليوم متهدم بال ينكره زائره ويقف فيه ضيق الصدر تحز فى قلبه شجون وذكريات .

وكانت وكالة الابزارية ببولاق على النيل فبعدت اليوم عن ساحله لتغير مجراه وقد أصبحت طللا خراباً تقوم فيها، سوق دورية للفلاحين بعد أن كانت مراحاً للعلم والعلماء ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

أجل لقد انتقل عبد الرحمن الجبرتى إلى الرفيق الأعلى سنة ١٢٤١ (١٨٢٥ م) ودفن بتربة الصحراء إلى جانب أسلافه رحمهم الله جميعاً وقبره معروف اليوم. وقد جزع عليه صديقه الشيخ حسن العطار جزعاً شديداً فكفل ولديه وتعهد أسرته وحفظ له سالف صحبته وأخلص له حياً وميتاً .

وهكذا أطفأ الموت كوكباً كشف ضياؤه الإبهام عن عهود ثلاثة هى أواخر حكم المماليك والحملة الفرنسية وأوائل حكم محمد على . وقد بذل فى وضع تاريخه حياة أنضجها العلم ووسعتها استقامة السليقة ورجاحة العقل ولولاه لضاع من تاريخنا جزء كبير وكفاه فخراً أنه اليوم مرجع يعتمده الغربيون بله الشرقيين .

ولم يكن الجبرتى راضياً عن العهود الثلاثة التى أرخها لأن عهد المماليك كان حافلا بالدسائس والدماء ولا سبيل إلى الحكم والاستمساك فيه إلا بها . فالذمم مخفورة ، والضمائر فاسدة، وغرائز الشر لا كابح لها ولا وازع .

أما عن الحملة الفرنسية فلم ينصف الجبرتى أحد لأن الافرنج قالوا إنه شيخ متعصب والشرقيون قالوا إنه ناصر الفرنسيين .

على أن تعصبه كان طبيعياً بل ضرورياً لأنه صدى شعور عصره الذى يعد الخطوة الناقلة من القرون الوسطى إلى العصر الحديث . والجبرتى عالم من جلة علماء المسلمين يريد لدينه العزة والتمكين فكيف يرتاح إلى أجانب هبطوا البلاد ودخلوها بالسيف والمدفع وهم نصارى مهما تقولوا وتخرصوا وأنكروا دينهم وتحببوا إلى المسلمين وأى لوم عليه إذا وقف منهم موقف الريبة ، ونظر إليهم بعين المقت والضغينة . وكيف لا يكبر عليه أن يصطنعوا أسافل الأقليات ويجعلوا منهم سادة بعد أن كانوا من حشو العامة . ومع هذا فالجبرتى قد اعترف للفرنسيين بفضلهم وأشاد بعدلهم وأعجب بعلمهم ونظامهم ، فأنصفهم حيث وجب إنصافهم . ونذد بمناقصهم ومفاحشهم حيث وجب التنديد . فلم يكن تقريعه لهم تعصباً عليهم ولا إنصافهم نصرة لهم بل ظل عادلا حكمه ، سليما ضميره ، خالصاً دينه . راسخاً يقينه .

وأما وقوفه موقف المعارضة من محمد على فهو لم يشهد إلا طور التحضير وفيه ما فيه من انقلاب عنيف . ولا شك فى أنه لو مد الله فى أجله لغير رأيه وهلل لمحمد على إعجاباً وإكباراً . على

أن فى طغيان عصره عليه عذراً له ولا يخرج المرء من دنيا إلى دنيا بمثل السهولة التى يخرج بها من بلد إلى بلد .

وبعد . فالجبرتى مسلم منصف لم يكن تعصبه ذميماً أعمى بل معقولا نيراً . ثم هو رقيق حواشى النفس، مستقيم العاطفة موفور الإنسانية يستشعر الرحمة للضعفاء ويشدو النصفة للناس أجمعين . وهو أيضاً أبى النفس يمقت الظلم أيّاً كان مصدره؛ لذلك شنع على الحكام عسفهم واستبدادهم، وسوأ على الرؤساء إثراءهم من العباد، وأنكر الفوضى، وحمل على الظلم لأن العدل رائده ، والإقساط غايته. فهو بهذه الخلال وبما كتب وأفاد يعد علماً من أعلام الإسلام .

سبدى بشر صيف سنة ١٩٤٥

		ص
صوت العالم	للأستاذ ميخائيل نعيمه	٢٥
مشاهد القيامة فى القرآن	للأستاذ سيد قطب	٢٥
الجاحظ	للأستاذ شفيق جبرى	٢٥
رجعة فرعون	للسيدة بنت الشاطئ	١٥
من الأدب المقارن	للأستاذ نجيب العقيقى	٢٥
ديودور الصقلى فى مصر	للأستاذ وهيب كامل	٢٥
شاعر الطيارة	للبدوى الملثم	٢٥
الشروق (ديوان شعر)	للأستاذ محمد كامل الصيرفى	٢٠
الإدراك الحسى عند ابن سينا	للأستاذ محمد عثمان نجاتى	٣٠
رتشارد الثانى	للأستاذ محمد عوض إبرهيم بك	١٥
البندقية	للدكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق إسكندر	٦٠
فوشيه	للأستاذ أحمد الصاوى محمد	٣٠
رباعيات عمر الخيام	للأستاذ وديع البستانى	٢٠

		ص
طيف الوليد	للأستاذ عبد السلام رستم	٢٠
الدفاع عن الوطن	لليوزباشى السيد فرج	٢٠
العلم فى فنجان ــ جزءان	للأستاذ حسن عبد السلام	٤٥
المسند ــ رابع	للشيخ أحمد محمد شاكر	٨٠
التربية وطرق التدريس	للدكتور عبدالعزيز عبدالمجيد والأستاذ صالح عبدالعزيز شحاتة	٤٠
الحيوان فى خدمة الطب	للدكتور عزمى توفيق	٣٠
يوليوس قيصر	للأستاذ محمد حمدى بك	١٥

قصص مدرسية

الصديقتان	للأستاذ كامل كيلانى	٥
ابن جبير	» » »	٢٠
العنكب الحزين	» » »	٥
مخاطرات أم مازن	» » »	٧

		ص
النحلة العاملة	للأستاذ كامل كيلانى	٥
جواهر الأم	للأستاذ محمد عطية الإبراشى	٥
الأميرة المدبرة	» » » »	٥
الأميرة الصامتة	» » » »	٥
سيف العدالة	» » » »	٥
الطيور البيضاء	» » » »	٥
السمكة الذهبية	» » » »	٥
بنت قاطع الخشب	» » » »	٥
يوم سعيد	» » » »	٥
الطفلان اليتيمان	» » » »	٥
جميلة والوحش	» » » »	٥
النمر الأسود	» » » »	٥
الراعى الأمين	» » » »	٥

سلسلة اقرأ

مرح الوليد	(رقم	٦٢)	للأستاذ على الجارم بك	٥
رفيق الأرض	(رقم	٦٣)	للأستاذ نظمى لوقا	٥
الأغذية الشعبية	(رقم	٦٤)	للأستاذ حسن عبد السلام	٥
عمر بن عبد العزيز	(رقم	٦٥)	للأستاذ أحمد زكى صفوت	٥
مملكة العذارى	(رقم	٦٦)	للدكتور أحمد زكى أبو شادى	٥
أمير قصر الذهب	(رقم	٦٧)	للأستاذ طاهر الطناحى	٥
جمال الدين الأفغانى	(رقم	٦٨)	للأستاذ عبد القادر المغربى	٥
رحلة الربيع	(رقم	٦٩)	للدكتور طه حسين بك	٥
الجبرتى	(رقم	٧٠)	للأستاذ خليل شيبوب	٥

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

واجبنا نحو أطفالنا وشبابنا

إن واجبنا نحو أطفالنا وشبابنا يقضى علينا أن نضع بين أيديهم القصص المفيدة الممتعة يطالعونها فى بعض أوقات العطلة لتنعقد بينهم وبين الكتاب الصالح أواصر صداقة متينة تمهد لهم طريق السعادة العقلية . . .

ودار المعارف للطباعة والنشر بمصر يسرّها أن تعلن لجميع حضرات الأساتذة المربين وأولياء أمور الطلبة أنها خصصت بهذا الميدان الحيوى جزءاً كبيراً من نشاطها فأصدرت مجموعات أنيقة مختلفة لمطالعات الأطفال والشباب توافر فيها حسن الاختيار وجمال الإخراج واعتدال الثمن . . .

دار المعارف بمصر